


3.6.2016

وَاسِيني الأعرَج

# رَمْلُ المَايَة

## فاجعة الليلة السابعة بعد الألف

رواية





## واسيني الأعرج

# رَمْل المايَة

«فاجعة الليلة السابعة بعد الألف»

رواية

Twitter: @ketab_n

رَمْل المايَة

Twitter: @ketab_n

• واسيني الأعرج
• رَمْل المايَة
• جميع الحقوق محفوظة ©Copyright
• الطبعة الأولى 2015
• الناشـــــــــر: ورد للطباعة والنشر والتوزيع
سورية ـ دمشق ☎ 5141441
• الإشـــراف الفنـي: د. مجد حيدر
• التـــــــــوزيع : دار ورد ☎ 5141441 ص. ب 30249

جميع الحقوق محفوظة، ولا يسمح بطباعة أو ترجمة هذا الكتاب كلياً أو جزئياً، بأية وسيلة من الوسائل، دون إذن خطي مسبق من دار ورد.

Copyright © 2015 by Waciny Laredj
© Ward for publishing and distribution

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or transmitted in any form or by any means, electronic or mechanical, including photocopying, recording, or any information storage and retrieval system, without permission in writing from the publisher.

Twitter: @ketab_n

ضيقة هي المراكب..
ضيق سريرنا.
ليدخل البحر من النوافذ.
للبحر وحده سنقول،
كم كنا غرباء في أعياد المدينة.

سان جون بيرس / منارات

Twitter: @ketab_n

*Twitter: @ketab_n*

# 1

دفنت دنيازاد آخر الابتسامات في قلبها ثم انسحبت باتجاه الفراغ الذي كان يملأ القلب والذاكرة. كانت تعرف أكثر من غيرها أن العد الزمني توقف عند هذه اللحظة بالذات. فالليلة السابعة استمرت زمناً لم يستطع تحديده حتى علماء الخط والرمل ولا حتى الذين عرفوا أسرار النجوم والبحار حين تفيض وتملأ الشواطئ المهجورة والأصداف. كانت دنيازاد تعرف الكثير مما خبأته شهرزاد عن الملك شهريار. فالأسرار والأخبار المنسية كانت تأتيها من القلعة والحقول المسيَّجة والبراري وأسوار المدينة والحيطان الهرمة التي كانت تدفع أمواج السواحل الرومانية.

دنيازاد، تفاحة الكتب الممنوعة ولبؤة المدن الشرسة، كانت تعرف السر الوهاج الذي يورث لذة الابتهاج وتعرف أن البشير آخر السلالات القادم من أدخنة وهزائم غرناطة، لا ينطق عن الهوى. روت حكايته لشهريار ابن المقتدر الذي أتهمها بالدروشة والتبوهليل. قالت: من أين أبدأ هذا الخوف، فالسواد يملأ القلب والمدينة ورؤوس العباد والنسيان يزحف باتجاه القصر والوجوه الحاكمة. يجب أن تسمع ما لم تسمعه قبل هذا الزمن لكنه كان ما يزال مشدوهاً في سحرها ولحم جسدها الغض ويلعن في أعماقه اليد التي عجنتها في لحظات الشبق الجارف لأنه كان على يقين مطلق أن عيون ابنه الوحيد قمر الزمان، وبشرته ليست له أبداً. اللغز الذي عذبه زمناً طويلاً ثم جاء الموريسكي ليدخله في تفاصيل حكاية لم



Twitter: @ketab_n

يكن مهيئاً لسماعها لكنه مجبر على فك اللغز المسحور الذي بدأ يتحول إلى يقين.

أشياء كثيرة حدثت قبل وبعد وفي اللحظة ذاتها التي بحث فيها شهريار عن السكين ليحز رأسها ولم يجد إلا الفراغ الذي ملأ ذاكرته وقلبه والقصر الذي امتلأت ابهيته بالأدخنة ورائحة البارود والأجساد المحروقة والحيض والولادات المتفسخة.

حكاية الموريسكي روتها دنيازاد ورواها قبلها أناس كثيرون. رسمها القوالون في الأسواق على شاكلة أيام القيامة. عشقها الرعاة ورووها بمسحة حزن وحنين. ابتهجت لسماعها النساء داخل القصر وخارجة. الزمن توقف مع نهاية الحكاية ليبدأ زمن آخر كان من الصعب تتبع ملامحه ومعرفتها، لكن الأمر الذي لم تختلف عليه الرعية في الجملكية هو أن شيئاً جديداً مثل خيط النار في الرفاعة والنقاء كان يصاعد من الموجات التي كانت تتكسر بالتتابع على الحائط الهرم.

يقول الرواة والقوالون وناس الأسواق الشعبية، إن ما حدث في الليلة السابعة لا يُروى، وما يُروى لا يشفي الغليل. فدنيازاد (أو قطر الندى في رواية أخرى) قبل أن تلبس غلالتها الشفافة، الميالة في لونها باتجاه زرقة هاربة فقدت بحرها، تبحث عن أفق ضيع ألوانه المعتادة استعداداً لشبق وهمي، وتظهر تفاصيل جسدها المدهشة التي أختبأ فيها شيطان أحمر لم يفقد لذة النوم بين نهديها. وقبل أن تشرب الكأس الثامنة متجاوزة بذلك كل الطقوس التي اعتادتها مع زوجها الحاكم بأمره، الحكيم شهريار بن المقتدر بالله، وتبدأ في سرد الحكاية المعهودة عن فاطمة العرة حيث سكتت أختها شهرزاد للمرة الأخيرة عن الكلام المباح لتنسحب بعدها باتجاه بيت الحريم وتبدأ في تلقين ذكورها الثلاثة أسرار الليالي، مضت مثقلة بالخوف والرعب، قبل هذا الزمن وبعده بكثير حدثت أشياء كثيرة ملأت الليلة السابعة بعد الألف ضجيجاً وجروحاً ولم يتوقف النزيف إلا بانتهاء الليلة التي دامت طويلاً طويلاً. وحين اختلطت الأشواق والألوان على



Twitter: @ketab_n

الحكيم شهريار سالها عن سر الحرف الوهاج الذي نطق به الموريسكي الأخير مقدساً معتقاً مثل خمرة أندلسية مهربة في سفن القرصان الإيطالي. قال لها: فسِّري يا ابنة الناس وإلا سحبت رأسك بيدي: حاء ميم. لام ألف ياء. ألف عين. حروف قيل يملكها الغير ولا يملكها الملوك والسلاطين وذوو الشأن الكبير. احكِ ولا تكرري ما قالته الدابة وهي تحاول أن تنقذ رأسها من السيف الذي أدمته أعناق بيت الحريم ونساء الحرملك. شهرزاد كانت دابة الغواية وسالفي كان الأحجية السخيفة. احكِ.

كانت دنيازاد تعرف الإجابة، لكنها صمتت طويلاً قبل أن تعض على شفتها السفلى وتقول: تلك سيدي حروف الابتهاج. نحسها ولا نلمسها. مثل النور تأتي وكالنار تأكل الأخضر واليابس. حاء ميم = حب مكين. لام ألف ياء = لا يعلمه. ألف عين = إلا العشاق. وأقسمت في تلك الليلة برأسه الذي لا تلمسه نار جهنم أنها عرفت السر الذي كان يحمله الموريسكي في قلبه المتعب منذ أن رأته في المواجهة التلفزيونية الأولى والأخيرة التي جمعته بالحكيم شهريار بن المقتدر قبل أن يرمي هذا الأخير سجينه تحت الأنفاق المليئة بالمياه النتنة وينزل على رأسه بالضرب على السطل الألماني.

قيل الكثير عن البشير الموريسكي الأخير، حتى هو عندما عاد من الكهف اندهش في الكثير مما سمعه من أفواه القوالين الذين لا يعرفون إلا رواية الحقيقة كما يحسونها.

آه يا البشير يا ابن أمي، هل ما حدث لك حقيقة أم مجرد حكاية من جنونك الأبدي؟ تحدث وأملأ صدرك بالحنين قبل فوات الأوان. احكِ أنت بدورك قبل أن يتولى غيرك رواية أحلامك. فالوراقون التهموا بياض الأوراق الناصعة. تكاثروا مثل القوارض. الذي تعرفه جيداً، رغم التأويلات، هو أنك حين استيقظت وجدت نفسك للمرة الأولى تواجه خوفاً من نوع جديد. مسجوناً كنت داخل كهف مغلق مثل أيام القيامة. تساءلت بدهشة الخائفين، هل هي الشمس



Twitter: @ketab_n

الحارقة التي قادتك إلى هذا المكان أم الموجة الهاربة التي تآكلت على رمال الشط بهدوء. أم هي الأنواء الغرناطية؟ آخ يا ابن أمي لو تعلم، لكن الدنيا قاسية والله بدأ يتخلى عنا جميعاً وعن الحنين الطيب الذي أنطفأ.

في الحقيقة صار الجميع يعرف أن زمن الموت لم ينته ولم يتوقف مطلقاً عند حدود الليلة الواحدة بعد الألف لأن ما كان يجب أن تقوله شهرزاد في الليلة الثانية بعد الألف أجلته لزمن غير معلوم. كانت تعرف مسبقاً أن في القلب سرّاً من الصعب الإدلاء به لأن رأسها سيعلق على بوابات المدينة المحاذية للبحر المنسي داخل أدغال المملكة الميتة. فقد مددت الليالي أسبوعاً آخر.

في آخر مرة وقبل أن يصل العد إلى نهاياته، كان كل الناس يتوقعون أن رحلة الثلاثمائة سنة (وفي رواية أخرى أربعة عشر قرناً) يجب أن تتوقف عند هذا الحد. لم يصدقوا حين قيل لهم إن الليلة السابعة بعد الألف استمرت أكثر من الزمن الأرضي، حتى الكتب التي تحدثت عن الأرصاد والأنجم والأنواء توقفت عند حدود هذه الليلة لأنها رأت دخاناً كثيفاً يتصاعد على أطراف البحر وعلى شاطئ المدينة الروماني كانت الأمواج تتراجع بتثاقل، وعلى الشاطئ نفسه كانت المدينة تستيقظ بوجل كبير، تضم إلى صدرها شؤونها الصغيرة وتدخل إلى البحر مفتوحة العيون على آخر مشاهد النور والفرح، وعلى العقبان التي تملأ ساحة القصر وعلى البنايات التي كانت تتزاحم زمراً زمراً راكضة باتجاه الأمواج الهاربة، ملفوفة في غلالة بيضاء من الضباب الذي تعود أن يلف المدينة في كل فجر من هذا الفصل الشتوي.

وأنت يا البشير تريد أن تسترجع ما تبقى من خوفك الماضي لكن الذاكرة لا تسعفك يا ابن أمي.

يقولون والعهدة على من يروي الأخبار والحكايات ويملأ الأسواق بالأناشيد الصادقة إنه (البشير الموريسكي) نفي من الجنة



Twitter: @ketab_n

لأن إثمه كان أثقل من أيام الحشر نفسها، ولأن الجنة كانت قد أوصدت أبوابها منذ دخول الصحابي الجليل: أبو ذر الغفاري مجللاً بالعطش والكبرياء، ومنذ أن وقف الحلاج أمام الله مطالباً بيديه ورجليه ورأسه الذي قطع ظلماً في الأسواق البغدادية ويلومه لأنه نسيه وحيداً يواجه فراغات الموت والخوف والدم الذي لم يتوقف عن السيلان بالرغم من الصراخات التي وصلت إلى السماء. لحظة الغفوة، تأمل الله الجرح الذي كان يشق صدر بغداد طولاً وعرضاً، والدم الذي جف على أطراف شفتي الحلاج، لم يبق أمامه إلا أن وقف بجانب الشهيد ثم انحنى لحزنه بعد أن سبقته دمعة حارة أشعلت بركاناً في قلوب الخليقة.

الكثير من الآتين بعده دقوا الأبواب بعنف شديد لكنها ظلت موصدة بسبعة أبواب وفي كل باب سبعة مفاتيح وفي كل مفتاح سبعة أقفال وعلى رأس كل قفل سبعة عبيد، وفي يد كل عبد سبعة سيوف، وفي كل سيف سبعة شقوق وكل شق يزن سبعة أرطال.

منذ ذلك اليوم البعيد، البعيد جداً، أشياء كثيرة تغيرت، أطفئت أنوار الجنة وجللت الأبواب بالستائر السوداء وأغلقت النوافذ المطلة على الأنهار والوديان ونبت الزقوم على أشجار الجنة ومسخت الكثير من الأوجه المبشرة التي سرقت الفردوس من عيون الأطفال. يقولون أكثر من ذلك كله، أن البشير الموريسكي طرد من الجنة، بل من النَّار (لأنهم لا يعرفون بالضبط هل استقبلته الملائكة أم شقت صدره جموع الزبانية) لأن ألسنة جهنم أنطفات عند ذنوبه الكثيرة، فقد كانت أعجز من أن تحرقها. ويقولون أكثر من هذا كله، إنه عاد وبعث من القبر ليعيد الرواية إلى مسارها الحقيقي. فالوراقون ابتذلوا أشواقه وحنينه إلى البلاد البعيدة، وبيضوا بنصاعة القلم، الكثير من الوجوه المريضة ودفنوا أنوار الذاكرة تحت الأتربة السوداء وبنوا للسراق قصوراً من العاج الغالي والألفاظ الكاذبة. تعوّد الوراقون أسوأ العادات في المدينة، كلما هبت عليهم رياح الخوف، ينزلون إلى وديان القصب الجافة ثم يبدؤون في نشر أقلام



Twitter: @ketab_n

جديدة من القصب ويتنافسون، من الأشطر في الكذب وتحويل الهزائم إلى انتصارات. هم يقولون إن قصته كذبة كبيرة بناها حكماء المدينة السبعة وصدّقها الموريسكي لأنه كان في حاجة ماسة إلى وهم ينقذه من خوف المدينة الذي استفحل في ذاكرته. وفي الليلة التي سبقت الأيام الأخيرة من حياة الحكيم شهريار بن المقتدر ضحك منه أصدقاء الحاكم كثيراً حتى انكفؤوا على ظهورهم. قهقه الأمريكي، فتبعه الإنجليزي، الفرنسي فالألماني الذي كان يدفع صدره إلى الأمام بشكل يظهر معه، بشكل واضح الصليب المعقوف الذي يزين به صدره كلما كلف بمهمة رسمية من الخارج أو من طرف القصر. حاولوا وهم يستجوبونه تحت أنفاق المدينة النتنة. وأكدوا له بأنه لم يعد من أي تاريخ أندلسي، مجرد رجل كآلاف الرجال. مدمن كآلاف الخلق على قراءة التاريخ الغرناطي لأن أحد أجداده كان موريسكياً يقال: إنه سقط في جبال البشرات بعد أن هدَّ الجبال وأرعب جيوش فرديناند الأراغوني وإيزابيلا القشتالية قيل إنه قرأ حتى سالت ضبابة على عينيه فوجد نفسه فجأة داخل الأحياء الأندلسية الفقيرة. أكدوا على أكثر من ذلك، أنه كان بجانب المتوسط يتأمل السفن التي تذهب وتجيء، ففاجأته عاصفة شتوية أو ضربة شمس. غير متأكدين، انسحب بعدها باتجاه أقرب مغارة، فولدت معه قصة الكهف الذي توهم فيه أنه قطع الخلاء والقفار وركب السفن العائدة، محملة بالذعر والخوف وطمع القرصان الإيطالي. في الإغفاءة التي لم تدم طويلاً، رأى أحلاماً وكوابيس أدخلته في أعماق الغيمة الأندلسية، وحين استيقظ، هو يعرف البقية جيداً، فقد وجد راعياً عند بوابة الكهف، فأوهمه أنه نام أكثر من ثلاثمائة سنة بالتمام والكمال، والقصة وما فيها، كما رواها له أصدقاء الحاكم شهريار بن المقتدر، أن علماء المدينة السبعة كانوا في حاجة ماسة إلى وهمه لإخراج الرعية من صمتها. لم يتساءل الموريسكي كثيراً عن السر ولا عن اللغز المحير، فقلبه كان مملوءاً بالزغاريد وبملامس حكماء (علماء) المدينة وأصداء



Twitter: @ketab_n

محاكم التفتيش وصراخات أهل غرناطة وهم يسقطون الواحد تلو الآخر من جراء حصار القشتاليين والأراغونيين ومن شظايا المدافع الإيطالية. لا ليس وهماً أبداً، فهو يعرف الراعي الذي فتح له عينيه عند مدخل الكهف. ثم قدمه إلى الحكماء الذين أكدوا له أن ما عاشه في الكهف يتجاوز المنطق البشري. وأنه عاد ليروي أيام القيامة، أو هكذا قيل له فأجاب مؤكداً أنه لم ير إلا الدنيا في حلمه (الإغفاءة)، سوى الدنيا وجحيم اللون الأسود الذي كاد أن يمحو ملامح الذاكرة.

مر على هذا الحادث زمن بعيد.

حقيقة البشير الموريسكي، قوال غرناطة وهي ترمي سلاحها عند أقدام القشتاليات، أكثر تعقيداً مما يتصور الجميع. كل شيء بدأ من تلك اللحظة التي لم يستطع حصرها. كانت ذكراته تهرب منه مثل حبات الرمل الجافة، عندما فتح عينيه لأول مرة في الكهف الذي نام فيه طويلاً (بحسب رواية الراعي) ولم يصدق أبداً أن الجنون يمكن أن يصل إلى هذا الحد المخيف. فكر في البداية في تحديد وضعه لكن الظلمة كانت أكبر من حلمه ومن ذاكرته المتعبة. بحث عن أي شيء يمكن أن يربطه بالدنيا. تناهى إلى مسمعه الآذان مصحوباً بأصداء البحر البعيدة. تذكر في خلوته مآذن غرناطة وإشبيليا العالية. شعر بالفجر وماريانة يقتربان من قلبه أكثر من أي زمن مضى، لكن هذه حكاية أخرى أكثر تعقيداً. الزمن كان يتضاءل بين يديه. يصغر ويذوب حتى يصبح شكلاً هلامياً.

جلس في مكان ما، خمن أنه الباحة الرئيسية للكهف. انتابته موجة من الخوف والخواء. تزاحمت الكوابيس وأشياء أخرى في رأسه. انتفض في مكانه. لا ليس هذا هو المطلوب. المطلوب شيء آخر غير هذا الذي يملأ قلبك. ما الذي جاء بك إلى هذا المكان؟ بالأساس أين أنت أيها الموريسكي الطيب. لكن حتى طرح السؤال بدا لك غير موفق، أو على الأقل هذا ما رواه القوالون بعدك، في الأسواق الشعبية عندما تركت المدينة للزغاريد والبارود وأدخنة



Twitter: @ketab_n

الانتصارات وذهبت تبحث عن مكان للراحة بعد عذاب ضاعت فيه الأزمنة.

هو ذا الخيط الأول إذن. لكن السؤال ما يزال بعيداً بعد الأنجم السبع التي كان يتعشقها. لم يكن يعلم في أي يوم من الأيام ماذا كانت تعني له. يتذكر فقط أنها كانت دليله وسط الفراغ الذي يشكل الجملكية (نظام خرافي يجمع بين الجمهورية والمملكة) التي دخلها لا يعلم أمن الغفوة المتوسطية أم من غرناطة. الشيء الوحيد المؤكد هو أن الراعي أخرجه من قبر الكهف. الآن لم تبق إلا الأنجم بإشعاعها المقدس، حتى عندما وقف عارياً بعد أن وُضع السطل الألماني على رأسه، لم يتذكر إلا هذه الأشياء وهذه الكوابيس والنجوم التي لم تنطفئ في عينيه ووجه ماريانة المشرق بنهوره الوهاج وحنينه المعذب. كان البشير الموريسكي كبيراً وسط هذا الذهول. عرف أن الأنجم ليست إلا وجوه الشهداء موزعة على زرقة السماء التي لم تفقد مبرر زرقتها ولا ألوانها الزاهية. شهداء كان بينهم وبين الموت مسافات لاتحد وعلى مقربة شبر واحد من الحياة، لكنهم لحظة الاندفاع، اختاروا الموت كل هذه الأشواق تتزاحم الآن في دماغه بقوة. ليس معهما لأن السؤال ما يزال فيه بعض العوج.

ماذا لو بدأنا من اللحظة التي نفي فيها ابن رشد؟ بينهما شبه الدم والنجوم. سيتغير كل شيء حتماً. أبناء الكلبة. خافوا منه مثلما يخافون من وباء الطاعون. قالوا افصلوا سيربحون الدين والدنيا. لكن المنصور أبا يوسف يعقوب كان دابة لا تسمع إلا صوتها والرجع الذ ي يتركه. نفاه على أطراف قرطبة وأحرق كتبه وسائر كتب الفلسفة ومنع الاشتغال بالعلوم، لكن ابن ال... فسح المجال أمام الشعوذة واستدعى كل زناة الحي ووضع القضاء بين أيديهم.

أنينك أيها الرجل الطيب يصل القلب مفعماً بالعطش والمسك القرطبي وهم يحاولون رميك خارج أسوار المدينة التي حكمتها بالعدل والنور قلت افصلوا ولا تجمعوا ما لا يجمع. لا تجمعوا بين


Twitter: @ketab_n

المختلفين: عالم الطبيعة وعالم ما بعد الطبيعة. عالم الغيب وعالم الشهادة. الاستدلال لا يصح إلا حيث تكون النقلة معقولة بنفسها. وذلك عند استواء الشاهد والغائب. افصلوا المقال فيما بين الشريعة والحكمة من اتصال.

آه يا فيلسوف الفردوس المفقود. قرطبة سرقوها، فسرقت حلمك الذي رفضه زبانية الموت. قلت الدين دين، والفلسفة فلسفة، قلتها بأعلى صوتك قبل أن يرموك خارج حدود عشقك ويتركوك وحيداً تزحف وتحاول أن تقفز على الأسوار باتجاه مدينتك التي سلبت منك. حاولت، لكنهم كانوا مصرين على الدم، فظلوا يضحكون حتى من جراء نكتة غبية اسمها الحُكْمُ وبقيت أنت بجلال هيبتك. تمرغوا، كشروا، تغامزوا، ثم أغلقوا كل المخطوطات القديمة على الخاتمة المعتادة: ثبت أيها الوراق، يا مؤرخ المدينة، درويش قوال، ارتأينا أنه لن يكون أحسن من غيره ممن مروا على هذه المدينة التي بنيناها لتكون لنا وللذرية الصالحة من بعدنا. الخطأ يا ابن أمي بدأ من تلك اللحظة التي دامت طويلاً قبل أن تستقر على الفاجعة التي لم تتوقف إلا في أواخر الليلة السابعة بعد الألف. يذهب بعض القوالين إلى أبعد من هذا كله، الفاجعة بدأت قبل ذلك بكثير. منذ الحاكم الرابع (وفي رواية أقل دقة، الحاكم الثالث) الذي ارتكب أولى الحماقات التي شلت عيون المنسيين، الذين لم يتعودوا إلا حب المدينة وذاكرتها التي لا يمكن أن تخون أو تتنكر لحنينهم الذي ملأ الدنيا والشوارع طيبة وشوقاً.

لكنك أنت. البشير الموريسكي الأخير، الذي عبر المحيطات وأمواج المتوسط الذي كاد يومها أن يفقد زرقته ويلبس حداد الظلمة. ما موقعك وسط هذا الهوس الذي بدأ صغيراً وانتهى في شكل قيامة. هو ذا السؤال الذي داهمك وأنت تقرأ الأبجديات القديمة، التي امحت بفعل الزمن، على جدران الكهف المخرمة. عليك أن تعيد تركيب الوقائع بهدوء. هكذا قلت وأنت تحاول فهم وضعك داخل الكهف الذي فتحت عينيك داخله.



Twitter: @ketab_n

في البداية أردت أن تحوقل وتبسمل لكن العربية استعصت على لسانك. حتى القشتالية التي كنت تتقنها لم تسعفك أبداً.

ـ ماذا أفعل يا الله؟

قلتها بصوت تردد داخل أرجاء الكهف. لكنك لم تسمع إلا صداك مبحوحاً مثل صوتك. ملأت صدرك بالهواء المنبعث من ثقب الكهف الضيق، حاولت أن تتلمس محيطك من جديد. لا شيء غير الظلمة والأتربة القديمة. رأسك يؤلمك. ضغطت عليه. كان كالقذيفة المدفعية. لا شيء تغير. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. هل يعقل؟ هل تغيرت الدنيا بين يوم وليلة. هل هي عودة عام الرماد الذي غزا شوارع غرناطة وأكل أحلام حي البيازين، وانتعل صدر القوالين والغجر ووضع المدينة في زاوية الحريم مع أنها كانت تملك المدافع الإيطالية، والمدفع الدمشقي الذي جرجروه من هناك للدفاع عن زهرة المدن الأندلسية. لكن هل لكل هذا أهمية في الحكاية؟

لنعد إلى البداية كما رواها القوالون وأكدها هو فيما بعد حين دخل إلى الجملكية ليعيد ترتيب الأشياء التي فقدت نظامها الحقيقي. الذي حدث بعد ذلك، هو أنه جلس في الزاوية الضيقة داخل الكهف ثم بدأ يتحسس محيطه بهدوء ليتأكد بعدها أنه ما يزال محكوماً بالأرض. تتبع البقعة الضوئية التي انكسر نورها على إحدى الصخور القديمة التي بان تآكلها واضحاً، وأن الأزمنة التي نحتتها انتهت. ظهر بشكل واضح الثقب الذي كانت تتسرب منه الأشعة من أعلى الكهف. النور ينطلق باستقامة ماسحاً في طريقه أشكالاً كثيرة غير واضحة المعالم. تحسس لفائف الخيوط العنكبوتية التي ملأت رأسه. بذل مجهودات مضاعفة ليتكىء على جدار الكهف. مساحة الضوء ازدادت اتساعاً ومعها بدأت ملامح الكهف تتضح شيئاً فشيئاً. أصبح بإمكانه تحديد اتجاه الشمس والمسلك الذي كانت تقطعه. لون الأشعة بدأ يميل نحو حمرة خفيفة ممزوجة بألوان كثيرة، تداخلها الكثيف أضعف من حرارتها. أدرك من خلال الأشكال التي ارتسمت


Twitter: @ketab_n

على جدار الكهف، أن قرص الشمس يكون قد تجاوز نصف السماء المعروف الذي كان من خلاله يحدد زمن انسحابه من الأسواق الغرناطية، وهي الفترة نفسها التي يبدأ فيها قوالوا غرناطة البحث عن أحد المطاعم الضيقة للانزواء فيه بقهقهاتهم التي تملأ المكان الذي لم يصبح له معنى بدونهم. يتغذون، يسكرون، يتضاحكون وقد يعودون إلى نفس المكان إتمام الحكايات القديمة التي بدؤوها ولم يتموها، وقد لا يعودون أبداً بالرغم من وعودهم للناس الذين ألفوا عاداتهم الكثيرة. وإذا حدث أن عادوا لا ينسحبون إلا مع آخر الخيوط الشمسية التي يغتصبها المساء الشتوي قبل الأوان.

بدأت بؤرة الضوء تزداد اتساعاً، وأحجام الظلال المرتسمة داخل الكهف تضيق شيئاً فشيئاً.

أوف يا ابن أمي ما أشقاك، ما أحزنك وأنت تبحث عن مفقودك داخل فراغ تأصل على الخوف. ما رأيته لم يكن كابوساً، كان الكارثة التي هربت من وجودها ولكنها كانت مصممة على اقتفائك. الليلة السابعة بعد الألف. الليالي داخل الكهف كانت قاسية. الجروح التي تشق جسدك أكدت لك مرة أخرى أن الكارثة كانت أكبر مما تتصور. قلت وأنت تبحث عن إجابات مفقودة داخل ذاكرتك التي نسيت كل شيء سوى أنين غرناطة البعيدة، التي صارت حلماً من أجمل الأحلام التي نراها مرة واحدة في العمر ولا تتكرر أبداً. لا يمكن أن يكون ما حدث مجرد إغفاءة حدثت معك عندما قادتك مياه المتوسط إلى أعماق هذا الكهف الهرم. يقول رواة الأخبار، إن الظهر كان يؤلمك، لسانك استوطنته الحراشف، اليبوسة ملأت تجاويف الحلق، الرمل كان من الصعب عليك التخلص من آلامه، حين يمس الجروح المفتوحة، بدأ الآن يزحف باتجاه ما تبقى من تنفسك.

من علمك أن تصدقِ أن ما حدث كان مجرد وهم كما رواه لك فيما بعد أصدقاء الحكيم. لقد رأيت كل شيء بعيونك المتعبة. بعيونك التي يأكلها الدود كما كان دائماً يقسم الغرناطيون. لقد لمسته بقلبك


Twitter: @ketab_n

عشته حتى الألم. هو بكل قسماته ووجهه الخمري المشعشع مثل وجوه الأنبياء كان واقفاً أمامك كعمود النور.

تأتي الأشياء مندفعة كالطوفان، تحمل في طريقها الحنين وما تبقى من الأشواق التي أكلتها النيران الملتهبة. أينك؟ أينك؟ قل أين خبأت رأسك يا ابن أمي؟ أما كان ممكناً ألا تعود؟ الدنيا بعدك صارت رخيصة. ارفع صوتك يا ابن رشد علياً، إنهم يتهمونك بالزندقة والإلحاد. لا يعرفون آلامك وأنت تضع وجهك على عتبة الدار وتنظر وراءك مودعاً مدينتك التي أحببتها حتى الانهيار. قالوا لك من يحب مدينته عليه أن يعرف كيف يدافع عنها. قلت في أعماقك، ربما لتحاول إقناع نفسك المتعبة، المدينة سرقت مني. لم تعد لي لأنها نسيتني حين أحتجت لصوتها. كان عليك يا أبا الوليد القرطبي أن تواصل إصرارك على الفصل. وتسحب من تحتهم القميص الذي وسخوه بكذبهم وبهتانهم . لقد سرق الوراقون حقك وحق أستاذك أبي بكر الصائغ ابن باجة وصديق الهم والأنين ابن طفيل. أين الفردوس المفقود الذي أكلته الرياح الصحراوية المليئة بالخوف؟ هو ذا يا ابن رشد يأتيك متأخراً، يسألك عن دمه الذي ساح في القفر والخلاء. كان عليك حمايته يا ابن أمي. مثلك تماماً كان يظن أن أوامر الحاكم الرابع أعجز من أن تلغي الحقيقة. كان كالنور مشعاً. يحاول جاهداً أن يجد وجهاً جديداً للعنة لا يُرهبها سيف قطاعي الرؤوس، ويختصر العمر كله في قبلة توضع علي جبين أول مولود ينحدر من سلالة جديدة تقع خارج المملكة بعيداً عن إرادة الحاكم الرابع، كان مفعماً حتى الموت بوضع الزمن المستعاد خارج الذاكرة المتعبة. ماذا بقي يا ابن أمي؟ الرمل ينساب جافاً بين الأصابع المفتوحة على الغرائب والخوف المزمن.

يروي قوالو أسواق المدينة المتعبة، إنك بعد الدهشة مددت يدك تبحث من جديد عن الحائط المتآكل. شعرت بالتربة المتهالكة تملأ كفك. أشياء كثيرة تغيرت منذ ذلك الزمن البعيد الذي قادك فيه البحر إلى هذا المكان. لكن عن أي بحر تتحدث؟ هل هو الشاطئ المتوسطي


Twitter: @ketab_n

الذي حدثك عنه الأربعة الأجانب، أم البحر المنسي الذي انكسر بقوة في تلك الليلة على شواطئ المارية؟

*المارية، يا المارية،*

*ضيعت عمري أبحث عنك،*

*عن اسم لك ضاع في زرقة البحر.*

*المارية يا المارية.*

*اعذر الآن شاطئك الأزرق.*

*وقوس قزح والفراشات التي سبقتني إلى لونك...*

الكهف مظلم والجرح ازدادت شقوقه. الأملاح تملأ المدينة. الطعم طعم الدم. الصحراء تتسع داخل قلبك، تلتهم في خلوتها آخر مساحات الفرح الخضراء. بسرعة تموت الفراشات التي أفقدتها الشمس الحارقة ألوانها القزحية. ماذا يحدث وسط هذه الأدغال الترابية التي تزداد رعباً؟ ماذا؟ اللحظة تسحب وراءها اللحظة. الغيمة تستل من الغيمة كالخيط الحريري. الذرة تأكل الذرة. الكثبان الرملية تتهالك بسرعة، وبسرعة عجيبة تتضخم لتبل الجرح بمائها. وامتداد الصحراء يزداد ومدينتك تتضاءل، بين يديك المعروقتين. أيها الموريسكي الطيب لقد انغمست في أعماق التيه. الشمس تغزو شقوق الكهف، لكن الصحراء تأتيك برمالها وعواصفها وصراخات الذين هزمتهم في حروب لم تكن عادلة. من أين غزتك هذه الرمال؟ تساءلت وأنت تبحث عن مخرج. لست أنا ناقلها إلى هذا المكان. حلقي يجف يا عباد الله، الحروق بدأت روائحها النتنة تزداد وتتصاعد إلى أنفي والسحب البعيدة تغادر الآن قصر الحاكم الرابع (أو الثالث، في رواية أخرى تخرج الأول لأنه في دائرة التنزيه) وتتشكل أجساداً منهكةً ومنتهكة في أدق تفاصيلها. كنت (في الحقيقة كان هو) مسحوباً من عنقك برباط خشن لف من الخيش، وضعت الكمامات التي تسد الصرخة وتقتل العنفوان على فمك.



Twitter: @ketab_n

امتلأت الطرقات بالناس الذين أصروا على توديعك بعيونهم التي انحدرت منها صراخات مكتومة الدمعة تودع أحلامهم القديمة. يا الله لماذا تخليت عنا. أهذا مآل أصدق أهل زمانه؟ أهكذا ينتهي الأنبياء الذين عاشروا أصحاب الرسائل والمبعوثين؟ بينما كانت الأصوات التي اشتري منها الصراخ تتمتم بضحكة مكتومة: هذا العفن لن يقنع أحداً. الكذاب ابن الكذاب، يريد أن يقود الرعية إلى الزندقة والهلاك. إنه من قبيلة تحل الشهر الحرام وتنهب أملاك الحجاج.

بالنسبة لك كان الأمر مخيفاً ولكنه لم يكن مفاجئاً. أجدادك توارثوا متعة الموت بين الصخور على أن يبيعوا الأشواق للذين أخفقوا في معرفة السر الذي يكمن وراء الجوع. لكن الذي استعصى عليك فهمه هو من أين جاءتك الآلام التي ذبحت أبا ذر الغفاري؟ قلت في خاطرك. آه يا ابن أمي، ألف ليلة وليلة من الخلاء والقفار ولم تستسلم حتى وأنت تواجه الموت وحيداً بقلب متعب وسماء تخلت عن زرقتها التي عشقتها بكبرياء الولهانين. هل هي الحقيقة أم وجه آخر للحقيقة؟

الخيط الأول. نعم أين الخيط الأول الذي بدأ يهرب من الذاكرة. فتحت عينيك عن آخرهما. هاه؟ تذكرت الآن. في الحقيقة بدأت معي هذه الفظاعات، من اللحظة التي قادتني فيها الجماعة الملثمة إلى هذا الكهف المعزول داخل هذه البرية المقفرة. كانوا ستة وعندما انضم إليهم الحارس صاروا سبعة. لم أكن مخيراً في المجيء إلى هذا المكان. إذن كذب علي الأجانب الأربعة. لا يمكن أن تكون الأمطار المتوسطية أو ضربة الشمس هي التي قادتني إلى هذا المكان اليباب. الملثمون لم أعرفهم فأنا لم أر إلا عيونهم المتعبة من كثرة السهر والتخطيط (هكذا خمنت في البداية على الأقل) في الكهف قالوا لي نم، وحين تستيقظ، انزع الصخرة الكبيرة من الممر وستجد من يقودك إلى المدينة ويفتح أمامك أبواب المستحيل. ملأت قلبك بالأشواق التي أجبرت على تركها. الملثمون أخرجوني من حفرة تركية كنت مسجوناً فيها، تقع مباشرة تحت أعماق بحر لا يعرف



Twitter: @ketab_n

الهدوء. هذا الإحساس تكون لدي وأنا أشعر في كل ليلة أن البحر سيغادر حفرته ويأتي لينام داخل دماغي.

وبعدها نمت نوماً لست أدري بالضبط هل طال أم قصر. لكن المؤكد أني في إغفاءتي جاورت حيطان الجحيم. كان رعب الليلة السابعة بعد الألف قد بدأ. اقتحمتني الغيمة المبلولة بعمق، وبعدها اتضح وجه أمي مليئاً بالخدوش (وجه أمه). هي، أستطيع أن أقسم، أنه وجه رملة بنت الرفيعة الغفارية التي بدأت تذوب وتذوب حتى اندمجت مع وجه أبي (أبوه): أبو جنادة بن قيس. إنه عام التلف. كل شيء جف في تلك السنة، وسيتكرر ذلك مدة سبع سنين بدون انقطاع، ظلت الأرض طويلاً تبحث عن ألقها القديم. تشققت الوجوه والتربة، جفت الأمطار والعروق، المياه لم نعد نراها إلا في الأحلام وهي تختلط بالعرق الأسود الذي كان يملأ الجبين والصدر وظاهر الساعد. انسحبت الخضرة باتجاه سواد لم نره من قبل وغادرت العيون محاجرها، نادانا المنادي الذي ظل نائماً طوال القرون الماضية بضرورة التوجه إلى البحر المنسي وحين حملت زادي وزوادتي ورحلت، كان يقتفي خطاي خطوة خطوة ويملأ قلبي صراخا: ابن أبي جنادة قبل أن تدخل قلبك الزوارق الملونة بألف لون سحري، إنك ستعيش وحيداً وتموت وحيداً، ترميك الريح للريح والرملة للرملة والعين للعين، وعندما تنكفئ على فمك الجاف، تتجرد النخلة من خضرتها وتنتابها نفس الصفرة التي تدخل الآن عيونك النوريتين، ستتعذب كثيراً قبل أن تتذكر أن المدينة خانت الأملاح التي كانت تجمعك بها منذ العصر الأول للموت والحياة. لا ترحل... لا ترحل... لا ترحل... لكنك رحلت وملأت عينيك بالدنيا.

تقول دنيازاد لملكها الذي لا يأكل الدود عينيه، داخل رعشة الغيمة المشوهة امتد سيل من العذاب، لا أحد يتذكر تاريخ بدايته أو منتهاه. تاريخ فقد الأسماء والألقاب والأرقام، تاريخ غير منسي أبداً. صرخ يا سيدي بأعلى صوته حتى انفجر دماغه: يا الله لماذا تخليت عنا؟ حين واجهت الحاكم الرابع بما تبقى من حنيني قال:


Twitter: @ketab_n

ـ هذا هو الدرويش الكذاب الذي شغل المدن والأمصار.

ـ لدي أب يا سيدي ركعت له النخلات الصحراوية الوحيدة وانحنت عند رجليه المنهكتين. أبو جنادة بن قيس.

قال الحاكم الرابع والزبد يتطاير من فمه في أقصى درجات رعشة الهزيمة.

ـ تفو... تفو... قبيلة حلالها حرام، وحرامها حلال. باعت الخليفة والله والبلاد للأعداء.

وحين شعرت بأمعائي تتمزق بسرعة مخيفة، صرخت بأعلى صوتي

ـ لا؟ لا؟

فجأة وجدت نفسي داخل سلطانه بشكل لا أدري كيف تم ذلك الجو نفسه لكن الوجوه هي التي تغيرت. استفتوني في فقري وطمعوا في فقر الآخرين.

ـ لا يا سيدي لا يجوز. إنه ملك العامة ولا يجب الإستفتاء فيه. حتى التفكير في ذلك حرام.

كنت أحاور الرجل المنتفخ الذي خرج من تحت إبط الحاكم الرابع لم يعرني أي انتباه على الإطلاق. التفت باتجاه أبي إسحاق سأله:

ـ هل يجوز الاقتراض من بيت مال المسلمين.

ـ إذا كان سيدي يرى في ذلك حلالاً، فهو عين الصواب. لا بأس في ذلك.

لم يكن الصمت ممكناً، قفزت من مكاني. أعصابي فقدت اتزانها.

ـ لا يا أبا إسحاق،

ـ هل بعد الخليفة من دين؟

ـ أتعلمنا ديننا يا ابن اليهودية؟



Twitter: @ketab_n

امتلأت العيون بالقطران. الفم جف. الصهد يتصاعد من القلب إلى الذاكرة. كل شيء يحترق. لأول مرة أتأكّد أن للذاكرة رائحة ليست ككل الروائح. قال الحاكم الذي خرج من تحت إبط الحاكم الرابع.

ـ كثر أذاك يا شيخ اللعنة.

ثم أمر الجلاوزة الذين دفعوا بي إلى فراغات البيت الواسع. سقطت على وجهي. شعرت بالدم يملأ فمي وبأطرافي تتكسر مثل الأخشاب الجافة. قبل أن أدفن في حفرة محاذية للقصر تمتمتُ وأنا عند البوابة الواسعة.

ـ الحق ثقيل مر، والباطل حلو خفيف...

وقبل أن أنهي الجملة الأخيرة، كان فمي قد ملئ بالقطن والصوف وأحجار الوديان التي جفت قبل موسم الجفاف. في الحفرة لم يزرني أي شخص سوى تلك الوجوه التي تكرر عبثاً مجيئها لأنها منعت من مقابلتي. قالوا لي تخل عن ذاكرتك ولك الأمان. لك الدنيا وما فيها والسماء وما تخبئ بين ألوانها، والأرض وأثقالها، لك من الحور ما ملكت أيمانك.

تقول دنيازاد التي أدركها الصباح ولم تتوقف، قال وهو يمسح الدم الذي ملأ شفتيه المتورمتين.

ـ لو جمعتم البحار كلها، وسيرتم النجوم، ووضعتم ثقل الأرض على هامتي وسرقتم النور من عيوني. لن أتخلى عن ذاكرتي وحنيني إلى الوجوه التي لا ينتهي ألقها وعنفوانها. في المرة الأخيرة خرجوا صامتين، وحين عادوا كانت وجوههم مليئة بالظلام الحالك. قالوا اتبعنا، لم أسأل إلى أين فقد كان بإمكاني أن أتخيل البقية. حين أُجبرت على الوقوف في باحة القصر رأيت الخاصة والعامة والحاشية وهم يركضون بالدمقس والحرير والجوخ، رأيت الجواري والعبدان، يغدون ويروحون في سرعة متوالية مذهلة في أيديهم الأواني الذهبية والصحون والجِفان الفضية المرصعة



Twitter: @ketab_n

بالجوهر والذهب المعشق بالزجاج. بدا بكل وضوح بذخ القصور والقدور من خلال الخدم وهو يرصفون على الخوان أنواع الطعام الدسم. والصحاف المنقاة من لحم شهي وحلوى لذيذة. وحين مد السماط، ناداني معاوية (ويلح جميع الرواة والقوالين على أنه الرجل الذي خرج من تحت إبط الحاكم الرابع) ومعاوية للذين لا يعرفونه هو، أحد المسوخ التي وجدت في لحظة تعرق وبنت وجودها من القتل والخوف. قال وهو يبحث عن ابتسامة باردة جافة مثل ذلك اليوم الذي لا ينُسى بسهولة. دغدغني بفضاضة:

ـ تفضل شاركنا، لقد أنجزناها على شرفك يا ابن رملة بنت الرفيعة.

ـ مازلت يا سيدي على عهدي القديم. كأس من الحليب، وصاع من التمر.

ـ ألا يمكن أن تتعلم أن الخير والمال هبة من الله.

ـ الخير للجميع يا سيدي.

ـ أنت تكفر بنعمته تعالى يا ابن بنت الرفيعة.

حين انكفأ معاوية على وجهه وانغمس في الأكل بدون تنفس، كان الجحيم قد بدأ يخط ملامحه المأسوية على الأيام التي ستستعاد ذات زمن لا محالة، بكل تفاصيلها. الناس الذين استوردوا من أسواق النخاسة يصفقون ويهتفون لهذه الظاهرة التي لا تظهر إلا مرة واحدة في كل زمن من الأزمان. الوراقون إلى جانب معاوية الأيمن يتهيؤون لنجر الأقلام القصبية وكتابة التاريخ المروي داخل العادات الهمجية، ويبحثون عن الداوة ليحرقوا مدادهم وصوفهم. الظلام لم يعد مجرد وهم، فقد بدأ يخط الذاكرة بندوبه وأشواكه. الألوان سرقت قبل أن تنشأ. حتى أنت؟ ماذا فعلت أيها الطبري بقلمك؟ لماذا جردته من كل حنين وشوق لقد كنت وراقاً كغيرك. تنجر الأقلام وتدعو الرعية إلى أن يتنبهوا إلى هذه الظاهرة المحمودة التي لا تتكرر إلا مرة واحدة في كل سبعة قرون. كنت تظن يا أيها الطبري



Twitter: @ketab_n

أن الزمن الذي يكذب دعواك لن يأتي أبداً، وأن الذين يقرؤون بعيون مفتوحة لا ينطفئ نورها لن يوجدوا أبداً. ها قد عدنا إليك نسأل مجلداتك التي كتبت بماء الذهب وجلدت بالقطيفة والمخمل الملون بألف لون ولون. ماذا فعلت بالحرف الوهاج؟ إنه يقف عارياً خجولاً بعد أن سقطت عنه كل الألوان التي خبأته وراءها. هي الحقيقة ياصاحبي التي تأكل كل شيء ولا تؤكل بسهولة. نجرت قلمك القصبي تماماً كما كان يفعل معظم وراقي الدواوين. كتبت وأنت تضع كيش النقود الذهبية في جيبك: كان معاوية واسع البلعوم، يأكل في اليوم سبع مرات... والمعدة الكبيرة نعمة من الله، يرغب فيها كل الملوك. يا لقلمك أيها الطبري ما الذي شوقك إلى هذا التخريف؟ ألم يكن ممكناً أن تكون قوالاً مثلما كان أخيار السابقين؟ الصدق في القلب واللسان والرأس والعمر على حد السيف.

حين أمتلأ بطنه، طلب من أحد الوراقين لم أستطع ضبط وجهه، أن يشمر على ذراعيه ويحك له بطنه الذي بدأ يعذبه انتفاخه، لم يتأخر الوراق لحظة واحدة. ثم لوى بعدها معاوية عنقه باتجاهي (باتجاهه).

- هاه يا أبا ذر، الأغنياء يشكونك لأنك تحرض الفقراء عليهم.

- أنهاهم عن تكديس الأموال.

- الله هو الآمر الناهي، أتنكر علينا نعمته تعالى؟

- الآية تقول يا سيدي: «والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقون في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم».

- لكن الآية نزلت في الأحبار وأغنياء أهل الكتاب من الرهبان ولا يشمل حكمها المسلمين.

- لا؟ نزلت فيهم وفينا.

خبأ معاوية رأسه من رواء الوراقين بحثاً عن كلمات النجدة، لكن الكل كانوا صامتين. ينتظرون الأمر الجديد. أين كان قلمك



Twitter: @ketab_n

يالطبري؟ اتكأ بعدها بظهره على سند الحاكم الرابع الذي مد له حبلاً من الزيف لينجده من هذا الفراغ الذي شعر بكثافته فجأة.

- أنت تشوه الآيات يا ابن بنت الرفيعة. حرف الواو (و) غير وارد في هذه الآية بالذات. صحح نفسك قبل أن آمر بقطع رأسك.

واتفق الوراقون، والبراقون، والسراقون والراقون والصفاقون، يسندهم الحاكم الرابع من بعيد بظلاله الوارفة ومسحة يده الكريمة التي لا تطالها النار الحارقة، تآمر الجميع على حذف الواو، حرف الفقراء من الآية فتقطع الصلة بينها وبين السابق أي القسم الأول من الآية. وشكلت لجنة من الوراقين الكبار الذين تخر الأمة لكلامهم المرصع بالصدق كما يقولون. ولم يُدع للّجنة كبار القوالين المعروفين كابن عباس، وعبد الله بن مسعود وعلي بن أبي طالب... واقتصرت العملية على كبار أثرياء المدينة كزيد بن ثابت، الذي بلغت ثروته بعد وفاته مائة ألف دينار، وسبائك ذهبية وفضية ما يكسر شفرات الفؤوس الحادة، وعبد الله بن الزبير الذي ترك له والده خمسين ألف ألف وسبعمائة ألف عداً ونقداً، وسعد بن العاص بن أمية، وعبد الرحمن ابن الحارث. واتفق الجميع على وضع حرف الواو في أقرب متحف عربي أصيل لا ينكر النعمة ويعترف بالجميل أو ينفي هذا الحرف المزعج من دائرة الأبجدية المعروفة. حرف يزن الذهب وأحلام الأقوام أصبح الشغل الشاغل للأمة. اتفق جميع وراقي الحاكم الرابع على وضعه خارج حدود المدينة. صرخت (في الحقيقة هو الذي صَرَخَ بأعلى صوته) الصوت مبحوح، الكمامة والقطن وصوف الماعز الحائل وأقلام الوراقين كلها هاجمتني دفعة واحدة. الواو يا ناس، ملك لنا، وليست لهم أبداً. وراءها شقاؤكم يا أبناء أمي. أعيدوا لله ماالله. وسرقتموها من فمه أيها الوراقون.

أقيمت الدنيا ولم يستطع أحد إقعادها. جرى الجميع باتجاهات مختلفة تناطحت رؤوسهم ولم يتفطنوا. كل واحد يصرخ: الواو... الواو... الواو... أعيدوها إلى ذويها.. انزعوها، في وجودها



Twitter: @ketab_n

مأساة لنا، أنا نفسي كنت أركض من أجل الواو التي أرادوا نفيها. لم تقعد الدنيا إلا بعد أن استنفر أبيّ بن كعب، فاستقام المعني الذي اندفعنا من ورائه. «يا أيها الذين آمنوا، إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلوا أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله (و) الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله، فبشرهم بعذاب أليم».

ـ هكذا استقام المعنى يا سيدي.

ـ أنت تهذي يا ابن رملة بنت الرفيعة.

ـ لا سيدي حين سقطت الواو سقطنا معها.

ـ ماذا تقول أيها الكافر؟

ـ بهذا المعنى الذي تريدونه يصبح فقرنا مبرراً إلهياً وأكلنا يصبح حلالاً.

ـ كل ما في الدنيا هو من مال الله.

ـ يرحمك يا هذا؟ ألسنا عباد الله والمال ماله؟

ـ لا تقل هذا يا سيدي. قل مال المسلمين. إن أموال الفيء هي من حقوق الفقراء وليس لك أن تخزنها أو تأخذ منها ما تشاء.

ـ وإذا قلتُ لك إن الخليفة قال بهذا؟

ـ لقد أغنيتم الغني وأفقرتم الفقير.

ـ بدأت تفقد صوابك يا ابن الغفارية. هذه أفكار ابن سبأ بن اليمنية السوداء، اليهودي.

كان الحكيم شهريار يتململ في مكانه ويحاول جاهداً أن لا ينام قبل سماع نهاية القصة، لكن دنيازاد التي أقسمت أن تبوح بكل الأسرار التي خبأتها أختها شهرزاد عن ملكها خوفاً من بطشه، قامت من مكانها لتأدية الدور بكامله حتى يكون كلامها أكثر إقناعاً. الذي حدث يا صاحب الباب العالي هو أن البشير الموريسكي الأخير شعر



Twitter: @ketab_n

وكأن كابوس معاوية صار حقيقة. تساءل داخل الكابوس ذاته. ما دخلي يا الله في كل هذه الوقائع؟ سؤال قضيت العمر بكامله أبحث له عن إجابات مقنعة، فلم تواجهني إلا الغيوم المظلمة، التي لم تنفك حتى وأنا عند أقدامها أتمرغ راجياً مسترجياً بحثاً عن حقيقة مأمولة. عبثاً مأمولة. عبثاً حاولت. كل ما أعلمه هو أني جئت من بلاد بعيدة كان لها شأنها ونشيدها الجميل، ولكنه سرق منها قبل الأوان، حتى قبل أن تلحق تتمتع به. كانوا كثيرين، وكانت وحيدة طوال الأزمنة المتعاقبة. يا الله كيف وصلت إلى هذا المكان؟ من خلال أي تفصيل وأي مسلك؟ القصة معقدة جداً وأحتاج إلى صفاء ذهني لاستعادة ذاكرتي بكاملها. أخذني الملثمون إلى هذا المكان. كان الزمن صباحاً. في البداية كانوا ستة، عندما دخلوا إلى الزنزانة التي تقع تحت البحر. تمتموا في أذن العساس ببعض الكلمات المبهمة. لبس لباسهم الأسود حتى صار مثلهم. أخرجوني. كان الموج ما يزال يملأ دماغي. تذكرت الآن لماذا كنت في تلك الحفرة التي تقع تحت الأطنان من التربة ومياه البحر. قيل لي أن الذين وضعوني في تلك الفجوة التي ملت ضجيج المياه النتنة، هم عسكر الأتراك بعدما قدمني إليهم رجل ادعى أني رأس خطير، كان هو بدوره قد عثر على مع مجموعة من الأطفال وهم يلعبون بجثتين ويتهيؤون لرميي من أعلى قمة جبلية. والتسابق معي في الفضاء لأنهم كانوا يظنونني ميتاً. وقيل لي، إن القرصان الإيطالي هو الذي سلمني إليهم مع وثيقة محاكم التفتيش التي سلمت لي (في الحقيقة، اشتراها لي أخي من اليهودي سامويل) في ساحل المارية، ثم سلمها اليهودي لصاحب الفلوكا الذي قدمها بدوره إلى القرصان الإيطالي...

هاه... الزوايا تجدد ارتسامها بشكل أكثر وضوحاً. النور يزداد تسرباً من بين شقوق الكهف. حكى لي الملثمون السبعة عن الأتراك، عن البحر، عن الإسبان والأوروبيين... لكن مخي كان مشلولاً، تملأ زواياه أصداء محاكم التفتيش المقدس. عسكر الأتراك



Twitter: @ketab_n

عندما فشلوا في إخراج لساني أتهموني بالجوسسة لصالح الإسبان. أقسمت براس كل القوالين الأوفياء أني مجرد قوال من محاكم التفتيش المقدس، وأني تركت غرناطة. وشوقي الوحيد ماريانة التي كان قلبها ما يزال مفعماً بالدم الأندلسي. في الأخير، رموني في أعمق حفرة وأوسخها. بدأت خيبة الأمل تزحف باتجاه قلبي وانطفأت فجأة الصورة القديمة التي صنعتها للبلاد الأخرى. في لحظة واحدة انسحق الفردوس المفقود الذي ظل يملأ الأسواق زمناً من الدهر. حي البيازين الغرناطي يحفظ كل التفاصيل. حتى حرب البشرات التي التهمت دم جدي الذي أرعدت صراخاته الوديان وشقت الصخور. على أن لا أستسلم لهذا الموت البطيء الذي بدأ يسل على الجسد كالقطران الساخن. الزمن يجب أن لا يتوقف عند هذه الحدود الضيقة مثل خرم إبرة عمياء. لقد قفزوا بي نحو أكثر من ألف سنة ضوئية إلى الأمام حين اتهموني بالجوسسة لصالح الإسبان الذين كانوا يرابطون بسفنهم عند مداخل ومخارج بعض سواحلنا الوطنية. لا أحتاج إلى أن أعيد إلى الأذهان بأني مجرد قوال بسيط كانت وظيفته ملء حي البيازين شوقاً وحنيناً وحزناً ليتذكروا أنه في لحظة ما من اللحظات، تخلى الله عن ذويه وتركهم يواجهون مصيرهم وحيدين. العسكر التركي قال كلاماً كثيراً وفضفاضاً يشبه في محتواه الكلام الذي سأسمعه في وقت لاحق من فم أصدقاء الحكيم، حاكم الجملكية. صرخوا بأعلى أصواتهم، أنت مجنون أيها الغرناطي المتوهم الذي بدأ يخرف. ابحث عمن يصدقك أيها المسكين. مجرد وراق يا عباد الله؟ مهنتي المفضلة تخزين الأسواق التي ما تزال حتى اليوم تحفظ ندوبنا. كنت عادياً مثل جميع الخلائق، حتى جاءتني ذات يوم غجرية. كانت شواطئ المارية هي التي زرعت في قلبي حب هذه المدينة. عذبتني قبل أن تستسلم لقلبي وعيوني التي تعودت ألا ترى إلا الشهداء والمفقودين في الحروب الفائتة. كان صوتها مثل خيط رفيع من البكاء. سرقت مني الحرفة وأصبحت تروي معي أخبار السير القديمة. ملايتها السوداء على



Twitter: @ketab_n

ظهرها كانت تعطي لعيونها اتساعاً مخيفاً فيه الكثير من الدهشة والخوف.

كانت يا مولاي الحاكم بأمره، تقول دنيازاد، الصحراء تقترب، والشوق يفيض، والصفرة تحتل دمه. نزلت بعض التمتمات كالجمرات على صدره. ماذا أقول أيتها الريح التي رمتني في الربع الخالي ثم عادت راكضة باتجاه البحر المنسي. ماذا أقول؟ الأصوات التي صارت تناديني زاد عددها. والحنجرة التي تستغيث، تبعث على الشفقه. هو ذا يعود يملؤني ويملأ شراييني. أراه الآن واضحاً مثلما رأيته في الحلم (الكابوس) الأول. وأرى بجانبه الرجل ذا الفم الواسع والبطن المنتفخ، الذي خرج من تحت إبط الحاكم الرابع حاول عبثاً أن يغلق الأفق المدمى بقوافل الآتين من كل حدب وصوب، والشهداء والموعودين بالزمن الجميل. آه يا معاوية، أنت تعرف أكثر من غيرك أنك لا تستطيع أن تغير من مجرى الأحداث أبداً ولا حتى أن تنقذ نفسك من التهلكة الحتمية. سيبقى كل شيء يواجهك بحضوره الأبدي. أنت نفسك لم تتصور فيها اللحظات الأخيرة وهي تستل منك حياتك خيطاً خيطاً. تصور هذا الزمن الذي لا يرحم وقادك بسرعة البرق إلى آخر أيامك، حين أردت أن تخطب في الناس، لم تستطع الوقوف أبداً لأن الجثة الضخمة لم تكن لتسعفك والأرجل عجزت عن تحملها. وحتى وأنت في الشهقة الأخيرة لم تنس الجواري ولا الملك ولا المال. قلتها وأنت تلم أطراف الجسد المترهل:

ـ إنما المال مالنا، والفيء فيئنا، فمن حال بيننا وبينه حاكمناه بأسيافنا، ولم يغب عنك في ذلك اليوم أن تأمر الوراقين بتثبيت كلامك في دفاتر التاريخ المسلوق بين أرجل الجاريات. واستشرت، كما يفعل الرجال الأوفياء، الحاكم الرابع في أمور تتعلق بأمن الدولة والخلاص من ضجيجي المقلق. اللحظة تأتيني الآن داخل غيمة سوداء مجوفة، مثقلة بالغيب والأسرار. الشمس توقفت في منتصفها من الدهشة، لا يمكن أن يكون ما يحدث حقيقة. لا؟ مجرد



Twitter: @ketab_n

كابوس، لحظة وينتهي. كانت الشمس شاهدنا الوحيد على انهيار الأحلام التي لا تعد. قال للحاكم الرابع في رسالة خطية يؤلبه ضدي:

- إن أبا ذر صرف قلوب أهل الشام عنك وبغضك إليهم. فإن كانت لك حاجة في الناس قبلي، فأقدم أبا ذر إليك، فإني أخاف أن يفسد الناس عليك.

الحاكم الرابع في ذلك اليوم القاسي الذي وفقتُ فيه استنجد بذاكرتي، واضعاً قلبي في يدي وحنيني في دمي الذي بدأ يفقد لونه، لم يتساءل أبداً هل الرسالة التي بعث بها معاوية كانت صحيحة، صادقة أم مجرد لعبة مدبرة، القصد من ورائها الرضوخ لضغوطات مجموعة من التجار أفسدت الدين والدنيا. قرأ الحاكم الرابع الرسالة بسرعة ثم أعطى أوامره التي أحرقت الأخضر واليابس. معاوية حين سمع بالخبر قهقه في انتشاء كبير. تسربت الأشواق من تحت جلدي وبدأ كل شيء يتصلب في وجهي. أيعقل؟ ماذا كان سيفعل الحاكم الرابع لو علم أن سكيناً حافية ستأخذه وهو ما يزال في دهشته. ماذا لو قرأ الغيب وعرف أن ما يحدث الآن سيتحول إلى عاصفة تكنس كل أوهام المجد التي بناها؟

قال الحكيم شهريار الحاكم بأمره والمعز لنفسه بعد أن زالت علامات الغفوة

- ابن الـ... أما كان يمكن أن يصمت ويمارس حياته كبقية دواب الرعية؟

- لم يكن مخيراً يا سيدي لأنه كان يحمل دلالات العصر التي ليست له.

- يا دنيازاد لولا معرفتي بك لقلت إنك مع هؤلاء الرعاع.

- يجب أن تعرف الحقيقة يا صاحب الباب العالي. أنا كذلك أكره هذه الحقيقة ولكن يجب أن تسمعني حتى النهاية، لأني رأيت أختي وهي ترمي من وراء ظهرها كل الأشياء التي تهز الأسرّة.


Twitter: @ketab_n

هو يا سيدي (البشير الموريسكي) لم يكن أبا ذر الغفاري ولكنه رآه في كابوس الكهف الذي هرّبه إليه الملثّمون السبعة. الألم صيرهما كتلة من الحرائق التي لا تنطفئ. يقال إن قراءاته عن هؤلاء الناس هي التي أوصلته إلى تصديق الوهم لكنه يصر أن ما حدث له هو الحقيقة، وأن الظلام الذي نزل على المدينة فجأة وعمى قلوب البشر لم يكن كذباً ولا بهتاناً.

ظل يأمل حتى اللحظة الأخيرة في الحكمة المتأخرة للحاكم الرابع وفي استيقاظ ضميره. لكن الذي حدث كان يجب أن يحدث. استدعاه معاوية من جديد، من ضحكته الساخرة عرف بقية القصة. آه يايما الحنانة لقد فعلها أبناء اللي ما يتسموش. فجأة سقطت الشمس من عيني وبدأ الظلام يزحف باتجاه المدينة. شَمَّمني الورقة، ثم صرخ في وجهي:

- أتصدق هذا يا ابن رملة بنت الرفيعة؟،

- ... ...

- اقرأ، أم أنك ستقول مثل الأنبياء. لست بقارئ؟

حاولت أن أصرخ، أنا ابن جنادة ابن قيس، لكن الصوت خر صريعاً داخل الحلق ولم تخرج إلا بحة جافة التهمتها صرخة الرجل الذي خرج من تحت إبط الحاكم الرابع في لحظة تعرّقه.

- اقرأ... اقرأ ماذا يقول الخليفة فيك.

تيقنت أني في اللحظة التي كنت آمل فيها، كان الحاكم الرابع يبرم شواربه بزيت الزيتون المغلي والزبدة العتيقة الحائلة وينتظر قدوم رأس الذي سيُبعث مع قوافل التجار، وقد كتب عليه: هذا آخر رأس لآخر رجل ظل طوال حياته يحلم بتغيير قانون الحياة الرباني. الكبير كبير والصغير سيظل صغيراً إلى أن يرث الله ملكه وخليقته.

تأملت رسالة الخليفة، كانت تقول (احمل أبا ذر على أغلظ



Twitter: @ketab_n

مركب وأوعره ثم أبعث به مع من ينخس به نخساً عنيفاً، حتى يقدم به علي).

صارت الدمعة في العين يأساً، واليأس قارب في صلبه الحجر، والحجر تفتت حتى صار تربة، والتربة صارت ذرة. رأى الأشجار التي كانت تملأ قلبه تفقد ذاكرتها وتنسحب جماعات جماعات. شاهد الخضرة وهي تأخذ لون الصفرة. بادره معاوية بلغة المنتصر.

- هه؟ أزعجتك الرسالة؟ أم تشكك في رجاحة عقل الخليفة؟

- العقل يا سيدي لا يمكن أن يملكه رجل لا يعرف ماذا يفعل.

- كلام اليائسين. النجاة الساعة يا أبا ذر.

إيه يا سيدي. إذا اقترب الزمان، كثر لبس الطيالسة، وكثر المال، وعظم رب المال وكثرت الفاحشة، وكانت إمارة الصبيان وكثر النساء وجار السلطان وطفف بالمكيال والميزان. لا يوقر كبير ولا يرحم صغير، ويلبسون جلود الضان على قلوب الذئاب أمثلهم المداهن...

حين أحاط بي خمسة من الصقالبة أنا وزوجتي كان كل شيء قد زحف نحو النهاية. وبدأت خطوط الجحيم الأول ترتسم وتزداد امتداداً وطولاً بين الشام والمدينة.

في الحقيقة أنا مثلكم سحقتني الدهشة، ونبت الجحيم في القلب وفرّع. من أين لي أنا القوال البسيط الطيب، الغرناطي المسكين أن أردم في قلب الصحابي الجليل وأقوم من دمه الذي جف قبل أن يسيل في القفر والصحاري. يجب أن تصدقوني في حدود الحلم الذي لا يموت أبداً. رأيت الحلم مثلما أرويه الآن لكم. ليس حلماً، بل هو جزء من جحيم الليلة السابعة، قبل أن تعوم المدينة في دخان القذائف التي كانت تأتيها من البحر ومن قلعة علماء (حكماء) المدينة السبعة وتستيقظ على الصحف اليومية وهي مرمية في الأزقة، عليها وجه



Twitter: @ketab_n

الحاكم الجديد ببلادته وابتسامته التي لم تقنع الرعية أبداً. لكن هذه قصة أخرى سأرويها فيما بعد بالتفصيل يجب أن تصدقوا فقط بأني لست مجنوناً ولكن ما عشته تجاوز حالات الجنون. ودعني الناس في ذلك اليوم بعيونهم المتعبة. كانوا مرعوبين من هذه العاقبة التي مست أوفياء المدينة. كل واحد تمنى لو أني صمتّ، فالزمن لا يتغير بالتعنت. تمتمت وعصاي في يدي صارت أثقل من حجمها.

ـ ارجعوا، فإني أصبر على البلوى.

كانت الصحراء مخيفة ولكني قاومت، وصلت مقوس الظهر، أبيض الشعر، الوجه المتعب فقد ملامحه والرمال ملأت الذاكرة. سمعت كثيراً من اليأس ولكني هذه المرة رأيته بكل ملامحه، سمعت صوته، شممت رائحته. ومع ذلك ظل هناك داخل الفراغات، شيء ما يشدني إلى الحياة، كان أكبر مني ومن يأسي. كان علي أن أقاوم، أن أبني ذاكرة للمستحيل. كانت عيون الحاكم الرابع مليئة بالدم والموت. أسنانه تتطاحن بقسوة. حين رأى وجعي كان كل شيء قد انتهى ونيران الصحاري بدأت تصعد من تحت أقدامي. أشار بعيداً بإصبعه الذي تورم من عادة المص في الطفولة والتي يجد لذة في ممارستها حتى الآن في لحظات السهوة أو الغفوة الخفيفة التي تنتابه عادة عندما يفكر في هموم الرعية التي تركت منذ زمن بعيد على الهوامش.

ـ إلى الجحيم. صحراء الربذة مآل المشعوذين.

ـ اتركوه يموت هناك.

انسحبَ ولم يترك إلا ظلمة القبور الموحشة. لكن أنا البشير الموريسكي مادخلي في هذه التفاصيل التي أشعر بعذاباتها تملأ قلبي والصراخات على أطراف اللسان. ما دخلي؟ أوف يبدو أن القصة ما تزال طويلة كخط من نيران جهنم. يا الله من يطفئ هذه الكآبة التي تأكل بؤبؤ العين ونبض القلب. من يعيد النار المسروقة إلى ذويها. سأقبل نار الرمال وحر الموت ولا أضع أنفي تحت


Twitter: @ketab_n

الأحذية التي لا تتنفس إلا خواءها. يا صاحب الأبواب العالية والأبراج التي لا تعرف الإعوجاج. لو سحق الرأس بالحجر، بين السيف والمقصلة، بين الذاكرة والهزيمة، بين الخوف والرعشة الأخيرة، لن ترى مني إلا ما ترفض عيناك أن تراه. فإذا كان الله قد تخلى عنا، فلن نتخلى عن أنفسنا.

الصحراء تملأ حلقي. الشمس فتت العظام المتبقية. الدنيا صارت مساحة من الخلاء. الأرض لم تعد أرضاً، والشمس لم تعد شمساً، الأرجل فقدت قدرتها على المشي. شيء ما يصل حتى الأعماق، يجذبني باتجاه الأرض، لست أدري كم استمرت اللحظة، سبع سنين؟ سبعة قرون؟ سبعة أجيال؟ لا أعلم. كل ما أعرفه هو أن الكابوس استمر طويلاً. حتى الراعي الذي وجدته عند مدخل الكهف لم يقنعني في البداية بسهولة، كان علي بذل مجهود كبير لفهمه والتقرب منه، لست أدري لماذا أسبق أحداث الرواية. فمأساة قفر الربذة لم تنته بعد. فجوة الجحيم تملأ الدماغ. الشمس التي كانت في السماء أصبحت تملأ القلب. ماذا أفعل يا ابن أمي؟ لقد انتعش جحيم الليلة السابعة. الرمال تسد الحلق. التنفس يزداد ضيقاً، والله يسحب أياديه من تحت معاطفنا بهدوء السارق. الصفرة ملأت الوجه حتى صارت شحوباً. النعال التي صنعتها من جلد الماعز انتهت مقاومتها من كثرة الانعطافات والمشي، ورائحة القديد تملأ فمي وجسدي. هل هذا مجرد حلم أو حكاية ستحكى للأطفال؟ إنها النهاية التي كانت تزحف نحوي بسرعة مخيفة. نهاية للزمان والمكان. نهاية المطاف.

- إني ثقلت على الحاكم الرابع بالحجاز كما ثقلت على معاوية بالشام. أول ليلة من هذا الجحيم قضيتها في خباء مهلهل، منصوب على تل الربذة بجوار نخلة مغبرّة، ظلت تنحني حتى ظللتني عن آخري أنا وزوجتي وابنتي (ابنته) عمارة، وابني ذر، الغيمات القليلة التي غطت رؤوسنا طوال الرحلة بدأت تموت عطشاً وجوعاً. لم يكن موت الرمال أرحم من عذاب الحاكم الرابع، والحاكم الذي خرج من


Twitter: @ketab_n

تحت إبطه المعرق. خيط الشمس القاسي أضعف دقات القلب. عواء الذئاب تكاثر حتى فرض ألفته علينا. زاد أنين عمارة، فقدت ملامحها ولم يبق حياءها الذي لم يجد وجهاً يستقر عليه. إشراق الشمس تجاوز شكله العادي. خيوط الاحتراق تبلل الجسد بالنار والعرق. طلبت ماء. نفذ الماء يا ابنتي. نتوهم فقط يا عمارة فالله لن يتخلى عن محبيه. لكن الله الذي عرفناه في زمن الهدنة لم نره لحظات الشدة. كان ينام مثل أية عملة ضعيفة في جيب الحاكم الرابع. يحركه، يشنشنه، يداعب أوهامه وفضوله. فالله يا عمارة القلب كان مع الأقوى. وكنا الضعفاء. لم تبق أمامنا إلا مقاومة الموت الرخيص ماء.. ماء.. ماء.. لم يبق شيء منه يا ابنة بنت الرفيعة. سقطت، وضعتها على كتفي.. مشيت، لكن قساوة رمال الربذة ازدادت سواداً. كانت وردة برية مليئة بالعطر ونوار البوادي، فأصبحت تربة. حفرت القبر بأظافري وسجيتها مثل وردة قطعتها يد قوية. لم يطل بي الزمن كثيراً، حتى واريت أخاها في حفرة بذلت مجهوداً مضاعفاً لإتمامها بسبب الوهن. أخرجت الحصى والحجر حتى لا تؤذي جسده النحيف صخور الربذة السوداء. لم أكن أعلم أنّ الشمس كانت تحفر قبورنا جميعاً وأن الجحارة التي كنت أرمي الذئاب بها أصبحت عزيزة حين لم أجد شيئاً أتوسده سوى الرمال الحارقة.

- يولدون للموت، ويعودون للخراب، ألا حبذا المكروهات بعدكما يا ابني.

تنفسنا بعدها في خلاء الخوف مدة ثلاثة أيام وبعضهم يقول سبعة أيام. المقاومة المتبقية جفت داخل الصدر الذي ضاقت أنفاسه. وبدأت العين لا تحدد ملامح الأشجار والنخيل والرمال، والحيوانات البرية الشاردة في كل الاتجاهات، والأذن لا تسمع أصوات الذئاب التي كانت تزحف باتجاهنا جماعات جماعات، تدفعها إلينا صخور الربذة السوداء ومياه السراب. الوجوه الطيبة انطفأت واحداً واحداً، والصحراء ازداد اتساعها. جسدي يثقل،



Twitter: @ketab_n

والوهن يصعد إلى قلبي إنه دنو الأجل يا أم عمارة. الجسد منهك، والعواصف تملأ الذاكرة. السقطة الأولى اعتبرتها عادية، ولكنها تكررت كثيراً وأصبحت تتقارب الواحدة بعد الأخرى. غار المحجران وبدأ بريق العين يزداد ضموراً. في المرة السابعة لم أستطع الوقوف. كان كل شيء قد انتهى وعرفت أني لن أقوم أبداً. نزلت على وجهي سحابة الموت الباردة وسالت الدمعة الأخيرة باردة باردة، باردة.

ـ سأموت يا أم عمارة.

لم يكن بإمكانها أن تخبئ الحقيقة. لم أر وجهها ولكنني شعرت بها تلتفت صوب القبلة وتصرخ بأعلى صوتها وتبصق بكل ما أوتيت من قوة باتجاه الفضاء.

ـ ليس عندي ما أكفنك به يا أبا ذر.

ـ دموعك تكفيني يا أم عمارة. لقد نسينا الله في هذا القفر. إنه لا يسمع إلا للقوي. حين خرجت من باب الحاكم الرابع، رأيت للمرة الأخيرة وجهه الذي هرب الدم منه، عرفت أني سأموت وحيداً في خلاء القفر كما قال الطالع في بلدتي، وقبل أن يغلق الباب في وجهي، كان دود الصحاري قد بدأ ينزل من جذوع النخيل والموت يركض باتجاه الجسد الواهن.

في الحقيقة يا سيدي، تقول دنيازاد التي جف ريقها، هذه القصص لم تروها شهرزاد لأنها كانت تخاف من عظيمها أن يسمل عينيها لأنه كان يتعشق طلعة الحاكم الرابع. كانت تحفظها عن ظهر قلب، لكنها عندما تصل إليها، تختم الجلسة، وتؤجل التتمة إلى الغد، وفي الليلة الموالية تسترسل في كذبة جديدة، بعيداً عن الحقيقة. كان عظيمها يا سيدي الحكيم صعباً ومريضاً مازوشياً، لا يجد الشهوة واللذة إلا داخل الدم ولهذا صمم على ذبح كل نساء المملكة، وجاءت شهرزاد لتوفر له لذة الذبح من خلال الحكاية ولهذا يا سيدي



Twitter: @ketab_n

الحكيم، كانت في كل قصة من قصصها، تنهيها بذبح امرأة وما شابه ذلك.

- أكان ابن الكلب غافلاً لهذه الدرجة؟

- لا يا سيدي المسألة ليست مسألة غفلة. قلت لك كان مريضاً.

- ما شأن الغرناطي المتوهم بعد أن سقط مثله الأعلى في الصحراء؟

في الحقيقة كان البشير الموريسكي يعلم علم اليقين، أن ما رآه كان كابوساً لكن الذي لم يفهمه أنه عندما استيقظ داخل الكهف وجد يديه محروقتين من شدة الحر، رجليه مبوقتين مليئتين بماء الاحتراق، فمه وأنفه غاصين في الرمال. وجد أشياء كثيرة ربطته بالحكاية التي عاشها. حين استيقظ من الإغفاءة الأولى حاول جاهداً أن يقنع نفسه أن ما حدث ليس إلا أحجية عذبته مدة من الزمن لكن حتى هذا الأمر استصعبه. صحيح أن صحراء الربذة بعيدة عني بعد الله عن الخليفة لحظة استنجده أبو ذر. ولا أثر لذلك كله داخل هذا الكهف البارد، وهاهي ذي الشمس تتسرب من بين الشقوق، لكن المؤكد هو أن حربا ضروساً مرت بذاكرتي. تفاصيلها تملأ القلب والرأس المجروح. الفراشات التي كانت تنزل على صدري الواحدة تلو الأخرى انطفأت، ضاعت ألوانها الزاهية وسط الفراغ المقلق. حاولت أن أتحسسها واحدة واحدة وأنا أشعر بالوميض الأخير يغادرني إلى المجهول، ويتسرب من عيوني باتجاه الله الذي ضيع المكان والزمان، صرخت حين بدأت الفراشات تسقط الواحدة تلو الأخرى: أم عمارة؟ أم عمارة؟ الفراشات التي سقطت على صدري بدأت تلد دوداً مجنحاً وتموت ثم بسرعة تتفتت وتندثر وكأن وجودها كان مجرد كذبة. صرخت بأعلى صوتها وهي تنزع الملاية لتضعها على صدري..

- امرؤٌ يموت في الخلاء ولا يجد من يكفنه.

القافلة الراحلة لم تتحسس جيداً مصدر الصوت، ولم تعره



Twitter: @ketab_n

انتباهها أبداً. لكن استمرار الندب جعلها تتوقف من جديد وتحدد مكان الاستغاثة. ركضوا صوبنا، لم يكونوا يعرفون أن الحاكم الرابع لو علم بأمرهم سيقطع رؤوسهم الواحد تلو الآخر والجرذ الأحمر الذي نبت تحت إبطيه سيرقص حتى السكر لمنظر الدم. كان امتداد الشمس قد بدأ يتقلص في عيوني التي غشيها الظلام بشكل فجائي. والصحراء تصغر وأيام الحشر تفقد رهبتها. ورياح الظهيرة ازداد أوارها، الدنيا بدأت تغيم تحت العاصفة الرملية الهوجاء، ومع ذلك استطعت أن اتبين الملامح العامة للقافلة التي صارت على مقربة مني. الوجوه ظلال والإبل ظلال والنخلات التي كانت تؤوي عريي ظلال. ألبستهم كانت من الرمال. مدوا أياديهم للمساعدة. خفت أن أتلوث في آخر لحظات العمر، وأنا أتنفس آخر الأصوات وآخر لون لآخر سماء. الفجوة التي كانت تفصلني عن الله، والحاكم الرابع ازدادت إتساعاً. لم يكن أمامي إلا أن أقولها.

- أرجوكم. لا يكفنني رجل منكم، كان أميراً أو عريفاً أو بريداً أو نقيباً.

عرف بقايا ملامحه رجل من الأنصار، كان من الصعب عليه نسيان الفقر والجوع الذي عاناه مع الحاكم الرابع.

- عرفت ألمك يا أنبل بني الناس. أنا أكفنك يا عم في ردائي. لي ثوبان من غزل أمي، حاكتهما لي لأحرم بهما.

- أنت تكفّنني.

لم أسمع (لم يسمع، هو) إلا صوته. وجهه كان قد غاب، وانطفأ النخيل وانسحبت الصحراء والنجوم باتجاه ظلمة قاسية، حتى شمس الربذة الملتهبة دخلتها نعومة باردة. حاولت أن أفتح عيني (أنا)، كانت الظلمة مقفرة، والحلق ترمل حتى صار التنفس مستحيلاً. أيعقل؟ قوال في جوف النار؟ وهو الذي تحدث عنه السابقون، الصادقون، أن النار ستتوقف عند أقدامه رعباً وخوفاً، وأن الجنة ستخضر سبع مرات لإرضائه. ملامح الحاكم الرابع لم أتبينها كما



Twitter: @ketab_n

يجب ولكن لا أحد يخطئ في ظله وفي قامته الناتئة التي تشبه كثيراً، في صفاتها الخارجية، قامات ملوك اليوم. علاقتي به بعيدة جداً. بيننا قرون من الصراخ والأوهام الكثيرة. في الواقع كل ما حدث كان على هامش الجحيم الذي سكن أحلامي في هذا الكهف. للحقيقة وجه آخر، تذكرته بصعوبة ولكني تذكرته. قبل مجيئي إلى الكهف كنت قد هربت من حي البيازين باتجاه المارية. آه يا المارية؟ فيك الحنين وفيك أجمل ما يحلم به القلب العيَّان، فيك ماريانة التي باعت الدنيا والفجر والبحر ولونه الأزرق، بحثاً عن الأشواق التي لا تموت. فيها الكثير من حزني وشوقي. حين غادرت مدينة البحر كانت محاكم التفتيش تحضر الأرواح وتبحث عن الأصوات المخفية بين الناس. هل أهرب من الذاكرة؟ أم أظل فيها وسط هذا الكابوس المتصدع كالحائط اهرم؟ لم يكن أمامنا خيار آخر يا أبا ذر يا ابن أمي. ما حدث لم يكن عبثاً. الكل كان يسير وفق زمن لا يخطئ. مثل زمن الألم الذي دشن بمجيء الحاكم الرابع لليلة السابعة جذور تمتد من تلك اللحظة الحزينة. كان علي تصديق كلام الراعي الذي وجدته فيما بعد عند بوابة المغارة يعد الأوقات بالأزمنة الرملية، ليؤكد لي أن حضوري كان مكتوباً، وأنه لا خيار لي أبداً في الاختيار. هضمت الأمر بعسر كبير. لكن الوجوه التي عاشرتها في الليلة السابعة أكدت لي أن ما قاله الراعي لم يكن بعيداً عن الحقيقة.

فترة النوم التي قضيتها داخل الكهف تبدأ في الظاهر منذ الفترة الصباحية عندما قادني إلى هذا المكان جماعة الملثمين السبعة الذين انسحبوا بسرعة بعد أن أكدوا لي على ضرورة الارتياح والنوم. حين تقوم ستجد من ينتظرك. أصابتني بعدها الإغفاءة اللذيذة، التي لا تقاوم. المؤكد أني عندما دخلت إلى الكهف كان اليوم يوم جمعة والسنة 1687. غادرت غرناطة مجبراً، ودعتها بعيوني فقط (في الحقيقة لست مهتماً كثيراً بما قاله لي فيما بعد أصدقاء الحكيم الأجانب الأربعة: الأمريكي، الإنجليزي الفرنسي والألماني). حملت حزني وجسدي وعبرت البرية وجبال غرناطة حتى وصلت إلى مرفأ



Twitter: @ketab_n

المارية الصغيرة، كانت تنتظرني هناك بعيون مليئة بالحيرة والشوق والخوف، ماريانة الغجرية. كان من الصعب علي تركها وسط الفراغ وكان من الصعب عليها ترك نجوم المارية التي ولدت تحت نورها الوهاج. وكانت محاكم التفتيش المقدس ترفع في وجوهنا محارقها وإرهابها وتملأ المدافع الإيطالية بأشلاء الهاربين من الموت إلى الموت قلت لها بعد اليأس الكبير الذي اعتراني بعد فشلي في إقناعها بالذهاب معي باتجاه العُدْوة الأخرى التي وعدتنا بالجنة والخير والأنوار.

- ماريانة، هل أسافر بدونك؟ أي سوق تتحملني في غيابك.

- سأظل لك وحدك. البحر يا البشير أحبه ولكنه ليس لي. والمارية ستنساني حين أغادرها. أحبك يا البشير وسأحكي كثيراً عن حلمك في الأسواق. وضعت يدي على قلبي، كانت زرقة المياه قد سحبتني إلى خوائها، حين استيقظت من الغفوة كانت شواطئ سيدنا يوشع (هكذا يقال) المليء بالأحجار والصخور اليابسة. كانت الرمال ساخنة والشمس مقلقة في غير فصلها. اختلطت الحقيقة بالأسطورة لأن ما سمعته مخالف لذلك تماماً، فقد عثر الأطفال على جثتي، وتلاعبوا بها كثيراً قبل أن يفكروا يرميها من أعلى قمة جبلية للتسابق معها في الفضاء وتحديد من يسقط الأول في زرقة الماء. وقبل أن يكتشفني الرجل الطيب (أو القرصان) ويسرقني منهم مقابل بعض النقود التي رماها في حجر كبيرهم. ويقال في رواية أقرب إلى الصحة إن سفن القراصنة الأتراك هي التي قادتني إلى الحاكم بعدما عثروا علي نصف ميت.

حين استيقظت (وهنا تبدأ الحقيقة التي عشت تفاصيلها بوعي) واجهوني بتهمة الجوسسة لصالح السفن الإسبانية التي ترابض على السواحل الوطنية. قادوني بين كل المحاكم المرخص لها بمحاكمة المجرمين الذين خانوا الوطن والملح والأحباب. شتموني، بصقوا على وجهي، ضربوني حتى قيؤوني الدم. عضني القاضي مرتين من كتفي وفخذي لأنه لاحظ الكذب يتراقص في عيني. أقسمت له برأسه



Twitter: @ketab_n

وبرأس كل الأجلاء أني مجرد قوال هارب من أسواق غرناطة، من أصداء محاكم التفتيش التي كانت عيونها تقف في كل صباح عند مدخل البيت، أحياناً تضيّع يومها بكامله في اقتفاء خطواتي وفي أحيان أخرى تقضي بقية اليوم مع ماريانة لأنها كانت تشك فيها بأنها تمارس الهرطقة. سألني الحاكم التركي سيد الدنيا هو يطمئنني بأنه لولاه ولولا الأرمادة التركية لكنت قد مت غرقاً في البحر العاصف. وأن القرصان الإيطالي صاحب السفينة، الذي حملني من المارية، هو الذي أكد على هويتي السرية وأني مرسل لمصلحة سفن الإسبان، وقدم للأرمادة التركية الجواز الذي رخصت لي محاكم التفتيش المرور به إذا ما صادفنا سفناً إسبانية في عرض البحر. حاولت أن أشرح قصة الورقة وعن دور أخي في تحصيلها من صديقه اليهودي ساmويل الذي كان يبيعها بالدوقات الذهبية. حرفة البيع والشراء التي هدمت أسوار غرناطة. ضحكوا حتى انكفؤوا على ظهورهم وقالوا بصوت واحد: ابحث عن غيرها.

ثم سألوني عن ماريانة، تفاح المجانين وأسطورة الفجر، وحليب اللوز المر. قلت اخترت أرضي واختارت التربة التي فتحت عيونها عليها. في قلبها حنين كبير وفي ذاكرتها خوف الهزيمة ولهذا اختارت البقاء يا سيدي العظيم. غجرية في دمها شوق الموريسكيين وشراستهم. صرخ في وجهي، أنا لم أسألك عن خازوقك أيها الجاسوس. في الأخير أصر القاضي مع الحاكم التركي سيد الدنيا، أني جاسوس. يجب أن أتقيأ كل المعلومات التي أخبئها عليهم قبل الجلوس على الخازوق المهيأ عادة للجواسيس. قالوا بأني أكثر من ذلك كله، ساحر وداعية كذاب، باع غرناطة، آخر معاقل الدولة الإسلامية لجحافل الإسبان وقبض ثمنها دوقات ذهبية وفضية للممالك الشمالية. قلت يا سيدي هذه الصورة هي الشكل المعكوس للحقيقة. محمد الصغير، ورأسك محمد الصغير الذي سحرته إيزابيلا، ملكة قشتالة بعيونها وتفاحتي صدرها. الثمن الذي قبضه مقابل رؤوس الغرناطيين كان رخيصاً. قال لها صدرك ولك



Twitter: @ketab_n

البلاد والعباد. قالت يا أبا عبد الله، صدري بعيد بعد النجمة السحرية عن ذاكرتك. أعرفك مثلما أعرف هذه الجبال الوعرة. ربيت على يدي يا محمد الصغير. ثم غرّقته وسط الدوقات الذهبية وفروج القشتاليات التي أذهلته نعومة زغبها الأصهب. وفي الصباح ركب حصاناً هرماً ملأه بالألوان الموريسكية الزاهية وسار باتجاه الربوة المطلة على المدينة التي تسربت من بين يديه كالرمال. كان منهكاً من جراء مجهود ليلة البارحة التي قضاها في حجرهن يتململ عارياً كالفأر. لم يلتفت حتى وصل إلى الربوة ثم أطلق زفرته الأخيرة (الربوة سميت فيما بعد بهذه El Ultimo Suspiro Del Moro الزفرة)، وقبل أن يواصل صعوده المتعب باتجاه المجهول، تصاعدت إلى أنفه رائحة الأجساد المتفسخة. ظنها في البداية منبعثة من الحصان الذي كان يركبه، من جرح غائر فيه لحظة سقوطه أثناء الصعود إلى قمة الربوة، ولكنه في الأخير عرف أن الرائحة كانت تصعد من جثته التي بدأت تتفسخ قبل الأوان. لم يصدقوا هذا الكلام واعتبروه مجرد تخريفة من تخريفات الكهان والسحرة. يئست بعد أن استنفدت كل طاقتي. ترامى السؤال القديم إلي، ليعيد إلى ذاكرتي وجه ماريانة، أيعقل أن تكون الأرض الأخرى أردأ من محاكم التفتيش؟ السؤال لم يكن وهمياً لأني سأتذكر فيما بعد كلاماً قرأته لصاحب نفح الطيب (المقري) حين كانت أول وآخر مدينة دخلتها بعد مأساة الكهف تحترق مثل لعبة كبيرة صنعت من التبن، «تسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله تعالى في الطرقات، ونهبوا أموالهم، وهذا ببلاد تلمسان وفاس ونجا منهم القليل من هذه المعرة، وأما الذين خرجوا في ضواحي تونس، فسلم أكثرهم، وهم لهذا العهد عمروا قراها الخالية وبلادها وكذلك بتطوان وسلا، ومتيجة الجزائر...». اتضح لي في نهاية المطاف أن ما رأيته في الكهف، عن الحاكم الرابع، لم يكن إلا جزءاً يسيراً من مأساة خيط الدم الرفيع الذي ينطلق من ظلمة اللية السابعة. أصر الحاكم التركي سيد الدنيا على أني مجرد داعية وأن غرناطة ما سقطت لولا أمثالي.



Twitter: @ketab_n

كان رأسه غليظاً مثل أحجار الوديان الزرقاء، مليئاً بالنياشين الملونة.

- ضعوا أمه في الحبس. ابن الزانية...

وظلوا طوال الستة أيام التي تلت حبسي وهم يسألونني عن الصغيرة والكبيرة ولم يتركوا حتى التفاصيل الدقيقة التي يمكن أن تجمع رجلاً بامرأة. وفي اليوم السابع جاء الملثمون السبعة وأنقذوني (كانوا في البداية ستة) بعد أن قادوني باتجاه الكهف وطلبوا مني النوم. كانوا يجرّون في أثرهم كلباً أليفاً لا ينبح إلا عند الضرورة. قالوا نم وحين تستيقظ ستجده عند الباب ينتظرك. في الحقيقة لم أنتبه لا لشكله ولا لونه ولا حتى لهيئته. لكن طريقة نباحه التي تحمل بحة خاصة ظلت عالقة بذهني. ترى أين هو هذا الكلب الآن؟ ربما يكون قد ترك عند انسداد الباب حتى لا يزعجني. بدأت أشعة الشمس تفقد بريق صفرتها وهي تميل نحو المغيب، منعكسة على ظلمة الكهف. هاه؟ هاه؟ هذه فجوات التبليط، يبدو أنهم حين غادروا (الملثمون السبعة) الكهف سدوا المكان من روائهم، وتركوا الفجوات خوفاً علي من الموت اختناقاً داخل هذه الحفرة. حاولت أن أتتبع صوت الكلب، الذي بدأ يقترب، تأكدت من خلال الأصداء أن مكان التبليط هو نفسه الباب الذي سُد قبل الخروج. حاولت أن أقنع نفسي بأن ما يجري لا يمكن أن يكون امتداداً لكابوس الحاكم الرابع. مددت يدي باتجاه الفجوات، نزعت الأتربة، بمجرد أن لمستها حتى بدأت تتساقط الواحدة تلو الأخرى. قطعاً، قطعاً، حتى اللباس الذي كنت أرتديه بدأ يتفتت بمجرد أن لامس الصخرة الكبير التي حاولت إزاحتها. ومع ذلك لم أشعر لا بالتعب ولا بالوهن، ولا حتى بالجوع. هل يعقل أن يكون كل هذا الزمن قد مر على اللحية التي أصبحت تملأ وجهي؟ مر عليها الزمن الآخر حينما تمدد السيف القشتالي على الأعناق التي قدمها أبو عبد الله، محمد الصغير، للممالك الشمالية القادمة من الثغور المهملة. لم يكن أمام الأجداد خيار غير الالتجاء إلى قمم الجبال التي ما زالت تحفظ حتى الآن



Twitter: @ketab_n

صراخاتهم ولم يبق أمامي سوى ركوب بحر المارية أو النوم على صفائح محاكم التفتيش المقدس بتهمة مخالفة التاريخ المدون في الكتب المذهبة والمغلفة بالقطيفة الملونة والخروج إلى الأسواق ورواية أخبار الآفلين من العرب والبربر والعجم. كنت أرويها كما عشتها أو كما عاشها الصادقون من الأوائل. أخر المجانين كنت. أروي حكاية السقوط كما كان يجب أن تروى لا كما كتبها الوراقون.

عندما نُزعتِ الأتربة، انزلقت بعض الشلالات الضوئية الناعمة من الفجوات ثم بدأت الصخرة الكبيرة تتزحزح وتميل باتجاهي ببطء مخلفة صوت شجرة عجوز وهي تنقلع من جذورها. وما كدت أبتعد إلا قليلاً، حتى كانت الصخرة قد هدأت بعد هزة السقطة العنيفة. اندفع الضوء بقوة، وأصبحت أميّز بين الأشكال التي كانت تحيط بي. نفضت يدي. شعرت بالحراشف تملأ حلقي وتسده. تذكرت السطل الذي تركه لي الملثمون قبل أن يغادروا المكان وصرّة الكتّان التي وُضع فيها الأكل، لم أجد صعوبة كبيرة لإيجادهما. مددت يدي باتجاه السطل، فلم أسحب إلا نصفه الأعلى لأن النصف السفلي كان قد تحول إلى أتربة. أما الصرّة تفتت قبل أن ألمسها بيدي. تأكدت هذه المرة أن الزمن الذي مرّ لم يكن هيناً، وأن ما وقع لي ليس بعيداً عما حدث لأهل الكهف. الفارق بيننا هو أن نومتهم استمرت هادئة حتى لحظة الاستيقاظ، بينما ما حدث لي هو بعيد عن هذا كله. فقد عشت جحيماً مخيفاً طوال الليلة السابعة التي لا أعلم بدقة كم دامت قبل أن تنطفئ.

ما حدث يا سيدي بعد ذلك هو أنه واصل عملية الحفر للخروج من المغارة التي كان يحلو له أن يسميها كهفاً. أخذ السطل أو ما تبقى من السطل وبدأ يزيل كتل الأتربة حتى بدأت النسمات البحرية الباردة تتسرب بكميات هائلة مصحوبة بأشعة شمسية زرعت الكثير من الدفء في ذاكرته الباردة. صوت الكلب الذي كان بعيداً أصبح يقترب أكثر فأكثر ويزداد وضوحاً. تدحرج يا سيدي شهريار بشق


Twitter: @ketab_n

الأنفس خارج الكهف. بدأ يميز بين أصوات الطير والبحر والنباح وتكسر الموج و... البحر لم يكن بعيداً. هكذا خمن. الكلب الذي كانت أصداء صوته تصله متقطعة، أصبح الآن يقف في مواجهته. تشممه ثم عاد إلى مكانه. قال له علماء المدينة فيما بعد إنه الكلب قطمير، كما وصلهم ذلك من إحدى روايات حسن البصري... قالوا له أكثر من ذلك كله، إنه حينما خرج من الكهف كان مخيفاً، كل من رآه، ولى الأدبار، ممتلئاً بالرعب، من المهابة والخوف. لا يقع نظر أحدهم عليه إلا وهابه خوفاً من الاحتراق والتحول إلى غبار، سرعان ما يندثر مع أولى الرياح التي لا تهب إلا من ناحية البحر البارد. شيء ما فيه كان يسير على غير عادته. أكد له علماء المدينة على أشياء كثيرة لم يكن يعرفها قبل هذا الزمن.

- أنت لن تموت حتى يبلغ الكتاب أجله وتنقض رقدتك الأبدية.

الذي حدث بعد ذلك أيها الملك الفاضل، هو أنه عاد إلى قلبه وذاكرته وشرع يبحث عن إجابات مقنعة على كل الأشياء التي كانت تملأ قلبه.

هاه يا البشير؟ أنت تذكر أنك حين فتحت عينيك، قلت، ربما مكثت يوماً أو بعض يوم. دخولك إلى الكهف كان في أول النهار وخروجك منه كان في آخره. حين شقت الظلمة عينيك لم ترَ البلاد التي فتحت فيها قلبك قبل زمن بعيد. أهل الكهف كانوا مثلك يا ابن أمي، دخلوا بلاداً وخرجوا بلاداً، ففوجئوا بناس آخرين لا يعرفونهم ووجوه محفورة وباردة لا عهد لهم بها أبداً. مدينة يجهلون سرها، لا يعرفون لا خواصها ولا عوامها لا صغيرها ولا كبيرها. وقبل أن يتهموا أنفسهم بالجنون تذكروا الجحيم القديم. سأل أحدهم عن الطعام، قيل له اذهب إلى سوق المدينة. حمل النقود وانحدر باتجاه الشوارع الخلفية التي بدت له غريبة. وحين قيل له إن نقودك انتهى مفعولها منذ أكثر من ثلاثة قرون شك أن تكون المدينة مدينة دوقيانوس. دوقيانوس كانت قد اندثرت وأنت يا البشير تواجه خراباً لا عهد لك به أبداً. الأتربة تملأ الجسد المنهك، اللحية متدلية



Twitter: @ketab_n

مثل خيط جهنم، والكلب عند بوابة المغارة يروح ويجيء كأنه يعرفك جيداً. يتشممك، يذهب ثم يعود ليقف عند أقدامك يلعب بذيله الملون. قيل لك فيما بعد إن الزمن الذي قضيته يتّحدد بثلاثة قرون، تزيد تسع سنين بالهلالية وهي ثلاثمائة بالسنوات الشمسية. حين جلس علماء البلدة يحسبون، يقول الراعي الذي واجهك عند بوابة الكهف، ينقصون ويزيدون، ينزعون ويضيفون، حتى اتفقوا في النهاية على رأي واحد، لم يخطئوا إلا في السنوات الهلالية الزائدة... كانوا متأكدين أنك ستأتي بعد ثلاثة قرون بالتمام والكمال. حياتهم بكاملها كانت متعلقة بدقة الحسابات التي كانوا سيخلصون إليها لأن القصر في الجملكية (نظام مستجد يجمع بين عراقة النظام الملكي وديمقراطية النظام الجمهوري) أكد للناس مراراً، أن العلماء ليسوا أكثر من جماعة من السحرة، الكذبة، الخدعة السفلة، أدعياء الحكمة المزيفة. لكن الذي لم تصدقه الرعية هو لماذا لم يستطع القصر تصفيتهم؟ يقولون إن خوفه منهم دفع به إلى وضعهم بعيداً عن وسط المدينة، خوفاً من تأثيرهم، فنفاهم إلى أعلى قمة داخل الجملكية. لكن للقصة وجه آخر يا سيدي. طوال الأزمنة الماضية وهو يحاول أن يستولي على قلعتهم لأنها قريبة من الكهف. فمن كان يملك الكهف، فهو سيملك مستقبل المدينة. كانوا يعرفون ضعف القصر، لأن عمال البحر المتحالفين مع الحكماء كانوا يقطعون البحر على سفنه.

تمنى أن يتنفس البحر دفعة واحد، لكن ضيق صدره لم يسعفه كثيراً. جلس عند البوابة التي كانت تشبه خراباً مرت عليه قرون من الأزمنة، على صخرة ضخمة مطلة على البحر. بدأ ضباب الجحيم السابع يغيب عن وجهه، وتندفع إلى صدره المدن البعيدة التي لم ينس روائحها ولا كآبتها وهي تودعه للمرة الأخيرة.



Twitter: @ketab_n

# 2

الشيء المؤكد، هو أن زمناً بعيداً مر عن ذلك الحادث الذي دفع به إلى إعادة تركيب كل الأشياء القديمة التي جاء بها من مدن لم ينسها أبداً. زمن بعيد، يعد بانسحاب الأنجم من السماء، والأقمار، والسحب التي أجبرت على الاستلقاء فجراً على صدر السماء ثم غابت فجأة وفي قلوبها شيء من الأسرار المخفية وغصة الذي جاء ثم عاد قبل أن يرى المهزلة التي تملأ فجوات الحيطان الضيقة وصالات الاستقبال الباردة في السجون التي تتجشأ بها أقبية المدن. من كان يحب الله يا ملك الزمان وحاكم القرن العشرين، سيجبر على الوقوف لحظات طويلة أمام هول المأساة ويواجه الحزن الأسود لحظة دخول المهزلة بين مسامات الجرح المقيح. صرخ بأعلى صوته، كأنه يعوي وسط خواء مليء بالأصداء.

- يا الله لماذا تخليت عنا؟

عبدناك حتى تشققت الركاب من كثرة الركوع والسجود وتقعر الجسد وتجوف مثل الإناء من كثرة الوضوء و... وها أنت الآن تتركنا وحيدين نواجه بصدر مفتوح اصداء ورماد المدافع الإيطالية والجيوش القشتالية في حرب غير عادلة قبض ثمنها سلفاً. حتى في حرب البشرات لم نعثر عليك ولا على ظلك. كنا نطحن من هول الذعر ومع ذلك لم نستسلم. أكلنا التربة الحمراء التي جرحت هدوء الجبل العالي. الجرح اتسع يا الله لكن القلب ظل مليئاً بالنور والأمل.

- لماذا تخليت عنا يا الله؟



Twitter: @ketab_n

حين استيقظنا ذات فجر بارد فوجئنا بمحمد الصغير (أبو عبد الله) يسرق دمنا وعرقنا، يبيعنا ويبيع معنا الجبال التي وقفت باستقامة في وجه المدّ القشتالي. نصحنا بالانصياع إلى أمر الله والمكتوب والتسليم بالأمر الواقع، فالهزيمة تقرأ في وجه الناس والمدينة. صرخنا، القلاع كثيرة ونستطيع أن نقاوم بدون يأس. قال أخذوها. قلنا، اعط الأوامر وسندافع حتى الموت. قال، حتى هذا غير ممكن. الجيوش القشتالية في شوارع غرناطة، فرديناند وإيزابيلا يمسحون حي البيازين من آخر المقاومين. قلنا البيازين والموت شيء واحد. قال، لا تلقوا بأنفسكم إلى التهلكة، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله قتلها. صرخنا خدعتنا يا ابن الزانية، قال، خدعتكم النفس الأمارة بالسوء وتخلى عنكم أبناء العمومة في العُدْوةِ الأخرى. كان علينا أن نصدق أن ما حدث لم يكن حلماً، لأن المنطق المشلول كان قد بدأ يزحف نحو القلوب المتعبة.

الجحيم السابع أيها الملك الهمام، كان قد تحول إلى معدن جامد. عند بوابة الكهف كان المساء قد بدأ يلف المدينة بالدهشة والخوف. تحرك الكلب قام بعدة حركات لإقناعه بالسير وراءه. اقتفى خطاه قليلاً من وراء الصخرة العالية فواجهه راع ما تزال على وجهه علامات نوم مقطوع. التفت الراعي باتجاه المغارة، رأي الفوهة مفتوحة. دار سبع دورات على الشجرة الوحيدة التي نبتت في ذلك المكان بشكل غريب، ثم قفز في مكانه وهو يرتعد:

- هو ذا أنت يا سيدي العظيم. قطعت النار والقفار واخترت أن ترتاح في هذه الأرض الطيبة. ننتظر قدومك منذ أكثر من ثلاثة قرون. لقد تأخر مجيئك أكثر من تسع سنوات.

لم يدرك جيداً التفاصيل التي كان الراعي يفضيها أمامه. فاتحه بالقشتالية، لكن عيون الراعي المشدوهة بينت له أنه لم يفهم ولا كلمة مما كان يقوله. تكلم معه بالعربية، استبشر خيراً. ابتسم، مؤكداً بذلك عن ارتياحه.



Twitter: @ketab_n

قتلتهم يا سيدي؟ هكذا انطلق الراعي في حديثه. حاربت كل الأقوام، ثم استرحت دهراً من الزمن مثل المحاربين العظماء وجئتنا الآن لتقف شامخاً على حافتي العقل والجنون. هو ذا أنت الآن كما صاغتك كتب الأولين والفقهاء وذوي العلم المكين. بطل قادم من أغوار الدم، والردم والحفر الكثيرة والهزائم التي لا تحد، في قلبك قرون الجفاف، والأزهار البرية، التي لم تقتلها الشموس الحارقة. نبضك يا سيدي العظيم يملأ أصداء المدينة بكاملها. لو تأخرت ساعة واحدة ستموت الرعية كلها...

هل هي الحقيقة أم للحقيقة وجه آخر؟ إما أن الراعي مجنون، وهذا لا يبدو عليه أبداً، وإما أن الجحيم السابع غير كل شيء في رأسي؟ وأصبح العقل جنوناً. حاولت أن أعيد تركيب كل الوقائع من جديد لكن الأمر استحال علي لأن التعب كان قد أنهكني حتى العظم. كان الله قد بدأ يسحب يديه من صدري ويتركني وحيداً في برية الخوف مثلما فعل ذلك معي يوم ركبت بحر المارية، ويوم كاد البحر يأكلني ويرميني مثل القشة، ويوم وقفت عاجزاً في الدفاع عن نفسي أمام الحاكم التركي الذي أكد لي أني مبعوث في إطار الجوسسة من طرف السفن الإسبانية الرابضة في مواجهة السواحل الوطنية. كانت وثيقة محاكم التفتيش سبيلهم في الإدانة. في لحظة الخلوة كان الله قد تحول إلى محارب هرم وجلس بجانبي وبدأ يسألني عن رحلتي في البحر وكيف وصلت إلى هذه الأرض، تاركاً ورائي حنين غرناطة، وشوق الأحبة الذين صعب عليهم نسياني، قال في لحظة إنزعاج من صمتي، احك يا ابن القتشالية. احك... ماذا حدث؟ لم يحدث شيء يا سيدي يستحق الذكر ويذهل صمتك الموقر. من الصعب أن يحكي المرء في حضرتك الأشياء العادية. قطب حاجبيه، نظر إلى عيوني شزراً، وقال من جديد: احك...

كان البحر يا سيدي واسعاً سعة هذه السماء الطيبة، وحين غاب الجميع، حضرت أنت لأنك كنت الوحيد المتبقي من كل ما كان يحيط بي، وكان علي أن أتشبث باسمك... احك يا ابن القشتالية، احك عن



Twitter: @ketab_n

البحر الذي لم يعد بحراً، عن أسماك القرش والظلام والغيبوبة والحلم الذي صار شعلة، عن الكوابيس المملحة بأملاح المحيطات التي لا يهدأ موجها، احك كيف رمتك السفينة أو رميت أنت بنفسك في اللجة وتشعنقت كالغريق بآخر الألواح الخشبية الهرمة. احك كيف رمتك الموجة العمياء على الشاطئ، وكيف وجدك الأطفال، قبل أن يفكروا في قذفك من الأعلى، قطفوك من الساحل المهجور، لعبوا بك كثيراً مثل دمية مشوهة. حتى ملامح الرجل الذي أنقذك لا تتذكرها جيداً. ولا تعلم بالأساس إذا كان هو حقيقة من أجل موتك أم هو الذي باعك للحاكم التركي أم أن القراصنة هم الذين وجدوك وقبضوا ثمناً لرأسك. احك يا ابن القشتالية عن الريح الزمهرير، وعن صهد النار الذي ملأ شوقك، وحنينك إلى الأرض الأخرى والخيبة وعن جهنم التي أنطفأ لهيبها عند أقدامك بعد أن اندفنت جمراتها داخل صدرك. احك يا ابن القشتالية عن السر المشوش في بؤبؤ العينين. احك... احك. صرخت بكل ما أوتيت من قوة، أمهلني يا الله؟ أمهلني، ذاكرتي متعبة وعيوني مثقلة بالخيبة. أمهلني حتى أستعيد جوهرك وهدوءك ثانية، لا أتذكر شيئاً مهماً...

البنايات الغرناطية الواطئة، الشوارع الملتوية الضيقة، انزلقت من ناحية السقف القديم، نصفه قرميد ونصفه الآخر تراب أبيض. كان يطل على السوق وحوانيت العطارين. لم يكن عندي في ذلك المساء ما أخاف عليه. ودعت حصاني في الإسطبل، كان ركوبه حتى المارية يثير الكثير من الشبهات حولي، أردت أن أبكي عند رأسه، لكن زمن الدمع كان قد تأخر كثيراً. ماريانة كانت على شاطئ ميدنتها تنتظرني. قالت يجب أن تأتيني، رأسك في أسواق غرناطة أصبح مطلوباً للقطع. حياتي بين الشاطئ المهجور إلا من التجار واليهود والغجر... ومقهى البحر...

عيون محارق محاكم التفتيش تملؤني... تتبعني... موت الوحدة صعب يا ابن أمي والأصعب منه أن تشعر أنك وحيد في هذه الدنيا، لا صوت يصرخ من أجلك ولا وجه يستطيع أن يستحضر


Twitter: @ketab_n

شجاعتك في زمن من الأزمان حين تضيق الدنيا على ذويها. من سيقول إنك لعنت محاكم التفتيش، ولم تخن أبداً خبز الذين أحبوك ثم تخلوا عنك للمحرقة. يجب أن يهرب وبسرعة، قالها رودريكو وهو أحد الغجر المقربين من محاكم التفتيش. كلفتها بالاتصال بأخي في المارية التي تعرفها مثل جيبها، حكت لأخي قصة المحاكم بالتفصيل، قال لا حل أمامه إلا ترك البلاد. وعدها بتدبير وثيقة المغادرة من صديقه اليهودي ساموبل، قالت له البقية علي وعلى اليهودي. قال لها وهو يريد أن يخبئ أحزانه، كم مرة قلت له دعك من صنعة القوالين، كنت أعرف أنها مهنة الغرناطيين وكلهم انتهوا تحت نيران المدافع الإيطالية أو داخل المحارق... لكن رأسه كان مثل رأس أحد أجداده الذين أكلتهم جبال البشرات... كيف ستواجه المحرقة يا ابن أمي سواء هربت أو ألقي عليك القبض وأنت تحاول أن تقطع الحدود. لكن لحظة الخوف أزاحها وجه جدي وأزاح معها وجه الله. لم أعد أتذكر أين وضعت سلاحي الذي لم يغادرني طوال حياتي، ربما وضعته عند باب الجنة عندما وقفت أنتظر لرؤية وجهك الذي لم يأتني ضوؤه. لم يكن حلماً عندما جاءني جدي.

رمضان الموريسكي، الذي يقسم الجميع أنه رأى حلمه يلفظ أنفاسه أمام عينيه، قال لي في تلك الليلة الأخيرة في غرناطة، أمامك البحر ووراءك محاكم الموت المقدس، اختر بين الموت والموت، لن تنقذك إلا الموجة المنبعثة من شقوق الشط المهجور. لم يكن حلماً، ولكن ذاكرة عشش فيها الخراب والحزن وبقايا البحر الذي سرقه القراصنة الوطنيون. كانت الدهشة ما تزال تملأ عيني الراعي الواقف بخشوع...

لست أدري هل كان يفهم كل ما كنت أرويه له عن قصتي، إذ أن ملامحه المشدوهة أوحت بأن أشياء كثيرة مما كنت أستخرجه من الذاكرة المتعبة كان يعرفه مسبقاً أو يعرف بعضه. حين شعر بالزرقة تملأ وجهي، استقام بسرعة كأنه تذكر شيئاً مهماً. أخرج من



Twitter: @ketab_n

كيسه المصنوع من جلد الماعز لباساً صوفياً ضخماً، ثم وضعه على ظهري.

- ارتده يا سيدي فهو لك. صنعته إحدى الجدات خصيصاً لك. كانت تقول دائماً، لن يسعفني العمر لأراه ولكنه سينذكرني كلما وضعه على ظهره. الأسئلة التي تزاحمت بدماغي كانت كثيرة، لكني فضلت أن أحكي عن نفسي، أن أعرفه أكثر بالرجل الذي يقف أمامه والذي خرج من خراب الكهوف المغلقة. يجب أن يدرك أني لست من بقايا أهل الكهف. فالدم ما يزال في عروقي، والله في ذاكرتي بقوته وتشوهاته. ما زالت مآذن غرناطة توقظ غفوتي من حين لآخر، وأمواج البحر تتكسر عند أقدامي الواحدة تلو الأخرى. كانت المارية تقف حزينة في وجهي، تبحث عن حيطانها المنهارة. تأتيني تفاصيل الجرح... في الواقع لم أجد صعوبة كبيرة في إيجاد الشارع الذي كانت تقيم فيه بالرغم من شدة التعب الذي أذبلني مثل الورقة اليابسة، ولا مقهى البحر، ولا شاطئ الغجر والتجار. الليلة الأخيرة كانت ليلة الجنون والرعشة التي تملأ الجسد ناراً. طوال اليوم التالي لم أخرج لأن السفينة لم تعد بعد، علي أن أصبر حتى يحين زمن الرحيل الذي بدأ يتحول إلى حقيقة، صعدت إلى السطح أكثر من مرة، ملأت عيني بالمدينة والناس والوجوه الأليفة وغير الأليفة. وليلة ذلك اليوم الحزين ودعتني، الخوف من محاكم التفتيش أفسد متعة البحر. صرخ ساموبل اليهودي بعد أن أخذ الورقة (وثيقة المرور).

- هيا بسرعة، لن ننتظرك حتى الصباح.

وقبل أن أركب الفلوكا، استعدت لحظات الليلة الأخيرة بكاملها، بتعقلها وجنونها، بقداستها وعنفوانها، صَرخْت في وجهه مرة أخرى:

- لن تستلم البقية إلا بعد وصوله إلى السفينة الموريسكية (سفينة القرصان الإيطالي). بانت ابتسامته الخبيثة واضحة، ومن ورائها لمعت أسنان مغلفة، ثم انطفأت لتسقر على وجه حديدي آمر.

- اركب ومن بعد غنّ.



Twitter: @ketab_n

أغني؟ قلبي مليء بالوجوه الأليفة، وأناشيد ماريانة، والمشاهد التي لا تموت، أردت أن أستجدي اليهودي ساموبل، لكن المدينة كانت قد بدأت تنسحب ووجه ماريانة يغيب مخلفاً وراءه ندوباً كثيرة، وظلال البحر تزداد غربة وبقايا الأعراس الغرناطية تندفن بين الموجة والموجة التي كانت الفلوكا تقطّعها إلى آلاف القطرات الغريبة. الفلوكا الصغيرة لم تكن كل شيء في الرحلة، فقد كانت فقط مكلفة بإيصالي أنا وبعض الملامح الهاربة من خرائب المدينة إلى السفينة الكبيرة التي كان يطلق عليها بعض الطيبين سفينة الموريسكيين. أخي الذي تنصر في وقت مبكر نصحني بترك الأغاني والتقوال. في زيارته الأخيرة زاد إصراره، يا ابن أمي أعرف أن في قلبك شعلة الجد الأخير رمضان الموريسكي الذي لم يعرف في حياته إلا إتقان البارود والشعر وحفظ أغاني الأحياء الفقيرة. يا ابن أمي اذهب ولا تلتفت وإلا تاجر واكذب كما نفعل جميعاً. قلت غرناطة عزيزة يا ابن المارية. أحسدك على المارية التي ليست لي لكنها سرقت قلبي. قال في الدنيا مدن أخرى تحبها قلت، ولكن هل ستحبني مثلما أحبتني غرناطة؟

حين حكيت أحزاني لماريانة ظلت طوال اليوم متألمة، كانت صامتة، يحفر قلبها خوف مزمن. على وجهها الغجري تعمقت مساحات الغربة والحنين. وحين نمت في حجرها عارياً، بكيت. أبكتني البلاد التي أحببتها ونسيتني في الأدغال وحيداً، أبكتني العيون التي لم يغشها النوم طوال الليلة الأخيرة. أبكتني الكأس الغجرية التي لن ألمسها أبداً. أبكتني يا ابن أمي...

- غرناطة باعوها بأبخس ثمن؟

قال أخي يجب أن تغير الحكاية، قل إنها قاومت لكن الجيوش القشتالية والأراغونية كانت أقوى وجلالتها الملكة إيزابيلا كانت أعظم. كان يمكن أن نقاوم ونحمل الفؤوس والمداري والمناجل ونهدم البيوت الواطئة وندافع بحجارتها وصخورها ونردم هذا الخوف لكنها يا ابن أمي بيعت قبل أن تدافع على نفسها. اذهب ولا



Twitter: @ketab_n

تلتفت وراءك يا هذا الرجل الحزين أشياء كثيرة تُقتل بالماء البارد، اذهب ولا تلتفت...

حين رأيت وجه ماريانة حزيناً، تلمست المدينة فوجدتها مدفوعة مندفعة وسط دمعة حارقة باتجاه السيوف القشتالية والمدافع الإيطالية.

الضوء في الخارج كان مؤلماً في هدوئه وضبابيته، البرد يدخل بين مسامات الجلد لكن اللباس الصوفي الطويل الذي سلمه لي الراعي درأ قليلاً اللسعات المسائية للبرد القارص. الشمس نفسها شعرتُ بها باردة على غير العادة. في الحقيقة لم يتغير شيء مهم بين الفترتين المفصولتين بين الكهف وحياة الخارج، نفس الألوان نفس التربة نفس البحر البعيد، ما عدا بعض الأشجار التي كانت مفصولة عن بعضها بعض وترى من بعيد، ووجه هذا الراعي الذي لا ينطق إلا بشق الأنفس. بكل تأكيد لست في غرناطة. لم يغب عني مطلقاً أني غادرتها ليلاً باتجاه المارية، ولست في المحاكم التركية فقد أنقذني منها رجال ملثمون لا أعرفهم. عيون الراعي فيها طفولة كبيرة شعرت بها حين ألبسني اللباس الصوفي. أردت أن أسأله عن اسم المكان الذي أنا فيه عن الناس عن البلاد، عن كل شيء، لكن لساني تحجر حين رأيت بعض الدمعات تنحدر من عينه.

ـ الدمع يغسل الحرقة يا سيدي.

قالها مثلما قالتها منذ زمن بعيد ماريانة وهي تضع القبلة الأخيرة على شفاهي ممزوجة بدمعات حارة. قالت، أنت تعرفني لم أتعود على رجل مثلك، ثم انطفأت كالبريق الذي يشتعل في السماء لينزل بعدها إلى أعماق جهنم. تلك حكاية بعيدة بعد المدى وقريبة قرب الدموع التي تغتسل بها كل صباح الوجوه الغرناطية الحزينة.

تقول دنيازاد للملك الهمام شهريار ابن المقتدر حاكم جملكية نوميدا: ما حدث يا سيدي بعد ذلك هو أن الراعي بدأ يتمرغ عند



Twitter: @ketab_n

أقدامه كالشاة ويصرخ بأعلى صوته، هو أنت يا سيد الأقوام كلها هذه علامات مجيئك في هذا العصر المتأخر، وحق سيدنا الخضر الذي لا يظلم إلا من ظلم نفسه هو أنت كما تحدث عنك الأولون الصادقون، السابقون اللّاحقون. غربتك طالت يا سيدي، ثلاثة قرون وها أنت تعود من جديد مضيفاً إلى غيابك تسع سنوات لأكون أنا المحظوظ برؤيتك. طلب منه أن يأكل لكنه شعر ببطنه ملتصقاً بالفراغ، مسدود الأمعاء. قال، لا، في القلب شيء آخر.

- يا الله ثلاثة قرون ولا تأكل شيئاً؟ هذه علامتك يا جدنا العظيم يا سيدي البشير، الموريسكي الأخير. إشارتك الكبيرة وبشارتك أكبر تخرجها للناس متى شئت وأنّا شئت.

أردت أن أسأله، كيف عرف اسمي لكني أحجمت لأني كنت أخشى أن أخيب ظنه. حتى إحجامي وقلقي وصمتي، فسرها على أساس أنها سمة أخرى على ظهوري في هذا الوقت بالذات. أتاني بحمار لأركبه كان يربطه بجانب الشجرة المتفردة عند بوابة المغارة ثم قال، اركب أيّها الجد الفاضل أقودك إلى ناس جملكية نوميدا.

من هي نوميديا؟ أين تقع؟ في أي زمن شيدت؟ لم أكن أعرف شيئاً من ذلك. لكني كنت منسجماً مع نفسي. أبغض الحمير لا أركبها لأني أشعر أن كل من يمتطيها يحمل قدراً من الغباء والاستسلام لدابة كريهة. وتعودت أن أشق أسواق غرناطة على حصاني الذي ودعته قبل أن أغادر المدينة التي عشقتها كثيراً. كان أبيض ببقعتين جانبيتين بلون أسود ورواد السواق كانوا يسمونه المرقّم. عندما أسافر ليلاً، وينحنح، يشعرني بالخطر الداهم بأذنية المنتصبتين، وعندما يرفع رجله يجب أن يعود راكبه على أثره وإلا سيسقط في منتصف الرحلة. هززت رأسي مرة أخرى.

- من الصعب أن أهضم هذا الركوب بسهولة.

الراعي لم يقل شيئاً لكن دهشته أزدادت وفمه ظل مفتوحاً عن آخره؟ ورأس حكماء نوميدا، وأنت يا سيدي البشير، أنا هنا من


Twitter: @ketab_n

أجلك أيها الرجل العظيم. ثم انطلق بعدها بسيل من الكلام الذي لا حصر له لم استطع فهم معظمه نظراً لسرعة حديثه وارتجافة صوته... أنت صاحب العود، والأخبار، والنار، والجبال التي قاومت ولم تنحن لقاتليها. يا الله ما علاقة كل هذا بالحمار... ما الذي تغير؟

- لا يا سيدي لا تقل حماراً.

- لم أفهم قصدك.

- في جملكية نوميدا - أمدوكال، كلمة حمار نزع معناها الاعتيادي من القواميس العالمية المعروفة. فالقواميس الأجنبية مثلاً لا تدخل البلاد إلا إذا كانت فيها كلمة حمار تعني «الغزال». تجار الكتب والقواميس تحايلوا من أجل إدخال بضاعتهم إلى البلاد فانصاعوا لأمر الحاكم وأعتبر هو ذلك يوم عيد وطني وانتصار قومي على الأوغاد.

- لم أفهم جيداً؟

- مثلاً تجد كلمة حمار في القاموس الجديد تعني بالأحرف البارزة: نوع من أنواع الغزلان البرية النشطة، المعروفة بذكائها وتوالدها الكثير، وتستطيع عند الضرورة مقاومة الأسود وتنتصر عليها بقدر الله تعالى. كل هذا حدث تنفيذاً لأوامر الحكيم شهريار بن المقتدر بنفسه، أو الحكيم كما اختصرها الذين أطلقوا عليه هذا الاسم. لم أكن مستعداً للإكثار من الأسئلة خوفاً مرة أخرى من أن أخيب له ظنه، وأصل بدون أن يكلف نفسه عناء التوضيح.

- أنت تعرف يا سيدي أن اليوم جمعة.

- بأي تاريخ نحن؟

- كنت أنتظر منك هذا السؤال 1987/7/7.

- لم أفهم جيداً؟

- أنت يا سيدي مقدر عليك أن تعود في اليوم السابع، وحتى الجمعة في تقويمنا الخاص هي اليوم السابع، اليوم الأول يبدأ



Twitter: @ketab_n

ببداية السبت، من الشهر السابع، من السنة السابعة بعد الثمانين. هذا الكلام مدون في كتب الأولين.

هذا الرقم النحس يتبعني في كل الأماكن. 7. يبدو أن الرجل يهذي بدوره هل يعقل أن نقفز من قرون بعيدة إلى هذا التاريخ؟ أكثر من ثلاثة قرون من النوم؟ ثلاثة قرون من الجحيم. حين حاولت أن أسأله كان قد قرأ كل التفاصيل في عيوني. ابتسم كمن يكتشف كذبة طفل عنيد.

ـ هذه الأمور ستفهمها فيما بعد. أنت نمت طويلاً واستيقظت من جديد وهذا هو المهم في قصتك التي تبدو لك غريبة جداً.

فسر الماء بأقل من الماء. أعرف أني نمت وهذا الأمر أتذكره جيداً. وأعرف أني رأيت جحيماً سأرويه ذات يوم قادم لا ريب فيه. ما عدا قصة عودتي من البلاد، من غرناطة لا أعرف شيئاً مهما يمكن أن أذكره لهذا السيد حتى يفهمني ولا يتهمني بالجنون. حين دفنت غرناطة في بحر المارية لم أكن أعلم أن المسألة ستتخذ هذا المجرى. تركت ماريانة واضطررت تحت صرخة اليهودي ساموبل أن أركب الفلوكا. البحر في بدايته كان هادئاً. ولم نلق صعوبة كبيرة في الانتقال من الفلوكا إلى الأرمادة الكبيرة التي كان يملكها قرصاناً إيطالياً متنكراً في الزي الموريسكي. لم أكن أعلم أن القدر يخبئ لي أشياء كثيرة ومواجهة وصلت حد الموت مع المارانوس اليهودي، الذي كان يريد فتح بطني من أجل إخراج الذهب الذي يمكن أن أكون قد خبأته في بطني، كما كان يفعل الموريسكيون الهاربون من نار محاكم التفتيش المقدس. الزمن الذي يفصلني عن هذه الأحداث ليس بعيداً أبداً، فكيف انتقل من هذه الأجواء إلى هذا الزمن وبهذه السرعة الخارقة؟

ثلاثة قرون ويبقى الإنسان على قيد الحياة؟

تذكرت الدوقات الذهبية التي حافظت عليها حتى من عيون الحاكم التركي، لأن الأيام السوداء كثيرة ولا أحد يضمن الآتي. تحسستها، لم تكن كثيرة ولكنها كانت كافية لحل بعض الضروريات.


Twitter: @ketab_n

قلت للراعي من جديد، أنا أكره الحمير، (الغزلان البرية) لا تؤاخذني، ها هي بعض الدوقات الذهبية اشتر لي حماراً، عفواً حصاناً، ببعض البقع السوداء والبيضاء، سأنتظر عودتك بهذا المكان، وندخل بعدها جملكية نوميدا ـ أمدوكال. رأيت ابتسامة استغباء ترتسم على محياه. تأمل الدوقات بنوع من التأني ثم نظر ملياً إلى ملامحي كأنه يكتشفني للمرة الأولى...

ـ لا يا سيدي هذه الدراهم لم تعد صالحة، السبب هو أن زمنها انتهى، وإذا نزلت بها إلى المدينة سيتعرف عليك الناس ومجيئك يجب أن يبقى سراً حتى يشاء العلماء. لسنا في دوقيانوس، وأكثر من هذا، لسنا في غرناطة.

أدخل بعدها يده في جيبه وأخرج عملة نقدية جديدة عليّ، سك عليها وجه حاكم نوميدا ـ أمدوكال، كما صرح لي هو بذلك.

ـ مثل هذه يا سيدي.

تأملت العملة جيداً، وقبل أن أعبر عن حيرتي، سبقني هو إلى الكلام، هذه عادته دائماً. كأنه يقرأ ما في قلبي.

ـ أرجوك لا تقلها، هذا ليس رأس حمار أبداً.

ـ بلى. هذا رأس دابة هرمة، حمار وعلى دماغه أربعة عشر قرناً. قسمت بالتساوي، سبعة، سبعة، عدّ معي، واحد، اثنان، ثلاثة...

بدأت أعدّ ولكنه قاطعني.

ـ لا يا سيدي، هذا هو رأس حاكمنا قرن الغزال كما نسميه نحن، والحكيم كما يسميه الآخرون.

ـ لكنه ليس غزالاً.

ـ أنعود إلى البداية يا سيدي؟ احذر لا تقل هذا في شوارع الجملكية. لقد أمر صاحب الباب العالي والمقام الرفيع، أن يغير الاسم فكان له ما أراد يا سيدي. وثبت مؤرخ القصر ومعظم الوراقين وكتاب الدواوين ذلك في كتاب الأمة. قالوا إن كلمة حمار غير عربية وقد وردتنا من العجم وآن الأوان لتصحيحها، ومعناها



Twitter: @ketab_n

تغير بسبب تأثير اللغات الهجينة. مبتهجون وحق الله، ننتظرك منذ زمن بعيد، جيل بعد جيل. حتى صار المبهم برؤيتك حقيقة، وكدنا نصدق أن المأساة شيء كتب علينا منذ أغبر الأزمنة. أوصانا السابقون أن نحافظ على ذكراك لأنك مثل اليوم الوعد، آت لا ريب في ذلك. وأنك ستنام طويلاً في الكهف قبل أن تعود إلى البرية تنشر العدل المفقود. قيل إنك ستتعذب من نور الشمس ولسعة البرد المسائية، ولكنك في النهاية ستنسجم مع الأجواء المقلقة وتعود إلينا. الزمن بعدك أيها الفاضل لم يتغير كثيراً. الشيء الوحيد الذي جدّ بعدك هو أن الكثير من المدن سلمناها لابن كلبون.

- من هم ابن كلبون؟

- قوم قادمون من الشمال، يأكلون الحجر والتراب، الأخضر واليابس، النور والفرح، يزرعون الموت في المدن الهادئة، والظلام في أحشاء النساء... يقولون لولا سيدنا الخضر لانهارت المدينة.

- من سيدنا الخضر؟

- أنت تعرفه، هو نفسه الذي تحدثت عنه الكتب الأولى، عالم أهل زمانه في الزمن البائد. كان سيدنا الخضر يملك علم الأرض والسماء، قصده الأنبياء والحكماء من مختلف الأصقاع والبقاع، عرفهم بقصورهم وعجزهم...

وكان عنيفاً في برهانه. سيدنا الخضر اليوم عاد كما كان أيام زمان. يغرق السفن، يبيد الخلائق، ينزع الرقاب، يهدم البيوت العالية ولا أحد يملك حق رؤيته. يزور المدينة مساء لينزع داءها من الأعماق، ثم يعود على صهوة جواده مساء مزهواً بفعله العادل، هكذا يقولون. الناس لم يروه يا سيدي، لأن كل من خرج من بيته أثناء مروره اشتعلت النار في قلبه، وسافر على غيمة جافة إلى جهنم. الناس يقبلون قسمته عندما يقتل الأطفال، لأنه يرى مالا نستطيع رؤيته. يقولون إنه عندما يفعل ذلك فهو يحذف الشر قبل حدوثه وتفشيه.


Twitter: @ketab_n

يا الله، هل أصدق أم أضرب رأسي على أقرب جدار من هذا الكهف الذي طلي بالتربة الحمراء وكأنه بقايا مدينة رومانية؟ يصر أني قضيت أكثر من ثلاثة قرون مدفوناً تحت الأرض، ويحاول إقناعي بقصص كان يحكيها أزلام محمد الصغير، آخر ملوك غرناطة، كلما أراد أن يغير على أنبياء المدينة وعلمائها. يبدو أن الزمن الفارغ ينطلق من الحاكم الرابع ليعود إليه محملاً بالشقاء والكذب، هل يمكن تصديق هذا الزمن المر؟

آه يا سيدنا الخضر الحقيقي يا أعلم أهل زمانه، لقد حولوك إلى سيف تقطع به رؤوس الأتقياء والصالحين، يستحضرونك في كلّ الأزمنة لدفن الناس أحياء، آه يا ابن أمي يا حمود الإشبيلي. أتذكر كيف أخذوك. سرقوك من أسواق حي البيازين، وحين سأل أجبت عنك، قيل لهم، إن هذه فِعلة سيدنا الخضر. وحين تأكد الجميع أن جلاوزة الملك الغرناطي هم الذين باعوك إلى الخراب وإلى فئران محاكم التفتيش التي تبقر البطن حين تلدغها شمس الصيف القاسية، قيل لهم إنها العدالة التي لا تظلم أحداً. سيدنا الخضر أطال الله إقامته بيننا.

ـ وهل سيدنا الخضر ما يزال يمر حتى هذا اليوم؟

ـ ما يزال يخلف وراءه الرماد. ونقبل قصاصه حتى ولو مسنا لأنه سيد العارفين.

ـ هه سيدنا الخضر؟ مالذي تغير من الزمن القديم حتى الآن؟ ما الفرق بينه وبين محاكم التفتيش المقدس في وظيفة الموت التي يمارسها كل واحد؟ إيزابيلا كانت لا تتنفس إلا روائح الموت، فرديناند كان ينام على جلود المارانوس والموريسكيين.

ـ ما الذي تغير؟ نفس الأقاصيص ونفس الأحجيات ونفس العقلية الخائبة، بين غرناطة ونوميديا ـ أمدوكال خيط من الدم خطه محمد الصغير، أبو عبد الله.

ـ هذه الأمور يا سيدي تتجاوز فهمي الضيق والبسيط، لا تنسَ أني مجرد راع مكلف بقيادتك إلى قلعة الحكماء السبعة، فهم أعرف


Twitter: @ketab_n

مني فيما يخص هذه التفصيلات. بإمكانك أيها الفاضل أن تتعرف على ما تبقى من قصتك عندهم وعند آخر الوراقين (كما يسميه الحكماء وتسميه أنت كذلك)، الرجل الفذ والطيب سيدي عبد الرحمن المجدوب، يملأ الأسواق والدنيا بوهجك وحضورك. إنه يروي كل شيء يتعلق بقصتك وعندما تعوزه المعلومات، لا يستطيع أن يكذب، فيتلوى في مكانه، ويصرخ بأعلى صوته. لماذا تخليت عنا عندما تركك الله وحدك تواجه برية الخوف المزمن؟ لماذا نسيتنا يا البشير أيها المحارب العظيم؟ وعندما يتحدث عن امرأة كان يسميها ماريانة، يقول إنها صديقتك، يعوي مثل الذئب الذي وجد نفسه فجأة في قفر الخلاء. وبعدها، حين يجتاز أزمة المس بسلام، يرجع إلى نفسه شيئاً فشيئاً، يتحول إلى نسمة ثم إلى فجر مليء بالوعود والحنان. ويختم الحكاية بكلماته المعتادة، كانت تفاح المجانين، وزرقة البحر وشعر الفجر، كانت أيها الناس فجراً لا يلين، ونجمة الأسواق الغرناطية. كانت تساعد سيدي المجدوب فتاة تدعى ماريوشا، بلغة أجنبية لا أفهمها حفظتُ معاني بعض كلماتها التي ترجمها لي أحد علماء المدينة.

ـ ماذا تقول الكلمات.

ـ أنا ماريوشا الغرناطية.

لست ملكاً لعشيقي.

لست قاتلة، فأنا لا أستعمل السكين إلا لحظة الأكل.

مثل جميع المخلوقات.

ـ هو ذا اللحن، وهذه هي الكلمات، اسمع...

YO SOY MARYUCHA.

Y NO DE ME MICHARO.

YSOLO GASTO CUCHILLO.

ALA HORA DE COME.



Twitter: @ketab_n

كاد يغمى عليه. قفز من مكانه وهو يحاول أن يتشبث بأسمال اللباس الصوفي، يتمتم في حشرجة ظاهرة.

- ورأسك يا سيدي هذه هي الأغنية عينها. إنها إحدى دلالات مجيئك أيها العالم المبجل.

- قل لي من هي ماريوشا؟

- أروي لك بعض ما سمعته عنها. يقولون إنها طالبة وجامعية في علم التاريخ أو الاقتصاد لم تنه دراستها لأن المادة نزعت من البرنامج الجامعي، وحين أرادت أن تعمل سئلت كثيراً عن سبب اختيارها للمادة. لها قصة مع أستاذها! وحرمت بعدها من مزاولة أي عمل، فارتبطت بسيدي عبد الرحمن المجدوب الذي كان لا يفارق الكلب وثعبان الاستعراضات والربابة، من فم ماريوشا يخرج الجمر، حتى زبانية الحكيم يخافونها.

في النهاية نصحني بالعودة بسرعة قبل نزول غيمة المسا، فالمدينة تعيش حظر التجول منذ أكثر من سبعين سنة. بدأ النوم ينزل على عيوني من جديد لكني سرعان ما لعنته، لنا كل الموت لننام طويلاً وبدون أمل في اليقظة. نظرت إلى الكهف وأنا أركب الدابة مجبراً، من المستحيل أن أعود الآن إلى هذا الخوف. ثم انطلقنا باتجاه قلعة الحكماء، تاركين وراءنا نسائم البحر وشيئاً من الوجد وبعض القصص المؤجلة ليوم آخر أو لقرن غير هذا القرن الذي حول الحمار غزالاً وسكه على العملة الذهبية والفضية فقط.



Twitter: @ketab_n

# 3

لم يفاتحني العلماء إلّا بعد سبعة أيام من الصمت. داروا بي كل البيوت ولم يتكلموا على الإطلاق بالرغم من إدراكهم لدهشتي التي كانت تقرأ في عيوني الذي أثارني وسط هذا الجو الخرافي هو موقع القلعة الذي كانوا يرون من خلاله المدينة بكاملها والبحر، وعمال البحر. كذلك القاعة المليئة بالبوقالات المزودة بالرماد، كتب عليها «هنا ينام فلان الفلاني... الذي سقط في ميدان الشرف بتاريخ كذا...».

أقسمت لعلماء المدينة أن ما حدث لي كان خوفاً، وكان حقيقة بدأت من دخولي إلى بحر المارية إلى كوابيس الكهف التي دامت طويلاً. فالبحر في ذلك اليوم لم يتوقف عن امتداده مطلقاً بالرغم من أني شعرت بالله يتخلى عني ويتركني لوحشية الفضاءات الكثيرة والأسئلة المتعددة لكنني كنت مصراً في ذلك اليوم أن أتشبث بأسماله حتى آخر لحظة. لم نهرب والبحر بدوره لم يجزم مياهه في جرابه وجيوبه ولم يهرب بدوره، ظل يقاومنا، وظللنا نقاوم خوفه. كان واسعاً وزرقته السوداء لا تريح أبداً، أصحبت جزءاً من الفراغ المظلم. لم يبد على وجه العلماء أي اندهاش مهم، كانوا يعرفون مثلما تروي الحكايات القديمة عني، أن جهنم توقفت عند أقدامي كما أكد لي الراعي في طريقنا إلى القلعة، قال بهت اللهب وهو يرتجف خوفاً لكنه سرعان ما أصبح برداً وسلاماً وأشياء أخرى فيها الكثير من الدفء والعنفوان. قضيت زمناً طويلاً أقنعم أنها نار



Twitter: @ketab_n

إبراهيم التي يتحدثون عنها وليست ناري وأني طوال إغفاءة القرون الثلاثة لم أر قيامة أخرى سوى قيامة الدنيا التي ألهبت ذاكرتي. كان العلماء يجيدون عملية الإنصات التي ينهونها بغمزة يتبادلونها سراً بأطراف أعينهم، معتبرين كلامي سمة من سمات الأنبياء وتواضعهم الكبير.

ـ هو تواضع العلماء يا سيدي.

لكن رحلة البحر التي أصروا على سماعها شدتهم كثيراً لأنها، كما قال لي الراعي، الحلقة الوحيدة المفقودة في قصتك العجيبة فحتى سيدي عبد الرحمن المجدوب، وراق المدينة الأصيل، عندما يصل إلى البحر يتلوى مثل الثعبان ويصرخ بأعلى صوته، لماذا تأخرت علينا يا البشير يا آخر السلالات الموريسكية، لماذا تأخرت يا ابن أمي، لماذا؟ ألم يكن أمامك غير الصمت ونسيان الأحبة والطيبين. يقفز عبد الرحمن المجدوب إلى وسط القارة. ثم يواصل الرواية بمزيد من الحنين والشوق. يروى أيها السادة الكرام، أن الرحلة بدأت بالأهوال والخوف والرياح الساخنة وصرخة المحيطات السوداء... ثم يقفز بعد ذلك إلى السارق أو البائع الذي اشتراني من الأطفال الذين تصارعوا كثيراً فيما يفعلونه لي، خصوصاً وأنهم كانوا يتصورون أنهم أمام جثة ميت يواجهونها للمرة الأولى في حياتهم، لكن جبرائيل، يقول سيدي عبد الرحمن المجدوب، كان جالساً على صخرة من صخور البحر في انتظار حورية اغتصبتها أسماك القرش، أخذني على أجنحته ثم وضعني بهدوء على الشاطئ الهادئ حتى جاء من يأخذني منه، ويقولون في رواية أخرى: إن ظلاماً عمّ البحر ولا أحد يعلم بالتفصيل ماذا وقع. الثابت أن الرواية كلها هو أن الحاكم التركي عذبه كثيراً حتى تقيأ الدم والقيح من صدره المجروح. ويذرف سيدي عبد الرحمن المجدوب دمعتين، يقول الراعي ثم يواصل في رواية ما تبقى من الحكاية هل يعقل أن يتجسس البشير لصالح الإسبان الذين نصبوا له



Twitter: @ketab_n

المشانق في الأسواق وانتظروا منه زلة، ليحرقوه بعد محاكمة صورية.

يقول علماء نوميدا ـ أمدوكال الذين انتظروا كثيراً من أجل معرفة الحقيقة إن سفينة البشير انكسرت وأصبحت مجرد قشة صغيرة في أعماق البحر. كان الموج يصل السماء بالأرض وكانت القشة تقترب من البشير حتى وصلت إليه، فمدّ يده ثم نادى بأعلى صوته دابة البحر التي اختفت بين الأمواج الهادرة، لكن سَمَعَ الدابة كان ضعيفاً، فمست الصرخة ما تبقى من قلبها فوضعت يدها على الموجة فانكسرت، وعلى البحر، أصبح زورقاً صغيراً مصقولاً بألف لون. وحين فتح البشير عينيه وجد العالم قد تغير كثيراً. البحر صار مرآة ناصعة، القشة صارت قطعة خشب معرّقة مثل السفن الهندية. والشمس التي كانت طوال الزمن الماضي كئيبة، أصبحت قطعة فضية هادئة، ونزلت الأمواج إلى الأعماق لتستوي مع الأرض ورمال الشاطئ وبدأت القشة تزحف باتجاه الشاطئ المتوسطي الهادئ. استلقى البشير على الرمال، وحين استيقظ وجد نفسه وسط كتيبة تركية مدججة بالسيوف والرماح والأسلحة النارية، عيونهم كانت من الصدأ والخوف والحديد. وأصر بعض علماء جملكية نوميدا ـ أمدوكال أن ما حدث هو الحقيقة ولكن في الرحلة غرائب أخرى يصعب تحديدها ويفضل العلماء السبعة الاحتفاظ بها في قلوبهم، وقد يأتي الزمن الذي يجبرهم على روايتها والإفضاء بها. لم أجد صعوبة كبيرة في إقناع الحكماء (العلماء) أن ما حدث في الكهف، قبله وبعده كان يشبه جهنم. وكنت أخشى أن أخيب ظنهم. أصروا على معرفة التفاصيل المتبقية من الحقيقة إذ يجب أن يعرفها القاصي والداني. وكانوا يقصدون التفاصيل التي لم يسجلها وراقوا الجملكية المأجورين. قالوا يجب أن نخرج القرون الثلاثة من الظلال التي ازدادت كثافةُ سوادها. واعتبروا كل تعليقاتي من دلالات العودة. قال أحدهم، لحيته بيضاء مثل الثلوج الغرناطية وصوته



Twitter: @ketab_n

كالحنين يتسرب مباشرة من قلبه، هو أنت يا سيدي البشير عالم مجمع البحرين القادم من بروق الغرب. تبحث عن الحقيقة أيها الرجل الطيب. أمضيت سبعين خريفاً تبحث عنهم ويبحثون عنك. سارت وراءك الأقوام، حملت في رحلتها أكياس الحوت وحين بلغت مجمع البحرين في عين يقال لها، عين الحياة، داهمها العياء فنامت وكانت الأمواج بدأ يسمع تكسرها على الشاطئ المهجور فأصابت أمواجه الحوت الذي كان ملقى في مكتل، خرجت منه واحدة واحدة بفعل الرشاش، اندفعت باتجاه البحر فجعلت تسير في الماء والناس مندهشون، ثم تحولت بعد ذلك إلى قطع من الحجارة قسمت البحر نصفين، بدأ الناس يسيرون داخل البحر والأسماك موطئهم فصادفهم في النهاية وجه كريم عليه ملامح العلم والنبوة. كنت أنت يا سيدي الفاضل بشبابك وحيائك. تأكد الناس أن عالم مجمع البحرين أعلم من موسى ومن يوشع بن نون، وفي حكاية أخرى تروى على أطراف المدن الصغيرة، أن أقواماً أهلكهم العياء، وحين قاموا واصلوا السير ونسوا مكاتل الحوت عند بوابة البحر. وانطلق الجميع حتى إذ كان من الغداة قال كبيرهم الذي كان يطمح إلى المعرفة، آتونا غذاءنا... تذكروا أنهم نسوا المكاتل عند البحر فقالوا لقد نسيناها يا سيدي وما أنسانا إياها إلا الشيطان، وحيت عادوا إلى المكان وجدوا الحوت قد تحول إلى أسراب متتابعة. قالوا ذاك ما كنا نعني، فتبعوه حتى الصخرة الكبيرة وهناك وجدوا رجلاً ملفلفاً داخل ثوب أبيض مثل تلك التي كان يرتديها حكماء اليونان، فسلم عليه عالمهم الكبير وقال يا سيدنا البشير (وفي رواية أخرى يا سيدنا الخضر) جئناك للمعرفة وقدم القوم أنفسهم ثم سار الجميع على الشاطئ الأزرق قال لهم، أحذركم من البداية، انظروا ولا تسألوا فالسؤال أحياناً يخفي الهزيمة. هزوا رؤوسهم بالموافقة ثم تبعوه. مرت سفينة جديدة الصنع فمدّ يده إليها فأغرقها بعد أن صدعها بثقب في خشبها الوسطي. قالوا سيدي لم نفهم؟ ماذا فعلت؟ قال هذه الأولى ثم سار صامتاً. في الطريق وجد صبياً جميلاً يزعق مع



Twitter: @ketab_n

أصدقائه ناداه بابتسامة مشرقة. حين اقترب منه الصبي حز عنقه بكل برودة دم. قالوا سيدي هذه كبيرة. قال هذه الثانية أرجوكم أن تصمتوا. وحين وجد حائطاً متصدعاً وصاحبه يريد تقويمه، طلب منه المطرقة ثم انهال عليه حتى أتى على آخر حجر فيه، قالوا سيدنا العظيم هذا الظلم بعينه. قال لهم، إنهم بعيدون عن المعرفة وهاكم الرموز التي لم تستطيعوا الحفاظ عليها. الأولى فعلتها لأن ملكاً طاغية كان مبحراً وراءهم ليأخذ منهم السفينة لجدّتها، فابليتها حتى تبقى لأصحابها الصيادين الفقراء. الطفل الذي نزعت رقبته، يقول طالعه إنه سيكون لو بقي حياً، طاغية يحكم البلاد بالظلم ويزرع البشاعة والإجرام في كل مكان. والحائط الذي هدمته ورفضت من صاحبه الطيب أن يرممه، لأن والد هذا الأخير خبأ في أساس الحائط كنزاً لا يراه إلّا ذوي المعرفة والعلم. عودوا أيها الناس من حيث أتيتم فالمعرفة لا توجد مزروعة في الطرقات وتأتي الأقوام لقطفها مثل الزراعة اليابسة. فالمعرفة تحتاج إلى صبر أيوب. عودوا وامكثوا سبعين خريفاً ونلتقي مرة أخرى إن بقيَ في العمر متسع. تمتموا بدورهم سنلتقي أيها العظيم على أرض غير هذه الأرض. قال حكماء المدينة السبعة، كنت أنت يا سيدنا الفاضل، بجلالك وبهائك، وما يزال حتى اليوم الناس ينتظرون انتهاء الوعد للعودة إليك. لا أحد يعرف مكانهم منذ أن عادوا خائبين. لكنهم سيأتونك ويسألونك عن الصغيرة والكبيرة. كنت مندهشاً لما كان يرويه الشيخ الكبير صاحب اللحية البيضاء. لم تكن تهمني الحقائق بقدر ما همتني تلك العاطفة الطيبة التي كان يتكلم بها. كان على وجهه ألم فظيع من الصعب تحديده وبقايا الأمواج التي تكسرت عند أقدامه. من الصعب علي أن أتكلم بسهولة ومع ذلك قرأت في عيونهم رغبة قصوى لإنهاء قصة البحر التي رويت لي بألف وجه. كيف وصلت إلى هذه البلاد، هناك ملاحظة يجب أن أقولها، إن علماء المدينة لم يفاتحوني إلا بعد سبعة أيام من الصمت المطلق بعدما قرؤوا كل حركاتي. كانوا متيقنين أن كل الأشياء يجب أن تحكى في


Twitter: @ketab_n

وقتها لا قبل ولا بعد. عرفت من أحاديثهم الجماعية فيما بعد، أنهم ليسوا كتلة واحدة. مختلفون. حول غاية موحدة كانوا متفقين عليها مائة بالمائة هي قضية الحكم، قرن الغزال، حاكم جملكية نوميدا ـ أمدوكال، لأنهم كانوا يعرفون السر الذي يحيط به. يخافون أن أتلاشى وأصير خراباً قبل الأوان، وبعدها اتفقوا أن أسمع إليهم وأن يسمعوا إليّ. قال كبيرهم مرة أخرى احك أيها الرجل الطيب احك نعرف نعرف عنك أكثر مما تعرفه عن نفسك. أنت صاحب المكاشفة والعذاب، ثم غاصوا في ضباب مليء بالتودد والحنين. كان الزمن شتاء، البرد يملأ الصدر ويعلق بالأوجه كالطحالب، كان اليوم يوم أحد، اليوم السابع في تقويمنا الخاص، وقليلاً ما يخرج الناس في هذا اليوم، خصوصاً بالمساء. لم أنتظر كثيراً جاءتني حاملة ذاكرتها وقلبها وحنينها والنور الذي يملأ عينيها الصافيتين مثل بحيرة. اليهودي كان يعرف كل التفاصيل، وعندما سلمت له الورقة ضحك كثيراً من كلام ماريانة التي هددته بعدم أخذ البقية من دوقاته إذا لم يوصلني بسلام. حذرني.

ـ يجب أن نخدم أوامر الرّيس.

ـ أي ريس؟

ـ أنت ابن صياد مثلما عرفت من أخيك ولست في حاجة إلى دروس. ستأخذكم هذه الفلوكا الخشبية (التي كانت راسية على الأطراف تنتظر) ستقودكم جميعاً إلى السفينة الكبيرة. صاحبها هو الريس. إيطالي طيب لكنه يرفض أن يلعب بالأوراق. سيصفيك إذا أزعجته. كن ليناً وساعده في العمل إذا طلب منك ذلك، وستصل إلى أقرب ميناء بدون عناء. كان كلامه ينزل على رأسي مثل أوراق الشجيرات الميتة. لم أكن في حاجة إلى ذلك. لأني كنت منغمساً في عيون ماريانة وشفاهها وشعرها الغجري الذي زادته الانعكاسات القمرية المتقطعة زرقة وصفاء. مسدتُ على وجهها بحنان كبير، كان دافئاً بالرغم من البرودة التي كانت تنزل أو تصعد من الأرض.



Twitter: @ketab_n

عادت الكلمات القديمة لتقطع علينا الإغفاءة الهادئة. إنه ساموويل مرة أخرى.

- إني حذرتك، والأمر يخصك.

قلت بنوع من السخرية التي لم يتحملها كثيراً هذا اليهودي الذي لا أعرف إلا اسمه.

- يا ساموويل، قل لصاحبك الإيطالي أن لا يأمرني بإلقاء نفسي في البحر.

ضحك ولم أكن أعرف أن شيئاً ما فيه الكثير من الهول كان يختبئ وراء تلك الأسنان التي زادت صفرتها.

- المهم هو أن تكون رجلاً طوال الرحلة.

- لست أدري ما معنى الرجولة عندك، ولكني سأحاول أن أكون كذلك كما أفهم الرجولة شخصياً.

- حافظْ على سر خروجك من المارية ولا تثق في كل من يضحك في وجهك لأن رقبة ماريانة ورقبتي مشدودة بهذا السر، فإذا خرج سنجبر على الركوع على صفائح محاكم التفتيش.

- ماريانة يا سيدي هي القلب والذاكرة والحنين إلى الحياة. اطمئن من هذه الناحية.

- اسمع لا تخرج الدوقات الذهبية أو الفضية أمام الناس. البحارة طمّاعون مرة أخرى أوصيك بالحذر، والحذر الشديد، الدنيا ليست سهلة على ظهر الأرمادة بالرغم من طيبة صاحبها الذي يحب الموريسكيين كثيراً ويلبس لباسهم. يقول دائماً أشعر باتجاه هؤلاء الخلق بالرأفة. كان يحكي على نوع خاص من البحارة. وكان عليه في الحقيقة أن يقول القراصنة، لأني أتذكر والدي قبل أن يلتهمه بحر المارية، كان المرحوم يضع جلبابه على رأسه وحذاءه في يده ورزقه يقدمه طعاماً للأزقة الجائعة وإلى من هو أكثر فقراً منه. كان يقول دائماً خير اليوم سأجده غداً وأنا أواجه العواصف البحرية



Twitter: @ketab_n

وحيداً وصراخات الأمواج العالية، هذا الخير نفعه مرات متعددة لكن في المرة الأخيرة حين انفجرت الفلوكا بقي الجميع في أعماق البحر يموتون بين الموجة والموجة، عشرة لم يعد منهم أي واحد حتى الريس، والدي الذي ركب قطعة خشب قديمة، ملحّه البحر وجف كالحطبة، أفقدته الشمس لون دمه. الموت سرق منه حرارة الحياة. من سلالة البحر كان، دخله جدي قبله وخرج بالصدفة سالماً من موت محتوم فالبحر كان قد أقسم كما يقال ذلك عند سكان الشواطئ ورجال الصيد، أن يأخذ واحداً من العائلة، فكان والدي هو الضحية.

- يجب أن لا تتكلم يا البشير، صاحب الأرمادة سيتكفل بكل شيء. كانت عيوني مثبتة على الرحلة والبحر وعيون ماريانة، عليك أيتها المرأة البحر تَسَمّي، منك سرق أجمل لون وأروع جوهرة، من عينيك صنع موجه. من وجهك الغجري سرق هدوءه وعنفوانه، كنت أعرف البحر وكانت تعرف كيف تخترق عذريته. حين جلست على الطرف الآخر من القارب بعد صراخات ساමويل، كنت غارقاً داخل الأجواء النفسية لآلاف الخلق الذين امتطوا هذا البحر وغادروه باتجاه العُدْوة الأخرى، من بحر إلى بحر ومن خوف إلى خوف ومن شوق إلى شوق ومن حنين إلى حنين ترمينا الموجة للموجة والصرخة للصرخة والدمعة للدمعة. لم يرحلوا عن طيب خاطر، وقد كانوا يحبون شوارع المدن التي يعشقونها وأحنوا الرقاب من أجلها، فقد كانت محاكم التفتيش المقدس تقف على رؤوسهم بأوجه من حديد في كل مكان، وكان صرير كماشاتها يملأ دماغي وصراخات الناس الذين أعرفهم والذين لا أعرفهم تسحقني، فقد اكتفوا بشهادة أحد عشاق ماريانة، ممن كانوا يكرهونني كدم الأسنان أقسم لها أن ينزع كامل أعضائي على مرآها. قال لهم إني أمارس الهرطقة علانية، في الأسواق، في البداية دقوا الباب ثم عادوا ولم أرهم. كانت عيون العاشق تزداد حقداً وكراهية. وذات يوم كنت ممتلئاً بالحنين، وحكيت كثيراً عن غرناطة ومحمد الصغير وحاشيته. كان الله يُقرأ في عيوني، لكن ما حدث في الجهة الأخرى



Twitter: @ketab_n

غيَّر الكثير من ملامح الفرحة. فقد وُجد العاشق ذات صباح على أطراف أحد الوديان وقد ارتشقت في عنقه سكينة انكسرت إحدى أجزائها على عظمة الرقبة. جاؤوا لي مرة أخرى في ظلمة الليل. قرعوا الباب كثيراً، كنت متعباً ولم أكن في الحوش وحدي. طلبوا من الذين فتحوا لهم الباب الإذن بالمرور، وقبل أن أفتح عينيّ كانوا يقفون على رأسي. قالوا ارتد لباسك وقم معنا، في البداية رفضت ولكنهم أصروا، أنت متهم بممارسة الطقوس الموريسكية سراً. قلت لا. كانوا عشرة. كل واحد يزن الخوف في عينيه خراباً من الرعب. كمموني بالإجاصة الحديدة ذات الفتحتين والتي يمكن توسيعها حتى يصبح الفم مفتوحاً عن آخره، الأمر الذي ضمن لهم صمتي وعدم إعلاء صوتي، لأني حين حاولت الصياح مرة أخرى زادت الإجاصة اتساعاً وتنفسي ضيقاً. طريقة الاعتقال مرت بسرعة مدهشة وبشكل لم يثر أي ضجيج، لكني مع ذلك رأيت العيون الموريسكية في حي البيازين تودعني برفرفات حزينة، تصفق مثل العصافير المشلولة. لست أدري أين كانت ماريانة في تلك الساعة لكني متأكد أنها لو رأتني على تلك الحالة لقدّمت رأسها للقطع ولصرخت في مكاني بكل ما أوتيت من قوة. كانوا يعرفون أني ليلتها بت وحيداً، أخذوني إلى سجن المحكمة، أو البيت المقدس كما يسمونه بذلوا مجهوداً كبيراً لإدخال الرعب إلى قلبي لكن الكثير من تهديداتهم كانت عبثية. ذكروني بالموت البشع الذي ينتظرني إذا واصلت عدم الاعتراف، أدخلوني إلى حجرة مظلمة وضيقة جداً لا اختلاف بينها وبين القبر. مصدر الضوء الوحيد كان ينبعث من طاولة قديمة ومن خلال شمعة ذابلة تحلق حولها العديد من عمال المحكمة. بعد لحظة الصمت التي طالت كثيراً أو هكذا بدا لي على الأقل، شرع المحقق في قراءة قائمة التهم المنسوبة إلي الهرطقة العلنية، القتل المتعمد، شتم محاكم التفتيش، اغتصاب امرأة من المارية، تكوين تجمعات موريسكية لخوض الحرب ضد القوات الشمالية. كان المحققون ينظرون إلي عبر عينين تطلان من ثقب



Twitter: @ketab_n

غطاء الرأس. والمحقق الأكبر الذي كان يجلس منفصلاً قبالة الطاولة، بدأ يفور ويغلي ويطحن الحجر بفمه. بدأ في ممارسة لعبته المسلية الذهاب والمجيء لتبريد الأعصاب لكن ضيق الغرفة زاد من إزعاجه. وضع الملف جانباً ثم عاد إلى طرح الأسئلة القديمة عن اسمي وعنواني، عملي وأصدقائي، عن ماريانة وأجواء الغجر لكن كل ما قدمته له لم يكن كافياً لإقناعه بنواياي الطيبة. كنت أعرف أن التهم المسبقة ستقودني حتماً إلى المحرقة. فقد حدث أن أحرق أناس كثيرون بتهم أقل من التي أحملها على ظهري. تكاثرت الأصوات داخل هذا القبر ولم أعد أفرق بين انزعاجات الحاكم وصراخات المساعدين. قادوني بعدها إلى أبهية غرفة التعذيب المعدة لأغراض أكثر قساوة وبشاعة. في هذه المرحلة بدأت عيونهم تحمر وأوجههم تتخذ استطالات كثيرة ومعوجة. أول شيء فعلوه معي، أنهم جردوني من الثياب وتركوني عارياً مثل الجرذ الأحمر حديث الولادة.

- سترى يا ابن الزانية...

توركيمادا، ابن الكلب هو الذي سن طريق هذا الرعب، لم يكن يعرف إلّا أوجه الموريسكيين. كان يتلذذ ويستمتع بمنظر الحرائق وهي تتصاعد من الأجساد التي أنهكتها الشوارع الضيقة وجبال البشرات والهضاب الغرناطية. فوجئت ذات صباح بارد أو ذات ليلة شتوية خرجت من الجحيم، بوجوه النحس تدخل من شقوق الحيطان وتطير بها باتجاه المحارق الملتهبة. كان العرق يتصبب من كل أعضائي حتى داخلني في لحظة من اللحظات ضعف كبير، خفت أن أموت محترقاً أو مخنوقاً بالأدخنة الكثيفة المتصاعدة من جسدي المتعب. لم ننتبه لناقوس الرعب الذي كنت أجلس تحته. ناقوس كبير، بحجم الإنسان ينزل فوق رأس المتهم ثم يقرع بشدّة. طنة الصوت أرعبتني. شعرت وكأن عظام الرأس تتفكك وتتشرخ كمرآة مكسورة. الناقوس يشبه إلى حد كبير السطل الألماني الذي غُذبت به في جملكية نوميدا - أمدوكال، بعد أكثر من ثلاثة قرون من هذا


Twitter: @ketab_n

الحادث. تفككت أذاني، وعيوني، وأسناني، ورأسي... وبدأ الدم ينزل من مخارج الأنف وثقب الأذنين، ومع تكرر صوت الناقوس بدأت أفقد علاقتي بالحياة، وسمعي شلّ أو كاد ولم يعد للأصوات أي معنى. أيقظوني بسطل ماء بارد. قالوا هذا الماء أنظف منك أيها الموريسكي القذر. وبعد أيام من العذاب، شدّوني إلى الكرسي الإسباني، دُهنت قدماي بالزبدة المذوبة ثم بسائل لزج يشبه زيتاً أو شحماً حيوانياً، عرفت ذلك من خلال الرائحة الكريهة المبعثة منه. ثم حطوا صفيحة ساخنة احمرت من كثرة الحرارة تحت رجلي. شعرت برائحة القلي، والدخان يتصاعد من جراء ذوبان أقدامي. صرخت، لكني كنت أعرف أن صوتي لا يتعدى هذه القاعة القذرة. تركوا لي مجالاً خفيفاً لرفع أقدامي، لكن الحرارة التي كانت تصل وجهي منعتني من الاستمتاع بهذه الفسحة، فأغمي علي مرة أخرى. وحين أيقظوني من جديد، وضعوني وجهاً لوجه مع جسد صديقي حمود الإشبيلي. كان ممزقاً بالكماشات الحامية، والكلّابات الحادة. صب الرصاص في جروحه، صرخ عالياً، لكن السماء كانت تضع الصمغ في أذنيها. صرخ مرة أخرى ثم صمت بشكل فجائي، نظر إلي بعيون متعبة كانت تودعني وتودع صراخاته في الأسواق الشعبية التي كان يملؤها جده رشيد الإشبيلي بحنينه. قال بصوت حزين، كنّا وحيدين يا البشير وكانوا يحضرون أشياءهم الجديدة بهدوء كبير. احك عنا في الأسواق الشعبية إن خرجت من هذا القبر حياً.

- نحن أصلاء هذه المدينة. الموت لكتاب الدواوين والوراقين.

- كلامك في القلب يا حمود الإشبيلي يا خير ما تبقى من المدن المهزومة.

- إني أشمّ النهاية يا صديقي. العمر يزحف نحو النهاية بهم وبدونهم.

ربطوه بإحكام إلى الأرض. فتحوا رجليه إلى أقصى حد، ثم مددوا اليدين في شكل صليبي، قالوا قل ماذا تعرف عن الهرطقة. ظل



Twitter: @ketab_n

مصراً على الصمت ثم توجهوا إلي من جديد، كنت منهكاً وحزيناً لم تبق فيّ أية مقاومة تذكر. كنت خائفاً عليه من هذا الموت البشع حين أصبح الجسد مهيئاً للعذاب جاءوا بثلاثة جرذان كانوا قد جوعوها من قبل. منظرها مقرف وهي تلتهم قطع الخشب التي وضعت في فمها. حطوها على بطنه ثم كفؤوا عليها صحناً حديدياً مغرّفاً شدوه بإحكام على بطنه بواسطة مجموعة من الأسلاك المعدنية. سمعت خرخشتها وهي تحاول أن تبحث عبثاً عن مسلك للخروج. قهقه كبيرهم. كان يحمل النّار في يديه، بدأ يسلطها على الصحن تدريجياً، تخيلت الجرذان وهي تحاول أن تحتمي من الحرارة، فلا تجد أمامها إلا بطن الضحية فتبقره. ظل حمود الإشبيلي يصرخ ويرفع صوته عالياً. ينادي ثديي أمه. يصرخ، الحيطان تتهاوى، السقف ينزل رويداً رويداً. يصرخ، ينادي نيام القبور، فمه ملموء بالكتان المتسخ. يقهقهون بصوت مرتفع ويرفعون من درجة اللهب المسلّط على الصحن. تسمع الخرخشات المتقطعة للجرذان وهي تبحث عن مسلك داخل بطن الإشبيلي. شعرت من كثرة تألمه بالسلاسل الثقيلة تغادر مكانها وتتكسر في معصميه. تخيلت حجم الصرخة المكبوتة نظر إلي بعينين تودعان الحياة، ثم أنكفأ على صدره بدون أن يقول أية كلمة. قلت ربما يكون قد أغمي عليه. بعدها دخل رجل بدين القاعة الضيقة يجر وراءه كلباً شرساً. نزعوا عنه الأسلاك المعدنية، ثم أزاحوا الصحن الذي ألتصقت أطرافه بجلدة البطن من شدة الحرارة. يا الله؟ كان المنظر مهولاً. قفزت الجرذان وهي تجرجر وراءها أمعاء حمود وقد التوى بعضها على رقابها أو التصق بأنيابها التي تطحن الخشب. الحفرة التي خلفتها في بطنه كانت واسعة والدم الذي سحبته وراءها خلّفَ خيطاً من الخوف في ذاكرتي، وسرعان ما غبت عن هذه الأجواء، واندفنت في فراغ مخيف. عرفت أنه لم يكن من السهل قتلي. كانوا يريدون اعترافي أولاً. وحين سمعت ماريانة بالخبر احتلت الأسواق وظلت تحكي قصة الإشبيلي والدمع يملأ قلبها. هددتها محاكم التفتيش بالدفن


Twitter: @ketab_n

حية، لكنها ظلت تروي قصص الإشبيلي بدون توقف. حين زارتني في ظلام القاعات الضيقة قلت لها أخي في المارية ويعرف يهودياً له علاقات وطيدة بمحاكم التفتيش، يشترون البراءة بدراهم ودوقات ذهبية. عند الباب، وأنا أغادر ظلام الموت قالوا،

ـ في المرة القادمة سنشويك.

ـ ليكن، في القلب نشيد لا يموت.

وأقسمت على رأس الشاهدين، الأموات والأحياء أن أقص قصة الإشبيلي كما رأيتها وليكن ما يكون. نصحني أخي بالسفر، لكني رفضت. أكدت له أن مساعدته كبيرة لكنها دون عذاب حمود الطيب وأني لن أكون إلا القوال الذي يملأ الأسواق وحي البيازين بأناشيد الحزن والحنين. في المرة الثانية أقسموا أن الفعلة لو تكررت سيضعون رأسي في النار ويستمتعون برائحة الشياط. عرفت كل شيء، فماريانة تعرفهم جيداً. تدخّل اليهودي هذه المرة لن ينفع إلا في حالة واحدة، تنظيم عملية هروب خارج البلاد. بحثوا عني في البيت كالعادة، فلم يجدوني في الأسواق لم يعثروا إلا على الخرّافين وكتاب الدواوين، لأن القوالين امّحوا من الأسواق الغرناطية. استحضرت كل الخوف دفعة واحدة وأنا أقف على القرن الأول من أخشاب الفلوكا ولم أتفطن إلّا عندما دفعني العجوز وهو يحاول أن يوسع بكتفه الأيمن المكان الذي كانت تقعد فيه زوجته.

ـ عفواً يا بني، إنها مريضة مرضاً عافاك الله منه...

ـ تفضل، تفضل، المكان ضيق.

ـ الدنيا أضيق.

سحبت نفسي أكثر باتجاه مقدمة الفلوكا، شعرت بملامحه تتلون بالفرح بعد ما كان منقبضاً. كانت عجوزه كما يسميها مريضة بالطاعون (على ما يبدو). اختلطت رعشتها بحركة الأمواج وهي تتكسر على أطراف الفلوكا. في المساء نفسه أتذكر أني رأيت وجه الله يتلوى حزناً داخل غيمة سوداء لم تمطر إلّا العقارب والأفاعي



Twitter: @ketab_n

وأشكال يصعب تحديد ملامحها. لا شيء يطمئن في بداية هذه الرحلة على الإطلاق، رفعت رأسي إلى السماء، وقبل أن انتبه إلى زخات المطر الأولى، كان الجدافون قد أدخلوا الفلوكا إلى أعماق البحر واختلطت أصوات المجاذيف بوجه ماريانة التي غابت تلويحتها وسط فراغ الظلمة. قال الشيخ.

- أوف.. أوف... نتمنى أن لا تكون مخيفة.

- على الله. من يدري؟

نزع برنوسه الخشن ووضعه على رأس عجوزه. كان أكثر تفاؤلاً مني، وكنت أخشى أن يكثر من الأسئلة وأتورط معه في الكذب، لكن عينيه اللتين جربتا الجحيم والفرح، كانت تعرفان البقية. لم يقل شيئاً لكنني قرأت الخوف يدخله من العينين عندما بدأت الفلوكا تهتز اهتزازات عنيفة بفعل حركة الأمواج التي ازدادت على غير العادة. عيون الشيخ كانت مثبتة على فراغ مبهم. كان يفكر في العجوز التي كانت تزم فمها بشدة وتضغط على أسنانها بشدّة حتى تكتم صرخة الألم التي قد توقظ الدابة في البحر السابع.

المأساة الحقيقة بدأت عندما ازدادت كثافة الأمطار وبرودة الجو الذي لف داخل غلالة من الصمت. قال العجوز لعجوزه، عضّي على الكتّان وبقوة. عضت، لكنها لم تستطع المقاومة طويلاً. صاحب الفلوكا صدها ثلاثة مرات، هددها، قال عشر أرواح ستقتل بسببك. اصمتي لست وحدك المريضة، كلنا مأزومون. اتركينا نصل بسلام. لكن صراخها ازداد أكثر وبدأ يخترق صمت البحر حتى ظننت أنه سيرميها في البحر كخرقة بالية. في الحقيقة كان خائفاً على نفسه وليس عليها أو علينا. ارتكنت إلى الزاوية، وغمّت رأسها في حجر زوجها الذي سالت من جبينه وقلبه حبّات العرق الباردة مختلطة بمياه الأمطار الثقيلة. كانت خطوط وجهه المنحدرة من الجبهة حتى الذقن تتقلص شيئاً فشيئاً. حين صرخ صاحب الفلوكا في وجهها من حديد.



Twitter: @ketab_n

- والله سأرميك يا جثة النحس.

- اتركها تصرخ يا أخي، فلن تقوم القيامة.

- سأرميك معها إذا كثرت الكلام.

لست أدري هل فعلت جميلاً ولكني صرخت بدون إرادتي.

- يلعن أبوها رحلة محاكم التفتيش يا الله.

- يبدو أن الذين أوصوك قصروا معك كثيراً.

- ...؟ ...؟

- مالك سكتّ.

- جرب ارميني.

شعر بأني جاد في كلامي ولهذا صمت مرة أخرى. لست أدري ما الذي كان يدفع بي باتجاه هذا الموت المعلن. ربما كان الإحساس بتمزق الخيط الذي يجمعنا بالحياة. لم يكن يهمني كثيراً أن أرمي به إلى أعماق البحر والعودة إلى محاكم التفتيش. إما أن أمد قلبي للبحر أو أغوص فيه حتى التهلكة. صمت بعدها. وصمت أنا. وبعد فترة وجيزة، نطق أحد مساعديه، لقد وصلنا إلى بر الأمان سنتوقف هنا لحظة، ننتظر الإشارة من الأرمادة التي ليست بعيدة بكل تأكيد. لم أقل شيئاً ولكن انتابتني شكوك كثيرة دفعت بي إلى محاولة إعادة الكثير من الحسابات، لكن الزمن الضيق والخوف، كان يرهبني. تحسست السكين الذي كان ينام تحت رجل سروالي، خبأته حين صعدت إلى الفلوكا. قالت ماريانة إنه سكين غجري، خذه، من يدري فهؤلاء البحارة طماعون، أعرفهم مثل لون لباسي الداخلي (أحياناً في بذاءتها الكثير الجمال والبراءة).

بعد لحظات، رأينا أنواراً تشع من بعيد. نبهه أحد الركاب لكن صاحب الفلوكا أصر على أن لا يتحرك إلّا إذا سمع صوتاً خاصاً مصحوباً بالإشارة الضوئية التي لا يعرفها إلا هو. بقينا محشورين أكثر من ساعة. صحيح أن توقف الأمطار أراحنا كثيراً ولكن الرعود



Twitter: @ketab_n

الآتية من قريب لم تكن تطمئننا مطلقاً. كان يخاف خوفاً أزرق من القراصنة الأتراك الذين كانوا يملؤون المكان رعباً وخوفاً. زاد صمت العجوز أكثر، لكن زوجها ظل يطمئنها ويطمئن الحضور. القراصنة مخيفون والأكثر منهم الموريسكيون العائدون إلى مدنهم، يسحقون كل شيء في طريقهم. مثل الجراد يأكلون الأخضر واليابس وكأسماك القرش يعرفون البحر جيداً أكثر من أي كان. رُويت عنهم حكايات كثيرة استقبلتها شواطئ المارية...

وقبل أن أنهي امتدادات الذاكرة، بدأت الإشارات الضوئية تتوالى داخل البحر مصحوبة بصوت متقطع ومزعج. نظر صاحب الفلوكا إلى أحد مساعديه.

- عدّ معي الإشارات... واحدة... اثنتان... ثلاثة... عشرة...

- الأرمادة يا سيدي.

وبدأنا نزحف بهدوء باتجاه السفينة، لم يكن البحر صعباً أبداً، فقد ساعدنا الهواء البارد على الوصول بسرعة.

وعندما حاذينا السفينة، وتسلق صاحب الفلوكا، صعد السلم المصنوع من الأحبال. تبادل حديثاً سريعاً مع رجل بدين، يبدو أنه الريس، ثم عاد إلينا بسرعة خارقة. قرَّبَ الفلوكا أكثر بعدما نزل وراءه الرجل البدين تأملنا واحداً واحداً ثم قال إلى الشيخ،

- من الذي ينام في حجرك؟

- زوجتي يا سيدي. مريضة ولكنها ستقاوم.

ثم طلب منا أن نتخلص من الأشياء الثقيلة. اقترب منه صاحب الفلوكا الذي لم نعرف حتى اسمه، تمتم في أذني الرجل البدين بكلمات لم أفهمها ولم أرتح لها طوال الرحلة، لأن البريق الذي لمع في عينيه أشعرني كأننا نقف أمام ثعلب ماكر تدرب على أسرار البحر.

في النهاية ساعدنا المرأة العجوز على الصعود، كانت تحاول



Twitter: @ketab_n

وتبذل مجهودات كبيرة حتى تكتم كل صراخاتها. كنا لا نسمع داخل هذا الصمت المطبق إلا أسنانها وهي تتطاحن من شدة الألم. تسلم كامل الأوراق من صاحب الفلوكا، راقبها من جديد عند المدخل ثم أَذِنَ بعد ذلك لصاحب الفلوكا بالذهاب. وقبل أن يختبئ بين أمواج البحر، قال مرة أخرى لقد أصبحتم في منأى عن الخطر، بالسلامة. لست أدري هل قالها ليطمئننا أم أنه كان يعرف عن هذا الرجل أكثر مما كنا نعرف؟ ثم غاب ولم نعد نسمع إلا أصوات المجاذيف وهي تشق صدر البحر.



Twitter: @ketab_n

# 4

مرّ على ذلك زمن بعيد جداً، عندما كانت الطائرات المروحية تملا الدنيا رعباً، وجملكية نوميدا ـ أمدوكال تغرق في البحر، والحكيم يبحث عن مكانه الضائع وسط فراغات المدينة. قيل عنه وقتها إنه شق المتوسط باتجاه مدينة شمالية تقع وراء البحر. كانت الطيور يومها تغرق بين الموجة والموجة، ثم تصعد بدون غنيمة. فالأسماك غادرت جملكية نوميدا ـ أمدوكال، باتجاه مجهول. رائحة احتراق اللحم البشري المشوي كانت تملأ الشوارع. الأسلاك الشائكة التي زينت بها الأحياء الشعبية قطّعت في بعض المناطق. قال لي علماء (حكماء) المدينة أن الناس كانوا ينتظرون فقط من يفجر قلوبهم المملوءة بالصدأ والخوف. ولكن في الحقيقة أن ما حدث كان أكبر من ذلك كله. الليلة السابعة التي أضيفت إلى قائمة الليالي المنتهية لم يكن من الممكن أن تتواصل حتى ولو أراد ذلك الحكيم شهريار بن المقتدر بنفسه. لم أتذكر قصة اليهودي والسفينة والرحلة إلّا ثلاث مرات، الأولى عندما واجهني علماء المدينة بحقيقتي بعد عودتي من الكهف، والثانية عندما طلب من القوال سيدي عبد الرحمن المجدوب أن أتم القصة، والثالثة في اللحظة التي وقفت فيها عند بوابات البحر أنظر إلى ألسنة اللهب التي اشتعلت في الماء وداخل الأدخنة المتصاعدة من كل مكان. كان من الممكن أن نغتصب المدينة بطريقة أسهل، يقول العلماء، لكن المهم هو أننا فعلنا ما كان يجب فعله. نظر العلماء إلى بعضهم بعضاً بنفس النظرة



Twitter: @ketab_n

المليئة بالإشارات مثل تلك التي واجهوني بها أول مرة حينما رأيتهم. كانوا يريدون معرفة ما تبقى من رحلة البحر، التي سمعوا عنها الكثير وتنقصهم تفاصيلها. كانوا يقولون في ذلك الزمن الذي أصبح بعيداً، لقد أضافوا الكثير إلى عذابك يا البشير ولم يكن من الممكن أن تبقى حياتك مبتورة. لو عرف الحاكم التركي سيد الدنيا سر عذابك لغير موقفه لكنه كان حاكماً بليداً لا يعرف إلا القرصنة والجوسسة والسجن كان مصراً على إدانتك لأنه كان يحمل شهادة ورقية تدينك ويدينك ختم محاكم التفتيش الذي كان يذيلها. قدمها له القرصان الإيطالي من أجل إنقاذ نفسه من القراصنة، أو ربما كان يعمل معهم. قال لهم إنك تتعامل مع محاكم التفتيش كما تقول إحدى الروايات. الكلب ابن الكلب يعرف الحقيقة أكثر من غيره ويزيفها. لكن كما قال أحد الحكماء في جمليكة نوميدا ـ أمدوكال، لو لم يحدث ذلك وواصلت رحلتك بسلام وأمان، لانتهى كل شيء ولغابت معجزة عودتك السرية من غرناطة ولأصبحت رحلتك كغيرها من آلاف الرحلات التي حدثت في هذا الزمن والأزمنة الفائتة. لكن في رحلتك شيئاً آخر.

في الواقع أشد ما كنت أخشاه هو أن أخيب ظنهم. فما حدث لي كان صعباً ولكنه لم يكن معجزة أبداً. لم أشق البحر، لم تنقذني الأسماك، لم أنزل نجوم السماء ولم أضعها بين أيدي العباد. كل ما هنالك، هو أني وجدت نفسي وجهاً لوجه أمام عذاب مخيف أنساني في لحظة من اللحظات أني إنسان. وبالرغم من الدفء الذي كنت أشعر به على متن الأرمادة، لم أكن مرتاحاً أبداً فابتسامة صاحب الفلوكا مع الرجل البدين ظلت عالقة بذهني وتملأ قلبي خوفاً. سمعت أصواتاً وصراخات متعددة واهتزازات حركتني من مكاني، عرفت بعدها أن السفينة لم تنطلق إلّا الآن بينما كنت أظنها قطعت مسافة لابأس بها وسط البحر. كان الرجل البدين في حقيقة الأمر راسياً بسفينته ينتظر بقية الفلوكات لتصب أثقالها في الأرمادة وتعود في ظلمة البحر. وحين تجاوز عدد الركاب المائة تحركت السفينة بشكل



Twitter: @ketab_n

أشعرنا أن القيامة بدأت. قدم لنا الرجل البدين كل التعليمات الخاصة بالرحلة أهمها، إن عدد البحارة غير كاف للقيام بأعمال الجذف وما علينا إلا التشمير على الزنود لتسديد النقص والوصول بأمان. كلها أشياء جديدة لم نكن نعرفها من قبل فالدهشة كانت مرتسمة في جميع العيون التي غزاها ذعر غريب. طمأننا عن الريح وأنها مناسبة لعملية الإبحار. وبعد أن أعاد مراقبة الأشرعة، نادى بإعادة رفعها من جديد. شدّ الأحبال المتعددة محاولاً في الوقت نفسه اختبار مقاومتها للريح. لست أدري كم دامت العملية، كل ما أتذكره هو أني بعد ذلك شعرت بهزة الأرمادة، مختلطة بصوت الرجل البدين وهو يعطي أوامر التحرك باتجاه لم نكن نعرفه جيداً وكان يعرف مسالكه مثل جيبه كما كان اليهودي ساموييل يريد أن يطمئننا في كل لحظة. بدأت الأرمادة تتمايل ومعها سمعت تكسر الأمواج على أطرافها. خشبها كان أسودَ ثقيلاً مثل أيام القيامة، لكنه يعطي الإحساس بالمتانة والمقاومة. وقبل أن استيقظ على صرخة العجوز الجافة كانت قد أخذتني إغفاءة التعب، لست أدري هل طالت أم قصرت. ساعدت الشيخ على وضع المحلول في فمها، استكانت بعدها في حجره بهدوء. حين فتحت عيني في المرة الثانية، كانت تباشير الفجر الأولى قد بدأت تطل من خلالها الأشكال المختلفة وتتلون بألوان الفجر الذي جاء مبكراً على غير العادة، ربما لكوني قد تعبت كثيراً في الليلة الماضية. حركة الناس ازدادات على متن الأرمادة. من حين لآخر نسمع أصوات البحارة وصراخات الرجل البدين الذي لا يعرف إلا الكلمات البذيئة. لا أحد يعرف مدة الرحلة، الرجل البدين قال يمكن أن تستمر ثلاثة أيام في الأوقات العادية كما يمكن أن تتجاوز هذا العدد.

- نحن والبحر ابن الكلبة، يمكن أن يخدعنا في اللحظات الأخيرة. أحياناً يهوّل الموقف، وفي أحيان أخرى يقدم وضعاً مأساوياً على أنه مجرد حالة طارئة سرعان ما تزول. كل الذي عرفوه من قريب أو من بعيد يؤكدون على ذلك. كنت ما أزال أشعر



Twitter: @ketab_n

بالرغبة القصوى للنوم، لكن صراخات المرأة عادت من جديد إلى رتابتها. عيون الشيخ غارت كثيراً، يبدو أنه لم ينم طوال الليلة الماضية. ازداد تداخل الوجوه الكثيرة التي كانت تدخل وتخرج بكثير الغباء أحياناً، لم تكن تملك مبرراً لهذا الدخول والخروج المتواتر. كان وجود المرأة بالنسبة إليّ وجوداً عادياً، لكن بعض حكماء جملكية نوميدا ـ أمدوكال الذين يستمعون إلى بقية القصة حمّلوا الموضوع أكثر مما يتحمل. قالوا حضورها على متن السفينة كان علامة لاختبارك. كانت شيئاً آخر أكثر من مجرد امرأة عادية، هم أنفسهم لم يستطيعوا تفسيره. كل القصص تبدأ من البدايات والعجوز كانت إحدى هذه البدايات. وإلا لماذا اخترتَ أنت بالذات للقيام بكل شيء؟

ألم يكن هناك غيرك؟ لماذا كلّمك الشيخ أنت أوّلاً قبل أن يكلم أيّ شخص أخر؟ بدونها ما وصلت إلينا، هذا أمر كان ينقصنا ونؤمن به كما نؤمن بآلامك أيها الرجل الفاضل الطيب. صراخاتها كانت النداء الذي كان يقودك إلى جملكية نوميدا ـ أمدوكال، لولاها ما كانت حربك مع المارانوس، ثم مع الرجل البدين في المرة الثانية. ولولا هؤلاء ما كانت مواجهتك مع الحاكم التركي... لولا هذا العذاب كله، لوصلت بأمان إلى العُدْوةِ الأخرى، كآلاف الذين سبقوك بهذه الرحلات الإجبارية. وتعدّ العدة بعد هذا كله للقيام بغزوة خاطفة لاسترجاع قلبك الذي تركته هناك في الأراضي الأخرى، فشواطئ المارية كان بالإمكان شراء صمتها للحظات.

كدت أقول بصوت عال ليت هذا حدث. لكني كتمت صرختي مثلما فعلت مراراً المرأة العجوز. خفت أن أصغر في عيونهم. وأصبح رجلاً عادياً. خيرهم سابق ولا يمكنني أن أنكره بمجرد نزوة بطولية تافهة. حاولت أن أنسى الصرخة المكتومة، لكن الألم بدا جلياً على وجهي. العلامات تأتي هكذا حتى عندما لا نريدها. أشياء لا نعلم مصدرها ولكنها تنشأ في داخلنا كالفرحة والحزن والحنين. كنا في حوار مع البحر وكان في شوق مستميت إلينا.



Twitter: @ketab_n

حين شق صدره وخرجت الأنهار، الكثير من الناس أغرتهم زرقته وضبابه. قال لي الحكماء إنهم لم يكونوا يعرفون كل التفاصيل، لكنهم كانوا متأكدين من أن رجلاً سيأتي ويقص كل القصص القديمة.

قال أحد الحكماء، نريد أن نعرف بقية العذاب، ربما انكشفت بقية الأسرار التي لم نفهمها نحن في جملكية نوميدا ـ أمدوكال، حاولت أن أتذكر بقية الذعر البحري الذي ينام الآن بين الأمواج المتوسطية العملاقة. هدأ صراخ المرأة العجوز بشكل فجائي ولم يوجد شيء يستثير هدوء البحر. الفجر برطوبته كان يحاول أن يكمل وداعة المنظر الذي لا يذكّر إلا بحالات العشق المدفونة في الأعماق. كنا نحاول أن ندواي الغربة المفاجئة بحنين القلب ودغدغة الأصباح الغرناطية التي لم تعد إلا ذاكرة حزينة مليئة بالجروح والخوف. علا الصراخ الحاد للمرة الثانية مفزعاً حتى دابة البحر الصماء، حتى الطيور الكثيرة التي كانت فوق السفينة بكثافة غير معتادة (كما ذكر أحد البحارة الذي حاول أن يتقرب منا ولو بعينيه)، تحوم على مسافات غير بعيدة منا، تشلأت محدثة فراغاً كبيراً في السماء. لأول مرة انتبهت لهول الغيمة السوداء التي كانت تنام فوق رؤوسنا. كانت تهددنا في كل لحظة من اللحظات. بدأت الزرقة تتحول إلى سواد والفراغ يزداد اتساعاً في الأعماق. رفع الشيخ رأسه إلى السماء مرة أخرى، وصرخ من جديد،

ـ يا الله، لماذا تخليت عنا؟

لم أكن أعلم أنه كان يملك كل هذه الطاقة لإسماع صوته المخنوق إلى جهات العالم الأربع. لماذا تركتنا يا الله وسط هذا الموت نواجه الخوف وحيدين. لماذا تبتعد عنا كلما طالبنا بحضورك؟ لماذا تصر على توسيع الشقوق التي تفصل بيننا؟ تشبثنا بأسمالك طوال الدهر حتى صارت ألبستك ممزقة من كثرة الأيادي التي تريد أن تلتصق بك وأنت تهرب منها .وكأنك في حرب ضدها وليس ضد الذين يحرقون أظافرها. كان يعوي مثل الذئب المهجور الذي أصيب بجرح في قلبه. حرك رأسها من جديد، بدت له باردة،


Twitter: @ketab_n

صرختها ما تزال مكتومة في صدرها الضيق. تبدو لمن يراها إما أنها ميتة أو في النزع الأخير. هذه الحالة لم تثر لا الركاب ولا البحار البدين الذي غير الألبسة الموريسكية بألبسة البحر التي تشبه في ردائتها الألبسة التي يرتديها القراصنة. إلا البحار الذي نبهنا إلى الطيور التي كانت تملأ السماءَ جاء ليربت على كتف الشيخ العجوز ويمر بسرعة خوفاً من أن يصرخ في وجهه الرجل البدين أو المارانوس. الكل كانوا منهمكين في العمل إضافة إلى بعض الركاب الذين اختيروا للمساعدة في البداية. كان الإنهاك بادياً على وجوههم. لم يكن العجوز مستعداً لمساع أيّ واحد. حتى تهديدات الرجل البدين أو البحار الكبير كما كانوا يسمونه على ظهر الأرمادة.

ـ إذا غاضتك ارم بها في البحر. أسماك القرش جائعة.

ـ هذه زوجتي يا سيدي. إنها عِشرة عمر أيها القبطان الكبير. قيل عنك أنك تحب الموريسكيين ولهذا توسمنا فيك خيراً.

ـ من قال لك إني أكرههم؟ إنها الوقاية فقط من انتشار الأمراض.

ثم انسحب من أمامه مع ابتسامة ماكرة ظلت عالقة بشفتيه حتى غاب في إحدى القمرات. بينما ظلت عيون المارانوس مثبتة على صدري الذي كانت تتدلى منه سلسلة ذهبية، تظهر واضحة كلما حملت صندوقاً خشبياً على ظهري. قالت ماريانة وهي تضعها على صدري في الليلة الأخيرة.

ـ آخر ما تبقى بيننا. تذكرني يا البشير، غالية علي. كل ما ورثته من أمي.

خرج البحار الكبير وهو يزأر مع بعض البحارة والخدم من الركاب،

ـ هذا الجو التافه بدأ يتبدل، منذ أكثر من ساعة وأنا ألاحظ حركة هذه السحب الكثيفة. شيء لا يطمئن أبداً.



Twitter: @ketab_n

الأمواج بدأت تزداد تضخماً، لست أدري هل ستستطيع هذه الأخشاب العيتقة مقاومة هذه الرياح التي ازدادت برودتها. عيونه عيون ثعلب يقرأ غيب البحار قبل حدوث المكروه. اقترب من مجموعة من الركاب، كانت ابتساماته الماكرة قد انكسرت، قال لهم، استعدوا لتنظيم شؤون السفينة والسواري والحبال فالجوّ لا ينبئ بخير أبداً. بدأنا نشد السواري وندعمها كما أمرنا هو بفعل لك، ونلف الحبال هناك وهناك... عدت إلى الشيخ الذي كان ما يزال في وحدته، أكد لي أننا بين أيادي قراصنة، وبالرغم من نفس الشعور الذي كنت أشعر به، فقد حاولت أن أطمئنه.

ألم أقل لك إننا سنقاد جميعاً إلى جهنم. هؤلاء قراصنة. هذه ليست أخلاق البحارة يا البشير؟

- الريس أحياناً يبالغ في تشدده لضمان الوصول وحتى لا تتسيب الرحلة.

- عيونهم غير مريحة.

- أنت متعب وفي حاجة إلى راحة.

- من قال لك هذا. صرت أنت ريس الأرمادة؟.

قالها المارانوس وهو يسحبني من ظهري بقوة.

- هيا الحق أصحابك، وأنت أترك هذه الجثة وساعد الجماعة.

لكن عيون الشيخ ظلت ملتصقة بأفق كان يزداد ضيقاً مثل خرم إبرة. لم يقل شيئاً، لست أدري هل سمع المارانوس أم لم يسمعه. شعرت بألم داخلي وبرغبة كبيرة في التقيء. لم يسعفني الصمت فقد انزلق لساني بسرعة من فمي. كان شيئاً أسود ينتشر في داخلي كالقطران.

- اترك الرجل مع جنازته. سنعمل في مكانه.

- إنها أوامر أمير الأرمادة، عندك مانع؟



Twitter: @ketab_n

قالها بابتسامة ماكرة فيها الكثير من الاستفزاز. أدركت من عينيه أنه يبحث عن أتفه الأسباب لوضعي في زاوية ضيقة وحذفي أو أخذ السلسلة العتيقة التي شعرت أنها بدأت تسيّل لعابه. كان يُرَيِّفُ عليها. مدارات الموت والجزع كانت تزداد اتساعاً بيني وبين هذا الرجل الكريه. تعمق الفراغ الذي كان يملأ داخل الشيخ. كانت مسجّاة في حجره ولم يعد بإمكانه أبداً أن يسد الدموع التي كانت تنهمر بكثافة من عينيه المتورمتين. وما أصعب أن يبكي شيخٌ في سنه. فالدنيا بكاملها تحزن ويتمدد البحر تحت السفن طلباً للرحمة، تذبل الشمس، ثم تتدلى من السماء كالورقة اليابسة. التفت إلى المارانوس كما كان يسميه قائده، والكونفرسوس كما كان يناديه بعض أصدقائه البحارة. اخترقه بعينيه.

ـ إنها عمري أيها البحار. لم أجلب شيئاً من المارية إلا هذه المخلوقة، لا أطمع لا في الدين ولا في الدنيا. ظننت حتى آخر لحظة أنه بالإمكان إنقاذها من لعنة الموت. أهلي هناك وراء هذا البحر، الأمل الوحيد الذي تبقّى لي ولها قبل الموت غريبين في فراغ المدن التي نسيتنا. طفت بها مدناً كثيرة، رأيت جحيم الدنيا قبل جحيم الآخرة، رأيت كيف تشوى الجباه وتفقأ العيون التي يحلو لها أن ترى غير ما تراه محاكم التفتيش المقدس...

ـ هذا أمر يخصك، كلنا أحرقنا من محاكم الموت، يجب أن تلتحق بالبقية للعمل ويكفي من ذكر مغامراتك. إلى الجحيم أنت وأخبارك.

ـ دفعت دم القلب للحصول على هذا المكان، أنا مسافر ولست بحاراً.

القلب تعب يا سيد، وصار كتلة جافة من الحطب. رأيت الكثير من أمثالك، أخوتك أيها المارانوس فصلت أجسادهم عن رؤوسهم أمامي، أجساد كثيرة أحرقت حية داخل المغارات، وحين أرادت أن تخرج، كانت السيوف القشتالية في انتظارها. مثلك باع أهله لخراب



Twitter: @ketab_n

المدافع الإيطالية. محمد الصغير تركنا وحيدين، نواجه بصدور عارية ألسنة اللهب التي كانت تنبعث من كل مكان، كالفئران كنا نبحث عن حياة وهمية داخل أقبية الموت. اللعنة على هذه الأرض، اللعنة على هذه الدنيا اللعنة على ابن الزانية محمد الصغير، باعنا، ووقف يتفرج على دمنا. اللعنة على دنيا لا تملك فيها حقك في الحياة.

كان الشيخ يعيد مدّ الجرح الذي نزّ كثيراً حتى تفسخ وتيّبس على دوده. ألم يكن ممكناً الموت بشرف الشهداء والرجال والأخيار؟ الأيادي كانت مكشوفة في مواجهة الخوف. هم الذين خانونا وصنعوا ذاكرة للهزيمة. باعوا الرؤوس وطلبوا منا التسليم بالأمر وترك ثغور المدينة. لقد عاشوا النار وعذاب الشعور بالتخلي المفاجئ. أنا أعرف أسواق غرناطة التي كانت تروي حنينهم وأشواقهم. سيأتي حتماً بعدنا من يروي الحقيقة كما عاشها هؤلاء الناس أو كما رويت عنهم، عن الذين أحرقوا بنار تعريتهم من مدينة كانوا يحبونها مثلما تحب المعشوقة الغجرية التي لا تعطي قلبها وجسدها إلا لمن تحب ولا تلمس نهدها إلا النار التي فيها الكثير من قداسة اللحظة التي لا تُنسيها النزوة حضورها. سيجيء من يشرق كالشمس ويجلس في صحن الساحة الشعبية ويبدأ في رواية قصة السقوط من أولها إلى آخرها. أي من لحظة قدوم الحاكم الرابع الذي سنَّ هذه العادات. عرفت الآن لماذا كنت منقاداً باتجاه هذا الرجل، أشياء غامضة فيها سحر الأشياء المخفية بين الضلوع ولا تخرج إلا لحظة الكآبة الكبرى. كنت أتمنى أن أجد لحظة واحدة لأساله عن كل الذي ينام في قلبي. علماء الجملكية فسروا المسألة بشكل آخر، قالوا، لولا القصة مع العجوز لتغيرت الكثير من الأشياء، لولاه لما كنت أنت هو أنت ولما حدث الذي حدث. ولسالت مياه البحر بهدوء كبير كما تعودت أن تفعل ذلك منذ الأزل. كنت أرى شيئاً آخر، أكبر، وأفظع، فقد استحضرت جدي الأخير الذي قضى بقية أيامه في جبال البشرات، يبحث في صخورها، وبين فجواتها



Twitter: @ketab_n

عما تبقى من لحظات المقاومة البائدة. قال سأموت هنا وسط هذا الخراب وليكن موت الجبال والوحدة احتجاجاً على نسيان الله لآلامنا وجروحنا وقيحنا الذي تخثر في القلوب التي سقطت وهي تحلم بالمدن التي سرقت منا على حين غفلة منها. إنها لحظة السهو التي تكلف العمر والذاكرة. خانوا الحليب والملح، لن نخون ما تبقى من هذه التربة. يقال إنها كانت كلماته الأخيرة، وبعدها لم نعد نراه، حمل أفراحه ورحل باتجاه الصخور الزرقاء والحمراء في جبال البشرات. قال وهو يودع المدينة بعينيه، بحزن شق عليه تخبئته،

- المدينة التي لا تحميك، ولا تملك حق حمايتها، ليست لك.

كان عمره متعباً، لكن رغبته في الاحتراق كانت أكبر.

لم يكن بإمكان أية قوة أن تمنعه من ممارسة هذه التضحية. لست أدري هل أحب هذا الجد أم أكرهه. فذاكرته تقفز دائماً باتجاهه. حتى والدي لم أشعر اتجاهه أبداً بتلك العاطفة الساخنة مثلما أفعل ذلك مع جدي الأخير. الشرارة الأولى لهذا الخوف المزمن بدأت منذ زمن واستمرت طويلاً في جبال البشرات جنوب جبال الثلج في سنة 1499. أهل المدينة الذين كانوا يعرفون ثقل الجبال وسر الصخور اليابسة حفروا الخنادق استخرجوا دفعة واحدة شجاعتهم التي دفونها تحت الصخور مع أسلحتهم البدائية. غطوا الحفر بالزرع والقش وأشياء أخرى يابسة ثم وقفوا ينتظرون الوجوه الجافة التي باعتهم للنسيان. فونطالي القرطبي. كانت عيون جدي تشبه عيون صقر عين على النار والبارود وعين أخرى على العُدْوة البعيدة، على البحر الذي كان يتمدد كالله في فراغ مطلق. رفع صوته عالياً، هذه آيادينا مملوءة بالدم أين أسلحتكم أيها الناس، هذه أعناقنا تحز من جذورها وتقطف بمناجل صدئة حافية، فأينكم يا أهل العُدْوة الأخرى؟ وهذه مدافع غرناطة الإيطالية تزحف نحونا فأين المدفع الدمشقي؟ لكن الصرخة ماتت في الوديان مرت السنة الأولى، وتلتها سنوات أخرى والعُدْوة لا تسمع أنين الجبل، الكل



Twitter: @ketab_n

أصبح يابسَاً والحلق جفت على أنبل الكلمات. فلا تسمع صوتاً آخر سوى آلام الذين صعدوا البشرات يبحثون عن كرامةٍ ما داخل هذا الموت الذي لا يرحم. وعندما أغلق كل شيء، وسدّ البحر آذانه، وتكسرت آخر الموجات على مضيق الزقاق ثم عادت محملة بالأصداء، عض جدي على يده للمرة الأخيرة حتى شعر أنه نزع جزءاً كبيراً من لحمي، مسح شفاهه التي يبست ملوحة الدم عليها ثم عوى هو بدوره كالذئب البري المجروح في القلب.

ـ دارها بنا أولاد الحرام.

شعر أنهم وحيدون وسط هذا القفر. ملأ قلبه بالحنين المفقود، ثم نزل إلى فرناندو والقرطبي، الذي لحق به متأخراً. القوات القشتالية كانت تتمدد كالمرض المزمن. أبناء الكلبة، استرضوا فرناندو على رؤوسنا. قالوا، لنحقن الدماء مقابل خمسين آلف دوقة ذهبية، ولك السلاح وحصون المدينة، والمال والعباد والزاد. وحين وضعهم تحت إبطيه ضحك طويلاً ضحكةً استمرت عدة قرون متتالية. وحين حاولوا أن يقفوا تحته، كانوا صغاراً مثل الجرذان. في البداية قال لهم، لكم الأمان ورفع يده اليمنى عالياً منادياً لكل القساوسة وطالبهم بضرورة تنصير الجماعات المهزومة التي أتى بها غنيمة من البشرات. لم يكن أمامهم إلّا الصخور والموت. ألنثو الأندلسي حين قاد جيشه عبر الممرات الجبلية الوعرة، كان يستخف بالبقية التي لم تستلم. الكمين كان جاهزاً، فجأة بدأت الصخور تنهال عليهم بقوة. لأول مرة يرى ألنثو الجحيم في حياته. وحين عاد فرناندو كان جدي وجماعته قد اختبؤوا من وراء الصخور.

حاصرهم وأغلق كل الممرات أعطاهم الأمان رافعاً يده اليمنى التي كادت تنزعها شظية انبعثت من وراء صمت الأحجار الباردة. بدأ الجوع والموت يزحفان. عشرون معركة وسنتان ومن السير على الجثث، ورفض الموت الرخيص، سنتان ولم يستسلم، فالقلب ياجدي ظل أخضر. عَشِقَ حنين غرناطة والمقاهي البحرية



Twitter: @ketab_n

والشوارع الضيقة والبحر ولم يستسلم. بعدك الموجة غيرت طريقها والوجوه الواسعة ازدادت ضيقاً والعيون الجميلة أصبحت مجرد ذاكرة حزينة.

ـ كنا نحمل ذاكرة مغشوشة.

صرخ العجوز وهو يسند عجوزه باتجاه صدره الذي أصبح مملوءاً بالحنين والشوق إلى الأرض التي غادرها مرغماً. كان البحر يزداد اكتظاظاً بالأمواج والأرمادة تتمايل بقوة وعيون البحار الكبير تزداد احمرار والمارانوس يلف حول الشيخ العجوز، عين على البحر وأخرى على السلسلة الذهبية التي كانت تتدلى من عنقي بشكل مكشوف كلّما أخذت شيئاً ثقيلاً على ظهري وانعكفت إلى الأمام من جراء الثقل. عشنا الذاكرة المملوءة بالهزائم والانتصارات الوهمية. طواحين الهواء يا البشير. طواحين... طواحين...

ظل يكررها وهو يسحب حسد المرأة العجوز إلى صدره بقوة. هل كان يجب أن نموت وسط بحرٍ ليس لنا؟ وسط سفينة عيون أصحابها تشبه عيون قراصنة ممتنين، حَلِمنا بتطهير البلد من الخراب، فظل يملأ داخلنا، مكتظاً بالأوساخ والأوحال التي لا تخرج إلّا في الأوقات التي نريد أن نخبئها فيها عن العيون التي يحلو لها أن تستمتع بهزائمنا. سلمنا المدن، سلمنا الرؤوس وسلمنا الأجساد والفروج، وظللنا نبحث عن استقامة وهمية وسط فراغٍ زاد من عملقة أوهامنا وأحلامنا المريضة. عاد الرجل البدين، أو البحار الكبير كما يسميه المارانوس، يصرخ ويحاول أن يخبئ خوفه الذي بدا واضحاً على ملامحه.

ـ ألم أقل لك أيها المارانوس اللعين أن تلقي بها في البحر، إني أشم رائحة الطاعون. سنموت كلنا.

ثم التفت إلى الشيخ بنوع من العنف.

ـ اتركنا نتفرغ لرداءة الطقس، وإلّا سأدفع بك معها إلى أسماك القرش.

ـ لقد دفعت ثمن مقعدها، ووجودها غير مضر.



Twitter: @ketab_n

- لسانك طويل أيها العجوز، سنُتهم بتهريب الجثث المليئة بالدوقات الذهبية، وهي ليست أكثر من كتلة ميتة مليئة بالأوبئة.

- أي قانون هذا، نحن مع بحارة أم مع قراصنة؟

- أرجوك لا تكثر الكلام، يجب أن تلقي بها في البحر. إنها ميتة والفئران كثيرة على متن السفينة والطاعون لا يرحم.

تراجعت العيون التي تعاطفت مع الشيخ إلى محاجرها، كل واحد عاد ليتلمس جسده خوفاً من أنياب الفئران. هي موبوءة قبل ركوبنا على متن الأرمادة، البحر مآل الأجساد المتعبة. كان العجوز يعرف جيداً أنها ماتت لكن كان من الصعب عليه تصديق ذلك. أسند رأسها على صدره وبدأ يدندن في أغنية قديمة دموعه ترتسم كالجروح على وجهه:

*يا بحر البحارة بيننا الملح والحنين.*

*فهل تخون ملحك؟*

*لي شوق فيك قديم،*

*كلانا يحلم مثل الله، وفراغ الموت يزيد...*

اقترب المارانوس من الشيخ، بعدما صرخ في وجه الجميع،

- عودوا إلى العمل أيها الأوغاد، يجب أن نصل بسرعة.

كان وجهه يشبه قطعة نحاس محروقة. قلت في نفسي، سأتودد إليه لعله يمهل الشيخ لحظات ليودع زوجته الميتة وأقنعه بأن ما فات مات، والحياة تظل أعظم. لكنه دفعني حتى قبل أن ألمسه أو أطلب منه أي شيء، كانت ضربة مرفقه قوية بحيث اصطدم ظهري بسارية الأرمادة. شعرت وكأن إبرة انغرست بين فقراتي العظيمة. تأوهت لكني عدت إلى مكاني. لست أدري هل ألعن تلك اللحظة أم أفعل غير ذلك لأن قطرة الدم التي نزلت من رأسي واختلطت بمياه



Twitter: @ketab_n

البحر أشعرتني في لحظة يصعب تحديدها، أني هربت من الخوف إلى الذعر. ماذا أفعل يا ابن أمي؟

قلت أهرب وها أنذا قد فعلتها. السيوف القشتالية لم تُروض جدي ومحاكم التفتيش لم تنسني حمود الإشبيلي وأحبائي وماريانة العاشقة. العمر قضيته في حي البيازين، حيث ينتشر الموت مثل اللعبة في الحياة اليومية. سأبيع أسوار مدينتي وأسواقها وحيطانها ومغاراتها وصخورها الزرقاء للخراب بدون أدنى ندم إذا كانت الهزيمة تسكن قلبي وتعب الموت المجاني يملأ شقوق بيتي. حاولت أن ألتفت مرة أخرى إلى البحار الكبير حتى يكون شاهداً على ما يمكن أن يقع. لست البادئ ولا الظالم. لكنه غاب فجأة مخلفاً وراءه أصداء ابتسامة ساخرة كريهة. كان المارانوس الذي استجاب لابتسامة سيده، ينتظر هذه اللحظة. استل سكينه من خاصرته ثم وقف ينتظر حركاتي. لم يكن أمامي اختيار آخر. حاولت أن اتفاداه لكن حين رفعت رأسي وجدته يواجهني بنفس الوقفة. الرِّجلان مفتوحتان، السكين يلمع في يده اليمنى والوجه بارد كقطعة نحاس. قاتل أو مقتول تذكرت كلمة الجد وهو يواجه، القوات القشتالية، تقول الرواية في الأسواق الغرناطية. نسي الشيخ حزنه، نهض بصعوبة كبيرة من مكانه واتجه نحو المارانوس يسترضيه. وقبل أن يفتح فمه، كان المارانوس قد دفن في صدر الشيخ السكين حتى المقبض. مص السكين بلسانه مثل الحيوان المفترس وعاد إلى وقفته الأولى، ثم صرخ كالوحش البري. تراجع الشيخ، ثم اتكأ على ساري السفينة وأخذ صندوقاً خشبياً كان بجانبه، وطوحه باتجاهي قبل أن ينزل من جديد على ركبتيه المتعبتين ويحاول رفع رأس عجوزه إلى صدره بحثاً عن دفء مفقود. سمعت حشرجته الأخيرة مليئة بالدم الذي غزا فمه بقوة.

- دافع عن آخر الموريسكيين يا ابن أمي، دافع ولا تستسلم. الموت واحد.

كان المارانوس يريد أن يسكته للمرة الأخيرة، لكن المسافة



Twitter: @ketab_n

التي كانت تفصلنا عن بعضنا بعضاً تضاءلت كثيراً. وقف لحظة من الزمن، ثم تراجع راكضاً باتجاه قمرة القيادة. لم أفهم تصرفه. ظننت أن الرجل فكر في الموت وانتهى إلى أن المعركة تافهة ولا تستحق هذا القتل المجاني ومع ذلك لم أثق في عينيه لحظة واحدة، وقبل أن ألتفت نحو الشيخ خرج فجأة يجرجر وراءه الرجل البدين، أجلسه على أحد الكراسي الموضوعة تحت ساري الأرمادة وهما يقهقهان بصوت عال.

- هيا أيها المارانوس، امتعنا بالحرب المقدسة بين الكونفرسوس والموريسكوس. هاها هاها...

قهقه بعض البحارة بينما ظل البحار الذي نبهنا إلى كثافة الطيور صامتاً لا يحرك ساكناً وكأن شيئاً ما كان يدور في دماغه، على وجهه علامات الخوف الداخلي. وعرفت الآن لماذا غاب المارانوس ثم عاد راكضاً، كان يريد أن يمتع سيده بمنظر لا يتكرر دائماً، بينما كان الشيخ ما يزال ينزف بقوة ويهذي. بصعوبة قام على رجليه، حمل جثة زوجته أمام حيرة الجميع، وقف على الطرف الشمالي من الأرمادة، رفع رأسه إلى السماء ثم صرخ بأعلى صوته.

- والله لن أتيح لكم فرصة قتلي، ورميها من أعلى هذه السواري. سأرضى بقسمةِ البحر بيني وبينه حنين لا يموت أبداً...

وقبل أن أصرخ اختلط صوت ارتطام الجسدين بمياه البحر، بالضربة الأولى التي ارتشقت على الساري الذي كنت أتكئ عليه. مات ميتة محارب عظيم مثل جدي تماماً. زاد الدم تجمداً في حلقي. ضربت المارانوس في حجره بأقصى قوة، لكنه استقام من جديد ووقف يتأملني، الضربة القادمة ستكون على الصدر. عرف أن البطن كنت أخبئه بالصندوق الخشبي الذي بعثه إليّ الشيخ العجوز قبل أن يرمي بنفسه في البحر. في الحرب البدائية عليك أن تتوقع الضربة وموقعها من عيني خصمك وإلا ذهبت مع الريح. كان يقترب مني بخطوات ثابتة. السكين ازداد برودة في يده. الضربة للصدر، عيوني



Twitter: @ketab_n

لم تكن ترى شيئاً آخر سوى لمعان السكين الذي تعددت ألوانه من جراء قطرات المطر وانعكاس الشمس عليها. كان يعرف أن سلخي ليس أمراً هيناً. نزلت الأحقاد إلى قلبي. صورة العجوز لم تغادر مخيلتي وهو يلقي بنفسه داخل أمواج البحر، وينظر إلي بعيون مليئة بالفراغ. ابتعدت حتى اختلطت ملامح الجميع بضباب ذلك الفجر البارد، حاولت أن أواجه وضعي بصفاء لكن دمعة الشيخ الأخيرة وصرخته ظلت عالقة بذهني وتصلبت داخل القلب حتى صارت كأحجار الوديان الجافة. أصبحت متيقناً بعدها أني قادر على الموت بفظاعة والقتل بجرأة. لست لا الأول ولا الأخير. هربت العصافير من قلبي. ونزلت الأشواق من عيوني وغاب وجه الله ممتزجاً بدموع ماريانة لحظة الوداع داخل سكين المارانوس، واستباحت عيوني كل شيء حتى القتل. تعودت أن أبحث عن أشيائي المفقودة داخل حي البيازين والأسواق الشبيعة، تأكلني الأزقة الضيقة وآكلها. لم أتعلم منها شيئاً كثيراً سوى كيف أدافع عن حقي وسط فراغ الموت. يمكن أن يقطع رأسك من أجل دوقة ذهبية أو فضية. كانت الأمواج تتصاعد مثل الجبال وترتطم بجوانب الأرمادة بقوة مخيفة. الرعد صارت أصداؤه قريبة من رؤوسنا. بين الموجة والموجة كان يزداد الموت اتساعاً، وزرقته تذبل مثل أوراق الخريف والرغوة تصطدم بالموجة المتكسرة. تدخل من بين ثقوب الخشب لتتحول إلى هواء بارد مليء بالرذاذ، يجرح مداخل الأنف ويشوك اللحم. كل شيء بدأ يصعد إلى القلب ويتحول إلى سواد، من أخمص القدم إلى شعرة الرأس. وتزداد حمرة الدم غموقاً. لم أعرف إلا فيما بعد أن ضربته الأولى خلفت جرحاً عميقاً على ذراعي الأيسر. كان عليّ أن أبقى بعيداً عن مرماه. أعاد مسح السكين بين شفتيه، لمّعها بعد أن مصها من الدم العالق بها. أخذ يقهقه بأعلى صوته ويفتح فماً تجمعت فيه أوساخ المخلوقات الحشرية كلها، عرفت جيداً أن عيونه المنتصبة على بطني كانت تقصد صدري. زاد الاحتراق داخل مناخيري والنسمات الباردة تغادرني لتخلف وراءها


Twitter: @ketab_n

لهباً مشتعلاً. درت حوله وأوهمته بأني متجه إلى الدفاع عن بطني. كنا نمارس لعبة الشطرنج. عليك أن تتخيل نقلة خصمك قبل حدوثها وعليك أن تعرف التفاصيل قبل أن تمارسها لم أكن مستعداً للخطأ في توقعي. عيونه كانت تتحرك في رأسه بسرعة فائقة. لست أدري ما منبع كل تلك الأحقاد التي كانت تتصاعد من عينيه منذ أن رآني وهو مصر على قتلي أو تمزيق بطني. عرفت أن المارانوس المخيف كان كونفرسوساً يحب المال والذهب أكثر من إيزابيلا الملكة القشتالية. ربما يكون هو أو غيره من الذين علموها العادات الكريهة التي شردت شعوباً بأكملها. لكن الصندوق الخشبي الذي سلمه لي الشيخ العجوز ساعدني كثيراً في كل شيء، حتى في الدفاع عن نفسي والوقوف في وجه المارانوس. الكونفرسوس تعودوا منذ زمن بعيد هذه العادات السيئة. اضطهدتهم محاكم التفتيش بقسوة. معظمهم كان يعمل في سفن القراصنة هرباً من جحيم توركيمادا (المفتش العام لمحاكم التفتيش) الذي حول كل المدن إلى مؤسسات لبيع الموت بأبخس الأثمان. المارانوس قالها وهو يصرخ بأعلى صوته، عندما ضربته بالوجه بالصندوق الخشبي وهو يحاول غرز السكين في صدري. كان هائجاً مثل الدابة التي مُسّت في رأسها.

- مثلك مثل توركيمادا يا ابن الكلب. كلكم تنبذون المارانوس. كان البرد شتوياً، أواخر شباط 1481... حين أمر بحرق ستة منا. وأنتم ماذا فعلتم أيها الموريسكيون التافهون؟ وقفتم في أسواق إشبيليا تصفقون للمحرقة؟

في لحظة ما شعرت به يتكلم بصدق. أردت أن أقنعه بأني أنا كذلك أكره توركيمادا، لكن المسافة التي كانت تفصلنا ازدادت ضيقاً ووجه الشيخ العجوز يسودُّ في داخلي كالقطران. وهو يحكي شعرت بإصراره على قتلي يتكاثف أكثر.

- يا ابنَ الزانية... الموت أغلى شيء يمكن أن يُمنح لكم. إيزابيلا كانت كاثوليكية، وحقدها أصابنا حتى الموت. كانت القحبة



Twitter: @ketab_n

تريد مملكة منتشية بالفرح والزهو والذهب على رمادنا. مملكة منسية على أطراف المتوسط. حين تأزمت الدنيا رفعوا الحماية وتركونا نواجه الخراب وحيدين. نواجه الحديد الساحن لمحاكم التفتيش. طردونا من قشتالة ومن بقية المدن. أين كنتم يا ابن الزانية؟

ألستم حكام البلاد؟ كان مصراً حتى النهاية على حذفي من الوجود. سيدفن أحقاد أقوام بكاملها داخل صدري. كشر عن أسنانه التي أفقدها السواد لونها الأصلي.

ـ أنا المارانوس ابن أحد الكونفرسوس، الذي حمل طوال حياته عند القحبة القشتالية إيزابيلا، علامة (+) ظلت مختومة على صدره مرسومة في دائرة صفراء إمعاناً في الإهانة، حتى مات وهي ملتصقة به. ألبستني ثوبِ العار يا ابن الزانية مدة تجاوزت السنة بكاملها. ماذا تريد مني؟ كنت لحظتها أحاول أن أتفادى الضربة الرابعة، التوى مثل الذئب ثم قفز على قدميه ليواجهني من جديد، في كامل استعداده، الموت أو القتل. صدره يصعد وينزل بسرعة مخيفة. السكين الباردة ترتجف بين يده. حبات المطر ازدادت سمكاً وقوة. تمنيت أن أوقف هذه المهزلة، لكنني أدركت أنه في كل الأحوال، سيقتلني مدافعاً أو مستسلماً. اتكأت على ساري السفينة لأخذ بعض الأنفاس التي ظهر تقطّعها واضحاً. كان يحمّلني كل المآسي التي حدثت لليهود.

ـ أين كنتم حين قتلونا؟ رائحة الأجساد المحروقة وصلت إلى كلّ الأنوف ولم تحركوا ساكناً. التهمة، تزوير الجوازات باسم محاكم التفتيش. يا ابن الكلبة زورناها لإنقاذكم من موت محتوم.

كدت أصرخ أن هذا صحيح، تذكرت سامويل ولكني حين تذكرت كلماته، صمتُّ ولم أنطق بأية كلمة، لأن الكلام مع هذا الرجل صار مستحيلاً.



Twitter: @ketab_n

ـ آه... شربتم دمنا ثم ضحكتم علينا، سنعيد المجد الضائع ونضحك قدر ما نستطيع في الوقت المناسب. حين سقطت طليطلة في ذلك المساء الجحيمي بعثنا كونفرسوساً يفاوض صاحب إشبيلية المعتمد، ويطلب منه حصوناً للحماية. ماذا فعل القواد الحاذق، بدل قطع رأس ألفونسو ضرب رأس الرسول ابن شاليب وصلبه منكوساً على رأسه في شوارع قرطبة.

مسكين؟ هي الحرب يا رجل البحر، أنا قوال ليس أكثر. أتعرف أيها المسكين أن إبراهيم سانيور اليهودي باعنا للقشتاليين. عندما دخل ألفونسو، قدم خزينته بكاملها من أجل حرق غرناطة. وأحقرنا نحن كذلك في الاحتفالات الرسمية الدينية. نلوم من يا ابن من؟ فهو لم يكن مستعداً لسماع أيّ واحد فالدم كان قد أغمض عينيه المحروقتين من جراء هواء البحر المالح.

ـ سأضع السابنيتو SANBENITO (ثوب العار) على وجهي، لكني سأشرب دمك ولن أرحمك أبداً. ستدفع ثمن حكامك.

ـ حاولت أن أصدق ما كان يحدث أمام عيني. قلت مجرد حلم، كابوس سينقشع مثل الغيمة المزعجة. لكن ما كان يحدث لي جعلني ألغي كل أوهامي. ماذا يمكن أن نفعل يا الله؟ قيامتك واسعة ورحمتك ضيقة. وقبل أن يرتشق السكين في صدري كنت قد رفعت الصندوق الخشبي مرة أخرى لوقاية عنقي. حاول أن يسحبه لكن الارتشاقة وحركاتي منعاه من فعل ذلك، انكسر الصندوق على رأسه. كانت هذه بداية الهزيمة، تدحرجت رجلاه، وقبل أن ينكفئ على وجهه كنت قد سبقته إلى توجيه الضربة القوية إلى حجره الواسع المفرطح. تأوه، حاول أن يقوم ويعاود الكرة لكن ذلك لم يكن ممكناً لأن الذي يسقط الأول في المعركة ينتهي حتماً تحت نعال الآخر. الضربة للخصيتين هي أقوى ما يمكن أن يوجه لرجل ما. سقط على ظهره، رفسته على يده وعنقه. شُلّت مقاومته وصار مثل الدودة يتحرك في مكانه وعندما حاول أن يقاوم كان كل شيء قد انتهى. تصاعد الدم إلى أنفي أكثر، عاودتني صرخة الرجل العجوز وهو


Twitter: @ketab_n

يلقي بنفسه في البحر. وقبل أن ألتفت نحو البحر كان البحار الكبير قد لكزني بمرفقه بقوة ظننت في البداية أنه سيدفن سيفه الطويل في صدري أو يطلب من البحارة إلقائي بين الأمواج الصاخبة التي كان رذاذ تشلئها يصل إلى وجوهنا، ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك وإنما توجه نحو المارانوس الذي كان ما يزال مستلقياً على ظهره.

- هذه هي شجاعتك يا ابن الكلبة، أزعجتني على الباطل.

مدّ يديه إلى خصيتي المارانوس، كانتا قد برزتا بشكل واضح من جراء مياه الأمواج المتكسرة على ألواح الأرمادة. ثم بدأ يلويهما ويكزّ على أسنانه التي تطاحنت بكل قوة. لم أسمع إلا صوت العروق وهي تنسل وتتقطع من حجر المارانوس، والقماش وهو ينسل مصحوباً بالدم الفائر الذي اندفع بقوة، والصرخة التي اخترقت صمت الأرمادة ووجوه الناس المليئة وجلاً ودهشة. كيف يمكن أن يقتل البحار الكبير أقرب معاوينة وأكثرهم خدمه له. وعندما انتهى من تنحية خصيتيه، وضعهما في فمه. كنت متكئاً على الساري الكبير الذي شعرت في لحظة من اللحظات أنه لم يعد قادراً على تحمل ثقلي. تودد المارانوس إلى سيده بعيون كلب مهزوم. حاول أن يذكّره بالأمجاد السابقة التي حققاها مع بعضهما.

- سأشفى وأعاود الكرة. سأقتل الموريسكي يا سيدي.

- لست في حاجة إلى رجل بدون خصيتين. أنت الآن أقل من أية امرأة.

- أتركني أعيش على الأقل يا سيدي في كنفك. فقد خدمتك العمر كله، كن رحيماً يا صاحب الرحمة. سأخدمك ما حييت.

- يخدمني مخصي، لست في حاجة إلى نصف رجل.

- سأخدمك وأنا مجروح. سأخدمك زحفاً على بطني.

كان ينزف بقوة. البقية يعرفها جيداً. الإنسان ينتهي مثل الدابة بمجرد ما يهزم مرة واحدة. أكبر شتيمة عند البحار هو أن يهزم في


Twitter: @ketab_n

سفينة يدّعي أنه مالكها. بدأ الحنين يدخل إلى القلب. تمنيت أن أقول للرجل البدين دعة يعيش على الأقل، لكني عرفت أني سأكون الخاسر الوحيد. زممتُ فمي مثل الحلزون الصائم. صفق بيديه، فجاءه رجلان قويان يجريان. أغمضت عيني وحين فتحتهما، كانت صرخة المارانوس الأخير قد انتهت داخل البحر. رماه الرجلان القويان بكل قوة. طوحاه في الفضاء كاللعبة. طلب من أحد رجاله أن يوفر لي الدواء وأن تضمد جروحي، وقبل أن يتركني نبهني بأنه لا يريد مشاكل في الأرمادة. لست أدري ما الذي غير لهجته اتجاهي. الذي أعلمه، هو أني رأيت القيامة في لحظة من اللحظات بلون أزرق. أعطى الأوامر للبحارة والمسافرين لترتيب الصناديق وأشياء السفينة اِلتي توزعت في كل الأماكن من جراء المعركة الطاحنة. وإعادة ترتيب الأشرعة بحسب قوة الرياح العاصفة.

بدأت السفينة تخط طريقها بشكل معوج ولكن بثقة كبيرة. وعاد كل شيء إلى حركته الاعتيادية وكأن شيئاً لم يكن. لكن داخل عيون الكثير من البحارة سكن شعور جديد بالهزيمة، وبعدم الثقة فيما كان يحيط بهم. المارانوس كان هو أمير الأرمادة بعد الرجل البدين. الركاب لم يقولوا شيئاً، لكن شيئاً يشبه الاعجاب كان يتصاعد بخاراً من أعينهم. الكل فقدوا ثقتهم في البحر والأرمادة. لقد أمّحت الصورة العظيمة التي صعدوا بها هذه السفينة الضخمة. لو خيرت لقطعت الرحلة من هذه اللحظة. الكل يقود إلى جهنم والخراب. هل ألعن ساموبل؟ ماريانة؟ اللحظة التي غادرت فيها الفلوكا مليئاً بالأحلام والأوهام.

الكل بدؤوا يحترمونني. حتى الريس غير نظرته إليَّ، لكن نظرته الثعلبية لم تكن مطمئنة أبداً. أصبح يناديني باسمي الشخصي، البشير، أسمع يا البشير خذ يا البشير... البشير انزل إلى المخازن تحتاجك الجماعة... اصعد على رأس الساري... بشير؟ راقب إذا كانت هناك سفن للقراصنة... اسمع يا البشير، احذر الصناديق من أن تسقط على رأسك...


Twitter: @ketab_n

تغيرت تصرفاته بشكل جذري اتجاهي حتى أصبحت أشكك في قدراتي العقلية أحياناً وفيه أحياناً أخرى. استغربت كيف يمكن أن يتبدل البشر بين يوم وليلة وبين لحظة وأخرى. لكني تأكدت أن البقاء داخل هذه السفينة دائماً للأقوى. الضعيف يؤكل مثلما تؤكل الجرذان الصحراوية. البعض من الناس كان ينظر إليَّ بنظرات مليئة بالحقد وبالفراغ المقلق، والبعض الآخر يتمتم مع صاحبه في نوع من الابتهاج ويعيد قص كل ما حدث ويحدث داخل هذه السفينة. ومع ذلك فقد ظللت على رؤوس أظافري أشك في كل شيء ولا أستسلم لوجوه الأرمادة. فكرت في لحظة ما سقطت داخل الذاكرة في الرجل البدين وهو يحاول أن يدخل الخصيتين في فم المارانوس الذي كزّ أسنانه بقوة تفادياً لدمه الذي كان ينبعث حاراً من جيبي الخصيتين. الجرح على ذراعي الأيسر بدأ يلتئم شيئاً فشيئاً بينما احتياطيَ من العيون الكريهة ازداد أكثر. حلمي الكبير صار هو الوصول بأقصى سرعة وبأقل الخسائر. لكن الضفة الأخرى كانت تزداد بعداً كلما هبت الرياح البحرية بقوة. وفي فجوة من فجوات الراحة وقفت على أحد أطراف الأرمادة أتأمل البحر بعد عناء العمل وكثرة الأوامر التي لا تنتهي، جاءني وجه ماريانة دفعة واحدة كالنسمة الباردة في فجر شتوي مليئاً بالحنان والشوق. هي كانت بكل تفاصيلها الجميلة. تقضي أيامها متنقلة مع الغجر بين المارية وغرناطة. لم تكن تصر كثيراً على بقائي معها لأنها كانت تعرف جيداً حياة الغجر وحياة أهل المدن الداخلية. مرة واحدة قالت أحبك، أخرجتها وكأنها تستأصل عروق قلبها المتعب لكن المليء بالحياة. قتلت عشيقها الرديء وجاءت ترتمي بين ذراعي باكية تبحث عن مرفأ انكسر منذ زمن بعيد بفعل الأمواج العاتية الجبلية التي كانت تحمل في باطنها أحلام العشاق المهزومين. قالت أنا السبب وكان يجب أن أفعل ذلك. عندنا نحن الغجر لا توجد طريقتان للعشق. إما أن نحب فنصعد إلى السماء ونضحي أو نكره ويمكن بعدها أن نقتل إذا وقف شخص ما في طريق سعادتنا حتى ولو كانت هذه السعادة مجرد وهم جميل.



Twitter: @ketab_n

فعلت ذلك من أجلك لأني أحبك وأعرف أن صدرك واسع مثل بحر المارية. كدت اصرخ لماذا فعلت ذلك يا ماريانة؟ ولكني صمتُ لأني كنت أعرف جيداً أنها مثل ورقة الحرير تُجرح بسرعة كبيرة. قلت لا تحزني وأنا أضمها إلى صدري المتعب. قالت، أخاف أن يأتوك ذات ليلة ويأخذوك. محاكم التفتيش لا ترحم. عيونها عليك منذ زمن بعيد. ورأسك لن أتركهم يفعلون ذلك بسهولة سأقف في بلاعيمهم وأسدّها كالحسك البحري. في المرة الثانية حين وضعت رأسها على صدري، تستمع إلى دقات قلبي كانت حزينة، وأكملت حنينها داخل بيتي الذي لم يعرف له مستقراً منذ أن بدأت تأتيني بعد نهاية كل سوق في غرناطة. أتذكر أشياء كثيرة، حتى تلك اللحظة التي وقفنا فيها ملتصقين على الشاطئ المهجور بين الموجة وبين صراخات ساموييل وهو ينادي بالإسراع إلى الفلوكا التي كانت تنتظر على الشاطئ. كنت ممتلئاً بالسماءات الشتوية. قالت تعرف ياالبشير، الغجر لا يعرفون الوسط إما أن يحبوا أو ينكسروا فيعودون إلى ذواتهم. لا تحزن، قلت لك لا تحزن فالدنيا ما تزال قادرة على الحب والحنين. قلتُ لست غجرياً مثلك يا ابنة الناس. من أجلها قضيت العمر أصر على حقي في الحياة معها، لكن الحياة وقتها كانت قد انسحبت من فراشنا بحثاً عن القشتاليين الجدد. لم أتفطن على ساري الأرمادة إلا عندما نبهني صوت الريس أو البحار الكبير كما كان يسميه المارانوس، إلى ضرورة العودة إلى الوراء، فالموجة بدأت تكبر وتصل إلى أرضية الأرمادة. نزعنا الأشرعة خوفاً من أن تتمزق بشدة الرياحِ المحملة بمياه البحر الثقيلة. وبدأنا نتجه اتجاهاً معاكَساً، هذا ما صرح به الريس. تعمقت الألوان داخل البحر، السماء اتخذت لها لوناً غير أليف. زاوية استدارة السفينة تجاوزت الحد المعقول وزادت قوة الريح. عيون الريس كانت تقرأ كل شيء من وراء الغيوم الكثيفة ومن تكسر الأمواج واندفاع الرياح التي كانت تهز الأرمادة بالرغم من ثقلها وقِدم خشبها. استمر الوضع على حاله طوال اليومين التاليين بدون أن تطل علينا اليابسة



Twitter: @ketab_n

أو نرى ظلال جبال، ولا حتى جزيرة من الجزر. بدا نوع من التيه واضحاً على وجه الرجل البدين. شعرت في لحظة ما أن الأرمادة تدور على نفسها وأنها تسير بدون قائد أو بحارة. كانت الموجة والريح والغيوم والبروق هي التي توجهها. حتى النوارس التي كانت تسير فوق رؤوسنا سرعان ما تمزقت كالكتانة البيضاء وغادرتنا إلى مكان أكثر صفاء من هذا الفراغ المخيف الممتلئ بالسواد. اليوم الثالث حافظ على نفس الوضعية السابقة ما عدا الرياح التي زادت قوتها. بدأنا نعد العدة لعاصفة هوجاء كانت تقترب شيئاً فشيئاً. حتى الريّس الذي اسودّ وجهه لم يكن يتسامح أبداً مع أي إهمال كيفما كان. في مساء اليوم الرابع تجاوزت الموجة كل حدود المعقول. كانت تصعد عالياً وعندما تنزل لتستوي مع البحر تأخذ في طريقها كل الأشياء وتلفح الوجوه ولهذا كانت أوامر الرجل البدين في محلها عندما أمر بإدخال كل شيء داخل المخازن. لم أتفطن لفداحة الخسارة أنا ومعظم المسافرين إلا عندما نبهنا الريّس بوجهه الفارغ المجوف بأن جزءاً مهماً من أخشاب السفينة قد نزل إلى أعماق البحر، ولكنه طمأننا إن ما حدث لا يصل درجة الخطر.

- احتفظوا بالأشرعة في مواقعها الانتصافية يجب أن تكون هابطة أكثر.

هذا ما طلبه منا هذا الريّس الذي كان لا يتكلم في أغلب الأحيان إلا اللغة الإيطالية. كان مرعوباً من سفن القراصنة الأتراك ولكنه كان يقول دائماً.

- البحر في جيبي ولن يغرق إلا الجبناء.

لم أستطع أن أخرج الريح السوداء التي تنامت في حلقي وتكورت حتى صارت يابسة مثل أحجار الوديان. الحفاظ على توازن الأرمادة وسط هذه الجبال المائية لم يكن أمراً هيناً أبداً. حتى النوم أصبح سابع المستحيلات. قسط الراحة المتوافر لم يكن كافياً لمقاومة هذا البحر الذي غير ملامحه بشكل فجائي. في إحدى


Twitter: @ketab_n

لحظات التنفس والراحة في زاوية ازدادت كثافةُ سوادها، جاءني رجل تعرفت على ملامحه بصعوبة لأني كنت أظنه في البداية أحد أصدقاء المارانوس. كان هو نفسه البحار الذي نبهنا إلى الطيور التي كانت تملأ السماء. قفزت من زاويتي المظلمة في يدي قضيب حديدي، كنت أضعه دائماً بجانبي لحظة نوم الثعلب أو الديك كما كان يقال عندنا في غرناطة. قال لا تخف. شعرت بنوع من الإلفة في صوته. أكد لي مرة أخرى أننا أمام قرصان إيطالي محترف، يرمي الناس من منتصف البحر بعد أن يسلب منهم أموالهم وأسلحتهم وربما حياتهم. حِرْفته منذ أكثر من عشر سنوات. الكثير من أصدقائه قراصنة أتراك، فهو دائماً يقدم لهم جزية ذهبية مقابل حمايته داخل هذا البحر الواسع الذي لا يرحم الضعيف أبداً. وقبل أن أستفسره حول تفاصيل أخرى كان قد غاب عن الزاوية التي كنت فيها. انزلق بين أخشاب السفينة العتيقة مثل الثعلب على رؤوس أظافره بدون أي ضجيج. عرفت أنه لا يريد أن يعرف أحد بمجيئه إليّ. مالذي أتى بهذا الرجل إلي؟ هل هي مجرد نزوة؟ أم شيء آخر، فمنذ أن ركبنا الأرمادة وهو يعيرنا انتباهاً خاصاً. استبعدت كثيراً أن يكون قد أُرسل من طرف القرصان الإيطالي كما كان يسميه، فأنا أعرف مسبقاً شيئاً من لغة البحارة لحظة العاصفة، لن يقدم على تصفيتي ما دام في حاجة ماسة إلى جهدي الخاص حفاظاً على توازن الأرمادة التي كانت تتطلب سواعد أكثر لجعلها تجتاز خطر هذه الأمواج بأمان أكثر. هل كان ساموبل، يعرف صاحب الفلوكا؟ تساءلت؟ لا.. لا.. فالمارانوس من المستحيل أن يكون قد أوصل لساموبل هوية هذا القرصان الإيطالي. قال لي إنه يحب الموريسكيين ويعشق لباسهم، فقد قضى جزءاً من عمره هو وجده على الأرمادة ينقذون الموريسكيين وكل ما أمكن إنقاذه باتجاه العُدْوة الأخرى. حاولت أن أقنع نفسي بأن الرجل طيب القلب وأنه لم يفعل ذلك إلا لكونه يكره القرصان الإيطالي. تناهت بعدها إلى سمعي حركات غير عادية، بين الأخشاب، اهتزت السفينة بقوة، حين نهضت



Twitter: @ketab_n

من مكاني كان الجميع يقفون على السطح لصد الأمواج التي جنت جنوناً واضحاً. ازداد ميلان السفينة أكثر من ذي قبل. طالبنا الرّيس بضرورة شد الحبال بقوة وعدم التهاون في ضبط السواري، وبتنحية المدافع من أمكنتها. كان هناك ثلاثة مدافع إيطالية، حركناها بصعوبة كبيرة. ونحن نتعاون على ذلك تذكرت الموريسكيين الذين واجهوا هذه المدافع بصدور مفتوحة وعارية. كانت يومها إيزابيلا تشق طريقها باتجاه المدينة والغرناطيون ينتظرون متى يخرج محمد الصغير أسراره وكراماته لمحاربة الكفار الذين كان يقول عنهم دائماً، لن يذهبوا إلى الجنة لأنهم ورثوا النجاسة في جلودهم وعيونهم التي لم تخلق إلا للإغراء والخطيئة. ويقضي هو لياليه، يسترضي فروج القشتاليات، يعد زغبهن شعرة شعرة، كانت تغريه الألوان الصهباء لهذا الزغب المغري، وفي لحظة النشوة يطوح بأعلى صوته: سبحان خالق الأكوان وآسر القلوب وعاشق الجمال وموفر الفراش الوثير، إنها نعمتك لعبيدك الصالحين من أهل الحكم والتدبير. ثم يمضي بعد أن يضع الخرائط القتالية على صدورهن النافرة، عند الباب قبل الخروج يقول لقد حسبتها، إنها سبعة ألف زغبة صفراء كالخمر المعتقة ويغوص داخل قهقهاتهن ثم يخرج تاركاً وراءه هذا الفيض المترامي من اللذة والنشوة. كان يرحمه الله، تقول دنيازاد ابنة الوزير زوجة شهريار إن محمد الصغير، أبو عبد الله، كان لا يقوم من الفراش إلّا إذا ضيع لون عينيه وفقد صوابه في الدك والهز، قدوته سليمان بن داوود عليهما السلام حين أقسم برأس كل الأنبياء السابقين واللاحقين، حين قال، والله لأطوفن الليلة على سبعين امرأة، وفي رواية أخرى تسعين امرأة، وفي رواية جديدة مائة امرأة، تلد كل واحدة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله فقال الملك، قل إن شاء الله. فلم يقل. فطاف بهن، فلم تلد منهن إلا واحدة نصف إنسان يقال إنه يشبه جده الأول. ولهذا فمحمد الصغير ملتصق به دائماً ومعجب بالخبر. يستحضره عندما يجتمع بالقشتاليات والأراغونيات، كان



Twitter: @ketab_n

يحسد جده على هذه الفحولة. يا الله، مائة امرأة في ليلة واحدة، إنها النعمة التي لا تتكرر إلّا في زمن واحد. نعمة الله الكبيرة. حين يقف المرء وجهاً لوجه مع الموت لا يتذكر إلا حنينه للأشياء الجميلة والسواد الذي يجب أن يتجاوزه. شعرت بالموت في كل العيون التي كانت تذهب وتجيء على ظهر الأرمادة. ماذا يكلف الإنسان حين يريد أن يصبح قرصاناً محترفاً سوى القتل وانتعال الأحذية الكبيرة ذات الرائحة الكريهة وربطة الرأس ووشم الذراع وامتطاء أولى السفن الكبيرة والسير بالكابوس والسيف والشجاعة الوهمية التي يمكن أن تقتل صبياً بدون أي ندم. عيون الجميع كانت مملوءة بالفراغ، مغرقة في حب الخوف الذي هاجمها دفعة واحدة. لم يناموا طوال الليلة الماضية. سمعت كلاماً كثيراً من بعض الراكبين والبحارة على حد سواء عن المارانوس الذي قُتل في السفينة ورُمي في البحر، مما زاد في تعاظم مساحة القطران بداخلي. قال لي أحدهم أن المارانوس كان عندما يشعر بأن أحداً من المسافرين يخبئ ذهباً أو نقوداً يستدرجه إليه ويصطنع له الأسباب حتى يقتله. ويقطع رأسه بكل برودة أمام الملأ، ثم يبقر بطنه في الحال ويبدأ في البحث بين الأمعاء عن الأحجار الكريمة والدوقات الذهبية والفضية التي يمكن أن يكون الهارب قد ابتلعها خوفاً من أن يستولي السُراق عليها. كان الإنسان يموت ولا يقول ماذا في بطنه. فعلها أكثر من مرة، آخرها كان مع امرأة أندلسية. اغتصبها على مرأى من القرصان وبعض البحارة. وبعد أن استأذن الرجل البدين فتح بطنها بكل وحشية، فتش بين الأمعاء، فلم يجد شيئاً، ثم نزع الحنجرة والقلب وبعدها رماها في البحر بكل يأس. وألحق القلب بعروقه المتناثرة وهو يصرخ بأعلى صوته: إلى الجحيم. يقولون أن قلب المسلم أصبح من ذهب من كثرة الإيمان، لكنه ليس أكثر من كتلة لحم باردة لا قيمة لها أبداً. تفو... كلامهم أكثر منهم... وقبل ذلك فعلها مع تاجر قادم من كارتاخينا، كان منتفخاً ووجهه أحمر. فتحه بشفرة سيفه المسطح فاندلقت الأمعاء، بينما انكفأ يبحث عن



Twitter: @ketab_n

الذهب والفضة، كان التاجر يحاول أن يهرب منه والدماء تتقاطر من بطنه. جرى طويلاً قبل أن يسقط على فمه ويدفعه المارانوس برجله لتنتهي صرخة النجدة في أعماق البحر. كان يقتل من أجل نفسه ومن أجل الريس. الريّس والمارانوس شيء واحد في المحصلة. أرأف عليه أحياناً، لكن الظلم والجرأة لا يلتقيان أبداً. إمّا أن تكون شجاعاً، أو ظالماً تافهاً. فرق بين إنسان يموت بكبرياء ووفاء وإنسان يموت ميتة لا معنى لها... الأول تودعه العيون بطيبة كبيرة والثاني يموت غريباً وحيداً كريهاً، ولا أحد يندم عليه. هذه هي الدنيا يا ابن أمي. اختار جدي أن ينتهي بين الصخور ونيران المدافع الإيطالية. جبال البشرات كانت معقله الأخير، بينما اختار عشيق ماريانة أن يموت كالدابة. قالت له أتركني. قال لن تنامي بين يديه إلا جثة هامدة. أنت لي. مكتوبك أن تكوني لي وليس له. حتى الموت لن ينجيك مني. فانتهى تحت نصل صدئ...

العواصف لم تهدأ لحظة واحدة، والأرمادة لم تعرف طريقها...

وقبل أن أنهي حديثي، قفز أصغر علماء المدينة السبعة وهو يمسد شعر لحيته البيضاء الصافية مثل الشمع بيده اليمنى واليد اليسرى على الصدر.

ـ كم هو عظيم تواضعك يا سيدي...

ـ إنها الحقيقة أيها العالم الفاضل.

ـ أنت دائماً هكذا، مثلما سمعنا بك. كثيرون هم الذين ادعوا المجيء لكنهم كانوا كذبة وبهاتين يا البشير. فالحقيقة ليست إلا الحقيقة.

خفت أن أكون قد خيبت ظنهم، لكني كنت مجبراً على قول الحقيقة كما عشتها أو كما رأيتها أو على الأقل كما أحسستها. أحاول أن أتذكر كل ما فات وما تبقى من القصة التي جرحت القلب وما تزال حتى اللحظة تعذبني. رغم الألم كنت أشعر بصفاء كبير،


Twitter: @ketab_n

فأنا لم أنس شيئاً يستحق الذكر. الأشياء العظيمة هي التي تحافظ على الحياة.

- أبقيَ شيء في القصة يا سيدي لم يُحكَ بعد؟

- العذاب الكبير لم يُقَل بعد. لم نتعلم من صنعة الأسواق والقوالة إلا الصدق حتى عندما يقف هذا الصدق ضدنا.

- أنهكناك أيها الرجل الطيب. اعذرنا، فقد انتظرناك طويلاً. نحن نعرف جزءاً كبيراً من نهاية القصة. نعرفها بالإحساس أو كما رواها الأولون من ذوي الحكمة والرزانة والوفاء.

قالت دنيازاد بعد أن استردت أنفاسها:

وبدأ يا سيدي الحكيم شهريار، ابن المقتدر، حاكم جملكية نوميدا - أمدوكال، بدأ الرجل ذي اللحية البيضاء وهو أصغر العلماء يروي ما تبقى من القصة.

قال وهو يحاول أن يسترجع الذاكرة بكاملها:

يروى يا سيدي البشير، أن الموريسكي الأخير القادم من غرناطة (أنتَ) رأى في الغيوم بداية النهايات القريبة. وضع قلبه بين يديه ونادى كل الأوفياء في الدنيا أن يستمعوا إلى شجيه وحنينه. كانت الموجات الجبلية تسرق كلماته الطيبة واحدة واحدة. فقد صار لمس المدينة مستحيلاً، والريح لم تكن لترحم أيّ واحد. والوصول إلى اليابسة لم يعد ممكناً. جمع الريّس كل بحارته، ألقى عليهم خطاباً داخلياً، تواضع فيه كثيراً وحاول أن يتقرب من الجميع، لأن البحر لا يرحم وشراهته تزداد كلما زادت حدّة الأمواج وارتفعت أكثر. حثهم على اليقظة وعدم الاستسلام للموت، وطرح عليهم بكل وضوح طبيعة الخطر الذي أصبح يتهدد الأرمادة إذ لم يعد ممكناً أبداً تخبئة الحقيقة. فإذا كان يريدها أن تبقى سرّاً فالبحر لا يعرف إلا كشف الحقيقة. كان يكرهك أيها السيد العظيم ومع ذلك لم يفكر أبداً في رميك من أعلى ساري في الأرمادة لأنه كان في حاجة إليك.



Twitter: @ketab_n

المسألة لم تكن مسألة حب أبداً. فأنت كشفت الحقيقة لجميع الناس وأنهم ليسوا أبداً في منأى عن الموت. لولاك لما اكتشفوا أنهم بين أيدي قرصان إيطالي. ولهذا سبقك القرصان الإيطالي إلى تجميع البحارة لتفادي نشوء أي عمل منظم يمكن أن يدفع بهم إلى أكل رئيسهم. في المساء، وفي لحظة الغفلة جاءك ملثّماً من أي طارئ ومع ذلك عرفته من خلال نبرات حروفه المرتبكة التي كانت تغادر فمه بسرعة كبيرة. قطع نفس الألواح ونفس الممرات وهو آت إليك. طلب منك أن تتأهب لأن الليلة ستكون ليلتك الأخيرة وأقنعك أن القرصان صار متأكداً من تحسن الجو العام بالرغم من الرعود التي كانت تقصف فوق رؤوسكم. كان الرجل صادقاً، لأن الأمواج كان قد قل ارتطامها. أنت خمنت ذلك من خلال تكسرها على ألواح الأرمادة العتيقة. وأكد أن كلّ مداعبات الريّس كانت مجرد لعبة لاسترضائك لأنه كان خائفاً من قوتك التي أظهرتها أمام المارانوس. هنا قال لك: القوة للمنتصر. المهزوم إلى الجحيم هو وشجاعته. حين ينتهي، انتهى. لن يقوم بعدها. حتى في عيون البحارة سيصبح مجرد بطل من الكاغط. ونبهك أن القراصنة على متن الأرمادة لا يفوتون بعضهم بعضاً. كلهم كلاب، ويكنون لك حقداً كبيراً. فهم لا يمكن أن ينسوا أنك قتلت أو تسببت في قتل أحد أصدقائهم. هم هكذا دائماً، المارانوس لو لم ينهه القرصان لقتله رفاقه لأنه إهانتهم الكبرى على متن هذه الأرمادة التي ستفقد هيبتها إذا تسامحوا معه. صورة الريس الذي يحب جميع الوريسكيين كانت قد انطفأت في عينيك. لم يبق أمامك إلا الموت أو خوض تجربة المغامرة بين طيات الأمواج التي كان تمزّقها يخيفك بشدة وصوتها يتمدد داخل صدرك ويمزقه على متن هذه الأرمادة. اختبأت في الزاوية المظلمة وظللت ملتصقاً بخشونة الساري الرئيسي الذي كان يفصل القمرة الرديئة إلى قسمين. لقد كان الرجل الملثم صادقاً، إذ بعد لحظات من خروجه دخل عليك بحاران ضخمان، وبدأت تتأمل المشهد بكامله من وراء الساري الضخم. كانا من طاقم الأرمادة. غرزا سبع مرات سيوفهم



Twitter: @ketab_n

الطويلة في الفراش الذي كان من المفترض أن تنام فيه. ثم أعادوا الكرة بنفس العدد من المرات. لم يندهشا لغياب الصوت. فالضربات كانت سريعة بدون إثارة أيّ راكب على متن الأرمادة. تأكدت مرة أخرى أن الزمن كان يسير بشكل معاكس. وقبل أن تنزل إلى البحر كان الرجل الملثم يضع قطعة خشبية معدة للنجدة تستعمل للحالات الطارئة بين يديك، وقادك إلى زاوية من الأرمادة وقال لك، تستطيع الانزلاق من هنا بدون إثارة الانتباه. لم تسأله أبداً ولم تكن مستعداً لسماع البقية لأن ما رأيته كان كافياً ليفتح فيك كل سراديب الخوف المتراكم في داخلك. حين لامس جسدك مياه البحر عادت المارية لتحفر ذاكرتك، والأسواق الغرناطية المكتظة بالوجوه. في البداية شعرت بالبرودة، بعدها تأقلمت معها. رتبت الخشبة ولوحت بيديك باتجاه البحار الذي سرعان ما ابتلعته الظلمة.

في لحظة اليأس يا سيدنا العظيم انفتح البحر، وعرى صدره الواسع ليسلمك لأجمل موجة. وانشطر الليل على نصفين، نصف من الظلمة القاسية والنصف الآخر من شعلة النور. وفي اليوم الثاني، حين تجمد الموت في حلقك، فتحت عينيك بصعوبة وأنت في أقصى درجات اليأس على أصوات النوارس البيضاء التي كانت تنقر الخشبة والماء الملتصق بين فجواتها، وعلى بياض الضباب الذي كان يلف الجبال البعيدة. تكاثرت الأصوات التي لم تستطع أن تميزها، هل أصوات الطيور أم أصوات مجموع الأطفال الذين لا تتذكر جيداً، هل رأيتهم في الحلم، أم أنهم كانوا حقيقة؟ أغمضت عينيك من جديد وتركت الخشبة تواصل مسارها الاعتيادي باتجاه الشاطئ البعيد.

هو أنت يا صاحب البرهان العظيم... هو أنت يا سيدي.

نومك طال لكننا استرجعنا معك الحقيقة التي دُفنت زمناً طويلاً لكنها لم تمت أبداً. هو أنت يا صاحب السارية التي لا تطأطئ رأسها العالي.



Twitter: @ketab_n

كان الإنهاك قد أتعبني لدرجة تضييع حاسة السمع. بدأت أفقد مقاومة الجلوس، وقبل أن أغادر حكماء المدينة من أجل النوم، كنت أعرف، بل كنت متأكداً، أنهم يعرفون الحقيقة التي لم يكن يعرفها أحد غيرهم. كانوا يحسونها أكثر مني.

قلت متعب أيها الحكماء، قالوا لا عليك، لك القلعة والدنيا بكاملها. نم أيها العائد الجليل. وبالرغم من خوفي من أن أتحلل أثناء النوم، لم يكن أمامي خيار آخر، فالتعب أصبح يسير في الدم.

أخذني الراعي إلى المكان المخصص لنومي. كان الفجر قد بدأ يزحف نحو الفراش البارد. نمت أنا بينما استلقى الراعي في الزاوية الأخرى.

تمنيت قبل أن أغمض عينيّ، أن يكون كل ما حدث لي مجرد كابوس مزعج.



Twitter: @ketab_n

# 5

هل كان حلماً؟

هل كان حزناً أم شوقاً أم حنيناً محموماً بحب الحقيقة، أم شيئاً أكبر من ذلك كله؟

هل كنت أنا الذي قطع البحار والفلوات ولم يأت إلا بالأحلام التي دفنت حية في عز عنفوانها. كان الله حين يتحدث نقف مشدوهيين، نصمت ونحاول أن نسمع بقية الحديث وما تحويه الصدور ولوح الأسرار الذي حفظ أكثر من ثلاثة قرون متتالية، وحين كُشف عنه لم تكن هناك أية وصية ظاهرة، وكان موسى وحيداً، يموت بين اللحظة واللحظة بحثاً عن السر المفقود بين تفاصيل الألواح السرية وكنا بعيدين عن الله وكان بعيداً عنا، صامتاً يستمع إلى صراخاتنا وأشواقنا الحزينة. كل شيء تبدل منذ ذلك الزمن البعيد، والمعقول أصبح لا معقولاً أختلط ما في القلب مع ما في العين والرأس، وغيرت أشياء الدنيا أماكنها وصارت الذاكرة ناراً تصعد من شوق وشقوق الأرض اليابسة لتنام بين جروح الوجه وتعمق خدوش الحزن. كل شيء تبدل، ما كان يقربنا من وجه الله، في لحظة الوحدة تعمقت الفجوة وازدادت اتساعاً. والطيور غيرت اتجاهات رحيلها وسفرها اليومي. الأمان والحب والحنين والشوق ولحظة السعادة المفقودة كلها شربت مع أولى السجائر المستوردة من البلاد التي تتكلم لغة مليئة بالخوف والأرقام التي لا حصر لها. لم أعرف اسم الشركات القائمة على الاستيراد والتصدير ولكن أستطيع



Twitter: @ketab_n

أن أقول إنها كانت كثيرة مثل النمل يقال إنه في الأزمنة البعيدة كانت جملكية نوميدا ـ أمدوكال زهر البساتين، تؤمها الطيور من كل الأنواع ومختلف الألوان، وبدأت تنسحب الواحدة تلو الأخرى باتجاه المجهول. فقدت ألوانها الزاهية وبعد سنة جللت بالسواد صارت كلها سنونو، أو خفافيش ليلية. كانت نوميدا ـ أمدوكال زهر الياسمين، يقول رواة آخرون، ونهد العذارى، وحليب العاشقات، ورغوة القبلات الطفولية الأولى، كانت تفاح المجانين وحنين المشتاقين، وشوق الآتين من الرحلات البعيدة منهكين. كانوا يظللون تحت أشجارها الخضراء التي تعرّت كلها الواحدة تلو الأخرى ولم يبق بالجملكية إلّا النخيل، الذي قاوم الزمهرير والرياح الساخنة القادمة من شقوق صخر الصحاري، كانت الفخار الملون بسبعة ألف لون والتبر والذهب والأحجار الكريمة. مياه الأنهار في جملكية نوميدا ـ أمدوكال كانت ضوءاً مشعاً وسماء صافية لا تتغيم فجراً إلا لتخبئ عشاقها من العيون الهمجية. كانت فجراً مليئاً بالورد والأقحوان والبنفسج الذي يشبه غيمة النائم على صدر حبيبته في غفوة الذهول، ونوار اللوز التي تتعشق نتف الثلج وهي تودع فصل الشتاء بآخر اللألآت المضيئة التي تشبه دمعةَ الذي يودع في كل فصلٍ القطارات الرائحة والعائدة محملة بحنين لا يهدأ. كانت نوميدا ـ أمدوكال كلّ هذا وأكثر منه ولكن الآن، لم يبق إلا الإسمنت المسلح والمعدن الذي نما كثيراً وترعرع حتى أصبح دبابات تملأ الشوارع رعباً، وطائرات حربية تخترق كل فجرٍ عذرية السماء والغيوم البنفسجية. وأسلحة يدوية صغيرة تنزع العمر في لحظة البرق، واختلط الجبان بالنبيل، كان عنترة لا يقتل عدواً إلا إذا كان يحمل سيفه وسلاحه يقابله، ولا يأتيه من ظهره والموت في عينيه والحياة عندما تتعلق بحد الأنف، يتركها لشاعر أو لقوال سيرويها بعد أزمنة متعددة متتالية. أصبح اليوم عنترة يلبس مليون قناع للجبن ويختبئ وراء الأسوار ليقتل عدوه لأن في جملكية نوميدا ـ أمدوكال أصبح بإمكان الجبان أن يقتل أكبر شجاع بكاتم الصوت بكل برودة دم،



Twitter: @ketab_n

والشارع يتأمل المشهد بسلبية ليعود بعدها إلى حركته الاعتيادية وكأن شيئاً لم يكن. مات عنترة القديم الذي لا يمكن أن يقتلك إلا إذا كانت عيناك في عينيه. كان يكره طعنة الظهر، والظَهر صار هواية الجملكية.

وقفت في ذلك الصباح الباكر، على مشارف المدينة، أتأمل كل شيء من باب بيت الحكماء السبعة. كان الثلج يملأ الساحات، والطرق الملتوية التي كانت تبدو صغيرة من أعلى القلعة. نهض الناس كعادتهم في جملكية نوميدا ـ أمدوكال، يزاولون أعمالهم اليومية ويزيحون قطع الثلج التي كانت تغلق مداخل البيوت والأبواب الخشبية الثقيلة. حتى الساحات الكبيرة، قيل فيما بعد إنها أمتلأت على غير عادتها بالثلوج لدرجة أن الحركة فيها أصبحت مستحيلة فأغلقت المطارات، محطات القطار والحافلات، الدواب أدخلت إلى البيوت ولم تستمتع بأكل الحشائش كما أعتادت فعل ذلك كل ضباح. حتى الممرات العامة أغلقت وأصبح من المستحيل على الناس التنقل بسهولة. الفجوات في الحيطان مُلأت بالطين وبقطع الكتان والقش. ودخل الناس إلى كهوفهم بعدما قضوا كل حاجاتهم الضرورية بسرعة غير معهودة، وفي وقت مبكر جداً. حتى اللحظة هذه كنت أظن أن البرد فعل فعلته في عادات الناس وحركتهم اليومية لكن اتضح لي فيما بعد أن خطاب حاكم جملكية نوميدا ـ أمدوكال الحكيم شهريار بن المقتدر المعز لنفسه، قد لقي صداه عند الرعية. وهو خطاب تقليدي يلقيه على رأس كل شهر إلا في الحالات الاستثنائية. لأول مرة أراه على شاشة التلفزيون، كان في شكله، نصف رجل لهذا حاولت أن أجد شبهاً بينه وبين حكاية سليمان بن داوود التي كان يفضل سماعها دائماً، قامته كانت ناتئة لا تكاد تظهر من الأرض، عليه سمرة غامقة، حاول أن يحمّرها بالمساحيق لكنها ظلت محافظة على أصالتها. يلبس ربطة عنق بألف لون ويضع على ظهره شلحة نسوية عريضة يغطي بها جزءاً من اللباس الصحراوي الذي كان مولعاً به. اعتذر في البداية على عدم ارتدائه اللباس العسكري



Twitter: @ketab_n

الأخضر الوطني. لأن البلاد في حالة استنفار والحساد كثيرون والذين يكيدون لنهجها المتطور الجمهوري والملكي في الآن نفسه كثيرون ولهذا وجب عدم كشف الأسرار بما فيها اللباس العسكري والنياشين التي كان يخبئها تحت اللباس الصحراوي الفضفاض. وبعد هذه المقدمة المستفيضة بدأ يتلو بيانه التقليدي المتعلق بوضع الأمة. ألح كثيراً على ضرورة احترام قوانين الدولة ومنفذيها من العسكر والمدنيين وعدم السقوط في لعبة المناوئين. في الفقرة الثانية من الخطاب تحدث كثيراً عن معجزات سيدنا الخضر وأكد أنه لا يزور البلاد إلّا لتنقيتها من الأدران والأوساخ العالقة بها. طالب الناس بضرورة التزام البيوت حتى لا يمسهم أذى سيدنا الخضر الذي لا يظلم ولا يرحم. وأكد الحكيم مرة أخرى على المؤامرة التي تحاك يومياً ضد البلاد وتمولها أطراف لا تحب في الواقع النظام الثالث الذي سنته جملكية نوميدا ـ أمدوكال. ثم أعاد إلى الأذهان صورة أجداده الذين كانوا أوفياء لشعوبهم حتى وافتهم المنية. وفي الأخير كشر عن أسنان حادة مثل رأس المنجل وصدئة، وذكر مرة أخرى أنه لن يتوانى عن ضرب الأيادي التي تمتد إلى هدوء البلدة، ثم في الأخير غادر مكانه يجرجر لباسة الذي زوقه بالدانتيلاً الملونة بالألوان المتلألئة كالنجوم. انسحب بخيلاء، والصورة تغيب شيئاً فشيئاً عن إطار الشاشة ويبدو أنه كان يفعل ذلك لمزيد من التأثير على قلوب الرعية، الطرية جداً مثل الجبنة المستوردة كما كان يحلو له ذكر هذا التشبيه. سيدنا الخضر سيمر الليلة؟ هل تغير شيء من غرناطة إلى نوميدا ـ أمدوكال. خيط دم ما يزال يَشودُ يحفر حفرة في الأعماق. في حيّ البيّازين، كان حين يمر زمينير وسط محاكم التفتيش يقولون هاهو ذا الله قد جاء ليتفقد الرعية، وفي الصباح الباكر قبل نباح الكلاب الأول، نجد الكثير من الوجوه قد أكلتها الأغنيات المخدوعة. سيدنا الخضر نسينا وانتقل إلى حذاء زمينير في غرناطة باحثاً عن استرضائه، كان له وجهان واحد اسمه توركيمادا ـ زمينير والثاني اسمه محمد الصغير. أرجعني الخطاب


Twitter: @ketab_n

الرسمي إلى ذاك الزمن المبعد من الذاكرة والذي استقبلته الأسواق الغرناطية كثيراً، بالكثير من الخوف ورعشة الدهشة والقلق. طلب زمينير من الشيخ الزيري، استصدار فتوى ترمي إلى تبرير اعتناق المسلمين للنصرانية. كان الفقيه جليلاً، فاعتذر، قال أخاف الله ياسيدي وأنا لا أمثل إلا نفسي، والنفس أمارةٌ بالسوء. وضعه زمينير في الكيس الذي كان يحمله على ظهره وواصل سيره باتجاه حي البيازين. خرج عليهم ليلاً، قال لهم، فقيهكم الزيري كان عظيماً، فقد رأى في منامه هاتفاً اخترق صدره كالسهم الساخن، فإذا الدم يسيل على قلبه كما حدث للمسيح تماماً. وجد نفسه فجأة ممتلئاً بتعاليم الإنجيل. لكن صرخ الناس في حيّ البيازين إذا كان هذا كلام فقيهنا، أنت وهو إلى التهلكة. نزل زمينير إلى المخازن القديمة للكتب وطالب إحراق عشرات الآلاف من المخطوطات العربية قبل أن يأتي عليها كلها. طلب من خَدَمة النار بوضع ثلاثمائة مخطوط في الكيمياء والرياضيات والطب في الكيس الذي كان يخبئ فيه فقيه البيازين ثم جلس يتأمل النيران والأدخنة التي ظلت تتقاطع في سماء غرناطة مع الغيوم. ويستمتع بتلذذ بخرخشة حروف الأبجديات العربية التي أفقدتها ذاكرة الخوف لطفها وحنانها وحيويتها المعهودة، ثم عاد يتلصص مرة أخرى على حي البيازين من خلال عيونه المشؤومة المزروعة في المدينة كلها. أرسل ثلاثة من أعوانه باتجاه الأسواق الشعبية، يتصيدون آخر الأخبار. عاد له اثنان في التوابيت والثالث تُرك حيا ليروي مشاهداته التي عاشها كما حدثت أمام عينيه. بينما كان جدي يراقب زوادة البارود المسروق من مخازن محمد الصغير التي فسدت ويعض يديه على الأيام التي ضاعت مع هذا الرجل الذي باع الدين والدنيا. وضع المكحلة على ظهره هو وجماعة من رجال البلاد باتجاه جبال البشرات، صرخ حتى بح صوته وسدته حسرة الدهشة والمفاجأة، لهم محمد الأصغر (الصغير) ولنا ما تبقى من أحراش البلدة التي أطعمناها كثيراً من لحوم أبنائنا. لم يكن السلم ممكناً والأعلام البيض التي رفعت في



Twitter: @ketab_n

شوارع غرناطة نُكست، إنه سلم المهزوم الذي يقبل بكل شيء بدون استثناء مع تنكيس الأيدي للرأس. حتى عندما فتح تندلّة، وتالبيرة أيديهم في الهواء دلالة على السلام كان كل شيء قد انتهى وازدادت صراخات إيزابيلا حدة، التنصّر أو الطرد إلى العُدْوة الأخرى ومصادرة الأملاك، والعزل من كل مناصب الدولة. كانت وقتها جبال البشرات تُعد عدتها وتفتح مطامير الأسلحة التي سرقت من المخازن، وتفتح صدرها لنيران المدافع الإيطالية. آه يا زمينير، يا كاهن الاعتراف، لم يعلمك فقرك إلا الابتذال والمذلة والبحث المحموم عن وجه للسلخ والحرق والنبذ... جدي ما زال دمه البربري يغلي في عروقي، أقسَم أن يظل وفياً للأوائل الذين دخلوا البلاد، خانهم القواد ولم يتراجعوا. ربما كانوا مخطئين فالأندلس ليست لهم لكنهم ليسوا هم بكل تأكيد من بدأ في تسطير المهزلة.

نصحني الحكماء في ذلك الصباح البارد بأن لا أخرج من القلعة، فخطاب الحكيم ما يزال يملأ الأدمغة والأفواه والناس وقد أوصاهم في الخطابات البائدة بأن يوصلوا كل شبهة إلى أقرب مخفر من أجل أن يمر سيدنا الخضر في أحسن الظروف وأفضلها. تحولت المدينة نفسها إلى أرمادة بحرية مسلحة من كل جانب. أناس يتأبطون أسلحة فتاكة سوداء، وجوههم سمراء تعمقت حتى صارت ملامحها متفحمة. اللباس أسود صُنع من جلد الماعز والأبقار الهولندية المستوردة. نصحني الحكماء مرة أخرى بأن ألزم مكاني فأنا شارة العصر ولست مُلْكاً لذاتي. فعيون العسس التي غاب بياضها، تختبئ تحت نظارات سوداء مقلقة. كان من الصعب عليّ أن لا أخترق وصية الحكماء فقد كُونت على رؤية الحقيقة وإشاعتها حتى ولو تسببتْ في قطع رأسي. خرجت باتجاه بعض الأزقة بالرغم من التحذيرات الكثيرة، رأيت الناس يفرون من كل شخص يرونه تفادياً للقائه. هل يعقل يا سيدنا الخضر أن أكون قد جرجرتك في جيبي أو في حذائي أو ربما قد تكون، دخلت إلى هذه البلاد من خلال جرح من جروحي، وجئت معي إلى بلدة كنا نسمع أنها جنة لا يؤمها



Twitter: @ketab_n

إلّا المطهرون القوالون والأنبياء الأوفياء. هاهي ذي صورة المدينة يا سيدنا الخضر تنزل إلى الأرض تأكل التربة وتتخبأ داخل ألوانها الداكنة التي تشبه وجوه حكامها. وأنا أمشي داخل الأزقة الضيقة شعرت بأن شيئاً ما يقتفي خطاي. الراعي الذي تركته عند الباب مندهشاً متكئاً على عكازه القديم، كان هو الوحيد الذي رآني، نصحني بعدم الابتعاد لأن القوانين التي سنها حكيم جملكية نوميدا ـ أمدوكال، تقضي بعدم اجتماع شخصين أو أكثر في مكان واحد إلا عند الضرورات القصوى التي تقتضي وجود رخصة تُسحب من القسم العسكري في البلدية، أو في الأسواق حين يضطر الناس إلى التعامل مع بعضهم بعضاً، إضافة إلى القوانين القديمة التي تشترط على كل زائر جديد للجملكية، تسجيل اسمه في ديوان المخطوطات من أجل تسهيل عملية الإحصاء التي تتم بالعقل الإلكتروني الذي يساعد على تسجيل المعلومات الدقيقة وتجميعها، وتوزيعها بسرعة فائقة.

في الحقيقة أنا مقصر من هذه الناحية، لم أذهب لا إلى ديوان المخطوطات ولا إلى القسم العسكري في البلدية. فقد مرّ حتى الآن على وجودي في الجملكية زمن لا بأس به، والعقل الإلكتروني لا يعرف لا اسمي ولا قسمات وجهي ولا أي شيء فيّ. حذروني كثيراً في البلدة، قالوا يا ابني، أنت منا ولا يمكن أن نسلم بك بسهولة. عيوننا لا تتركك لفراغ الأنجم والشتاء القاسي، الذي لا يطمئن أبداً. كان الحكماء يقرؤون جزءاً كبيراً من الغيب قالوا مرة أخرى، تاريخك شق الصدور وآن الأوان لكي تكون دليل المدينة في الخروج من كآبتها ابق يا ابني وحين يأتيك البيّن ستجد نفسك في أعماق البلاد. شعرت في لحظة من اللحظات وأنا أقطع الزقاق المظلم كأني مُقدِمٌ على ارتكاب الحماقة الكبرى وانقاد مجبراً باتجاه التهلكة. قالوا لا تخيب أملنا أيها الرجل الفاضل، وإذا مرت هذه الليلة بسلام سنريك غداً خبايا المدينة كلها. لم أقل لهم في أي لحظة من اللحظات أني بدأت أعرف كل شيء فيها وألمسه كما ألمس النور لحظة الوجد والالتحام بآلام الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري، كنت اقرأ تفاصيل



Twitter: @ketab_n

الأخبار وقساوتها من خلال الغيم والرياح الشتوية المحملة بمياه الأمطار الباردة. قالوا الدنيا ستكون لك أيها الطيب الودود حين يحين زمن خروجك من القلعة حبها كما تشأ. أعشقها، ضع نهديها بين أصابعك وأترك الحليب يتذرذر بنصاعته على صدرك وأشرب فالفرصة قد لا تعود مرة أخرى أبداً. كن طفلاً للدنيا والمرأة التي تعشقها، ففيك رائحة الذاهبين والآتين على أسنة الرماح. خذ حماماً، تعطر يا صاحب المقام العالي، احلق لحيتك الشريفة، فالمدينة كالمرأة، إذا جانبتها قذراً، فلن تعرف أسرارها التي تخبئها بين الضلوع، ولا تفضي بها إلا لمن تحبّ. ذكرني كلامهم بكلام ماريانة عن عشيقها. كانت تسميه الخنزير البري. رائحة كريهة. فمه مليء برائحة البصل، والنبيذ الرخيص.

كنت أستمع إلى نصائحهم وأنا عند العتبة وأنا أعرف مسبقاً بأني سأعصاهم حتى ولو لم أُردْ ذلك. شيء يتجاوز رغبتي الخاصة. في المدينة سمعت وشوشات النساء الانفرادية، المليئة بالجزع والخوف، أو حين يتقاطعون في الزوايا، يتبادلون الكلمات عن الخطاب الرسمي للحاكم وما حوى من الأشياء الجديدة. يتغامزون بأعينهم، ثم يمضون باتجاه ريحٍ ما. كنت أحاول أن أتفادى الوجوه التي لا تروق لي ملامحها... أما الوجوه الأخرى فكانت تهرب حتى قبل أن أقاطعها في زوايا المدينة مع أنه لا شيء فيَّ كان يثير الانتباه، على الأقل هذا ما بدا لي. لباس صوفي جميل، يلبسه معظم الناس في نوميدا ـ أمدوكال. الذي أثارني أكثر، تلك الوشوشات التي سمعتها ولم أتبين أوجه أصحابها الملثمين، عن الحكيم شهريار الذي استلم المدينة منذ أكثر من أربعة عشر قرناً، وبعض الوشوشات تذهب لى أبعد من ذلك، وتقول إن الحكيم يسخر من الرعية وإن سيدنا الخضر بدعة من القصر لتلهية الناس وإغراقهم في تفاصيل البلادة والحديث الفارغ الذي يُنقص من أعمارهم ويطيل عمر القصر، بيننا وبين سيدنا الخضر العديد من القرون، وآلاف الرؤوس والأنبياء المزورون.


Twitter: @ketab_n

ما الذي جاء بسيدنا الخضر إلى هذا الخراب؟ المسكين بردعوه وخرّجوه (وضعوا له خرجاً) ثم ركبوه، وما يزالون يركبونه كلما دعت الحاجة إليه. قهقهة أخرى سمعتها وأنا أقطع شارع الحكيم شهريار بن المقتدر، في نقطة التقاطع الرئيسية، وضعتني أمام حقيقة وهي أن الجملكية تحتاج في الكثير من مسلماتها إلى إعادة نظر، وتكهنت في أعماقي أن العلماء على هيبتهم ووقارهم لم يكونوا على بينة من هذه التفاصيل. قال أحدهم سمعت الخطاب؟ لم يردّ عليه، لكن عندما وصل إلى مدخل البناية العالية أجابه الثاني، أوف، خطاب ساقط. لا معنى له. يظنون أننا ما زلنا نرضع الأصابع. يبيعون البلاد ويسرقونها من قلوبنا وبعدها يقيمون حفلاً وطنياً على شرف غبائنا. أتفو... أتفو... أتفو... وعلى الطرف الآخر من المدينة رأيت ما حلمت برؤيته منذ أن التقيت بالراعي وحدثني عنه. رأيت الحديقة الشعبية كما تُسمى. وسيدي عبد الرحمن المجدوب يناجي حيواناته الأليفة. ويتلوى في مكانه كالمحارب الجريح.

- كلهم صموا آذانهم وتركوني وحيداً، وسط الفراغ والخوف، أنت الوحيدة أيتها الحيوانات الطيبة التي تستمع إلى عمق صراخاتي ولا تبوح بالأسرار ولا تفشي المخفي. أرأيت اللباس الذي كان يلبسه؟ كان مثل الطاووس، الله يخرب بيته وبيت جدوده المرضى بالعصاب والزهري، زركشته استوردها من طواويس غير وطنية ثم بعد ذلك، طالب المشرفين على تحسين مظهره، بطليها بكل الألوان مع تغليب اللون الأخضر لأن البلاد تعيش فترة حرب وللمظهر دوره في مثل هذه الحالات الاستثنائية. سيدي عبد الرحمن المجدوب لم يسمّ الأسماء، ولكني عرفت قصده من خلال التلميحات المختلفة التي كانت تبدو من خلال عينيه. بعدها انكفأ على ذاته، وخبأ رأسه بين رجليه، وبدأ ينزع النباتات الخضراء التي كان ينتقيها واحدة واحدة ويجمعها في شكل حزم صغيرة، ليضعها بعد ذلك في أكياس صغيرة. لم أعلم إلا فيما بعد أن هذه النباتات والأزهار كان


Twitter: @ketab_n

يستعملها في شكل دواء يبيعه للزبائن الذين يأتون إلى حلقاته يتفرجون ويسمعون إلى ما تبقى من القصص التي كان يرويها. نباتات لا تقتل ولا تحيي أبداً. على جانبه الأيسر ينام جروه الصغير الذي كان يسميه الأمير ولا يعرف إلا النباح الكثير. نباحه أكبر من حجمه. أوف يا الأمير لو تعرف بقية القصة ستأكل رأسك. نفس اللغة، لا شيء تغير أبداً يا أجمل الأمراء. منذ أكثر من أربعة عشر قرناً وهو يكرر نفس اللغة ونفس الحركة بالأيدي التي لا تعرف إلا تلويحة التهديد. هو نفس حنين محمد الصغير حين وقف، يقول القوالون، أمام الملأ يتحدث عن يأجوج ومأجوج وعن اقتراب انتقامهم من الحملات الشمالية. قال، نحن نحب الناس جميعاً ولا ننسى العشرة والملح ولكنهم هم الذي أرادوا انتقام يأجوج ومأجوج. ثم نظر إلى وزرائه فإذا بهم يندبون بنفس الطريقة. يأجوج ومأجوج وأقرانهما لا يرحمون أبداً. سيأتون بالقشتالية والأراغوني مكّتفين عند رجلي. وسأطلب الرحمة منهم حتى يعتقوهما ويعتقوا معهما كل أهل الشمال.

كان القوال في السوق الغرناطية يندب قلبه المذبوح. الرباب في اليد والعيون مليئة بالشوق الذي وعد ولم يأت يتلوى ألماً، خانوك في عزّ النهار. الحلم سافر وطار، يأجوج سكت ومأجوج لا ثار ولا مار، كان الشماليون ينصبون الخيام على أطراف غرناطه ويستولون على الحصون واحداً واحداً، وكان الوراق البدين في زاوية من النهر المضاء يخطّ آخر الكلمات ويرشق الفروج القشتالية بماء الزهر، وعود النور، وبعض الكلمات البذيئة التي تثير شهوة اختصار القبلة وتحويلها إلى متعة للنوم على الصدور المليئة برغوة الحليب الأنثوي في لحظات وجده الأولى. كتب الوراق على نهد إحداهن، «كان أبو عبد الله، مدّ الله ملكه، وأطال في عمره، لا يأكل إلا إذا تفقد الرعية ولا ينام إلا إذا وضع رغيفه الشخصي في فم اليتيم والمحتاج. وفي أيام المحنة التي مرت بها مملكة غرناطة، يحكي عنه المحنكون وأصحاب الحكمة، أنه نزع لحمة من ذراعه


Twitter: @ketab_n

وشواها لصغير كان في النزع الأخير من حياته. شواها وقدمها له، فردّ فيه الروح، ودفع عنه شرّ الموت الزؤام، ويقال إنه ظهر في مكان ما من جبال البشرات، يقود المقاومة الوطنية، بعد أن تخلى عنه الجميع وتركوه وحيداً، وخدعته الغوغاء البليدة، لكن مدّ الله في عمره، كان يعرف سر الخديعة، فتغذى بهم قبل أن يتعشوا به. باعهم لملوك الشمال. الأمر الذي اضطره أن يولي وجهه باتجاه العُدْوة الأخرى ليطلب السند والرجاء، وبقدرة الله تعالى سبحانه عزّ وجل، جاءه جبرائيل في شكل براق قاده إلى العُدْوة الأخرى. وهو يمتطيه بكى أبو عبد الله محمد الصغير كثيراً تحسراً على الرعية، لكن جبرائيل طمأنه بأن للبيت ربّا يحميه...»، ثم ختم الوراق حديثه بالسخط على القوالين الذين يجعلون من الحبة قبة، ويكذبون... لعن الله الكذابين، المارقين، والزنادقة وأقحاب الحلاقي الذين يشيعون الكذب عن جلالته، والذين يصلون ناراً ذات لهب في الوقت المناسب.

- آه يا ابن أمك يا محمد الصغير، كنت تحسب زغب الفروج القشتالية التي أدهشك سحر تخطيطها ونعومة ملمسها وشقرتها التي لا توجد إلا عند القشتاليات، وكنا نموت وحيدين يا ابن أمك، المدينة تسقط ونحن نواجه النار الإيطالية بالصدور العارية. الأيام العصيبة تزداد بقوة، نفتش في المزابل عن رغيف قديم حتى لا نموت جوعاً، ونسرق القطط في حي البيازين ونشويها في غفلة عن العيون التي كانت تراقب حتى تنفسنا، بعد فترة انعدمت القطط من الشوارع وبدأنا نفكر في الجرذان التي كانت تنظر إلينا بعيون فيها الكثير من الجوع. الخوف من الطاعون جعلنا نتريث قليلاً. فضلنا الكلاب، لم يكن لحمها مرّاً، ونشارة الخشب والخيش التي تخلف في اللهاة حلاوة خاصة. كان الرجال والنساء والأطفال يموتون أفواجاً أفواجاً، وعلى صدورهم العارية تنغرس أعلام الممالك الشمالية، لتنتهي على مآذن غرناطة. كان محمد الصغير يحاول أن ينتهي من الإملاء على وراقيه، ويعد برؤوس أصابعه زغب الفروج القشتالية ويعد العدة للحروب القادمة.


Twitter: @ketab_n

آه يا ابن الزانية. يقول أحد القوالين، وكان من الذين ملؤوا الأسواق بعد السقوط. هذا تاريخنا، والوراقون هم التهلكة، خانوا ملح الفقراء ودمعة الغريب في البلاد البعيدة. الوراقون أيها السادة. وقبل أن ينتهي من الجملة الأخيرة، ويدفن بكاءه في قلبه، سحبته يد من شعر رأسه، ولم يعد إلى ذلك المكان منذ تلك اللحظة. قال حين كانت الشرطة تغرز رماحها على ظهره وتهدده بالذبح من الرقبة:

أتعرفون ابن الكلبة؟ لقد خرج قبل الموعد، ونام لياليه الأخيرة مع أجمل القشتاليات. كان عِنّينا وعاجزاً يمارس الجنس بأصبعة الوسط، يبلله داخل فمه، ثم يدفع به باتجاه أعماق الفرج. ويتلذذ بحاسة الشم كالكلب... آه أيتها البلاد التي سرقت في لحظة غفوة، لقد دخلوها في ذلك الصباح البارد، بالموسيقى والأعلام الكبيرة، الصمت كان قاسياً لم نكن نسمع إلا أصوات السيوف وهي ترتشق في البطون والصدور، محدثة خرخشة خفيفة وصراخات مكتومة، وشهيقاً وزفيراً مرتبكين.

دفعه الحارسان بقوة، لكن الحكاية كانت مغرية، قرأ ذلك في عيونهما، أتعرفون، أبناء الكلبة، لو قاوموا، لتغير كل شيء؟ لم تكن غرناطة امرأة سهلة كما كان يقول دائماً، كما كنت تقول أيها الصغير. حين وقفت تتحسر على الهضبة، لم يكن ذلك على المدينة، ولكن على النساء القشتاليات وخسارة المُلك، الوحيد الذي رفع رأس المدينة، ترك رأسه فيها برجولة، نسيه الوراقون، على ختم فترته كما يفعل الأجداد، حين طلبت القشتالية (إيزابيلا) منه الجزية، أجابها بقسوة، «الذين تعودوا دفع الجزية ماتوا، ودار السد لا تنتج إلا السيوف، هذه الأيام». ناوشت قلعته، قلعة الحمة، جنوب غربي غرناطة، ولكنه. (...).

لم ينه كلامه هذه المرة كذلك، جرجروه بقوة، لم ينصع بسهولة، كان يقاوم جرجروه مرة أخرى، من لباسة الموريسكي المزركش، ركز عينيه باتجاه الحضور، أبو عبد الله محمد، الحادي عشر في


Twitter: @ketab_n

الترتيب المحمدي، استفرد بالسلطة، بعدما أزاح والده، كان الخوف يتربى في فراش الملك. ثم أُسر في شرق قرطبة، فتولى الحكم عمه، أبو عبد الله محمد الثاني عشر، وحين ملأته القشتالية بالوصايا أطلقت سراحه وسط غموض مذهل، قال هربتُ من جحيم إيزابيلا، رُفعت له الأعلام وأقواس النصر، ووُضع على الكرسي بعد أن أزيح محمد الثاني عشر، ليعود الترتيب إلى الرقم القديم رقمه هو، محمد الحادي عشر، إيزابيلا كانت تحسب صوت الريح وتنتظر يوم الرايات الذي لا يحققه إلا محمد الصغير. خاض حرب الموت ضد عمه، الذي التصقت مؤخرته بسرعة بالكرسي ولم يتنصل إلا بصعوبة ليهرب في النهاية باتجاه تلمسان. محمد الصغير كان دمية القشتالية وضعتها داخل المدينة، لتسهل لها طريق الدخول في ذلك الصباح البارد من تلك الأيام الحزينة. طلبت منه أن يكمم أنف المدينة، بينما كان الأراغوني (فرديناند) يطوق المدينة، ومسح ذقنه لالتهام ما تبقى من حنين الماضي. احتل رندة ومالقة (487)... آخ يا محمد الصغير، السفن كانت قليلة... لم ينته القوال من الحكاية لأنهم سحبوه من شعره باتجاه مجهول، من يومها يقول القوالون إنه لم يعد إلى ساحة النشيد، وأغلب الظن أن محاكم التفتيش المقدس مارست على جسده أولى تجارب الحرق والصلب العلني. لكن قوالاً آخر جاء من بعده وأتم الحكاية الطويلة التي استمرت زمناً يقاس بهبوب الريح وشعلة الشموس الكبيرة. كان مجنوناً، هكذا تقول إحدى الروايات المنسية، وقال الناس عنه مجرد حكاء مثل عمي عبد الرحمن المجدوب، وتركوه يروي مثلما يشاء ويبغي. ويقول جدي الذي روى لي قصته، أنه فجر إحدى خصيتي رجل اتهمه بالزندقة وشتم الناس الذين وقفوا مع آل البيت، قفز من الساحة باتجاهه وقال يا ابن القحبة، يا فقيه الزناة الذين باعوا الله والعباد، تعلمني حرفتي... محمد الصغير كان دابة القشتالية، خرج من باب البيرة، فاراً مثل العنزة، يقول الوراقون، إنه لم يهرب لأنه كان يخاف الله ومصلحة الرعية التي كان، يرحمه الله، يموت في حبها، حَقَن الدماء



Twitter: @ketab_n

ورفض أن يلطخ يديه بدماء الفاطميين، الوراقون يولدون من بطون أمهاتهم كذابين، الغش يسير في قلوبهم الموبوءة. حين بيعت غرناطة، صرخ موسى بن أبي الغسان بأعلى صوته، أتوني بلباسي الحربي، وحصاني، وسيفي، المدينة حين تباع تنهزم الذاكرة أيها الناس، وتضمُر الأشواق. كان يعرف أن الموت في الطريق، رفع رأسه إلى السماء، كانت جافة مثل الحطبة، ملأ عينيه بالأسقف القرميدية، والحيطان التي قاومت كل الغزوات، ثم اندثر داخل الشوارع المغلقة. التقت به سرية قشتالية على ضفة نهر شنيل، نهشوا من وجهه المغلق يقول القوال، طلبوا منه أن يعرّف بنفسه، ولكنه لم يفعل. أصروا، أغلقوا له الطريق، وثب وسطهم، وطعن أحدهم بعد أن انتزعه من سرجه، وظل يبطش بهم حتى أتى على نصفهم، وحين صرخ في المرة الأخيرة، كان قد سقط مثخناً بالجراح. أراد أن يدافع لكن الرماح التي حاصرته كانت كثيرة، وكانت تزداد مع المقاومة، صرخ بأعلى صوته، هو الذي صرخ في الحقيقة وليس طارق بن زياد، آآآه ه ه ه ه يا ابن أمي، كان يجب أن تموت، السيوف أمامك، والنهر الهادر من ورائك؟ فأين المفر؟ نظر إلى النهر من جديد، كان عاصفاً مثل أيام القيامة، نظر إلى السماء، ازداد يأساً، تدحرجت في أعماقه الكلمات الأخيرة، الصوت واحد، موت الأنهار ولا السماء. ثم ارتمى بكل قواه باتجاهه، دفعه سلاحه الثقيل نحو الأعماق. الذين أُسروا من القلعة، فيما بعد، عرفوه من جواده المكسور وأكدوا أنه الفارس الذي شتم محمد الصغير عندما باع المدينة، وترك غرناطة وحيدة في مواجهة الدم والنار ومدافع اللومباردز Lambards المحشوة بالموت والدم البارد. حتى المدفع الذي جُلب من دمشق بقي مكموماً بخجل، مرمياً في زاوية مهملة. لم يطلق قذيفة واحدة، وحين جاء الشماليون ضحكوا كثيراً، ثم وضعوه في أقرب متحف صغير وحشوه بأوراق تسليم المدينة التي سرقت في لحظة غفلة، كتب عليها:



Twitter: @ketab_n

سيدي عبد الرحمن المجدوب له نفس الوجه ونفس الجنون. هوسه الدائم ناس المدينة وبحرها ومرتفعاتها العالية التي يرى فيها مستقبل البلاد التي تآكلت قبل الأوان. ضحك ضحكته المعتادة:

ـ كه.. كه.. كه.. حكيم الجملكية، آه لو تعرفون هذه الدابة؟ لا يعرف إلا الافتخار بسلالته التي لا تطالها نيران جهنم التي تأكل الأخضر واليابس. يوم الوعد قريب. يقولها دائماً في مقدمة كل خطاب رسمي.

المجدوب هو المجدوب. حين اقتربت دورية الشرطة منه، راح يداعب حيواناته الأليفة، ويضع شاشية عمي الطاووس الحمراء على رأسه التي كُتب عليها: لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم بخط مغربي مقوس وفوضوي. ويبدأ في أداء رقصاته المعتادة. وعندما ينتهي، تصفق القردة التي بجانبه محدثة أصواتاً وزعيقاً، محاولة تقليده.

يضحك الشرطيان. المجدوب هو المجدوب. ثم يواصلان تدحرجهما داخل الحديقة. في بعض الأحيان تفاجئه الدوريات وهو يروي قصصاً كثيرة للحيوانات. يندهشون، وحين يلتفت نحوهم بشاشيته الحمراء المائلة ينصرفون مع تمتمتهم المعتادة: المجدوب هو المجدوب. تحت جسر النصر الذي بني على غرار قوس النصر، كان الناس يبحثون عن زوايا يختبئون فيها خوفاً من سيدنا الخضر الذي سيمر الليلة داخل المدينة ويطلبون من الله أن ينجيهم من عذاب قيامة الدنيا. لا سكن لهم في هذه المدينة ولا صدراً يختبئون فيه. سيدنا الخضر مثل النار يأكل الأخضر واليابس. لكن في الزاوية وهم يواجهون البرد والخوف والرعب كانوا يعرفون الحقيقة التي يتهربون منها. لأنهم شاهدوا بعيونهم أن سيدنا الخضر ليس سيدنا الخضر. وأكد لي العلماء السبعة هذه الحقيقة. عندما عدت إلى



Twitter: @ketab_n

القلعة المطلة على المدينة والبحر الذي يشكل نصف دائرة تحوط بنصف المدينة ولهذا كثيراً ما أطلق عليها بعض المؤرخين اسم الجزيرة.

جزيرة الحكيم شهريار ابن المقتدر المعزّ لنفسه.

كلهم يعرفون الحقيقة، لكن كل واحد يبحث عن مهرب ما من العيون الهمجية التي تلتقطك وأنت في فراش الحميمية الهادئ. يقولون أن سيدنا الخضر سيدخل الليلة إلى المدينة على حصان أبيض. كل من رآه لحظة المرور أصيب بالعمى الفوري. وفقد ذاكرته وربما تبدد جسده وتحلل في اللحظة ذاتها. حتى مساجد نوميدا الألف كررت ذلك كثيراً. ودعت الناس إلى الدخول إلى بيوتهم باكراً قبل لحظة المرور مع إحكام غلق النوافذ والأبواب والآذان حتى لا تسمع أصوات الاستغاثات لأنها تورث الصمم.

سيدنا الخضر لا يترك شيئاً للريح، ولا للصدفة. هو كالنار، نار جهنم. الويل لسكان جهنم. إذا استغاثوا أُغيثوا بشجر الزقوم، يأكلون منها فتجتث جلود وجوههم، ثم يصب عليهم العطش، فيستغيثون فيغاثون بماء كالمهل، فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحم وجوههم التي سقطت عنها الجلود. وآخر ما سمعته من حكماء جملكية نوميدا، قبل أن ننزوي جميعاً كل واحد أمام نافذة حجرته، المطلة على البحر نتأمل معجزات سيدنا الخضر وخراباته.

- يا البشير، يا ابن هذه الدنيا أو تلك نحن لا نعرف ولا يهم أبداً أن نعرف يا ابن أمي التي ضيعت الذاكرة ولم تضيع حنينها؟ يا البشير، يا فقيد هذه المدينة وموجودها، للنار لهيبها، وللأحزان أفراحها، للنسيان خبثه، وللخبث نسيانه وأنت يا البشير يا سيدنا العظيم. هل العيون البرية مأواك؟ هل الأشواق المسكونة باللعنة رضاك؟ ماذا نقول في هذا الهول؟ وأنت يا سيدنا العظيم، تصعد الحرارة من قلبك كالشعلة، لا تسمع في داخلك إلا حنين الموت والإصرار على الحياة. لا تسمع إلا صوت الذين غابت أصواتهم منذ الزمن البعيد الذي انسحب يلوك الهزائم ويخبئها وراء ابتسامة



Twitter: @ketab_n

النصر المشوهة. وأنت يا سيدنا العظيم، ستأتيك النساء من الربع الخالي، يلدن بين يديك، يضعن الجسد فوق الحصى، يتمرغن على الجمر والنار، تتلمس الحرقة والجرح الغائر. يتوقد قلبك ويمتد حنين رضاك، شعرهن لهب، أجسادهن ذرات من الجنة، زغب العانات لا يقاوم شفير اللذة والهزة، والقبلة الممزوجة برائحة المسك وعود النوار تبعدك عن أهوال القيامة. فقم يا سيدنا العظيم.

قم. قم.

وذَكَر الذين لم يبق فيهم شبق الحنين، أن من أيديهم صنع الله الدنيا ومن عيونهم استلهم كل الأناشيد. عليك أن تقاوم يا سيدنا العظيم لقد اقترب الليل والمدينة تستعيد ذاكرتها المفقودة. والمساجد استعارت أصوات الأشرطة وغيبت حنين الأوفياء. عليك أن تقاوم.

قالها أحد العلماء السبعة وهو يمسد على لحيته، مشدوهاً في بياض وجهي. عليك أن لا تترك الدنيا للريح تجرحها. الريشة فوق الريشة، والطين على الطين، وبين الريشة والطين خط مستقيم، منه يُصنع الأنبياء وإليه يعودون. الفرحة لا تولد من الفراغ لكن من نار الرحم المجروح بصراخات الولادة، ومن اللذة والشوق المدفون في بؤبؤ العين.

يجب أن أتوقف عند هذا الحد. وضعت رأسي بين يدي وحاولت أصرخ بأعلى صوتي. لست ذلك الرجل يا عباد الله الأوفياء؟ لم أفهم شيئاً؟ كلامه كان كبيراً وحرجاً صوفياً أكبر مني. لممت لساني وابتلعت كل الصراخات التي كان يجب أن أطلقها. يا سيدي الحكيم والعالم الجليل. فسّر؟ فسر أيها العالي؟ سكتُّ بأعلى صوتي.

صرخت بأعلى صمتي.

برودة القبر كانت تنشئ قبوراً في الذاكرة وترمي الكل باتجاه البحر والسفن العائمة والأجساد العارية الممزقة.


Twitter: @ketab_n

يجب أن ينتقل الصمت باتجاه الندب. آه يا سيدي؟ لو تعرف، فلست أكثر من رجل أندلسي ركب البحر قبل أن يركبه الموت. لم يعد للجسد معنى، لم يعد للوجه معنى، لم يعد للناس معنى، أصبح القول كلاماً، والذاكرة نداء. أصبح الصقر حماماً، والخمرة ماء والحزن يمامة، ومن يعشق الحزن يا سيدي؟ كانت القشتالية تسرق المدينة، والناس نيام.

لا لن أنام يا حكماء هذه المدينة، لأن النوم أخو الموت.

سيدنا الخضر سيمر سأراه وهو يمر عبر تعرجات الشوارع الضيقة. سأراه. نفضت رأسي من جديد. هل يعقل؟ أكنت أهذي؟

حتى العجوز المشدوه الذي كان يمسد على لحيته، انسحب قبل أن أفتح عيني من الدهشة. لم أجده لا هو ولا الجماعة. كان الجميع في بيت الخلوة، وكنت وحيداً في بيتي أتقلب وأتألم بقساوة. النافذة مشرعة عن آخرها والراعي منكفئ على نفسه عند الباب بعصاه المعتادة. اقتربت من النافذة أكثر وجلست على الكرسي، هو سيدنا الخضر؟ سمعت نحنحة الجياد المجروحة، وصراخات الناس وأنين الذين في طريقهم إلى الموت. رأيت الخيول تقف عند الأبواب، ورقابا تنحني مجبرة ولا تقوم. بعدها انطفأ الضوء، ولم أسمع إلا الصراخ والندب والعويل. وضعت رأسي بين يدي، تمنيت أن أقفز باتجاه المدينة من أعالي هذه النافذة. لفلفت نفسي في أول برنوس وجدته في طريقي. خرجت بسرعة وبهدوء تام حتى لا أوقظ الراعي المنكفئ على جسده النحيل. نزلت باتجاه مكان الصراخ، متجاوزاً بذلك كل إنذارات الحكماء السبعة. كانت المدينة تعيش جنازاتها الكثيرة. اقتربت من أقرب شجرة عرفت من ملمسها أنها نخلة هرمة. كان المشهد مروعاً. ربط الطفل بين حصانين ثقيلين، وأمام جميع الحاضرين مُزق بهدوء. قيل إنه مُزق لأنه سينشأ كافراً عكس والديه المؤمنين. عرفت فيما بعد حقيقة أخرى، وهي أن والده كان مطلوباً حياً أو ميتاً منذ أكثر من ثلاث سنوات. كوّنَ عصابة مناهضة وراح يعيش داخل الغابة الكبيرة. لا ينهب إلا قوافل الأغنياء التي تمر ليلاً



Twitter: @ketab_n

ناحية الوديان المحاذية للغابة. مزقت الكلاب المدربة دابة الرجل الهارب التي كان يركبها يومياً للذهاب باتجاه الجبل لخدمة الأرض اليابسة. التي لا تلد إلا الخوف. وفي الصباح فسر أئمّة المساجد حادثة الدابة التي مزقتها الكلاب بشكل آخر، قيل إن الدابة كانت عاقراً، بغلة ملعونة، سخط عليها الصحابة والسابقون، وأنها أخصبت لأول مرة منذ كانت الخليقة من حصان عظامه من جهنم، ولو تركت حتى تلد، ستنكس الأرض وتصبح الأرض سماء والسماء تربة، وما بينهما جحيماً لا يطاق.

وأشهد أني لم أر بياض القداسة، ولكني رأيت الخوف وملأت عيني بالسواد ومشاهد الموت رأيت أيادي خشنة لا تعرف الغناء ولا الفرح تستل الأرواح وتضع الفرحة والتاريخ في الصناديق الخشبية أو تدفنها داخل حرقة شمعة، أو داخل دمعة يتيمة وتُغرقها في أعماق البحر الذي لم يتوقف تكسّر أمواجه. بحثت عن سيدنا الخضر ذي الوجه الأبيض والجواد الأبيض واللباس الأبيض ولكني لم أر إلا الظلمة والشوارع المغلقة الميتة، رأيت جيوشاً تمتطي الأسلحة الرشاشة والسيوف المعقوفة، رأيت الأبواب العالية تسقط مثلما تسقط المدن الرائعة، كان الرصاص يلعلع، وبين الرشقة والرشقة أرواح تزهق وضباب. الموت ثعبانٍ ينساب، والريح الساخنة تهب بقوة غير معتادة كما يقال دائماً في هذه المدينة، صرخ الرجل المنسي في المدينة وفي شوارع الموت، الله تخلى عنا، ألسنة النار تعلو والبنايات تتمزق كالخرق البالية. الله تخلى عنا. الوجوه المحروقة نسيت أنها كانت لحماً ودماً، والخراب في الذاكرة يستعيد أمجاده البعيدة. المهدي يقتل المهدي، والخضر يقتل الخضر، والله يغتال الله في لحظة الغفلة. صغيرة تتحطم، يدخلها البارود وبرودة السكاكين المعقوفة، أجساد تسقط كالعنقود الواحد تلو الآخر، ثم توضع في حفرة أو مطمورة، وتغطى بالإسمنت، الصليب ينصب في كل مكان والمحارق تزداد، والناس، الناس نيام في فراشٍ يشبه الموت، يبحثون عن ثقب في السرير يختبؤون فيه


Twitter: @ketab_n

ويسترقون السمع لدقات القلب، لدقات الباب، هل سيدنا الخضر يتوقف أم سيمر بسلام؟ لا أحد يرد وسيدنا الخضر نسي وجهه النبوي، وصار حصاناً أطرش مسدود الأذنين والعينين، ومغلق الوجه.

من يعلم الذي أعلم؟



Twitter: @ketab_n

## 6

اسمع أيها السامع. الله يسمعك سماع الخير افتح فمك عن آخره، وبرقق عينيك جيداً، لا تترك النغمة تمر. لا تترك اللحظة تفنى تحت شعلة الفراغ، لا تترك ذاتك تنصهر داخل الشبق البليد، الذي لا يعلمك الجديد. الخوف ملعون. اللعنة لعنة، والنار نار أيها الممحون بشذى الموت. إنه القوس الثاني(*). مبني للمجهول وفي معلوم المعلوم ما أظن يفهم كلامنا إلا من بلغ القوس الثاني. والقوس الثاني دون اللوح. وله حروف سوى حروف العربية، إلا حرف واحد. «الميم» وأنت ما بك مشدود كالدهشة، مشدود كفراغ الموت؟ منتصب كاللعنة، خائف كالخوف، وقائم كالمحنة؟ هي ذي تأتي بين ذوات الذات، حياة قصيرة لمن اعتنق، وحياتها تدوم. موجودة بين البعيد والمعلوم. هي المعرفة ربّما هي المعرفة. صاحبها واحد، مارسها لاحد، وآرقها رامد، لاصِقُها فاقد. وراء الوراء، وراء المدى، وراء الهمة. وراء الأسرار، وراء الأخبار، وراء الإدراك.

إنه القوس الثاني. قلتها يا سيد العارفين. حتى بعد موتك أيها الحلاج، مازلنا نبحث عنك بين الحرف والحرف، بل داخل الفاصلة والنقطة. سرّك دفين وعلمك مكين. إنه القوس الثاني، نشعر به ولا نلمسه. نحس بقربه منا ولكننا لا نفهمه. الكلّ يدور، يدور داخل الفراغات. الخوف.

---

(*) الحلاج.



Twitter: @ketab_n

ماذا حدث أيها الموريسكي القوال الذي ورث شقاوة اللسان عن جدّ مات وهو ما يزال يصرخ. أعطوني حقي في الكلام يا أبناء الكلبة، عليكم اللعنة حتى يوم القيامة.

حين عدت إلى البيت، كان الراعي خائفاً، لا من الموت، ولكن من عيون الحكماء (العلماء) السبعة، أو على الأقل هكذا أوحى لي في البداية. لأني سأعرف فيما بعد، أنه لم يتركني ولا لحظة واحدة. فقد كُلف باقتفاء كل خطواتي داخل الجملكية. يقول أحد الحكماء السبعة، لم أتبين اسمه، إنه رأى سيدنا الخضر يعوم كالنسر فوق حصون المدينة وبحرها. وبعد لحظات من الدهشة نزل، فتحوّل في الثانية نفسها، حتى قبل أن تطأ رجلاه أديم الأرض إلى إنس، امتطى حصاناً بلون لباسه ذي البياض المشع كالنور، عندما تتفتح السماء على فقير انتظرها أكثر من سبعة قرون. ويقسم الشيخ العالم، برأس الدابة التي تأكله، أنه لمس برنوس سيدنا الخضر. كدت أصرخ في وجهه: إنك تكذب يا شيخنا الجليل. ليس هذا وجه الحقيقة التي يجب أن تروى. فقد تبعت قافلة النقل حتى بيت النينوي الذي ظل شامخاً كالله، وشاهداً على تفاصيل الجريمة والقتل بلا توقف. القتل بالخطب الرسمية والعسكر. كانت وجوههم مغلقة بالإسمنت. يقتلون ويفتكون. في لحظة أقل من رمشة العين، تداعت أبواب الشيخ النينوي، كانت عيونه هادئة وكأنه، كان ينتظر قدومهم. لم يتخبأ وراء شقوق الحيطان ولا داخل فتحات الأبواب المكسورة. لم يهرب إلى الغابة ولا باتجاه الريح الساخنة، ولا بحث عن البحر لمغادرة البلاد. ظل النينوي واقفاً، شامخاً، وهادئاً، يُصغي إلى الصراخات المتتالية وإلى الأنين الذي كان يُسمع من وراء الخراب. وراء الارتطامات المتعددة للأسوار والوجوه التي كانت تتداعى. العلماء (الحكماء) السبعة كانوا قد حدّثوني طويلاً عن سيدنا النينوي. وأنهم اقترحوا عليه الالتحاق بهم في القلعة، ولكنه رفض. قال: أمهلوني. ربّما جئتكم بنفسي حافياً، عارياً، أو جئتكم رماداً مقدّساً، أمهلوني أيها الحكماء، فلم يبق في الجملكية إلّا صوتكم والبحر الذي لن يخسر أبداً زرقته ولونه.



Twitter: @ketab_n

أيها النينوي، ما أعظم صمتك. ما أدهش صوتك وحنينك أيها الشيخ الجليل! ما أقواك، ما أقواك، وما أصغر سيدنا الخضر في هذه المدينة. أكدت للعلماء أن ما رأيته لم يكن حلماً. لقد عشت لحظات المشهد المقدس ولم أخسر لا عيني ولا ذاكرتي ولا صوتي، ولم أتحول إلى صنم صغير ولا كبير يختبئ الأطفال وراءه للتبول بعيداً عن عيون الناس. أكدت لهم أني بكيت كمن يبكي في اللحظة الأولى عندما تصطدم عيونه لأول مرة بفراغ الوجود المخيف. قلت لهم إني انتظرت بفارغ الصبر، الصباح، للنزول إلى الأسواق ورواية الحقيقة. يا سادتي الحكماء، لقد رأيتهم يُصعِدون الجثة إلى الصليب مرغمة، ثم أعدمت في أيأس مشهد. النينوي لم يهرب أبداً، كان بعض الخوف بادٍ في عينه، لكن صبره كان أكبر. إنها تجربة الموت، كان يخوضها بعشق شديد. قتلته الزمرة التي كانت تعتلي الجياد التي تحمل الموت في ركابها. رأيته بوجاهته وحيائه، ولباسه الأبيض الذي أحمّر من كثرة الدم. دموعه التي توقفت عند الخدّ صارت جمرة أوقدت نار الحنين. آه يا سيدي النينوي، كان الزمن مظلماً، وكانت الوجوه تشتعل فرحتها، والسواد يزداد كثافة. إنه نفس المنظر الذي جاءني وأنا في الكهف. لا أعلم هل عشته حقيقةً، أم كانت الرؤيا مجرد حلم. المؤكد، أنه كان جزءاً من الكابوس المظلم الذي يشكل جوهر الليلة السابعة بعد الألف والذي كان وما يزال مستمراً. رأيتك يا سيدي العظيم تنحني بكل إجلال. تميل برأسك باتجاه الدنيا ألماً، لكنك لا تصرخ أبداً. اقسم بعينيك وشفتيك اليابستين إني رأيتك في الليلة السابعة التي لم ينته امتداها. كانت الظلمة قد فقدت أنجمها والحنين ضيع وجهه ورمانا على قارعة الطرقات المفرغة، وحيدين نجرّ خراب وعذاب الحزن. وجهك كان يأتيني على دفعات. من عصر السيف إلى عصر البارود والموت. الليلة السابعة كانت طويلة مثل ليلة الخوف التي دامت زمناً. إنها ألغت الزمن ذاته. هل كنت نائماً أم كنت أحترق. لا أعلم حتى ترتيب الوقائع. هل جاءت بعد موت الشيخ الجليل وامتلاء فمه بالرمل والماء أم بعد؟ أعتقد أنها بعد موت



Twitter: @ketab_n

الحلّاج، لأني حين استيقظت، وعدت إلى النوم من جديد وجدت نفسي على نار أخرى. كان الزمن الأسود، يشبه زمانك يا خير العارفين. سبحانه، يخلق من الشبه أربعين؟ ادخلوا جهنم في قلبي. شعرت بالنار تصعد من داخلي لتملأ رأسي رعباً. قال أحد العلماء. كان مثلك. أحلامه تزن الجبال. وفي لحيته وقار الأوفياء. قلبه بسعة البحر ولا السماء والأرض وما بينهما من فراغ وأهوال وشكوك. كان الزمن موغلاً في سواده: المتوكل كان قد اختبأ بين حائطين صلبين، وعطل العقل، وسلّم بظاهر الدنيا ومنع أهل عيسى من ركوب الخيل ووضع تحت مؤخراتهم الحمير والبغال. المعتضد منع الوراقين من بيع كتب الفلسفة، وأغلقت الحارات على الجهل وطُينّ على الأفواه حتى لم تعد في الشوارع إلّا الدواب البسطامي استأصلوه وافرغوا دفائنه من شهوة القلب، ونفوه سبع مرات، وفي كل مرّة ينزعون منه قطعة حتى حوّلوه إلى مقبرة، وحين يخاطب الله ويصرخ بأعلى صوته (يا أنا). قالوا بذعر، لقد كفر أبو زيد البسطامي لكنه كان شامخاً مثل جبل. وقف أمام الله بكبرياء المحارب. رفعتني فأقمتني بين يديك وقلت لي إن خلقي يريدون أن يروك. زيّني بوحدانيتك، وألبسني أنانيتك، وارفعني إلى أحديتك حتى إذا رآني خلقك، قالوا، رأيناك، فتكون أنت ذلك ولأكون أنا هنا. قال البسطامي أكثر من هذا كله. وبحث له القاضي الجنيد، وراق السلاطين عن أعذار، وعظّمه. أبو القاسم الجنيد بن محمد، لا ترى عيونه إلا ما تريد، وفي الزمن الذي تريد. وحكموا عليك أنت يا سيدي النينوي بالصلب والموت. وجهك كان مثل وجهه. اتهموه بالسحر والشعوذة وتجفيف البحار. كان مثلك وصرخ بلغتك. رفع صوته في وجه الجنيد. قبضت ثمن رأسي ياشيخي الكبير. كان لا يأكل سبعين يوماً ولا ينام في سوق «القطيعة»، كان قلبه ممتلئاً بالنور والوجد. وقف عند باب المسجد وصرخ بأعلى صوته حتى سمعت دواب البحار السبعة حنينه؛ إذا استولى الحقد على قلب أخلاه عن غيره، وإذا لازم أحداً، أفناه عمّن سواه. ثم سبقته دمعة مثقلة



Twitter: @ketab_n

بالحنين والأشواق والحزن. شهق جميع من كان في السوق في لحظة الشهقة والامتلاء. دوَّن الوراقون كراهيتهم. وبكى القوالون. تمتم بكلام مبهم وغير مسموع. قال الوراقون: مجنون، تعدّى حدود الغيب وأحلّ دم الله. قال: عفواً. لم أستبح دموع الله، إنما دموعه تحزن جفن العين. دمعة تتحد بي وأتحد بها لحظة وأعود إلى رشدي، رشدكم، يا الله أنت تعرفني وأنا أعرفك بما أعطيتني لا فرق بيني وبينك إلاّ الربوبية. كانت عيناه قد احمرتا كالجمرتين المتقدتين. وحين عاد إلى رشده، ضحك كثيراً من هذه العودة التي أبعدته عن النّور. ونصح الناس الحاضرين بعدم اتباع طريقه. طريقي صعب، معبّد بجهنّم لا تطوله الأرجل، لأن رجلي الحلاج ليستا أرجل الناس جميعاً. وحين حاصروه، وقالوا مجنون، كان قد صلى بعض الركعات في جامع المنصور وقال: اعلموا أن الله تعالى قد أباح لكم دمي، فاقتلوني. سأله بعض الذين قرؤوا الحرف المتوهج في قلبه وفي ذاكرته. يا شيخنا، ما معنى هذا فقال ما قلته لهم يا سيدي النّينوي. ليس في الدنيا للمسلمين شغل أهمّ من قتلي. كان يعرف طريق موته. اختاره بشموخ الأنبياء والرسل. ودفع بدواب القصور والزرائب إلى الاختباء وراء الحصائر والألبسة النسوية المزركشة. كان مثلك يا سيدي النينوي ينتظر شهر الشمس والزهور وشهر الحب والخصب ليصلب. كان يعشق الحياة لدرجة الوله. رأيته في الحلم بجلاله لا بل عشته كما نعيش تفاصيل لحظة أمل الموت ممزوجة بزهو غامض. لم تمنعني رائحة الكهف النتنة من استنشاق عطره. أول وآخر مرة أشمّ فيه رائحة المسك والعنبر. بعدها لم أعد أشم إلا رائحة الدم والاحتراق تتصاعد من ثوبه الصوفي الفضفاض. كان يصرخ. وكانوا يبيعون البلاد للأتراك والفرس. قالوا: خذوا البلاد وأعطونا الذهب والكرسي والغلمان ولا تخلعوا عنّا الحكم. لكنهم في لحظة الهوس بدؤوا يأكلون رؤوسهم الواحد تلو الآخر. المعتصم، المتوكل، المنصور قتل أباه واعتلى خلاعة الكرسي، وانتهى مسموماً، المستعين... المهدي، المعتمد، الموفق، المعتضد،



Twitter: @ketab_n

المقتدر أحد الأجداد الذي ما يزال دمه يسير في وجوه حكام هذا الزمن الأرقط في قلب كل واحد منهم المقتدر القاهر الأهوج الذي انتهى في كيس قمامة. تركوهم يتقاتلون ليرموهم في أقرب مزبلة على أطراف بغداد، وأشعلوا النار في المدينة والعباد. القلّة التي صرخت في المدينة، نُفيت خارج الأسوار، وقتلت في الفلوات دهساً بالجياد، أو دفنت حيّة، عارية، أو صُلبت يا سيدي العظيم. وجهك يأتيني مليئاً بالنور والوهج، مثلما كان يأتيني وجع الشيخ والنار تلتهب في قلبه وتصل حتى وجهي. كانوا يتقاتلون على الكرسي وكان يحاول أن ينزل الله إلى الدنيا. الأول جاء فوق سنان الرماح، الثاني أدخلَ رجله في صدر والده، واعتلى العرش، ثم عرّش كالخوف، كان يلعب بالدم مثل الذي يلعب بالماء. لوّن شلالات أبهية القصر بالأحمر. وقال: ما فعلت هذا إلا وفاء للوالد طيب الله ثراه في النهاية. وضعوا له السمّ وجاؤوا بوجه آخر، عزل نفسه بنفسه، ومع ذلك، بعد سنة واحدة رشقوا في بطنه وصدره سيفاً صدئاً. الآتي سلّم أمره للآتين. خلعوه وخلعوا معه أصابع يديه ورجليه. وديست خصيتاه بقوة، وبعدهم جاء المريض بالنقرس والفيل. ملّ الناس من حمله يا سيدي الجليل، وضعوا السمّ في رأس السيف ورشقوه في الضلع. وحين استيقظ هؤلاء الحكام، في وجوه جديدة، أول شيء فعلوه ردموا الأعداء من الرعية في الوحل وهم أحياء. وكان المعتضد، رحمه الله، تقول وثائق الوراقين، حين ينزعج من أعدائه، يدغدغهم، ثم يعمل جاهداً، يصل الليل بالنهار، من أجل تهذيبهم، وحين يأبون ويزداد سوؤهم، يقول لهم، وكلّت عليكم ربكم، ثم ينسحب إلى فراشه المتواضع، وحين تزوج يرحمه الله، يصرّ الوراقون، من قطر الندى، انفق المال والبنين من أجل إرضاء الغوغاء التي لم تتوانَ لحظة واحدة عن خداعه. لعن الله الغوغاء وأسكنها فسيح جهنمه. آه يا سيدي النينوي، الوراقون سيظلون في كل الأزمان وراقين يحفرون الذاكرة بالأوهام، ويوقدون النار في قلب الورق البردي المصقول بألم المتعبين. أنت تعرف مثل شيخنا،



Twitter: @ketab_n

أن المعتضد لا يدخل سيفه غمده، إلا عندما ينتهي من حزّ سبعين رقبة كل ليلة، ولا ينام على صدر قطر الندى الذي فاض بالشبق إلّا إذا أتمّ المائة رقدة وسفدة. حين ينتهي من عد الخمسين، ينزل من على صدرها ثم يقلبها على ظهرها كالدابة ويسفدها الخمسين المتبقية من دبرها، يقول وهو أسوأ القائلين، إن ركوب المرأة من الوراء هو جزء من الحرث الذي أحله الله. ثم ينام مرتاح البال. كانت قطر الندى تطاوعه وفي الصباح تقول له، اشتقت إلى قصر من الذهب، ينادي الحاضرين وأهل الجباية. فيأتوه بكل الذهب المخزون، بين الكوفة والبحرين، ثم يبدأ في أولى عمليات السبك. وفي الليلة الموالية تعلمه طريقة أخرى للنزال لم تمارسها النساء قبلها ولا الغلمان.

ينظر شهريار بن المقتدر، بعيون جاحظة إلى وجه دنيازاد المنغمس في تفاصيل الرواية التي بدأتها وهي مصرة إلى إنهائها. حتى وإن كانت في النهاية نهايتها. دابة الغواية أختها، اختصرت من الحكاية ما كان يجب أن يروى. قالت دنيازاد: هذا قليل من كثير يا حاكم جملكية نوميدا ـ أمدوكال. عليك أن تعرف الحقيقة. الحقيقة كما هي لا كما رواها الوراقون الذين تعرفهم جيداً أكثر مما أعرفهم. دابة الغواية كانت كاذبة. شهرزاد لم تقل لشهريارها إلا ما كان يريد سماعه. وأنا أروي ما ترفض أنت سماعه وما أكرهه من قلبي. لأني منك يا سيدي وإليك سأعود كمجرى النهر المتجمد. شهريار بن المقتدر لم تكن تهمة تفاصيل هذه الحكاية. كان يريد أن يعرف ما غاب عنه. ما هو جديد قطر الندى قطر النزال، تمتم وهو يحاول أن يخبئ رأسه بين يديه.

ـ هه. وماذا فعلت. احك عن جديدها.

يروي يا سيدي، البشير الموريسكي، حدث هذا، حتى قبل أن يخيفك وجهه وما يخبئه من ورائه، أن قطر الندى نزعت كل ألبستها، ثم ارتدت غلالة عمقت كل تفاصيل جسدها الغض، وضعت أصبعها


Twitter: @ketab_n

بين فخذيها ثم تأوهت. تجمع اللباس الشفاف عند السرة، ثم بدأت تنزلق بإصبعها المعقوف باتجاه العمق، وبدأت تجلس على ركبتيها وهي تحاول أن تحافظ على مسافة كانت تزداد اتساعاً بين فخذيها. شعر بالنار تصعد من صدره، ومن رأس لسانه. بدأ المعتضد يرغي. اندست في حجره كالقطنة المضمخة بالعطر. وحين مست رعشته بين فمها ابتعدت قليلاً عنه وتأملته. شعرت بالجنون يملأ فراغات جسده.

أدخل الحاكم، حكيم جملكية نوميدا ـ أمدوكال، يده في صدر دنيازاد، عجن بقوة نهديها. وحاول أن يتكلم، لكن الكلمات خرجت مصعوقة بالرعشة.

ـ اح... كِ.. اخْ.. كِ.. ا.. أحْحْحكِ.. ك.. كِ.

لم تبال دنيازاد. ولكنها انسلت منه بهدوء. أنا لم أنهِ يا كريم النفس، عالي الهمة. جلست بكل ثقلها على صدره، ثم على حجره، ثم... وبدأت ترغي كالموجة المكسورة. شعرت ببياض يعلو عينيه الغائرتين، وبالحر يأتيه ساجداً عند أقدامه، وقبل أن يدفنها أكثر في جسده، كانت قد قامت منتصبة، تعاود نفس الحركة، تضع أصبعها بين فخذيها وتتأوه، وتتأمل عريه كالثور الهائج. كانت تقطر شبقاً ولذة. ثم تركته يدخل الحمام، ينهي حريقة بالصابون الهندي وكمشة يده لم تنفتح طوال اللحظة الشبقية التي أخصت رعشته. قالت: لنا العمر كله يا سيدي، في الغد نكمل ما تبقى. أنا لك ما بقيت على ذهب الكرسي.

يقول الموريسكي: يا سيّد الجملكية، إنه حين جيء بالصبي ليحكم البلاد والعباد، كانت الدنيا قد نكست أعلامها، طُرد مرتين من الحكم، وفي المرة الثالثة جاءت به نسوة الحرملك وأخذن يلعبن بعضوه الناتئ وهو يضحك ملء اشداقه ويتقلب في فراش الريش، وأخذن يطوّطن عضوه كأية قطعة مطاطية وهو مفقوع من الضحك. المصيبة أنه بعد كل مسخرة تطل مسخرة جديدة أكثر وقاحة من


Twitter: @ketab_n

الأولى. لكن تاريخها الأبدي خط في الليلة الألف التي لم تكف، فزيد لها ليلة، فلم تكف فزيد لها ستُّ ليال أخرى. ليتوقف العدّ عند هذه النقطة بالذات. الزمن غيَّر دورته العادية. الطفل، وضعه الأهوج في جيبه ثم اعتلى جواداً عربياً خشناً وبدأ يطينّ على خصومه بين الحيطان، لكنه بدوره انتهى درويشاً. يمشي في الشوارع بعد ما سملت عيناه بمخيط كان يستعمل لتخييط البردعات. يطلب الصدقات، ويركض وراء نساء الأحياء الضيقة، قبل زمن قصير يا سيدي النينوي العظيم، كان يضحك من الطفل الحاكم الذي طحنت خصيتاه، كيف أن إحدى قحباته كانت تجلس في ديوان المظالم، تنظر في الدعاوي، وتوقع عليها، ثم تنظر في الدعوة الموالية، فتستشيط غضباً من صاحب الشكوى. وتصرخ: أتوني بابن الكلبة، كيف يشتكي من سواء المعيشة والدنيا تعيش رفاهاً لم نحلم به طوال حياتنا. وحين يؤتى بالمتظلم، تعريه عن آخره. وبعد أن تعبث به، تقطع رأسه، أمام الطفل الحاكم وهو يتمرّغ ضحكاً، ساخراً من فرائس الرجل وهو يرتعد قبل لحظة الموت، حين حاولت السيدة أن تمص ذكره لتوقظ شهوته ولكنه ظل مرعوباً، ولم ينتصب فيه أي شيء إلا قامته. نحن في زمن يا سيدي الحمار أصبح حاكماً، والخياط قاضياً، والسبَّاك أصبح مشرفاً على تصريف الأموال والأمي الجاهل حكيماً. والقاضي الحقيقي وُضع تحت الأرض ودفن حياً لأنه قال إن النجوم خلقت لتضيء الدنيا، ويغادر الناس أماكنهم، وتظل هي ثابتة. لم يفهم أحد كلامه، ظنوه ساحراً، فقتلوه. وقال ضمن ما قاله، الله خلق الناس سواسية. الجنة لله، البشر هم من أنشأ القيامة. هل هي فتنة يا سيدي، كما كتبها الوراقون، أم أنها النار التي تحرق الأخضر واليابس، أكلت حاضرة بغداد التي سحقها الكلب والطاعون. كانوا يتوالدون على الكراسي مثل الدود. الكرسي الذهبي تخرّم وتغرّف من كثرة احتكاك الأعجاز الثقيلة به. آه يا سيدي العظيم، هذه الوجوه مجتمعة، وغيرها ستأتي من بعدك هي التي أمرت بحرقك وتشويه خلقتك. أقسم الجميع أن يضعوا رأسك في



Twitter: @ketab_n

النار، ويستمتعون برائحة احتراقه، وكلفوا أصغرهم سناً بعملية التشويه والقيام بما قالوه كلاماً ولفظاً. قالوا له قبل أن ينطفئوا تركنا لك وصاية. احفظها في بؤبؤ العين. الكرسي والسيف شيء واحد. إذا ضاع الأول ضاع الثاني، وإذا ضاع الثاني ذهبت أخبارك مع الريح. لكنه حين فوجئ بالكرسي، وضع سيفه بين يدي القهرمانة. آه أيها المقتدر، يا جعفر بن المعتضد، يا كلب بغداد. إنها وصاية ابن القحبة، ابن الفرات. نسيك يا شيخنا الحلاج تواجه خراب القصور وحيداً. نُسي دمك، وصليبك، وقال: حلّ دمه. ثم نفض يديه وكأن شيئاً لم يكن وراح يقف في طابور الذين كانوا ينتظرون قبض ثمن رأسك مع حسن بن حمدان، لأن الجيش الذي سلبه فرج القهرمانة شجاعته كان قد أخلى المدينة والأسوار، وكانت أمامك الصحراء ومريدوك. لكنك رفضت. في سوس عندما ألقى عليك القبض صاحب البريد، سألك، هل كنت الحلّاج. قلت له، وماذا ترى؟ تلعثم، وعرف في سره أن صاحب سؤال مثل هذا لن يكون إلا الحلاج. ساقوك إلى بغداد حتى بدون أن يكلفوا أنفسهم مشقة التأكد، مقيداً بالحديد، وصليل السيوف المعقوفة وأصوات العسس المتداخلة داخل دهشةٍ لم يكن يهمك كثيراً أن تعرف مصدرها. طلبوا من ورّاقهم «الطبري أن يسجّل ما يروونه. حمل الريشة، كانت خفيفة بين أصابعه. وجّه عينيه باتجاه الورقة البيضاء وصندوق المال. مسح شواربه ولحيته الكثة، ثم بدأ بعدها يخطّ ما يروى داخل القصر، أولى الكلمات. «أحضر دار الوزير علي بن عيسى، رجل ذكر، إنه يعرف بالحلاج، ويكّنى أبا محمد... مشعوذ ومعه صاحب له، سمعت جماعة من الناس يزعمون أنه يدعي الربوبية...». مرت يا سيدي الفاضل على ظهرك المتعب ثلاث وزارات. وزارة ابن عيسى، ووزارات ابن الفرات للمرة الثانية، ووزارة حامد بن العباس. كانوا يتقاسمون الأدوار على جثتك، ثم يغسل كل واحد يديه من دمك وصراخاتك وعرقك. أحلّوا عيونك للجحيم. كانت النار تصعد من قدميك ولم يكن القصر إلا سجناً جديداً. تركوك بين السماء والأرض،



Twitter: @ketab_n

حتى مللت وكرهت الدنيا، لكن صفاءك ظل معك. وظل خادمك إبراهيم بن فاتك وفياً لك حتى آخر لحظة. حامد وهو يتألم في بيت النفايات (المرحاض) ويتعصّر بسبب مرض البواسير الذي لازمه منذ طفولته الأولى، يفكر كيف يبيدك. يحسدك حتى في عطرك الذي يفوح به جسدك. قال عنه الرجل القوال الذي أحب تاريخ عبد الرحمن بن خلدون «لم يعرف حقوق الوزارة ولا سياستها». جاءك بتهم عجيبة، كان قد فكر فيها وهو في بيت النفايات يتعصّر. غطيت أذنيك. لكن صوته الجهوري كان قد اخترقك. ظللت تسمع وتعيد السمع مجبراً، وملامحك تتغير وتتغير، حتى نسيت أنك هو أنت. قالوا إنك ساحر. تصنع الكرامات وتدّعي الألوهية والحلول وإحياء الموتى. جاؤوا بالشاهد الأول. قال وهو يفرك جيبه ويستمتع بشنشنة الدنانير الذهبية «شاهدته وهو يحيي طائراً ميتاً كنت أحبّه حتى الموت». قال الثاني وهو يُدفع إلى وسط الساحة الواسعة «لقد مدّد في عمري أكثر من عشرين سنة، وأضاف، الجنّ تخدمه. فتحضرّ له ما يشتهي من الفواكه في غير أوانها. يمد يده في الهواء ويلوحها، فتعود مملوءة بالنقود». قال آخر «عرف ما في قلبي قبل أن أنطق ولهذا عبَدَه مريدوه». لكن هذا كله لم يُقنع حامد، كان يريد تهمة أكبر. تهمة تتجاوز حدود الخيال ذاته، ولهذا عندما عاد إلى القصر، كان منكساً رأسه كالمهزوم. يبحث عن غلام ما يدفن فيه غلّه وانكساراته الكثيرة، قبل أن يعود في اليوم الموالي أكثر استثارة وحماساً. طلب من تلميذه أن يدخل ويدلي بما يعرفه قال «اشتهى سيدي خياراً في الشتاء، مدّ يده إلى جبل الثلج، أدخلها في الأعماق، فأخرج منها خيارة خضراء، فيها من الحياة مثل التي نُزعت من شجرتها».

هززت يا سيدي رأسك ولم تقل شيئاً. كان شوقك إلى ربيع النوروز أعظم. أخرج حامد رسالة خُطّ عليها بحرف عربي مائل ومنمق «من الرحمن الرحيم إلى...». سئلت إذا كان الخط لك. قلت وكان قلبك مليئاً بالنور والصدأ، والأشياء الهلامية التي أفنيت عمرك



Twitter: @ketab_n

تبحث عن تفسير لها ولم تجد، لمحتهم واحداً واحداً من وراء تعبك نفسه الذي تحول في ذاكرتك إلى شكل هيولي يشبه الخيبة. أعاد حامد سؤاله.

ـ أهذا منك يا أبا محمد.

ـ نعم. نعم. نعم...

ـ تقولها يا ولد الخامجة بدون حياء. راح نقليك يا وحد السافل.

ـ افعل ما تراه صالحاً.

كان يتحدث بلغة أخرى. لغة ستقطع قلبي بعد أكثر من عشرة قرون. حامد كان يسبق عصره في حديث الموت والخراب. قفز الوزير حامد من مكانه حتى لطم رأسه سقف البيت، من شدة انزعاجه من رتابة وهدوء الحلاج. نتف الكثير من شعرات رأسه البيضاء.

ـ آه يا وحْد الميت. كنت تدعي النبوة، فصرت تدعي الألوهية والربوبية. وماذا بعد؟

ـ سوى ما فعلته طوال عمري.

ـ تتحدّاني؟

ـ تحديت من هو أكبر منك.

ـ تعترف بربوبيتك.

ـ ما أدعي الربوبية. ولكن هذا عين الجمع عندنا. وهل الكاتب والله وأنا واليد فيه إله.

ـ وهل معك أحد على ذلك.

ـ نعم. ابن عطاء، أبو محمد الحريري، أبو بكر الشبلي. لكنهم أيها الصالح، عندما سئلوا والسيف ما يزال يقطر دمه، كفّرك الحريري، الشبلي تكوّم داخل نفسه، وظل يسائل نفسه قبل أن يغمض عينيه ويتنكر لذاكرته. أما ابن عطاء، صديق الدم والحجارة



Twitter: @ketab_n

والموت، تجرأ وقال، افهموه! فهذا الكلام لا يقوله إلّا عالم. وقبل أن يرفع صوته أكثر، جرجروه ووضعوه تحت الأرض، ثم أخرجوه وربطوه بين الأحصنة ثم سوطوها فمزقته حتى قبل أن يُتم لعنته. هو في قلبك يا سيدي الجليل، منه تتعلم الأشواق والحنين والإصرار على الصراخ باتجاه الحق. فأنت الحق. بعدها عاد حامد إليك، يفتش في عينيك عن سر الحرق الوهاج، الذي يورث اللذة والابتهاج، حتى في أدق اللحظات حسرة وخوفاً لكن لم يجد إلّا بؤبؤين يرنوان باتجاه سماء بدأت تفقد زرقتها وأسقف أصبحت واطئة أكثر من اللازم. حين عاد، كان يجر في يده ابنة الشمري، قالت، غشيني في الله وأجبر ابني على السجود له، حين قلت له لا إله إلا الله. قال، إله في الأرض وإله في السماء. بقيت صامتاً. لم تقل شيئاً. ولكنك مسدت على لحيتك الكثة طويلاً، وضعت يدك اليمنى على صدرك ثم على رأسك، وقلت بتعب، أعطوني سطلاً، أريد أن أتقيأ. فإني أرى العفن قد بدأ يمس الحيطان، ويتنفس داخل شقوق الذاكرة الحزينة. أعطوني سطلاً، لم يبق بيني وبين الله إلّا خطوة. دعوني أخطوها. أو اختصروها عنّي. جاءك بالسطل. أخرجت داخلك. غسلت وجهك من جديد، ثم اغمضت عينيك وبدأت تبحث عن صفاء بدأت تضيعه داخل صعقة الأصوات التي كانت تنادي برجمك. وأنت يا سيدي! هل تعلم ماذا حدث. قلت في لحظة الغفوة الأخيرة بعد أن سحبتك أشواق القوس الثاني.

ـ الدار التي لا ترد المظالم تستأهل الحرق.

هي بالضبط الجملة التي كانوا ينتظرونك أن تتفوه بها. سرقوها من لسانك، تحت كثافة الأسئلة.

ـ هل أنت قائل، الإنسان إذا أراد الحج ولم يمكنه أفرد في داره بيتاً لا يلحقه شيء من النجاسات، ولا يدخله أحد، فإذا حضرت أيام الحجّ طاف حوله وفعل ما يفعله الحاج بمكة، ثم يجمع ثلاثين يتيماً ويعمل أجود الطعام يمكنه، وأطعمهم في ذلك البيت وخدمهم بنفسه،



Twitter: @ketab_n

فإذا فرغوا كساهم وأعطى كل واحد منهم سبعة دارهم أو ثلاثة دراهم، فإذا فعل ذلك، كان كمن حجّ أو قام له مقام الحجّ.

قفز القاضي الناتئ أبو عمرو، حتى التصقت عيناه الصغيرتان بوجهك المتعب.

ـ من أين لك بكل هذا؟

ـ من كتاب الإخلاص للحسن البصري.

ـ كذبت يا حلال الدم.

مرة أخرى، احمرت وجنتا «أبو حامد» وكشر عن أسنان خرمتها صفرة السوس حتى صارت كبقايا عظام الموتى. حكّ على رأس الوراق ثم أمره بالكتابة، تزاحم وراقون كثيرون، من يكون له حظ تدوين كلام «أبو حامد» وشنشنة الجيوب التي لا تشبع. لكن وضع اليد على رأس أحدهم كان يعني أن هناك حظوة خاصة لأحدهم. اكتب أيها الوراق وسجل عن نعمتنا ما تراه عيناك. كنت وحيداً مثل الله يا سيدي، تستمع، لكنِ سمع القوس الثاني كان ثقيلاً، لأن الدنيا كانت قد بدأت تأخذ تشكيلاً آخر، حين عدت إلى نفسي من جديد (يبدو أني كنتُ معلقاً داخل نفس القوس) تساءلت، هل ما رأيته كان حقيقة أم قيامة؟

ويبدو لي يا سيدي النينوي أنك كنت الحقيقة كلها، التي سطعت أمام عيني. في عينيك كانت تتراقص أحلام السيد الجليل (الحلاج) الذي لم يكن بإمكانه إلا أن يقول حقيقته لينعم بربيع النورزة. أرسلت بعد فرحة الاعتراف، كل الكتابات التي دونها الوراقون إلى الخليفة. بعد ثلاثة أيام أُرسل الردّ مصحوباً بالكلمة المعتادة التي تورث عند القارئ خوفاً كبيراً «نفذ بأمر الله» أما باقي الخطوط فكانت مليئة بالأوامر «اضربه ألف سوط حتى يتلف تحت الضرب وإلا فاضرب عنقه واحتفظ به واحرق جثته».

الليلة مرت طويلة على «أبو حامد»، لأنه كان يعد الدقائق



Twitter: @ketab_n

والثواني ويستعجل آخرة الحلاج، تزحلق باتجاه القهرمانة، قَلَبها على بطنها، وحين بدأت تئن كان قد غاب وسط غيمة وسوداء، أراد أن يلمسها، ولكنها كانت قد تسربت من بين أصابعه أفاع وجراد وضفادع وحيات متعددة الأشكال. الغلمان الموجودون لم يكونوا مقنعين في تلك الليلة التي طالت كثيراً.

وأخرجوك يا سيد العارفين، إني أراك الآن مثلما رأيتك في الإغفاءة التي دامت أكثر من ثلاثة قرون. تجرّ جسدك بصعوبة كبيرة. ثلاثة عشر قيداً من الرأس، إلى العنق، إلى اليدين والصدر والبطن والركاب والرجلين والأقدام. كنت تحاول أن تستقبل موتك بأكبر فرح ممكن، وبأكبر نشوة. كانت الأشجار يا سيدي العالي، تنحني وتنحني مثل إنسان سُرقت منه آخر أفراحه وصراخاته، والحنين يزداد في عيونك. وكان الله. وكنت أنت. كان ينسحب من وجوه الناس ليحل بين تجاعيدها الحديد والنار، ولتمتلئ العيون بجهنّم، والخوف والرعب، وأصوات السيوف وهي تنزل بسرعة على الأعناق، وبسرعة تعود لتكرر فعلتها من جديد. كان البحر يا سيدي النينوي ينطفئ عند أقدام المدينة المنتهكة، والسماء تبحث عبثاً عن زرقتها، وأتربة الأرض تكومت على نفسها حتى صارت كرة، ضاقت على رؤوس الخلق، ولم يبق أمامك يا سيدي النينوي سوى اقتحام أفئدة الناس وشوقهم واختراق أعماق التربة وافتضاض عذرية السماء. فعلوا بالحلاج مثلما فعل بك. نفذوا القتلة بنفس الطريقة. جرجروه. كان سيد العارفين والمشتاقين إلى صفاء الدنيا التي ضاعت بين أقدام رعاة القصور والوراقين والقهرمانات وحريم البيوت التي لا تُفتح إلا على وجوه المحظوظين. لم يحزن حتى وهو يتأمل الأخشاب القديمة المعدة، والمسامير الخشنة. كان الشبلي واقفاً وسط الجمع يتأمل المطارق التي كانت تدق على الخشب العتيق وتعطيه معنى الدم والموت. ابتسم الحلاج. شعر بالنار التي كانت تأكل الشبلي. سأله.

- يا أبا بكر، هل معك سجادتك؟!



Twitter: @ketab_n

- بلى يا شيخ. موجودة.

- أفرشها لي، وانسحب قليلاً.

وضع يديه فوق بعضهما البعض، ثم شابك أصابعه حتى تداخلت محدثة قرقعة خاصة، وبدأ يضغط ويضحك وهي تزداد حمرة وسواداً. يقال بل يقول القوالون الأوائل إنها انفجرت دماً أسود مثل القطران، بعدها التفت باتجاه الحاضرين وقال:

- هؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلي تعصباً لدينك.

ثم أكمل استدارته باتجاه الوجوه الحديدية وصرخ بأعلى صوته حتى تغيرت الوجوه، والملامح والألوان. حتى السماء صارت تراباً وبدأت في عملية التفتت مثل الأشياء الحائلة.

- دمي حرام. دمي حرام. وما يحل لكم أن تتقاتلوا علي. فالله الله. الله الله في دمي. في دمي.

وأنت يا سيد العشاق. النينوي يا شيخنا. كنت منهكاً ومتعباً. ربطوك بقوة. زممت فمك. لم تقل ولا كلمة واحدة. كانت أحصنتهم وألبستهم السوداء تملأ عينيك، لكن صفاءك قهر ظلمة الليل وظلمة القبر، وظلمة الشوق المحزون. تحملت الألف جلدة. جسدك كان ضعيفاً ولكنه تعود أن يقاوم الفرحة والحزن. انسلخت قطع كثيرة، ولكنه ظل شامخاً، ويكرر دورة الكلمات الصعبة.

- أنا الحق. أنا الحق. أنا الحق. أنا الحق.

بانت العظام من كثرة الجَلْدْ ولم يتوقفوا، قُطعت يدك اليمنى بعد أن فرت الملائكة ذعراً من كتفك الأيمن. ثم بترت رجلك اليمنى لم تقل شيئاً كثيراً، لكن تمتماتك كانت قد زادت بشكل متسارع مثل الجَلْدْ. لم يكن أمامك سوى ذلك. ثم قطعوا رجلك اليسرى بعد أن كانوا قد بتروا ذراعك الأيسر. بدأ الحزن يدخلك بألم. لكنك في لحظة من اللحظات كان الله قد خرج مثل الريح البادرة من قلبك صرخت بأعلى صوتك حتى أيقظت الأموات جميعاً، وسحبت الشهداء من قبورهم بالرغم من أنوفهم.



Twitter: @ketab_n

- يا الله.أتسمعني! يا الله لماذا تخليت عني؟

كان دم المسيح وصرخته الأخيرة تملأ فمك المشقوق.

- كيف لا تلتفت إلى من يؤذي فيك؟

وظللت يا شيخنا تنزف. ستون ربيعاً مرت عليك وأنت تموت وتحيا، بل قروناً نامت في ذاكرتك، وأنت تنزف، وتنزف.

بقيت مصلوباً على خشبة. عروقك مست الأرض، فدخلتها إلى الأعماق، دمك منذ ذلك الزمن لم يجف أبداً. بقي الصفاء يملأ عينيك. يرفرف لأشياء لا تموت. قلت لقاتليك: نورزونا. نورزونا. قالوا لك تعذب حتى يأتي غدٌ آخر. زاد حنينك للموت. صرخت: اختصروا المسافة. لقد صار هو أنا وصرت أنا هو. قالوا للحضور، ارجموه. ارجموه. من أسال دمه لأول حجرة، غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. ومن اساله في مرتين، بنيت له القصور، ومن اساله ثلاثاً، كوفئ بالحور المطهرات. ولهذا لم يتوقف أحد من الحاضرين عند حدود النزف الأول أو الثاني أو الثالث. آه يا سيدي الحلاج كنت تقاوم بموتك الذي لا يموت. مرّ عليك الشبلي. كانت الدماء تملأ فمك وعينيك، ولم تعرفه إلا من صوته. كان الظلام قد بدأ يغطيك.

- أتضحك يا شيخنا من الحجارة التي ترفض أن تختصر مسافتك مع نفسك الضائعة في هذا الوجود.

- لقد وجدتها أيها الشبلي. وجدتها. إنه القوس الثاني بدأ يتحقق. كانت الحجارة قد توقفت. سحب الشبلي وردة حمراء من صدره. وصلتك رائحتها مصحوبة برائحة الدم. وبهدوء رمى لكَ بها. تأوهت لأول مرة بشكل دفع بك إلى أن تشهق طويلاً. قلت:

- آه يا سيدي. قتلتني.

- رجموكِ بالحجارة فما قلت آه، وألقيت عليك وردة فتألمت منها.

- يا سيدي ما علمت أن جفاء الحبيب شديد.



Twitter: @ketab_n

ـ كلنا أحبته. لكنها علامات القيامة. علامات القيامة. علامات...

وانسحب بعد أن وضع رأسه بين يديه يخبّئ دموعه المذراة. بلعت ما تبقي من ريقك. تذكرت بألم البسطامي حين قال أنا الحق وعذروه، كما برر الوراقون. قالوا إنه قالها وهو في حالة اصطلام. وأنت وضعوا رأسك في النار حتى قبل أن يسمعوا إلى أناشيد قلبك الحزينة. لقد أوصى السابقون بضرورة قتلك. تمتمت. لم يسمعك أحد، لكنهم لمسوا من ألمك أنك تقول الحقيقة.

«ضوء المصباح علم الحقيقة. وحرارته حقيقة الحقيقة والوصول إليه حق الحقيقة».

حين عاد الصباح بتثاقل، كان الشبلي قد ابتلعته شوارع المدنية، والناس عادوا إلى حفرهم. في قلب كل واحد فيهم سؤال كبير حتى يقهرون الموت الذي ذلَّ في عينيك. صرخ القضاة والوراقون وشهود الزيف، والجلاوزة، والمبتورون، اقطعوا رأسه قبل أن تعود المدينة إلى صدوركم. حملوا سيفاً قديماً وحزوا رأسك. قبل أن ينسحب النور من عينيك إلى عينيك، إلى الأخشاب التي كنت معلقاً عليها، إلى المياه التي انسحبت باتجاه دجلة والفرات، إلى شوارع المدينة التي اغلقت بإحكام خوفاً من أية حركة جماعية، تطلعت إلى عيون الجلاوزة والوراقين الذين تكاثروا مثل النمل، ينشرون أقلامهم عند رجليك المطوعتين. فلم تجد إلاّ الصمت، والحديد، والقلوب اليابسة والفراغ. هاجموك بالأخبار المنسية وبالأملاح التي خنتها وبالربوبية التي ادعيتها. لكنك صَمتَّ في انتظار نزول السيف البارد على الرقبة.

من حقك أن تتأوه يا سيد العاشقين للورود التي خانت سرك وفرحك. من حقك أن تبكي من جرح الوردة، وتسخر من جرح الحجارة. من حقك أن ترفض أن تغمض عنينك جريحاً من صمت الشبلي. من حقك أن تبعد خادمك الذي ظل وفياً لسرك. كان وفياً لمشاهدته. حين نُغز بالمهماز في صدره، قال:



Twitter: @ketab_n

- صاحبت الحلاج، فما رأيته ذاق من الأدم سوى الملح والخلّ، ولم ينم الليل أصلاً إلاّ سويعة من النهار.

يا سيدي النينوي، رأيتهم بالعين التي يأكلها الدود، وكان يجب أن آراهم. حزوا رأسك بصعوبة ثم نصبوه كالفزاعة مثلما فعلوا بشيخك عندما نصبوا رأسه على جسر بغداد، ثم أرسلوه بعد ذلك إلى خراسان، أما الجثة فقد صُبَّ عليها الزيت وأحرقت بالنار، ولما صارت رماداً ألقي بها من أعلى مئذنة في دجلة، يوم الثلاثاء 6 آذار 922. وأشهد معك أن رائحة الاحتراق التي ملأت أنفي هي نفس الرائحة التي استيقظت عليها أول مرة في الكهف، وكان جسدي قد تقلص حتى صار كتلة يابسة. إختلطت الدنيا داخل ذاكرتي. الشيء الوحيد الذي كنت أعرفه هو أني كنت قادما من غرناطة ولم أكن أعلم أن جحيم الليلة السابعة سيستمر طويلاً، طويلاً... آه. للكلمات طعم هذه الهزائم. وللهزائم أشواق الذاكرة. كل شيء يمشي باتجاه قيامة الخراب. أي خراب يا ابن أمي؟ لم يبق شيء يستحق الذكر. كانت دنيازاد، قد عادت لتتربع في لباسها الشفاف جداً، الذي كان يُظهر كل خبايا جسدها داخل حمرة القطيفة المعلقة على الحيطان والتي كانت تعكس ظلالها على جسدها، وعلى وجه شهريار بن المقتدر حاكم جملكية نوميدا. كان الخوف بادياً عليه، ولكنه من حين لآخر يتحسس أفخاذها المصقولة بإتقان. ويتمتم داخل فراغات شوقه المدفون في الذاكرة. ابنة الكلبة، الأكيد أن الأيادي التي فركتها قبلي علمتها كل العادات السخيفة. الأحضان الرجولية التي مستها قبلي، تهلكني. لو كنت أملك حق إيقاف اللحظة، في هذه النقطة، لحسمت الحكاية، لكن للحكاية امتدادات، وعلى هذا الامتداد أن يأخذ مساره حتى النهاية. لو كنت أستطيع أن أضع الريح في جيبي ما توانيت. لو كنت أملك حق تغيير لون السماء لسحبتها من عليائها ووضعتها في الحرملك وغزلت فراغاً للعنكبوت مكان السماء، لكن ابنة الكلبة مصرة حتى النهاية على إتمام هذا الخوف، وعلي أن أعرف النهايات. إنها تعدّل من جلستها بشكل يجعلني أتمنى أن تتمّ الحكاية بسرعة، لكنها مصرة على حرقي. رفعت



Twitter: @ketab_n

دنيازاد قليلاً من لباسها حتى تجاوز الأفخاذ، بان عريها قليلاً، كانت انثناءات الكتان الهندي الشفاف الذي تلبسه يُعمّق عند شهريار بن المقتدر إمكانية اللذة التي استباحتها الحكاية. قالت وهي تحاول أن تستحضر ما سمعت وما رأت وما روي لها من المدينة، سيدي، البحر سجين، والأرض لم تعد سخية كما كنا نعرفها في العصور البائدة. السماء أفلت بدل أن تأفل النجوم. حلم الزرقة لديك تبخر يا سيدي. لم تبق إلا النجوم داخل هذا الفراغ، والنجوم صارت مستعصية صرخ الموريسكي وهو يتأمل مشاهد الموت التي جاء بها سيدنا الخضر، آخر الكذبات المدفونة بين طيات الكتب الصفراء. يا الله. يا الله. لماذا تخليت عنا. كانت نفسها صرخة النينوي، وقبله صرخة الشيخ عندما خسر الدنيا التي خسرته وضيّعته. قال في حمأة الحزن والشوق الذي لا يجد طريقه للخروج والتجلي إلا لحظة الألم، يا الله عليك أن تعرفنا مثلما نعرفك. لم يبق أمامنا سوى اقتحام الجرأة واختراق الأرض وافتضاض قداسة السماء. في لحظة القتل طلب من الوراق الطبري أن يكتب ما رآه. أعاد نشر القلم بعدما حذف نصف الرواية، ثم دون الخبر في تاريخ الرسل والملوك «... فصُلب هو وصاحبه ثلاثة أيام. كان يوم ذلك من أوله إلى انتصافه، فينزل بهما، فيؤمر بهما إلى الحبس. حبس مدة طويلة، فافتتن به جماعة منهم نصر القشوري وغيره... وأخرج من الحبس، فقطعت يداه ورجلاه ثم ضرب عنقه وأحرق بالنار...». الحكايات معظم الحكايات تبدأ بالرواية وتنتهي إلى النصل والهراوة والهروب إلى أقرب ركن تحت الظلال البادرة. ماذا بقي يا سيدي النينوي سوى افتضاض قداسة الحكايات، التي كان يرويها الحاكم بأمره، حاكم الجملكية عن أجداده. رأيتهم بهذه العين التي لن يأكلها الدود، لأنها لم تقل إلا ما رأته. كانوا يصلبون شيخ النور، كانوا قتلة. يلبسون الأسود، أحصنتهم سوداء، عيونهم مملوءة بالقطران والشوك...

كان الموريسكي يروي الحكاية ومشاهداته لحكماء المدينة السبعة، الذين كانوا يتتبعون فيه لحظة لحظة، وفجأة وضع أحد الحكماء يده على فمي - يقول البشير الموريسكي - بهدوء كبير،



Twitter: @ketab_n

وقال بتعقل، وبنوع من الخوف. سست... سست... سست... صوتك يسمعه أعداء البحر والزرقة والأنداد... صوتك يصل إلى آذان القتلة. لليل عيون وللحيطان آذان... القدر يخطئ يا ابني في الكثير من الأحيان.

- أعرف يا سيدي... القدر يخطئ لأنه هم الذين صنعوه.

النينوي يا سيدي قُتل، حتى قبل أن نلثم خده. كان عظيماً وهو يواجه الموت. أخرجوا معي أيها الحكماء وسترون الحقيقة، الحقيقة لا تُرى من القلعة. من هنا لن يبدو إلّا ظلها. عيشوا الخوف في المدينة والزرقة في البحر.

صحيح أن القلعة تحميكم، ولكن إذا بقيتم هنا سيلحقكم صهد النار ورائحة الأجساد المشوية.

لست أدري كيف خرجت مني الكلمات سريعة بشكل مخيف ومذهل. تمنيت في اللحظة ذاتها لو ملكت طاقة الدنيا كلها وبلعت لساني دفعة واحدة. من أكون حتى ألومهم. رجل عادي. بل دون العادي. استيقظت داخل حفرة. متوهم حتى النخاع أني قادم من الأندلس. يقول الناس، ويقول آخرون إني كنت مولعاً بقراءة كتب التاريخ المنسي، فاندفعت ذات مساء باتجاه كهف نمت فيه طويلاً قبل أن استيقظ وأجد هؤلاء الحكماء الذين رفعوني عالياً. من أكون! رجل. مجرد إنسان مولع بالحلاقي والنطّ داخل القارات والأسواق. لساني أيها السادة هو تهلكتي الكبرى. لا أنطق إلا بما أفكر فيه. أفكر بصوت عالٍ كما يقال. لساني على النار، قالها جدّي. يجب أن لا تصمت يا البشير حتى عندما تسكت المدافع، وتخرس المدينة بكاملها. لكنهم يا الله الحكماء السبعة؟ صوت المدينة وصرختها التي تُسمِع حتى في البحر، أكثر الناس صفاء ونقاء. الذي أدهشني كثيراً هو أن كلامي لم يثرهم كثيراً، تركوا ألبستهم الصوفية البيضاء وتجللوا بالسواد ونزلوا معي باتجاه بيت النينوي. إلا واحداً ظل يلبس البياض. كانت الأدخنة ما تزال تتصاعد من بيت النينوي


Twitter: @ketab_n

وقافلة سيدنا الخضر كانت قد مرت، وجوههم متعرقة، وملامح التعب بادية عليهم والرماد يملأ ألبستهم. حين اقتربوا من الصليب كانت جثة سيدنا النينوي ما تزال تحترق. وجسده المتفحّم، ملتصق بالصليب الحديدي الذي سُجّي عليه. اقتربوا منه أكثر. تأكدوا من السلسلة التي يحملها في عنقه خُتم عليها وجه العذراء وفي يدها صغيرها. التفتوا نحوي، وبهزّة هادئة برؤوسهم أكدّوا أنه هو. في اللحظة نفسها، بدأوا يحفرون قبره بأظافرهم. أردت أن أساعدهم بقطعة حديدية انتزعتها من تحت الصليب، لكنهم رفضوا. تمتم أحدهم، يا البشير، الحديد الذي قَتَله لا يحفر قبره. لنا أظافر وأيادٍ ستُجرح، بل عليها أن تُدمى، ستبقى فيها خدوش سيدنا النينوي. وعندما انتهوا من عملهم، أنزلوه بهدوء من على الصليب. كانت رائحة الاحتراق والأجساد، والأدخنة تملأ المدينة. نزعوا كل رماد الجثة ووضعوه في بوقال أخضر أحضروه خصيصاً. كتب في ورقة لاصقة «هنا ينام عالم عصره، وضحيته، سيدنا النينوي...» ودفنوا الجثة، وعندما عدنا إلى القلعة لم يتكلموا أبداً. صنّفوا البوقال الأخضر المملوء برماد سيدنا النينوي مع بقية البوقالات ثم عادوا ليجلسوا عن جديد كأنهم يبحثون عن نهاية أخرى للحكاية عليّ أن أرويها لهم. كنت خائفاً أن أكون قد أزعجتهم بكلامي المسطّح الذي يجري على لساني بدون ضوابط. أخرجوا كتاباً قديماً، قالوا للراعي: سجّل. اليوم سقط سيدنا النينوي، صحوة المدينة وشوقها الدائم، حنين البحر ونقاوة الرمل، خضرة الغابة وجمرتها المتقدة. أخرجوه من بيته. تذكّرَ شيخه الجليل أبا محمد. سجل. سننتظر دهراً آخر لكي نجده... ثم التفتوا نحوي وقالوا: أكمل الرواية كما رأتها عيناك. وكنت كلما حاولت أن أتذكر، أكملوا هم بأنفسهم. وعندما كدت أنتهي فوجئت أنهم كانوا يعرفون من تفاصيل المدينة والموت، ما أدهشني وأخرجني ودفع بي إلى الندم عن كلامي السابق ولومي لهم. لقد أدهشوني ووضعوني داخل أبجدية كنت أجلها.

التفت كبيرهم نحوي، الذي لم يتجلل بالسواد. هو أنت يا سيدنا



Twitter: @ketab_n

العظيم، قالها بنوع من الخشوع. لسانك على قلبك، وقلبك في يدك. وبين يديك وقلبك مسافة من الصدق والشوق وجمرة الجحيم الحارقة نكرتهم. أن ما رأيته الليلة وعشته سبق أن عذبني منذ أكثر من ثلاثة قرون والعديد من السنوات الهلالية الزائدة. رأيت الكثير، ما يشبه هذا، مفتوح العينين في حي البيازين في غرناطة، رأيته وأنا أحاول أن أغمض عيني على ذاكرة مليئة بالدم والخوف. قالوا ياالبشير، أنت ما تبقى من صدق الزمن الغابر وهذا الزمن. كنا نريد أن نرى الحقيقة بعينيك. فيهما صدق لا يخطئ وحنين لا يموت. أنت لا تعرف الكثير مما يحدث في خراب الجملكية، لكنك لا تكذب، تُفضّل الصمت. صمت الموت على أن تنطق عن الهوى. لقد أرسلنا وراءك الراعي عندما غادرت القلعة، ثم خرجنا وراءكما باتجاه المدينة وشاهدنا النار والحرائق، والشوارع كيف تضيق على ذويها. رأينا ما رأيته، كيف حُمل النينوي على سنابك الخيل، وكيف عُذب، وكيف أُحرقت لحيته وهو يرى بعينيه. كثيرون يا البشير الموريسكي مروا من قبلك وأدّعوا مالم تدعيه، لكنك الوحيد الذي ترك لقلبه وعينيه اللغة، لغة الوهج التي لا تعرف لا الموت ولا الكذب. وها أنت تعود، ولا تعرف إلا رواية الحقيقة. كنا نعرف أنك ستغامر باتجاه الموت، لكن الراعي كان يحميك حتى من نفسك. ولو كنت كذاباً لكان هو أول قاتليك. كنا عيونك نحن كذلك حين ينزل الظلام والخوف. تأكدنا أن المقتول هو سيدنا النينوي ولم نخرج معك إلا لدفنه، ووضعه في بيته وبوقاله لأننا ندرك مسبقاً أن قبراً تحفره الأظافر لا يخون دم حافرية. وكنت وكان الحقّ. وكانوا الكذبة حتى الموت. الكثير من أهل البلدة، يا البشير، يعتقدون أن سيدنا الخضر هو الذي يحرق ويقتل ويُبيد المدن والمداشر، والتلفزيون الوطني والإذاعات، والصحف اليومية، كلها تقودهم باتجاه تصديق الوهم، والأبخرة التي يتعطر بها الحاكم بأمره هي من دم هذه الشوارع. يعتقدون أن شهريار ابن المقتدر يفعل هذا تفادياً لشيوع المنكر والفحشاء والزلازل التي تهزّ المدن الكبيرة. لو تعلم يا البشير، وأنت حتماً سيد



Twitter: @ketab_n

العالمين، بيننا وبين سيدنا الخضر قبور مثل حبات الرمل، لا تحصيها عين ولا ذاكرة، نبتت عليها الأعشاب الضارة التي تيّبست بين شقوق شواهدها القديمة. وأقفار الفلوات وخوف طال كثيراً، كثيراً. وذلّ لا يمحوه إلّا دمٌ ساخن، وذاكرة مهزومة لا تفنى إلّا بعيون الموتى الشهداء.

تأكدت بعد زمن طويل من هذا الحادث الذي أودى بحياة سيدنا النينوي أنهم كانوا صادقين، وأن الأرض ستعلن قيامتها والبحر سيغادر حفرته ويفيض على المدينة، والشمس لن تعاود إشراقها إلّا في اليوم السابع بعد الألف، أي بعد العدّ الزمني الجديد الذي يغادر حتماً ذاكرة الهزيمة وينسينا خفي حنين اللذين بقيا في جراب أعرف أهل زمانه ابن رشد سيد قرطبة وعاشقها.

في ذلك اليوم أعطوني حق دخول المدينة والسير في شوارعها، وممارسة طقوس الحلاقي التي كانت تملأ قلبي في غرناطة مع ماريانة حليب اللوز المفقود، وتفّاح المدن المسحورة، وسرج الخيالة الذين لا ينكفئون على أحصنتهم حتى في لحظة الموت. قال لي أحدهم وهو يعطيني حق لمس حيطان المدينة، الناس لا يحبّو إلا من يهزّ ذاكرتهم الميتة. امشِ كما جئت بحريتك المطلقة. نحن صدرك وحنينك وأنت وسيلتنا لإنقاذ البحر والرعية والذاكرة من التلف. وحين تنغلق الدنيا في وجهك وتريد أن تخرج من المدينة أخرج منتصراً ولا تتركها للريح يستبيح عذريتها وصوفيتها وشوقها. في ذلك اليوم نفسه أقسمت في كتاب المدينة الذي تدون فيه كل الأخبار، أني لن أتركها ولن أكون محمد الصغير الذي ترك صدورنا مكشوفة تواجه بالدم والصراخ المدافع الإيطالية وقهقهات القشتاليات اللواتي خرجن من قصر محمد الصغير عاريات لاستقبال الملك فرديناند والملكة إيزابيلا وفرشوا لهما حرير المغرب وكنوز قرطبة. لن أبيع المدينة مثلما باعوها لنعيق البوم وخرابات الفراغ، وتركنا ابن الكلبة نموت بينما سلم مفاتيح بوابات المدينة إلى آكليها. سحب



Twitter: @ketab_n

المدافع من أيدينا والسكاكين من جيوبنا ومطابخنا والدروع والجياد وقال قاوموا. انتصروا أو موتوا أبطالاً. أو اهربوا، فالمدينة ستصير خراباً والحيطان والأسقف ستسقط على ساكنيها. الريح القادمة من قشتالة ومملكة أراغون ستكون ساخنة وحارقة مثل جهنم. لقد هَزَمنا محمد الصغير حتى قبل أن نقاوم. غرناطة قدمت كل شيء ولكنها احتفظت لنفسها بحق الدفاع عن أمواتها وشواهد قبور عشاقها الأوفياء. ومحمد الصغير. آه يا محمد الصغير. بعتها. وبعدها فتحت باب المفاوضات. قفزت على الطاولة مثل قرد أمام القشتالية وأعيان المدن المجاورة وقلت شروطي أوّلاً وأخيراً. كنت تريد أن تبرئ نفسك أمام تاريخ ليس لك. ضحكت القشتالية حتى لمعت أسنانها العاجية الصافية العلوية. لست في موقع إملاء الشروط أيها الملك السعيد. سلم لنا المدينة نسلم لك المال والحياة والنساء. فركت يديك مثل الجرذ والتفت إلى أعيان المدن، تمتمت في آذانهم وقبل أن تسمع ردهم، قلت للقشتالية: سأغادر المدينة مثل الملك استقبالاً وحاشية. ضحكوا مرة أخرى ثم انسحبوا، لأن الجيوش المرابطة على أطراف غرناطة وقتها كان ضيقاً. طلبت أن يستقبلوك، وفي المرة العاشرة أرسلوا لك شاهدك على بيع المدينة. غونثالو القرطبي شرب معك الأنخاب وقال لك الطريق الجبلي سالم. اخرج أنت وأمك وذويك وأترك الدنيا لأصحابها. سَلمَ المفاتيح والمدينة، وخرجَ حتى قبل الموعد المتفق عليه مسبقاً. لم يكن أهل المدينة يعلمون بما حدث. حين مستنا نيران المدافع الإيطالية ومدافع اللومباردز استنجدنا بمحمد الصغير، قيل إنه في الجبهة الأولى يقاوم الشماليين بينما كانت الأعلام الأراغونية والقشتالية تُرفع على مآذن الحمراء وعند مداخل البيوت العالية، وعلى القلاع المحيطة. قالوا محمد الصغير يتضرع في مساجد المدينة ويسنّ حسام الفاروق لمواجهة الطغيان بنفسه، أعوانه الملائكة وجيوشه الرحمن، لكن حين فتحنا أعيننا على الفاجعة كان يقف على الهضبة المطلة على المدينة يتحسر حتى بقيت



Twitter: @ketab_n

زفرته الأخيرة هناك،El Ultimo Suspiro d El Moro، التي لم يستطع محوها من، الذاكرة.

حتى وهو يدخل سفينة الهرب ظلت أمّه تذكّره بها كلما تأوه. كانت غرناطة تتلو أناشيد الحزن الأخيرة. ولم تبق في المساء نفسه إلا الألبسة الموريسكية المزركشة وسكاكين المطابخ التي لم يصادرها محمد الصغير والشوق إلى مدن خبأتنا من الموت وسخط البحار وتركناها للأنواء تقتلها. وصعب يا ابن أمي أن يموت الكائن وحيداً في برية مطلقة. في القلب أشياء كثيرة لا تعرفها إلّا مرتفعات جبال البشرات التي دخلت الحرب مليئة باليأس والمرارة. تغرّبَ الكثير، ومات الكثيرون، وبدل أن يقتلهم الطاعون سلموا أجسادهم ودمهم لأصوات المدافع والسكاكين والحجارة الباردة التي كان يتوسدونها كلما جُرِحوا جروحاً بليغة وأحسوا بالموت يقترب بخطى متساوية.

أقسمت لهم بذاكرتي أني لن أسلم المدينة، ومحمد الصغير سينتهي عند حدود الليلة السابعة بعد الألف، سيسمع، مثله مثل شهريار بن المقتدر حكايته الأخيرة، للمرة الأخيرة، ثم يُشطب بعد ذلك مثل الخطأ الذي يُرتكب بغباء.

أراد شهريار بن المقتدر، وهو يستمع إلى دنيازاد، أن يصرخ بأعلى صوته، لكنها بسرعة أعطته قطعة الكتان التي كان يرضعها عندما كان صغيراً. زمّ بها وقال بصوت مخلوط بالبرودة واصلي... واصلي... واصلي...


Twitter: @ketab_n

# 7

في ذلك الصباح، وفي الأصباح التي تلت، أمضيت وقتاً طويلاً استرجع لحظات موت الشيخ النينوي بشكل متقطع، ولكنّي كنت ممتلئاً بمشاهد الموت والظلال التي زاد سوادها في الزوايا الضيقة. كنت أفتح عيوني بصعوبة كبيرة، فقد تضخّم قلبي حتى شعرت في لحظة من اللحظات أنه تحول إلى حبة بطاطا خامجة من الداخل خضراء وشبه فارغة، مدودة... عيوني منهكة ومنتهكة حتى البؤبؤ الذي بدأ يخسر ألوانه القزحية. استحضرت صورة النينوي والشيخ العالي، وبسبب الانتفاخ الذي اجتاح وجهي وعيوني، عرفت أني بكيت كثيراً لحظة نومي المتقطع وتأكدت أني صرخت كثيراً في وادٍ فارغ، لأني حين حاولت أن أتكلم، كانت الحشرجة تملأ صوتي، فانتهيت إلى الاقتناع بضرورة الصمت والاستماع إلى حركة الدود الذي كان يهزم قلبي من الداخل. كان الناس في المدينة يدفنون موتاهم في ذلك الصباح الذي أعقب مرور سيدنا الخضر، ويبحثون عن حرقتهم داخل التربة التي كانت تنهال بسرعة على بقايا الجثث المدفونة حيّة، أو المحروقة على الصلبان الحديدية. الرعب يقرأ في عيونهم وهي تفتش وراء غياب كل شمس عمّا يخبئه الغد الذي لا يعرف داخلة أحد. فالحاكم، حكيم جملكية نوميدا ـ أمدوكال، كان عجيب المزاج. يتغير بين الثانية والثانية بسرعة مذهلة. كان يقول دائماً في شاشة التلفزيون مبرراً تغيره السريع، المَلْك والمِلِك يتشابهان، إذا سقطا في الثبات ماتا. وعندما ينتهون من مراسم



Twitter: @ketab_n

الدفن، يغسلون أياديهم ويعودون إلى حركاتهم العارية تبتلعهم عادات المدينة وطقوسها التي لا تنتهي. الحركة، الشوارع، الأسواق، الجحيم اليومي. المفاجأة الوحيدة التي حيرتهم هي شيخنا النينوي. كيف يجرؤ سيدنا الخضر على صلبه وحرقه؟ كان طيب القلب، مليئاً بالأشياء والتفاصيل الصغيرة التي تستثير حتى دهشة البسيط من الناس. سيدنا الخضر بدأ يتحول هو بدوره إلى سؤال محيّر. من يطرحه ومن يتجرأ للإجابة عنه؟ بل من يملك جواب الأسئلة المعلقة؟ تمتم أحد الشيوخ من المكلفين بقراءة الفاتحة سراً على روح الأموات. الله أكبر. أكبر. ما قتلوه. ما صلبوه. ولكن شبه لهم. إنه النينوي يا عباد الله؟! من يتجرأ علي لمس حتى شعرة في رأسه؟ وفجأة لكزه أحد الذين يمشون وراءه دائماً. لا تنسى أيها الشيخ أنك مكلف بقراءة الفاتحة فقط. الفاتحة فقط وحتى الفاتحة هي مجرد تسامح مني معك وليست حقاً من الحقوق؟! لم يجب. لم يلتفت ولكنه واصل التمتمة. معاذ الله أن يكون سيدنا الخضر. لا فرق بين القتلة والناس الخيرين؟! لا يعقل؟ سيدنا النينوي يُحرق على الصلبان الحديدية. كان الرجل الظل يسجل كل الملاحظات والتمتمات ويفكها واحدة واحدة. لقد تجاوزت حدود الفاتحة. إنه تحريض ودعوة مفتوحة إلى الإلحاد.

كانت الدموع قد فاضت من عيني الشيخ. ما صلبوه، ما قتلوه، ولكن شبه لهم. سيملأ النينوي فراغ هذه المدينة حتى وهو غير موجود.

الحاكم بأمره الحكيم شهريار بن المقتدر، كان قد أصدر بياناً خاصاً متعلقاً بالتجمعات الضيقة أو الموسعة. فقد منع منعاً مطلقاً اجتماع أكثر من شخصين، ما عدا في الأسواق التي اختُصرت في يوم واحد فقط. وإمعاناً في الديمقراطية ونكاية في أعداء الأمّة من المُغرضين والملحدين، فقد أصدر قراراً استثنائياً يسمح فيه للناس بحق التجمع والتجمهر في اليوم الموالي مباشرة لمرور سيدنا الخضر من أجل دفن الموتى، والتسامح مع بعض الذين يقرؤون


Twitter: @ketab_n

الفاتحة على مقتولي سيدنا الخضر، ثم دَمَجَ يوم السوق بيوم التجمهر الموالي لمرور سيدنا الخضر، فصارت إمكانية التداول يوماً واحداً. يقول إن الفوضى تضر بالأمة، ويقول إنها النقطة الوحيدة التي يتفق فيها مع ماركس ولينين في الحرب التي خاضوها ضد الفوضويين. يحتفظ في قصره بصورتين نادرتين لبرودون وباكونين كتب تحتهما: فوضويان، إلقاء القبض عليهما واجب، ضرورة لحماية الأمم من خراب التفتت. فالنظام هو مفتاح الأمان. الشيخ النينوي لم يُحرق. لم يُحرق. لقد صعد إلى السماء حتى قبل أن يُحرق وأن المحروق لم يكن سوى أحد الناس العاديين. فكر الشيخ أن يجمع الرماد ويضعه في البوقال، ويسلمه لعلماء وحكماء القلعة، لكنه غيّر فكرته، لأن أمراً مثل هذا لا يمكن أن يمرّ بسهولة على الحكماء. فهم يقولون دائماً، شهداء مدينتنا يجب أن يبقوا للأجيال القادمة، أن يروا كيف يتحول الإنسان العظيم إلى كمشة رماد. لكن داخل هذا الرماد تنام حياة لا تغفى ولا تستيقظ ولا يدخلها الموت أبداً. بوقال الرماد ذاكرتنا الوحيدة وسط هذا الرعب. حتى عندما تنتابنا لحظة الضعف والخوف من الآتي الغامض، ندخل إلى بيت البوقالات الرمادية الملونة، نبكي قليلاً. ولكننا نعود مشحونين بضرورة الانتصار أو الاحتراق وسط هذه المدينة. العجيب أني في لحظة من اللحظات وأنا أمر على الوجوه الحزينة التي كانت تدفن موتاها، تذكرت شيئاً جديداً، وأن الكثير من الخيالة الذين كانوا يبيدون المدينة والناس كانت ألسنتهم متعددة. عربية، عبرية، إنجليزية، إسبانية، إيطالية، ألمانية، فلامنكية، وتذكرت كذلك ما قاله لي الراعي في زاوية أحد الشوارع الضيقة. ابن كلبون يملؤون المدينة. هذه السلالة جاءت بمجيء الحملات الشمالية التي غزت المدينة في بداية الأمر، تبحث عن الذهب والفضة، والفحم الحجري، والنفط، والحديد وأخيراً اليورانيوم، ويستعبدون الناس الطيبين. حتى الوجوه التي تحيط بالحكيم حاكم الجملكية، عندما يريد أن يلقي كلمة في التلفزيون، هي نفسها الوجوه التي كانت



Twitter: @ketab_n

تزرع الموت في قلوب الناس ولا توحي من ملامحها أبداً أنها وجوه محلية، عليها سمرة البحر وأشواق الأمطار الشاحبة وحرقة الشموس الكثيرة التي تثقب أشعتها أدمغة الناس... عند بوابة السوق الكبيرة، الواسعة، المليئة بالأتربة وروث الأبقار والدواب، وتحت شجرة عالية ويابسة يقال لها البطمة وهي شجرة مقدسة، جلس سيدي عبد الرحمن المجدوب ينشد أشواقه وأحزانه. كان يغني تارة على صوت الرباب، وتارة أخرى على صوت البانجو. لم يكن مهماً ماذا كان يقول لكن حنين الموت والوجوه الضائعة، كانت تملأ ذاكرته وقلبه. يصاعد بعينيه باتجاه السماء. السماء لم تكن تمطر أبداً. بعض الناس يقفون. بعضهم يتأمل المشهد قليلاً ثم يمضي. البعض الآخر يلتقي بالمصادفة صديقاً قديماً. يتحدث معه بسرعة في زاوية الشارع المظلم. كلمة كلمتان، ثم يمضي كل واحد في طريقه. عادة ما تكون المفاتحات حول الأحداث التي تعيشها البلاد. لقد كيّفَ الناس حياتهم بحسب الوضع العام. يُختصر حديث خطاب سياسي بكامله في كلمة أو كلمتين محملتين بكل الأشواق والضجيج المدفون. حتى أصبح الكثير من الناس ينتظرون بفارغ الصبر مرور سيدنا الخضر لتتاح لهم فسحة الحديث، شرط أن يتفاداهم في انتقاماته المعلنة الخفية.

كان المنشد ما يزال معتكفاً على وجهه، ويبحث داخل التربة عن الوجوه التي كان يمكن أن يعرفها داخل المدينة ولكنها قتلت قبل ذلك. يذكر الحنين الذي سُرق من الحناجر وهي تبحث داخل هذا الخفاء عن مكان لها تتنفس فيه خارج أحزانها وبؤسها. كان يتعذب عند مدخل السوق الشعبية الواسعة، يتلوى ويتأوه. يقبض على صدره، يحاول أن يمزق الألبسة الملتصقة على جلده، ولكن خشونتها تقاوم.

*«يا ناري زيدي.. يا ناري..*

*اشعلي شوق القلب*



Twitter: @ketab_n

*الأرض لم تعد لنا...*

*يا ناري على جرح النار...».*

اختلط كل شيء، حركة غير عادية داخل السوق. الناس مجموعات مجموعات، لا تتجاوز الاثنين، يتحدثون، أصواتهم لا ترتفع إلا عندما يختلفون، في اليوم بكامله الذي يبدأ الساعة السادسة صباحاً لينتهي الساعة السادسة مساء. إنها المسافة الوحيدة التي يسترجع فيها الناس الماضي والحاضر. الرائحين الميتين والشهداء القادمين بالأشواق التي لا تموت. اللحظة الوحيدة التي تربط القلب بالقلب والصدر بالصدر وتدفع بالعيون المشدوهة إلى البحث عن منفذ للخلاص من أهوال مدينة. هم أنشؤوها بدمائهم، فتنكرت لهم وانتعلت ألبسة غيرهم. تخلت عنهم وعن البحر الذي لا تملك سوى أحبّته، قبل أن يتخلى هو الآخر عن المدينة التي تنسى بسرعة.

حين التفت ورائي، كان الراعي يتبعني من بعيد. شعرت بخطواته ورائحته حتى قبل أن أراه. من يدري. مفاجآت الطرقات لا تحصى خصوصاً في مدينة تصدر فيها القوانين بدون حدود ولا ضوابط. الوجوه الملونة كثيرة، تملأ الطرقات والساحات. يمشون جماعات جماعات، يسجلون الأسماء، يسألون أحياناً عن ترجمات فورية للأحاديث التي كانت تدور بين الناس، كل شيء كان يدخل ضمن نسق عام ألفته المدينة منذ زمن بعيد، بعيد جداً. منذ دخول بني كلبون وتجاوزهم الحدود المعترف بها دولياً. يقال أن شهريار بن المقتدر حاكم جملكية نوميدا ـ أمدوكال، هو الذي فتح الأبواب لهم، لدرء المدّ المُغرِض للجماعات الملحدة التي تزعج راحة البلاد، «ألفة عجيبة تسير عليها المدنية. الأزمنة لم تتغير كثيراً». حتى الشرطيان، عندما مرّا بجانبي، اعتبراني إنساناً مثالياً، قرأت ذلك من عيونهم التي تجلت منها ابتسامات فيها الكثير من الراحة والسخرية. الرجل الوحيد الذي يمشي وحيداً. في يوم يُسمح فيه الحديث مع



Twitter: @ketab_n

الآخرين، بل بإمكان الإنسان أن يكوّن في ذلك اليوم جمعية ذات طابع سياسي، على شرط أن لا تتجاوز الرجلين أو لمزيد من التدقيق، رجل وامرأتين. إنها مواجهات العصر علينا أن نقبل بها يقول الحكيم حاكم الجملكية في معظم خطبه المتلفزة والتي تبث مباشرة، وطوال اليوم والليل. حتى التلفزة صارت تمشي مع عادات المدينة الأليفة، تلغي المسلسل العربي اليومي وتضع مكانه مسلسل الخطاب السامي الذي يستمر في الكثير من الأحيان أكثر من شهر. ويسبق كل حديث بالكلمة المعتادة «نزولاً عند رغبة جمهورنا الطيب ونظراً لتعلقة بأهداب العرش الجملكي، نعيد عليكم بث الخطاب السامي»، سأعرف كل هذه الأمور بعد زمن طويل عندما تدخل هذه المدينة قلبي لتصبح الدم الذي يسري في العرق، واتخذ قرار الموت داخلها مهما كلفني أو سيكلفني الأمر.

الشرطة الموزعة داخل السوق تكاد تحييني لتصرفي المثالي. مواطن صالح، لا يريد تكسار الرأس. الذي زاد في دهشتي أكثر هو سيدي عبد الرحمن المجدوب الذي شعرت في لحظة من اللحظات وأنا أستمع إليه أنه قريب من ذاكرتي التي هزمها محمد الصغير. الكلّ يعتبرونه مجنوناً. ولكني أقسم، برأس هذا البحر الذي لا ينام، وهذا الموج الذي لا يتكسر إلا ليعود من جديد، إنه أعقل العقلاء. الجدية هي مهنة رجال الحلاقي. الشرطة لا تعطيه اهتمامات كبيرة سواء في الحديقة أو خارجها في الأسواق. مجرد رجل يقول كلاماً لا يسمعه أحد. بسط سيدي عبد الرحمن المجدوب أمامه مجموعة من الأوراق والأكياس، وصورة كبيرة لجسم الإنسان، وأخرج من صندوق صغير ثعباناً طويلاً يسمّى في القرية «بوسكّة» أو «بومريات» مدّده على الأرض بحذر. أخذ البندير. نقره عدة نقرات. استجاب البندير بصوت يشبه الصراخ وتكسر أمواج البحر على صخور الشطآن المهجورة. نقرات فيها رائحة البحر في لحظة العنفوان والبحث عن الزرقة الضائعة. فيها عنف السماء عندما تشعر بالوحدة والخوف والبحث عن لحظة انتحارية مقابل امتلاك ألوان



Twitter: @ketab_n

قوس قزح. أخرج سجادة قديمة. وضع عليها آلة البانجو التي كانت مرمية في الزاوية. كانت الدائرة تزداد اتساعاً والناس المتحلقون حول الدائرة التي تكونت تلقائياً، يتكاثرون. الناس يتغامزون ويتهامسون بعضهم بعضاً بشكل طقوسي اعتيادي. عمي عبد الرحمن المجدوب سيفعلها اليوم. وجهه حزين جداً، وفرصته لإفراغ جعبة الأكياس الصغيرة التي تعوّدَ بيعها في كل سوق القوالة والفنطازية. يبيع الأعشاب التي يلتقطها من الحديقة التي يقضي فيها لياليه، فهي لا تضر ولا تنفع. ييبسها في زاوية مشمسة داخل الحديقة. يبيعها للذين يشتكون من مرض القلب. من صداعات الرأس. الضروس، البطن والأمعاء، المصران الغليظ، المصران الرقيق. التالي ما يلحقش. اجروا يا عباد الله. البضاعة قليلة. طبيب المساكين. وينك يا المسكين. وينك يا المريض. وينك يا للي تحب تنام مع زوجتك تعطيها ظهرك حتى لا تكشف سر ضعفك في الفراش. عندي دواك. أعشاب الحياة. مدّ يديك فقط ودِرْ النية. يا مول النيَّة. ثم يرفع الصورة التي رسم عليها جسد الإنسان وكتب تحتها باللغة الفرنسية Lanatomie du Corps Humain. لا أحد يكلف نفسه مشقة القراءة. وإذا توقف الناس قليلاً، ينتبهون حتماً إلى الدائرة التي خطّها في حدود الحوض على الرسم. يضع أصبعه في المكان، يتغامز الناس. هنا ضعفكم. هنا جهدكم. اشربوا هذه الوريقات في الماء وانتظروا ساعة. وبعدها ادخلوا الفراش. مانيش مسؤول إذا بتوا فايقين حتى الصباح. قبلها أرجوكم أن تتسوكوا. الفم الطيب يقرب المرأة من النشوة، يتضاحك الجميع، وينتظرون أكياس الأعشاب الصغيرة. المريض هنا يحتاج إلى كيس واحد، وهنا إلى كيسين، وأما هنا، ويؤشر إلى قضيب الرجل، فثلاثة أكياس. يشتري الناس. بعضهم عن قناعة. بعضهم الآخر مجاراة لعمي عبد الرحمن المجدوب. وبعضٌ آخر يريد أن يمر بسرعة إلى الحكاية التي يبدأها دائماً وقليلاً ما ينهيها. كثيراً ما يتركهم معلقين إلى السوق القادم، ولا ينهي الرواية. يقول الناس عنه، إنه في أغلب



Twitter: @ketab_n

الأحيان يُترك غارقاً في دموعه وينزوي هو في زاوية، يتهدد ويتوعد ثعبانه صارخاً. يا ابن الكلب. سيأتي يومك. إنك تنتفخ مثل دابة البحر بسرعة لن أمهلك حتى تأكل المدينة، لأن أسنان المدينة بدأت تطول. ودعت كل أصدقائي وأنت ما زلت تلازم هذا الصندوق الخشبي الذي سيكون قبرك النهائي.

يؤشر سيدي عبد الرحمن المجدوب بيديه. يوسع من الدائرة التي ضاقت عليه حتى منعته من تنفس الهواء. هواء الأسواق المختلط برائحة الروث، والمشويات، والدواب، والأجساد المتعرقة. مات معظم أصدقائي أيها الناس الطيبين، وبقيت كما ترونني. أنا وكلبي وحماري الملون وهذا الثعبان الذي ينتظر فرصة الانقضاض علي. ماذا أقول لكم عن الناس الخيرين. حرّك الثعبان رأسه. لعب بلسانه، كأنه يبحث عن شيء لاصطياده. نقر المجدوب على البندير عدة نقرات. هز بومريات (الثعبان) رأسه مرة أخرى، وركن بشكل أكثر عنفاً. ضحك المجدوب، وهو يحاول أن يستفزه بقضيب صغير كان في يده. أه يا ولد الحرام؟ احْكِ كل ما رأيته؟ ارْوِ الحكاية من أوّلها إلى آخرها. أنت يا ابن العيساوي تعرف أسرار كل المقتولين. تعرف حتى الترعات الصغيرة المؤدية إلى بيوتهم. تقتلهم في لحظة النسوة والحلم. احك يا ابن العيساوي؟ تقتلهم وفي الصباح تختبئ في ظل حجرة باردة تراقب الجنازات وجثث الذين اغتيلوا بسمّك. الآن يا أنت يا نحن؟! إمّا أن تقتلنا أو نبيدك. احْكِ يا بوراس، احك يا بوسكة. تقيأ كل ما تعرفه يا بومريات قل الحقيقة. أعرف أنك تلعنني في داخلك ولن تقولها أبداً.

كل الدنيا تحميك ولا أحد يحميني من سمّك. قل الحقيقة؟! أوف لا تقلها فأنا أعرفها أحسن منك وسأرويها لكلّ الخلائق. ارقص. ارقص يا ابن القتلة. ارقص، فأنت الآن في مملكتي، وغداً سننتهي من الحسابات، أعرف أنك عندما تجد الفرصة المناسبة لن تتوانى لحظة واحدة. دعنا الآن على الأقل نمشي مع بعض حتى نصل المنعطف الأخير. لم يعد بعيداً. اصبر فقط ولا تخرج لسانك. ثم نقر من جديد



Twitter: @ketab_n

على البندير عدة ضربات متوالية. أخذته الرعدة في البداية من رجليه، حتى وصلت إلى رأسه. فَكرَ أن يأخذ البانجو. أنا في حاجة إلى صوت يوقظ فيَّ آلام الموت. لكن ماريوشا تأخرت. ماريوشا والبانجو لا ينفصلان. ماريوشا والرقص الغجري المجنون شيء واحد. نم أيها البانجو. نم يا صاحبي. ستأتيك صاحبتك. قالت لي، عمّي عبد الرحمن سآتيك. لن أتركك يتيماً في السوق. رفع رأسه باتجاه العيون المشدوهة. شعر في لحظة من اللحظات أنهم مسوّا داخله برمشاتهم. إنهم يعرفونه. مذ كانت السوق كان سيدي عبد الرحمن المجدوب. عاد إلى الثعبان الذي بدأ يتهدّد برأسه ولسانه. أخرج سيدي عبد الرحمن المجدوب قطعة من القماش الأخضر وألبسها للثعبان. ثم أخرج بعد ذلك قبعة عسكرية صغيرة جداً ووضعها على رأسه. كان الثعبان يبدو مزهواً باللباس العسكري المطرز هاه! يا ابن الثعابين هزّ رأسك. ها. ها. ها. لقد فهمت. أنت من سلالة الذين طلقوا المدينة التي باعتهم للفراغ، وأنت من سلالة تقاتلت وما زلت تتقاتل عمّن يستحوذ على الدنيا والأنثى. هه زد. ماذا بقي؟ أكمل معي. احك لي قليلاً من أين جئت؟ ضرب الشيخ عبد الرحمن المجدوب من جديد ضربات متسارعة على البندير الذي سخنه على الجمرات المتبقية. رفع الثعبان رأسه، وبدأ يهتز ويحرك رأسه، فازدادت حركة اللباس المطرز الأمر الذي كان يعطي الانطباع كأن الثعبان صار راقصة. ارتفعت حناجر الناس الصراخات والضحكات التي لا حدود لها. دار سيدي عبد الرحمن المجدوب عدة دورات متناسقة حول الثعبان. قرب وجهه من وجهه. قل يا ابن القحبة، ما هو رقمك التسلسلي في سجل العائلة التي التهمت كل رؤوس العباد. تمرغ الثعبان ثم تكوّم على نفسه. حاول أن يدخل إلى الصندوق، لكنه وجده مغلقاً. عفواً، قالها المجدوب. أنت تريد أن تحتفظ بسرّ أمك التي أقسم الجميع على فضح بطنها أمام أشعة الشمس. فعاد الثعبان من جديد يترنّح مع نقرات البندير. وبدأ سيدي عبد الرحمن المجدوب يتلو أولى أغنياته الحزينة.



Twitter: @ketab_n

*«إذا أتاك الزمان بضرهِ،*

*ألبس له ثوباً من الرضى،*

*واشطح للقرد في ملكه.*

*وقل، يا حسرة على ما مضى...».*

أي ماضٍ يا ابن الثعابين. هل كان يوماً ماضينا واحداً. هل يمكن أن يشبه سيد الخلق أبو ذر الغفاري خلقة الحاكم الرابع، وفي رواية أقل دقة الحاكم الثالث. هيا لقد تعبت. عد إلى صندوقك. لقد شارفت على ارتكاب حماقة القتل التي لا تحسبها مطلقاً. قفز الثعبان بسرعة. أغلق عليه بإحكام وعاد المجدوب يتأمل وجوه الحاضرين الذين كانت قهقهاتهم قد تجاوزت الحدّ المعقول.

تضحكون؟ تضحكون؟ كان يضحك عليكم!

قالها المجدوب بحزن كبير، انعكس في بؤبؤ عينيه بشكل واضح. زاد ضحك الناس أكثر. اعتبروها مجرد مزحة من مزحات سيدنا عبد الرحمن الذي لا ينطق عن الهوى ولكنه كثيراً ما يحول جدية الدنيا بكاملها إلى عبث وإلى نكتة كبيرة يصيغها من خلال صديقه اللدود ـ الثعبان بومريات.

وبعدها أخرج كيساً كبيراً مليئاً بالأكياس الصغيرة، رفعها في السماء. هذا دواؤكم يا عباد الله. الأعشاب الموجودة داخلها صورة جسم الإنسان. وقبل أن يعيد حديثه الدائم عن مفعول الأعشاب في اللحظات الجنسية بادره أحد الحضور.

ـ يا عمي عبد الرحمن. نعرف الحكاية. أعشابك تداوي الميت أكمل الحكاية ولك ما تشاء.

ـ يرحم والديك. تعجبني. اختصار المسافة يا ابني ضرورة. وقبل أن يتم الجملة انزلق فأر من جيبه، فأر أسود صغير. ألتقطه ثم نظر إليه بحقد. أنت يا سلالة القوارض لم يأت وقتك. لا تسبق الأحداث، لأن الأتي ليس من صالحك. هيا يا عباد الله، وجدوا



Twitter: @ketab_n

الدراهم. هاه شكراً. أنت كذلك. الله يكثر خيرك. ثلاثة أكياس خذ الله يزيد في جهدك. وأنت. أربعة. زيّر عليها في الفراش. أنت واحدة. خايب. الله يتلّف رأيك. كان يدور، الناس يتضاحكون ويصرون على ضرورة إنهاء القصة.

في لحظات وجيزة استطاع أن يستنفذ كل الأكياس الصغيرة المليئة بالأعشاب التي كان يقتطفها من حديقة الحيوانات الكبيرة، إلا كيساً واحداً، مغلّفاً بالسواد ظل محتفظاً به. رفض أن يبيعه بالرغم من الإلحاحات. خذ يا عمي عبد الرحمن واعطني الكيس. هاك يا بابا المجدوب واحتفظ به لي. وعلاش ما تعطيهش لي. أنا نحتاجه. ظل مصراً على رفضه. وعندما سئل لماذا، ضحك كثيراً. ها. ها. مجدوب ويعرف باب داره. سيأتي يوم هذا الكيس ليس الآن. إنها مجموعة من الأعشاب القاتلة. انتقيتها بدقة. لا أريد أن أخطئ في التقييم. سأتركها لصديقي الثعبان في اليوم المشهود. يا أنا. يا هو. واحد فينا عليه أن يترك الطريق للآخر. الدنيا لا تسعنا نحن الاثنين أبداً. ثم ترك الفأر الأسود يتزحلق من جيبه. كان جائعاً، وضع في فمه قليلاً من مسحوق العشب الأسود، تدحرج قليلاً ثم يبس في مكانه. اندهش الحاضرون من المنظر الذي يحدث لأول مرة مع سيدي عبد الرحمن المجدوب. هذه كبيرة! حقيقة وليست من خوارق المجدوب. وبدأ كل واحد يتحسس الكيس أو الأكياس التي كانت في جيبه. يا الله. لماذا لا يكون قد أخطأ؟! عبد الرحمن مجدوب ربما ينوي إبادة الخليقة كلها بهذه النبتة المميتة؟! لا! المجدوب لا يفعلها مطلقاً. قلبُهُ عامر بالمحبة والشوق. شعر وهو يتأمل وجوههم بتوجسهم وذعرهم الذي نبت كالطحالب في عيونهم المفتوحة على اتساعها المطلق. قال وهو يرمي الفأر خارج الدائرة. لا تخافوا؟ المجدوب مجدوب لكنه يعرف قلب الدنيا. افتحوا أكياسكم. سأمرّ عليكم واحداً واحداً وأكل من عندكم. وبدأ يتدحرج من زاوية إلى زاوية. ويأكل الأعشاب بدون أدنى خوف. بعدها ارتسمت ابتسامات عريضة على وجوه الحاضرين. المجدوب عيساوي، والعيساوة مجانين. الاطمئنان ضرورة. هذه الوليمة السوداء مخصصة للثعبان



Twitter: @ketab_n

وليس لكم. ولكن عندما يحين ذلك الزمن. وهو قريب. إني أراه يزحف مع الأمواج القادمة التي لن تتكسر هذه المرة على صخور الشطآن. سنتعاون على تنظيم المقتلة. مقتلة بوسكّة، بومريات، الحنش ولد الحنوشا. عليكم أن تكونوا معي شاهدين أو مشاركين. اتركونا من ذلك اليوم القريب. ستتغير الدنيا واللغة. ستتغير الوجوه والسماء التي تظلّلنا. ثم التفت مرة أخرى إلى البانجو. هاه. ما زلت يتيماً. تركت ماريوشا. قالت أنها ستأتي ولكنها نسيت وعدها في غمرة الفوضى التي بدأت تعمّ المدينة بعد مقتل سيدنا النينوي. شيخ شيوخ المتصوفة والمجاذيب. دوزن الخيوط. ضرب على الخيط الأول. كانت النغمة العفوية حزينة. شعر بالألم يزحف من قلبه إلى رأسه. تمتم أحد الحاضرين في أذن صديقه.

- بدأت طقوس الحزن عند سيدي عبد الرحمن المجدوب. لا يرى البانجو إلّا في يد ماريوشا.

كانت الدائرة قد ازدادت اتساعاً. الشرطة مروا أكثر من مرتين. في المرة الأخيرة اختلطوا مع الناس قليلاً ثم انصرفوا. أوف. المجدوب كعادته يستحضر خراب الدنيا وأهوال الآخرة التي يستعجلها دائماً. ثم واصلوا حركتهم الاعتيادية داخل جوف المدينة الذي كان يبدو عليه بعض القلق. كل العيون فيها نوع من الحسرة بعدما خسرت ألفتها مع الحياة اليومية. دوزن المجدوب خيط البانجو الثاني، وضرب عليه بأحد أصابعه. شعر بالضيق والحنين يتآلفان. أغمض عينيه. نظر إلى السماء ثم اندفن في أول غيمة هاربة باتجاه أفق لا لون له، تأوه. وعلاش يا ربي وعلاش. ثم ضرب بيده اليمنى على الأرض حتى صعد الغبار، مدمياً طرف يده وأصابعه. كانت الدنيا قد بدأت تضيق شيئاً فشيئاً مثل حذاء قديم. لم تأت بعد. مثل الغيمة، كلّما مددت يدك عليها، كلمات استحالت إلى فراغ. ماريوشا حليب الأمومة، وتفاح المجانين ولغة الصوفيين وجنة التائهين. ضرب على الخيط الثالث. بدأ يفتح عينيه شيئاً فشيئاً. جاءه الشوق دفعة واحدة مثل موجة يتيمة داخل بحر لا يُحد



Twitter: @ketab_n

لحظة التجلّي. وقفت الدينا عند رجليه، ومع ذلك ظل حزيناً، حزيناً وشعر بالوحدة أكثر من أي زمن مضى. أنا وأنت يا البحر، متشابهان ورأس أمك، وحيدان في مدينة لا تشعر بنا مطلقاً. مدينة وحيدة. سرعان ما تتكئ على نفسها في لحظة الخوف، مثل الله. ضرَبَ على الخيط الرابع، بدأ الاحتراق يصّاعد إلى القلب، والشياط يملأ أنفه الملتهب. أخرج القنينة. نظر إلى البحر. تلك قبلته الكبيرة. ثم شرب أول رشفة وأعادها إلى جرابه، وعلاش يا ربك، رأسك دائماً خشن، لم تعلمك الأيام الكئيبة الانصياع. أعاد دوزنة البانجو ثم الخيط الرابع من جديد. أتاه الصوت الذي كان يبحث عنه نقياً. نقياً كشمعة. كدمعة ضائعة يذرفها المرء لحظة ما لا يدري بالضبط لأجل ماذا أو لأجل من؟ ضغط على الخيط الخامس والسادس، شعر بنفس النغمة ونفس الحنين ونفس الرغبة في الندبة والجدبة، وينك يالالّا ماريوشا. اليوم تأخرت كثيراً على غير العادة. هذه هي أنتِ. عندما نحلم بك نشعر أنك ازددت بعداً، وعندما تقتربين نشعر بخوف منك. أي سحر تصنعه ذاكرتنا عنك. ماريوشا يا ماريوشا. هبَّلت الجبال والبحّارة. يشتاق إليك العاقل بحثاً عن جنونه المفقود، ويشتاق إليك المجنون بحثاً عن لحظة صفاء عاقلة. حين تحضرين أعطيك خيطاً واحداً للحزن والجنون، وحين تغيبين، خيوط لك، وخيط للحنين والغياب. وعندما أتنازل عن خيطين، معنى ذلك أن الدنيا لم تعد تسع أشواقي وأحزاني. اليوم كان حلمي للبكاء كبيراً آه يالالّا ماريوشا... هل نحن الذين تغيرنا، أم الدنيا هي التي تغيرت. هل نحن الذين غادرنا البلاد، أم البلاد هي التي غادرتنا؟ لا أريد إلّا صوتك وحضورك. تصوري وأنا في الحديقة لا أسمع إلّا لك. أخرجْ الكاسيت وأبدأ في الاستماع إلى بكائك. صحيح كاسيت قديم ولكنه رائع. حتى الشرطة لا تعيره أهمية كبيرة عندما تمر في الحديقة. يقولونها ثم يمضون. المجدوب يستحضر صوت ماريوشا لهبيلة. أعرف أنكِ لستِ لي.

أنت للآتي الذي لا يأتي في حياتي.



Twitter: @ketab_n

أنت للرجل الذي وضعَ البحر في جيبه ثم غادر الدنيا والمدينة. أنت للذي لا يعرف لا الموت ولا النوم.

أنت للذي وعدتْ الكتب والأجرام والقوافل القديمة أنه سيأتي من وراء أسرار البحر والغيم.

أنت للذي يفهم سرك ولغتك التي لا تغادر لسانك.

كان قد وضع رأسه بين يديه، وبدأ يحركه بشكل طقوسي وجنائزي. الدموع كانت قد سبقته، ووجهه أصبح مبتلاً وأصفر مثل قشرة ليمون، مثل هذا اليوم الذي صعد مباشرة بدون فجر. مثل شمس خريفية مريضة. بان له الحضور عندما حاول أن يفتح عينيه بصعوبة كبيرة مجرد ألوان باهتة وسط كورس جنائزي واسع. أنت يا ماريوشا، أم القلوب التي لم يدخلها نشيد الموت، حين يعود خويا حمّو لا تغطيني بالزربية، أريد أن أرى وجهه تحت المطر. جراحه غائرة، لكنه يحب الناس حتى الموت.

آه يا ماريوشا لو تدرين؟ لكنك صغيرة على الدنيا.

دوزن الخيط السابع. جاءه صوته رقيقاً، رقيقاً مثل الفجر الذي فاجأ العاشق، وهو ما يزال يرضع شفتي حبيبته وصدرها. جاءته الجزر الواسعة وتفتت عند رجليه. جاءته الموجة تلو الموجة فتكسرت عند حدود المدينة، على صخور الشط الكبيرة المحفورة على جدار الجبل. جاءته الأشجار الساحلية، ثم انسحبت وحيدة عندما فشلت في مقاومة أشواقه. فجأة جاءه البحر بكامله دفعة واحدة، يطالب بزرقته وسط الأنين والخيبة.

هي أنت يا سيدة الشطآن والبحر.

يا ذاكرة العاشقين.

هي أنت يا سيدة الأوفياء الذين ذاقوا من ملحك.

هي لك يا سيدي، تعود متملئاً بالقدر والرهبوت يا ابن أمي، احك أيها البحر. كان عدد الرشفات قد ازداد بدون حساب. احك كل


Twitter: @ketab_n

ما تعرفه عن الناس الذين لم تتح لهم فرصة الكلمات الأخيرة، لأن الموت كان أسبق.

دوّنْ يا سيدي البحر مالم يدونه الوراقون وكتّاب الدواوين.

كنْ وجه العاشقين. إنّك ذاكرة من سينتعل حزنه ويغرق في قلبك وموجك.

ثم قام سيدي عبد الرحمن المجدوب من مكانه بهدوء. فتح يديه على آخرهما في شكل صليب ممتدّ. شع نور أبيض ناصع على وجهه كأنه المسيح مصلوب، على مرأى من العيون المشدوهة من حركات القوال سيدي عبد الرحمن. سمعتُ عنه الكثير في المدينة وفي القلعة، لكن عندما واجهته وجدت سحر غرناطة يسبح في عينيه. رأيت حي البيازين وصراخات أطفاله، شعرت كأنه هو بدوره يعود من الأزمنة الغابرة التي هزمته قبل أن يفتح قلبه وذاكرته.

الكل يتأمّل شفاهه التي ستفتح حتماً على الدم الذي ساح في الكوابيس المتعاقبة. وقبل حتى أن يقول أي كلمة، كانت الوشوشة قد اخترقت الصمت الحزين. سيدنا، قلبنا معك. احْكِ. نعرف أنك توقفت عند حدود البحر وهو يقذف عند رجليك بأشيائه الحزينة. قلوبنا معك يا شوقنا المدفون قبل الأوان. صرخ آخر كان في الزاوية، تسيل من جسده المنهك ندوب متعددة بعضها ما يزال الدم اليابس عالقاً بها. احك يا سيدي عبد الرحمن. معك البحر ليس بحراً. والدابة ليست دابة. والبلاد التي تُسرق ويُدلل بها في الأسواق ليست بلاداً. احكِ. انفخ يا سيد العارفين، يأتيك الناس مثل الضباب. انفخ في السور، يتبدّل لون التربة.

تأمله طويلاً، ثم فجأة، رفع عقيرته بأقصى ما يمكن، حتى أرتدت الأصداء إلى قلوب الحاضرين. كانت تفاصيل الأغنية قد بدأت تختبئ في

*أعماق أقرب الزهور البرية.*

*يا البحر يا لهبيل.*



Twitter: @ketab_n

*داويني بملحك نبرأ.*

*يا البحر يا الحنين.*

*غرّقني بين الموجة والموجة.*

*حبّيت نرقد.*

*وحبيبي ضاع...*

*داويني بملحك نبرأ،...*

*يا البحر ياالهبل..*

انطلق في الندب بدون توقف. جاب كل الأبجديات المتقدة التي لا تسكن شعلتها. فتح فمه بهدوء. وكأن صفاءاً جديداً نزل على عينيه فجأة... ها... ها... هي اللحظات تعود إليَّ. تدق قلبي كأية راهبة مطرودة من دير بعيد. هي ذي تأتي واحدة واحدة... حين انزلق من السفينة.

- إيه من بعد يا سيدي عبد الرحمن الله يحفظك! قالها أحد الحضور ثم انكفأ على وجهه داخل جلبابه الخشن.

كانت السفينة كبيرة... كانوا يسمونها في ذلك الزمان الأرمادة. حين أنزلق، أو أُجبر على الانزلاق داخلها، كانت رغوة الشوق إلى الضفة الأخرى ما تزال تملأ عينيه. وكان الموج قد نزل حتى استوى مع صفحة البحر مثل مرآة مصقولة. وجد في انتظاره سمكة كبيرة. عيناها من زمرد، ظهرها مصقول بماء الذهب والياقوت، جسدها معشق بالأحجار الكريمة والزجاج الملون. نصفها حورية والنصف الآخر جان. حين رأته لم تسأله لا عن شوقه ولا عن خوفه ولا عن وجه الله الذي تخلّى عنه بين موجتين مذعورتين. حملته على ظهرها مغمى عليه. الزبد والموج يملأن فمه وعينيه وجزءاً كبيراً من جسمه. الروح تدخل وتخرج. كان يتنفس آخر لحظاته، كان يحب الحياة. قبل أن يغمض صدره ويضيق للمرة الأخيرة. قبل أن تجده السمكة ملأ عينيه بالشمس والهواء البرد الشتوي والأمواج المذعورة



Twitter: @ketab_n

وبقايا سفينة القرصان الإيطالي التي كانت تغيب مثل النقطة داخل البحر الواسع. ثم انكفأ على فمه، وملأ عينيه مرة أخرى داخل زرقة الخوف بوجه ماريانة وهي تحاول أن تسترجع دمعات مستعصية على مرأى من شاطئ مهجور. لكن السمكة كانت هناك. نقلته إلى أعماق البحر، وحين فتح عينيه داخل الماء والألوان البرتقالية قبلته بعشق ثم وضعته تحت سارية سفينة مسافرة باتجاه أفق قريب. كانت أيها السادة، تخاف من أن تسقط في حبّه وتحترق، وتحرقه معها. لا هو قادر على البقاء وسط أدغال البحر ولا هي قادرة على البقاء على السواحل والنخيل. أخذه ربان السفينة، عندما فوجئوا بوجوده باتجاه البر وتركوه هناك على الشاطئ المهجور، وحين استيقظ وجد نفسه بين وجوه تلبس الفراغ والسواد. قالوا جان؟! قال إنسان منكم ومثلكم. قالوا ساحر أم جاسوس. قال لا هذا ولا ذاك. قالوا ذاك. قال اسمحوا لي أن أقصّ عليكم قصتي!؟ لم ينتبهوا إلى أشواقه وحنينه إلى البحر المنسي. أصر من جديد. اسمحوا لي، ربّما فهمتم بأني واحد من هذه البلاد التي شقت تربتها الحملات الشمالية. ظل يحاول إقناعهم، وظلوا مصرين على اتهامه بالجوسسة لصالح السفن الإسبانية. ظل هو يحكي وهم يصرون على تكميمه. ويروي راوي الرواة، أنه لم يحدث لا هذا ولا ذاك، فقد اشتراه بحار من الأطفال الذين كانوا يلعبون بجسده، ثم باعه للسفن التركية.

لم أعد أفهم بشكل جيد. بدأت المادة الهلامية تغطي ماء العينين. أيعقل! خيط الشك كان قد انسحب باتجاه تلافيف الدماغ خيط من الخوف والذعر والدهشة هذا جزء آخر من لعبة هذه البلاد التي لا تعطيك ذاكرتها وقلبها بسهولة. لكن رجلاً غريباً دخل إلى القارة قاطعاً علي لحظة الصفاء المشوه؟!

ـ قلبنا معك يا سيدي عبد الرحمن المجذوب. قل لنا ماذا وقع؟!

ماذا وقع. تريد أن تعرف البقية. ضع حزامك على بطنك وتأمّل النجمة المنسحبة من عيون هذه المدينة المنهكة. كانت وجوههم مثل



Twitter: @ketab_n

صفائح الحديد حين يعلوها الصدأ. لم يقل الموريسكي شيئاً، لكن الخيبة كانت قد صارت حقيقة، والشوق تحوّل إلى رغوة وإلى زبد على أطراف الشفاه. كان البشير ممتلئاً بالخوف والزغاريد. لكن الزغرودة الأخيرة ماتت عند تخوم الضربة الأولى التي ارتسمت بدمها الفائر على صدره. احك يا ابن الزانية. قالوها في وجهه علانية. احك أيها الجاسوس القشتالي. احك لماذا أنت هنا. من أرسلك لتأخذ أخبار سفننا. بلع البشير ريقه. أراد أن ينظر إلى السماء. لكنه شعر أنها تركته وحيداً أكثر من مرة يواجه الخوف والموت الذي لم يختره. التفت وراءه، كان موسى بن نصير قد غاب بالسفن في أعماق البحر. الحيطان الأربعة التي كانت تحيط به من كل جانب انغلقت على ذاتها بقوة. دارت عيناه بحزن. استعصت دمعات الغبن واليأس. مدّ أصبعه عميقاً إلى حلقه ثم تقيأ. وعض بكل قوة ذراعه حتى تجمع الدم بين أسنانه. يقال إن اللذعة كانت مسمومة. يقول أوائل القوالين الذين احتلوا الساحات في زمن متقدم إنه لم يمت، ولكن أيادي ناعمة دفنته بين أشواقها حتى لا يمثل جنود الخوف والصدأ والنحاس بجثته المتعبة. شيء واحد ظل عالقاً بين عينيه قبل أن تمسسهما تربة الموت، وجهها المضيء الذي يتحول إلى نجمة أو إلى ألق، كلما كان الحزن عظيماً. قلبها الواسع كرحبة الخيالة. جنونها الذي لا يحد. لست أدري حبيبة، عشيقة، أم وطناً مسروقاً. هل كانت حباً هادئاً، أم قلباً مزقه الشوق والحنين. قالت ذات مرة، وهي تلم شالها الغجري المطرز والملون بألف لون، وتثبت الوردة على طرف شعرها الذي تحيل أشعة الشمس سواده إلى زرقة مدهشة: هل تحبني يا البشير. قال: وهل لي غيرك في خراب هذه المدن التي أفقدتنا أعيننا. قالت عدّ الأشباه والمفردات. قال: أحبك. أحبك قدّ الدنيا وما فيها. قدّ البحر وأمواجه الناهضة من أرحامه الحزينة. قدّ مَرْمى العين، حين ترى العين بالقلب والذاكرة التي لا تلين. قدّ رهافة جسدك وأنت تقفزين وراء الفراشات الملونة وعمرك زهرة بألف لون. قدّ حزني، عندما أواجه الوحدة وحيداً، مع إله يبحث عن شريك. قالت بعد أن ارتسم الشوق



Twitter: @ketab_n

داخل بؤبؤ العين: حبني قدر ما تستطيع، فأنا لن أكون إلاّ لك حتى وأنا نائمة بجانبه أو بجانب غيره في نفس الفراش.

يروي الرواة الأوائل الذين مسحت أعينهم كل الحارات الفقيرة، يقول سيدي عبد الرحمن المجدوب إن ماريانة كانت متزوجة، تعشق الورد والألبسة المزركشة، وعيون الموريسكي الذي نسي مدينته ولم يعد يتذكر إلاّ المارية، مدينة البحر والزرقة والأفق البعيد. تلك حكاية أخرى يا سادة يا كرام. هي الآن أمامي. أسمعها بحزنها، مثلما يأتيني صوت البحر وحشرجته وتكسر موجه على الصخور الرومانية القديمة. زرقة عينيها. شعرها الغجري. ملامحها التي لا تفقد حالات العشق المطلق. يديها اللتين لا تتوقفان عن الحركة. كل ما فيها يوحي أنها ابنة البحر المنسي على أطراف المارية. كانت المارية في ذلك الزمن البعيد، البعيد، القريب من جرح الذاكرة هي البحر المنسي. ظلت عالقة في حلق البشير كاللوزة المرة. كحبة الفرح. متدلية كعنقود عنب. يتفقدها بعينيه وقلبه، وحين يتذكر أنها لم تكن إلا حلماً طارئاً يحزن بعمق شديد، ولا يقول شيئاً.

وضعت يدي على فمي وأنا أرى سيدي عبد الرحمن المجدوب يبكي بأعلى صوته، كمن يدخل لحظة الموت المجّاني. يا الله، أيعقل أن تفاصيلي تصل إلى هذه البلاد. قالها لي الراعي وهو يحذّرني من مغبة المبالغة والثقة في الناس، ثم أكدها لي علماء البلدة. قالوا: ستسمع الكثير من الحكايات عنك. عليك أن تتحلّى بالصبر. فهم يحبّونك كثيراً وينتظرون عودتك يا سيدنا العظيم. في عودتك سلام المدينة حتى ولو تسببت في حرقها. فالنار التي أثاروها تتجاوز فرحتك وخوفك. لا خيار لديك سوى هذا. أن تتفسخ، أو تمشي وراء ذاكرتك حتى التهلكة. اختر موتك داخل هذا الموت يا ابن أمي ولا تحزن.

- ومن بعد ماذا حدث يا سيدنا العظيم؟! يا سيدنا المجدوب!

حدث الذي كان يجب أن يحدث أيها السادة الكرام. أهمّ ما في



Twitter: @ketab_n

الرواية، هو أن المشكلة كانت أكبر منه ومن فهمه. لأن الحقيقة كما يروي، تبدأ من اللحظة التي تأخذه فيها إحدى السفن بعيداً، بعيداً على أطراف المدينة. حتى الذين اتهموه فيما بعد كانوا كذابين. قالوا له، أنت لا شيء أنت إنسان بسيط من جملكية نوميدا التي ابتلعتها ذاكرتك المتعبة. قرأت كتباً كثيرة عن الموريسكيين أجدادك، وحين داهمتك أمطار غزيرة، وصوت البحر الذي كنت تتظلل تحت زرقته، اختبأت في مغارة قريبة من قلعة العلماء السبعة، ومع الزمن أقنعوك، وحوّلوك إلى شيء أنت نفسك لا تعرفه. كنت بسيطاً، أحد أجدادك يقال إنه من الموريسكيين، فمن أدخل في جلدك أنك منقذ هذه الأكوان، وهذه المدن المتهالكة؟ نحن نعرف ذلك، قالها لك أصدقاء الحكيم القادمين من هدير بحر الشمال بعد ذاك بزمن بعيد.

الله يخرب بيتك يا سيدي عبد الرحمن المجدوب من أدخل في رأسك هذه التخاريف، وهذا الذي يشبه الحقيقة. أنت سبب التهلكة والخراب. أنت اللي عرفت كل الأسرار التي تنحتنا جميعاً من الداخل بألم كبير. أنا لست ابن هذه المدينة. مدينتي. رأسي. ذاكرتي التي انسحبت باتجاه السواد والخراب. كانت مدينتي تتحسس الغزوات الإسبانية المتكررة. من يملك البحر يا سيدي يملك الله والعباد وقلاع المدن.

- أكمل القصة يا سيدي المجدوب.

حينما تأملوه، أكدوا على تهمة الجوسسة. أدخلوه إلى مغارة مليئة بالعفن والنتانة ورائحة البول والجثث المتفسخة والأشواق المهزومة ومياه البحر المتسربة من بين شقوق الحيطان والقنوات المكسورة. المغارة (الكهف) كانت ضيقة مثل يوم الحشر. يعطي موقعها الانطباع وكأنها شيدت تحت البحر.

في لحظات الخلوة والمكاشفة، خيل له، أن الحجرة المربعة بدأت حيطانها تضيق باستمرار. يختلط ضجيجها بأصوات الأمواج المتكسرة التي تملأ رأسه وتختلط مع صراخات الناس، ورائحة


Twitter: @ketab_n

الجلود المنزوعة من على الوجوه المتورمة التي شُقت ولم تفقد حنينها للأشياء التي يثير اكتشافها دهشة طفولية غير محدودة. عندما أحتج البشير على وضعه وأنه مظلوم من رأسه حتى قدميه، شاع خبر أزعجه أغلق في وجهه إمكانات المستحيل، ومفاده أن السفن الإسبانية تتهيَّأ لغزو البحر وإنقاذه. سحبوه إلى الداخل، إلى أعماق الدهاليز، إلى مكان لا يتذكر منه إلا اسمه «الصراط المستقيم». ويتذكر أنه قبل أن يصل قطعوا به أنفاقاً لا تحصى، ومنعرجات مظلمة كأيام القيامة. فكر في الهروب، لكنه في الأخير تأكّد أنه هالك حتى ولو غاب كل الحراس داخل هذه المتاهة التي لا يرى فيها وجوهاً. يسمع الأصوات فقط. قال الصراط المستقيم ولا التيه القاتل. لأني إذا خرجت سأظل أدور ولن أعود إلى مكاني. على الأقل، لحظة اليأس، يمتلك الإنسان اختيار موته، ولن يسلّم في نفسه بسهولة. قال، يجب أن نحول موتنا إلى أداة إزعاج تؤرقهم في لحظاتهم الحميمية، عندما نقوم بقاماتنا الطويلة، وننبت كالسيوف داخل فراشهم. الموت واحد. الفارق قائم بين إنسان يختار وآخر يستسلم للأمر الواقع. نسحب الموت من سيوفهم وبنادقهم ومتاهاتهم، ونتملكه نحن، قبلهم. أن نعيش لحظة الاختيار، ونموت، معناه أننا نعيش حالة شموخ خاصة. كل هذا لم يؤلمه، بل زاده إصراراً على الحياة، الذي عمق الجرح في قلبه هو أنه أدرك متأخراً أن محاكم التفتيش التي هرب منها هي نفسها التي قادته باتجاه الدهاليز والأنفاق والموت. وأن الحنين الذي ساقه إلى هذه البلاد كان حنيناً مهزوماً، وأن الفرحة لم تكن إلّا وهماً وأن جُلَّ عشاقه ماتوا في منتصف الرحلة قبل أن يفكروا في إنقاذه. ماذا بقي يا ابن أمي من بلاد اللوز والتفّاح، والأشجار العملاقة وحليب النهر المشقوق ورغوة الشوق. ماذا بقي؟ المحاكم تلد المحاكم، الأخضر يلد اليابس، والسواد يزداد قتامة، والذي كان جديداً، صار صدئاً. ماذا حدث يا ابن شوقي الكبير؟ وضعوك في الظلمة وقاتلوك بالسفافيد والنار. عيونهم متقدة بحق سبعة قرون. كنت كبش الفداء



Twitter: @ketab_n

لتخبئة الهزائم المتوالية. تذكر ذلك الزمن المستحيل. كان مثل النار وكان الاحتفال الديني كبيراً من السماء إلى الأرض. وصلت النيران إلى علوّ غير محدود. وضعوهم داخل الجمر. ثلاثة وسبعون أندلسياً. كان ذلك في اليوم الأول من الشهر الخامس من سنة 1796. ألحقوا بهم خمسة وأربعين وفي الشهر الحادي عشر. أضافوا ثمانية وعشرين آخرين. أحرقوهم أحياء بالرغم من القتل والتشويش. وبعد زمن طويل، كانوا يظنون أنهم مسحوا المدن من الهرطقة، عثروا على بيت متواضع، مملوء بالزرابي والسجاد، كان يستعمله الموريسكيون للصلاة والاجتماعات. كان في المدينة المعشوقة. ماذا بقي أن يقال وسط هذا الفراغ يا ابن أمي؟ السماء تخلت من زرقتها وانسحبت وسط أقرب غيمة وباتجاه الألوان المفقودة الشمس لم تعد شمساً. أصبح ابن كلبون يشرّقونها متى يشاؤون ويغيّبونها متى يشاؤون ويكذبون على الناس أنهم الأئمة الجدد المكلفون بلّم المال والبهائم والأحجار، وامتلاك رقاب العباد. الأرض تسطحت وأصبحت مثل الصفيحة الخرساء. أينما تحركت، تتبعك عيون بني كلبون ويستعيدونك مثلما يستعيدون أية بهيمة هربت من زريبة ما...

آه يا أحبابي، الطريق طويل، جداً. والعذاب في القلب يزداد تصلباً وحرارة، لكن الجدّ أوصاني أن لا أرمي نفسي للموت وأنا أقاوم الموج. فالبحر لا يخون ملحه. وأن الغيمة التي ركضنا تحتها أيام الطفولة وسابقناها، ستسقط حين تتعب. الأسوار التي غلقوا شقوقها، حتى لا نرى المدن الرومانية الجميلة، ستعرف أحبابها وتأتينا.

- أفصح يا شيخنا... أفصح.

صاح أحد الحضور، وكأنه ينتظر أفق الحكاية من فم سيدي عبد الرحمن الذي لا ينطق عن الهوى.

لماذا؟! وعندما تعرف النهاية. ماذا سيتغير. لا نهاية لما يقال،



Twitter: @ketab_n

إلا عندما تتبادل السماء والأرض مواقعهما. كل شيء صار عكس التصور العام. كانوا يريدون إبادته. لكن لولا أن الحاكم التركي الذي كان يملأ البحر دماً، لم يأخذه باتجاه المتاهة والموت، لأصبح البشير كائناً عادياً في هذه المدينة أو تلك. كآلاف الذين رجعوا يحملون في عيونهم أحلاماً لم تصل وأشواقاً دفنت في أول شاطئ نزلوا على أطرافه. أي خراب كان يملأ قلب البشير، وأي فرح؟!

أش جاب ربه إلى مدن العفن يا خويا عبد الرحمن المجدوب كان عليه أن يبقى هناك حتى الموت!؟ قالها أحد الحاضرين.

انتبه سيدي عبد الرحمن المجدوب إلى صوته. اقترب منه، سحبه من قميصه الفضفاض المتسخ. ادخل القارة يا ولد العطّاية. أنظر إلى الناس. هل تعرفهم. هل تعرفونه ايها السادة.

عمّي الطاووس، هذا هو بلحمه ودمه وأوساخه. تأملوه جيداً. كان يحكمكم قبل هذا الزمن. كان وجهه مثل الدمية فصارت لحيته المتسخة تبعد الكلب عنه. عمي الطاووس. وزير الإعلام والثقافة المخلوع قبل زمن. لقد جن مثلي. لقد صار شحاذاً يجوب المقاهي، وينظف المراحيض، والشاشية التونسية التي كتب عليها «لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»، لا تغادر رأسه. في البداية، من ذلك الزمن البعيد، أدخل عمّي الطاووس إلى سرداب السجن. لم يكن يعرف لماذا، وعندما وصل وجد طاولة عليها مسدس كاتم للصوت وابنه مكتف مثل خروف العيد. قالوا له ابنك مارس الخيانة الوطنية. عليك أن تعدمه بنفسك ليقوي حماسك الوطني نظر إليهم بعيون مهزومة. قال يا عباد الله أنه ابني الوحيد. زوجتي عقرت بعده.

لقد خدمتكم أكثر من عشرين سنة. قالوا توج رصيدك بفعل نضالي، الوطن في خطر. زمّ على شفاهه، ثم ضرب رأسه بكل قوة مع الحائط صرخ بأعلى صوته. قلتم قص المقالات قصصتها، صادر الكتب صادرتها، أحرق الأحرف المدسوسة بحثت عنها وأحرقتها. امنع المجلات من الصدور منعتها، كون فرقة من الزبانية لصيد


Twitter: @ketab_n

الكلمات قبل أن تخرج كونتها، بدد الوجود إذا اضطرك الموقف بددتها قبل أن يضطرني الموقف، اكسر التجمعات الصحفية كسرتها. ضرب رأسه من جديد، حتى ملأ الدم وجهه. افعلوا ما شئتم. أخرجوني من حكمكم، لكن حافظوا على ابني. وحين تعب، سقط على وجهه. كانت الرغوة قد ملأت فمه، وتنفسه أصبح صعباً. كلماتهم الأخيرة دخلت عينيه بصعوبة. قتلك لابنك سيدفع الثقافة باتجاه الصلابة والقوة. وحين استيقظ، غسلوا وجهه، وقالوا عد إلى بيتك. حاول أن يسأل، منعوه. وعند مدخل داره وجد ابنه أزرق مثل الورم. مخنوقاً بنفس الطريقة التي يقتل بها عادة أعضاء الحكومة والحزب السابقين. وفي الجرائد المسائية قرأ خبر الموت، مدبجاً بصورته وهو يحمل المسدس والتعليق الصغير «وزير الإعلام والثقافة يُعزل من منصبه بسبب قتله لابنه في لحظة هيستريا وجنون». احك يا عمّي الطاووس. الدنيا كلها حكاية. احك ماذا رأيت. لقد صرت الآن أعمى مثل الكثير من الخلائق. احك أو اتركني أتم القصة. الحلقة لا تصادرك والقوال لا يسرق كلمات غيره. احك ماذا رأيت. لقد أفقدوك البصر، ولن يفعلوا أكثر مما فعلوا...

مدّ عمي الطاووس يده إلى فراغ عينيه يبحث عن دمعة استقرت في داخل المحجرين. تحدث بنوع من الخوف. لم أفهم حرفاً واحداً مما كان يقوله، إلا الجملة التي ظل يكررها.

«كان عليه أن لا يأتي إلى بلاد الخراب. كان عليه أن يبقى هناك. موت الغربة ولا موت البلد المسروق...».

آه يا عمّي الطاووس، عقلك لم يتغير كثيراً، لا تسمعنا، الحقيقة تتخبأ وراء نصفها. ها أنذا أقف معك في هذه الساحة بجنوني الكامل لإعادة كتابة تاريخ المدن المسروقة. احك. القلم عندي، والكراسة الكبيرة فوق زربية بوسكة، بومريات، سمه كما تشاء، أنت مهزوم حتى الفم يا عمّي الطاووس. الدنيا كانت سديماً في المدينة الأندلسية البعيدة. النيران كانت تشتعل. وحين تشتعل النار من أجل


Twitter: @ketab_n

الحق تُفتح أبواب الجنة على مصراعيها وتُطفأ جِمار جهنّم. الله لا يسأل الشهداء حين يعودون إلى الجنة عن أسباب رجوعهم. فالجروح والدماء شاهدهم. بل يحمل الأكاليل، ويضعها على رؤوسهم ويمسد على جباهم ولا ينطق بكلمة. ترمد وجه عمّي الطاووس، واتسخ بياض عينيه من جديد بلون داكن. عض على يده مرة أخرى.

- اش جاب ربه لبلاد الخراب. أتركه يعود. كان يجب أن يبقى هناك. لقد سرقوا ابني، وعيوني. سرقوني في كل شيء.

آه يا عمّي الطاووس ما أبخس عقلك. تفكر الآن في الآخرين يارزية هذه المدينة. يوم وُضعت وزيراً للثقافة هللنا في الشوارع. قلت لأول مرة يأتي أبناء الفقراء فوق رؤوسنا. سنقبل بك، لأنك كنت شعلة المدينة، وكتبك عن العقل والعمران والمدينة تملأ الأكشاك والمكتبات. كانوا يريدون ابتذالك وسرقة قلمك وكنت تريد طموحك. نسيتنا فنسيناك. كرهتنا من الذاكرة. دشنت عصر الوزارة باستصدار القوانين التي تحجم الطباعة وتصادر الكتب التي لا تحمل صورة شهريار بن المقتدر. استوردوا لك عوينات أجنبية تنقب بها عن الأبجدية الممنوعة، المهربة بين الأحرف، تجهد نفسك للعثور على حرف يستحق القتل، ومع ذلك عذرناك يا عمي الطاووس. ذنب الفقراء أنهم يعذرون كثيراً. نعذرك، لأن من يدخل دوامة الفراغ والمسؤولية لن يخرج ناجياً حتى برأسه. وحين مسوك في عينيك. قالوا لك اقتله. قلت ابني يا عبد الله! أيعقل؟ التوحش وصل إلى هذه الدرجة! لا أستطيع. وضعت كاتم الصوت على الطاولة وحدث ما حدث. نزعت اللباس المزركش، المعشق بالياقوت والزمرد. قلت بعد أن رفعت يديك باتجاه السماء. ربي اشهد، لست البادئ. لم تكن تعلم أنهم أنهوك في عيون الناس. سملوا عينيك وسلموك للشوارع الخلفية تبحث عن الطرقات والممرات التي توصلك إلى بيت. أي بيت يؤويك. كنت فارغاً كالقصبة! تطالب بعودة



Twitter: @ketab_n

الموريسكي. استحِ يا أخي. أنت بعت الناس والذاكرة وقبلنا بك، فلماذا لا نعيده وهو هارب من سفن القراصنة ورياس البحر. آه يا الطاووس! ماذا فعلت عندما سرقوا البلاد والعباد؟ ماذا فعلت عندما ذبحوا أمامك ذاكرة هذه الأمة الحزينة حسين مروة، ومهدي عامل!

ـ هل قلت للظلام توقف!

ـ ولكن أغمضت عيني حتى لا أرى الدم.

ـ مثلما فعلت مع ابنك.

ـ هذا هو احتجاجي ضد الموت.

ـ طز فيك وفي احتجاجك. أغمضت عينيك حتى لا ترى. ولكنهم عندما أرادوا سملهما وضعوا داخلهما سفودين ساخنين. ما أبخسك يا عمّي الطاووس. وماذا فعلت حين جيء بالكتب الممنوعة في الجملكية، ووضعت في الساحة باسمك وباسم وزارتك، وأشعلت فيها النار في حفل بهيج كنت أنت سيده.

ـ ماذا فعلت يا عمّي الطاووس؟!

ـ زممت فمي بقوة. كنت عبداً مأموراً.

ـ زممت فمك وضغطت على أسنانك. ماذا بقي من أسنانك الآن؟ لقد هدموها لك في الحكومة السابقة التي لم يبقَ منها إلا أنت على قيد الحياة، لأنه ميئوس منك. يا عمي الطاووس دخلت السلطة كبيراً، وخرجت أصغر من فأر. الكتب التي كنت تتصور أنها صودرت، موجودة في قلوب الناس وفي أماكن سرية متعددة، ومن أراد أن يقرأ ما أُحرق سيجده حتماً. نقدر جنونك وحالة يأسك، لكنك لا تستطيع أن تمنع العظام من أن تعود إلى تربتها إلى بحرها. فالرجال إذا كانوا قد عادوا، فلأنهم أدركوا أن الدنيا هناك لم تعدلهم أبداً. آه يا عمّي الطاووس، التاريخ الذي رماك بعيداً عن هذا القرن يجب أن يعيدك إليه إذا كنت أصيلاً. وستحمل حزنك بين يديك وتدخل النار عندما تشتعل النار في البحر، وتصيح الدابة، وتسمع



Twitter: @ketab_n

صرختها الكبرى التي تذيب آذان الطرشان. وحين تُرفع المذاري عالياً، ستلعن نفسك وتلعن معك الشوارع صمتها.

اندهش الجميع من حزن ماريوشا، ومن حضورها المتأخر، كانوا يظنون أن محاكم سيدنا الخضر قد داستها في الليلة الماضية، لأن الكثير من الحاضرين يقسمون برأس أعوادهم ونسائهم أنهم رؤوها بالقرب من بيت سيدنا النينوي. كانت تلبس الأبيض وتبتهل أمام النار والرماد والصراخات. لكنها ها هي ذي تعود. سحب لها سيدي عبد الرحمن المجدوب سجادة جديدة لتجلس عليها. فأرض السوق باردة. بارك الله فيك ياالالّا ماريوشا، فالسحب لن تمطر بدونك. والله لن يفتح فمه ويصرخ في وجه المهزمين «هيا» بدونك يا سيدة الحاضرين.

كانت عيون عمّي الطاووس مشدوهة. وعندما دخلتهما الهزيمة، انسحب باتجاه زواية داخل الحلقة ولم يضف شيئاً. وقبل أن يجلس تمتم: الوزير في هذه البلاد كي القملة وإلا الناموسة. تفه. تفه. على عصر وعلى البشر.

عيون الناس مرتشقة في ماريوشا، التي تكومت داخل لباس صوفي قديم وأدخلت عنقها بين كتفيها وهي تحاول أن تصر شفتيها اللتين تعمق توردهما.

- إيه ياالالّا ماريوشا!

- آه يا خويا المجدوب. القلب ممتلئ.

يا الله. انتبهت إلى ملامحها. كل ما فيها يوحي أنها غجرية هربت من الطقوس المغلقة إلى أفق لا تحده لا أرض ولا سماء. جاءت إلى هنا، بعد أن تركت حبها، وحياتها الأولى وأصدقاءها. بينها وبين ماريانة شبه الدم والنجوم، شبه الموجة والموجة، شبه رغوة الولادة عندما تقف في الحلق، شبه اللحظة الفاصلة بين الموت والحياة. شبه الغيمة البنفسجية التي لا يلمسها إلا العشاق في لحظة الغفوة. هي. هي. وجهها ليس غريباً. صدق الرواة وصدق الرؤاة.



Twitter: @ketab_n

الذين يروون والذين يرون. هي. نفس الوجه. نفس البياض. نفس الدمعة والتنهيدة عندما كان سيدي النينوي يصلب ويحرق. هي. بعيونها المائلة وشفافها التي يُشعِر امتلاؤها بالرغبة والملوحة والدهشة. لم أكن أعرف، أنا الموريسكي الوافد من بعيد، أن الوجوه تتوالد، في هذه البلاد، وأن الحياة والمدينة، والناس يمشون بقلوب متعددة وليس بقلب واحد. وأن الله تلبّسَ بأحزاننا وبغربتنا ويأسنا، ولا يتذكرنا إلا بعد فوات الأوان. الرجل، سيدي عبد الرحمن المجدوب، الذي يركب في لحظات فراغه قصبة يلونها ويملؤها بالشرائط الحمراء، ويقول في الملأ، هذا حصاني لخضر بوبركات، ليس مجنوناً. ورأسك يا جدي ليس مجنوناً. يعرف الدنيا أحسن منّي ومنك. مجنون يعذبه ما تبقى من عقله. رأيت النور يشع من عيني سيدي عبد الرحمن المجدوب حينما رأى ماريوشا، المرأة التي تملأ عليه فراغ هذه المدينة وتجعله صلباً مثل أحجار الوديان الزرقاء التي لا تلمسها المياه إلّا مرة واحدة كل سبع سنوات، كلما حدث الطوفان العظيم. كان ينط مثل العصفور. كنت مثله عندما أرى ماريانة بعد خوف. الشمس كانت تخرج من قلبها. الزرقة تملأ عينيها الصافيتين. لباسها كان حزيناً، وليس كما تعوّده الناس، هكذا تمتم بعض الحضور. يقولون، إنها تسرق الألوان من قوس قزح.

الناس يحترمونها. ولهذا عندما رؤوها أحنوا رؤوسهم إجلالاً. الوزير المخلوع، عمّي الطاووس لم يقل شيئاً، ولكنه كان منهمكاً في ترتيب جلسته الصعبة في الزاوية، انكفأ داخل جلبابه، قبل أن يغرق في موجة حزن امتدت به حتى العصر الأوّل، عندما كان نجم المدينة المثقف وشعلتها، قبل أن يعتلي الكرسي الذي سمل عينيه وأباد شعلته مثل العملة الرديئة. عندما أراد أن ينكفئ على ذاته، ولو للحظة غفوة كان البحر قد نسيه والشوارع لم تعد تتذكره، والأملاح خانته مثلما خانها منذ اللحظة التي وقف فيها بجانب الحاكم بأمره يقرأ تقريره المعهود من أجل حرق الكتب «أيها الناس، أيها البشر.



Twitter: @ketab_n

الديمقراطية ليست فوضى. الديمقراطية، احترام الأصول وعلوّ الهرم. وللثقافة شروطها حين تمس أعراض الناس، وقداسة أجسادهم تحرق بدون رحمة. النون والقلم وما يسطرون، هم الظالمون، نحن نظام العهد الأوّل الذي فسخه سيادة الحكيم حاكم جملكية نوميدا، ونقله إلى النظام الإقطاعي الملكي، إلى النظام الجملكي الواسع الذي يستوعب الكبيرة والصغيرة...». لكن الكلمات التي رنت في ذاكرته، دفعت به إلى الاختباء أكثر داخل جلبابه، لأنه شعر بكل العيون مصوبة اتجاهه. شعر بالملح الذي قاوم في داخله من أجل البقاء يذوب قطعاً قطعاً. قفز المجدوب من جديد إلى وسط القارة.

حملت ماريوشا البانجو بين أناملها الرقيقة. ازدادات شفاهها تورداً واستدارة. ضربت على جميع الخيوط. شعر المجدوب أن قلبه يغادر صدره. قالت بصوت هادئ وحزين.

- واصل يا عمي عبد الرحمن. واصل. واصل. قلبي معك. كان... ياما... كان...

- إيه يا خويا المجدوب. ضع القلب بين يديك واضغط. لن يعرف سرك إلاّ العشاق والأنبياء. قلها. اروِ ما سمعت وما رأيت، وما أحسست. قل الذي لم يقل له أحد الحقيقة.

آه يا سادة يا كرام. يا حزانى هذه المدينة. يا تافهيها، ويا قديسيها، يا عفيفيها، ويا سكارها، يا سراقها ويا أنبياءها... إني أراها... هي ذي الموجة تأتي، تسحق في طريقها الموجة، الريح تطرد الريح. البحر يزحف باتجاه المدينة والفيضانات تزداد في الرأس. لحظة الخوف شعر الموريسكي بالبحر بكامله ينام على ظهره، ومع ذلك لم تغادر أشعة التشبث بالحياة قلبه وعيونه. لم يفكر في الهرب، لكنه لم يستسلم لموت رخيص. وعندما تيقن أنه سينتهي داخل المتاهات والأبهية المعقدة، صمم أن يقول كل شيء، حتى عن الظلام الذي ملأ قلبه لحظة الحزن وسط فراغات الخوف. رفع رأسه


Twitter: @ketab_n

إلى السماء أراد أن يلوح غضباً، ولكنه لوى لسانه سبع مرات ثم صرخ. لماذا يا الله! كان عليه أن ينقذه عندما وقف وجهاً لوجه أمام الموجات التي تكسرت تحت ثقل الأرمادة ورعب القرصان الإيطالي، قبل أن تأخذه السمكة التي كادت أن تسقط في عشقه كما تقول الكثير من الروايات. كان عليه أن يكتشف خيبة الأمل. أن يلمسها لا أن يحسها فقط، ولهذا عاد يا عمي الطاووس. أنت تخبئ رأسك كالنعامة حتى لا تدوسك العاصفة، لكن العاصفة عندما تأتي، ستكنسك مثل التربة. كنت تريد أن يموت هناك، لأنك ترى فيه عذابك وعيونك التي سُملت بسفودين ساخنين بعدما نسيت نفسك أمامهم. وما دمت قد دخلت الزريبة كان عليك أن تتحمل رائحة العفونة والزبالة. هو عاد يا ابن أمي لأنه رفض أن يشتم هذه الرائحة. ترك دنياه وآخرته وجاء إلى هذه البلاد. ترك ماريانة، الوتر المكسور، وتفاح البلاد البعيدة، وجاء. ترك المارية، والبحر الذي كان يعشقه، ترك جبال البشرات التي التأمت تربتها على عظام جده الذي علمه أن الحياة لا تعطيك صدرها ونهدها، إلاّ عندما تشعر بقدرتك على التضحية، وعاد.

- احك يا خويا المجدوب. احك. الطوفان يبدأ بحبة مطر، والبحر يفيض بموجة. احك وشوف لقدّام ولا تلتفت إلى الواراء... لأن العفونة صارت معمّمة...

سأحكي يا ماريوشا. الموريسكي في دمي، وحزنه في قلبي، وذاكرته مآلي. سأحكي وأموت على الرصيف منتشياً بصدق الحكاية وسحرها. بل علينا جميعاً أن نشترك في صياغة الحكاية. إنهم يقتلون العيون التي ترى أكثر من مدّ البصر، ويبيدون الوجوه التي تعودت على صفاء الحقيقة. لنشترك جميعاً أيها السادة في وضع خطوط جديدة للمأساة التي لبسناها قبل أن أعود إلى حيوانات الحديقة الوطنية ولا ستفسرها وأركب عودي المرقط. هو يصعنون المهزلة ونحن نصدقها.

كان الموريسكي مثلنا جميعاً، آدمياً، يبكي لحظة الخسران،


Twitter: @ketab_n

ويصرخ بأعلى صوته، فلا تسمعه إلاّ الأنواء التي تملأ الدنيا صراخاً والبحار التي تبحث في أقفار السماوات عن زرقتها المفقودة.

كان حنينه يفقد الجبال شموخها والجان سطوتها ويجعل الحيوانات تبكي لحزنه وآلامه. كان للموريسكي سحر شكّلته المتاعب وأسواق غرناطة وحزانى حي البيازين، كان يعشق الدّرب الذي فتح فيه عينيه، وكان أولِ أرض يطأها وأول تربة أوته ووضعته بين أحضانها رغم متاعب زحف الشمال. إننا نحمل نفس الجنون أيها الموريسكي الطيب. ها أنذا أرفع صوتي باتجاه صراخك وأبكي بعد أن استعصى الدمع على الذاكرة. يا الله، لماذا تخليت عنّا في هذه الخلوة؟ لماذا؟! من أدخل بني كلبون إلى هذه الأرض الطيبة. من جاء بالغرباء ليصنع المهزلة. من بدّد هذا الجسد المنهك والمنتهك في حقّه البسيط؟ من جعل هذه الوجوه تمضغ الكآبة باستكانة؟! لنشترك جمعياً في صياغة المهزلة، بعدما هرب الورّاقون والمؤرخون إلى القصور. لنقل عن القوالين الحقيقة التي سرقت منا في كل الأزمان: لقد تعبت من الجنون، وحصاني «العود بوبركات» الملّون خسر جسده وأقدامه وصار قصبة هوائية فارغة من الداخل. لنشترك في التأريخ للفجاجة ولبحة الأصوات المفجوعة. أنتم الآن ضالتي وفرحي وحزني في هذه المدينة الوحيدة. كنت أخاف أن أحكي همّي، فلا تسمعني من شدة الرعب والخوف سوى الحيوانات التي تجاورني في الحديقة الوطنية المهملة. الآن كل شيء استوى على هذه الأرض. لم يعد هناك من يخاف يا ابن أمي. كل الفصول صارت فصلاً واحداً. كل الوجوه الطيبة اختصرت في دمعة أو في قطرة دم. كل الأسواق الشعبية سحبت من العيون وأفرغت من ظلال النخيل والزيتون. لم يبق شيء يستحق الذكر سوى الموت والخوف.

حين عاد الموريسكي، يا عمّي الطاووس، كان رأسه ممتلئاً بمحارق محاكم التفتيش المقدس، وقلبه ظل مفعماً بأناشيد قوّالي حارة البيازين. وحين وقف في مواجهة الحاكم التركي، قال: ياصاحب المقام المرفوع، أيها الباب العالي، سأقص عليك كل شيء



Twitter: @ketab_n

وعليك أن تحكم، وسأكون راضياً بعد ذلك. حكى عن الكبيرة والصغيرة. عن كل التفاصيل، عن حي البيازين، عن دموع ماريانة، عن الأرمادة، والقرصان الإيطالي وزبانيته، عن الرجل الطيب الذي ساعده. عن الموجة التي تعانق الموجة وهو تحتها مثل اليتيم، أنفاسه تتمزق بتمزق البحر الذي اسودَّ وازدادت أملاحه، وعن الأطفال أو القرصان، هو لم ير أحداً، ولكن حُكي له عنهم جميعاً، كيف وجدوه، وكيف تلاعبوا به وكانوا يظنونه ميتاً قبل أن يشتريه أحد التجار منهم ويقدمه إلى الباب العالي، وعن السمكة ـ المرأة، التي عثرت عليه فأنقذته ثم وضعته على الشاطئ قبل أن يأتي الأطفال، أو الرجل البدين ليبيعه بثمن لا يضاهى، لأن الرجل أكّد أن وطنيته جعلته يغامر ويلقي القبض على أحد الجواسيس لصالح السفن الإسبانية. كان البشير الموريسكي يلهث، العرق يتصبب أسود من على جبينه وهو يحكي القصة، وعندما انتهى، أو كاد، ضحك الحاكم التركي من سذاجته، وقال بنوع من اللاّمبالاة، هذه أساليب الجواسيس، وكلهم تكلموا نفس اللغة قبلك، ثم انسحب باتجاه أحد الصناديق القديمة وسحب منه وثيقة الإدانة كما سماها. اقرأ. تناولها الموريسكي كاد يغمى عليه. فعلاً لقد عرف الورقة. وعرف توقيع اليهودي ساموبل، ودمغة القرصان الإيطالي. حاول أن يصرخ، لكنه أخفق بفظاعة. حاول أن يصمت، لكن لسانه الذي لا يُلجم نطق بالرغم منه.

يا سيدي، قال الموريسكي، في الأمر خطأ. هذه الورقة اشتريتها بواسطة أخي من أحد التجار اليهود، تخوفاً من محاكم التفتيش، لاتقاء شرّها. ضحك الحاكم التركي مرة أخرى. قال، وهو منهمك في مص حلمة إحدى المسبيات التي أُدخلت في اللحظة إلى عين المكان. التفت نحوه بعينين حمراوين مسعورتين. احك أمراً آخر يا ابن الزانية. ثم رجع ليندفن من جديد في صدر المرأة التي لم تقاوم، وانسحبت معه داخل لذة مذعورة. لكن البشير الموريسكي لم يكن أمامه سوى الحقيقة. الحقيقة وحدها. الحقيقة التي تفقد ألقها


Twitter: @ketab_n

في مجلس الخوف. قال، يا سيدي هل أقول غير الذي أعرفه؟! أأحرق جلدي وأظلم عيوني؟! ماذا أقول؟ كان الحاكم التركي، قد نزع شرواله وانكسر بين فخذيها. كانت تُرغي مثل الموجة المكسورة، وكان يشخر كالدابة ويمدّ يده المشعرة باتجاه بطنها، ثم يزحلقه إلى تحت. تناهت صرخات المسبية إلى أذنيه، وهو ملتفت باتجاه الحائط الأسمنتي الخشن. حاول أن يفكر، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث. حين ألتفت، كان الحاكم التركي يغسل يديه من دم تخثر على أظافره بالماء الساخن والملح. ماذا قلت؟! قلتُ، يا سيدي أن هناك احتمال خطأ ما فأنا أحب هذه البلاد، ولا يمكن أن أتحول إلى جاسوس للسفن الإسبانية. حك الحاكم التركي أذنيه المصمّكتين، ثم أنكفأ على ظهره من جديد، وقبل أن ينطلق في شخير مقلق، صرخ في وجه أحد حراسه خذوه حيث الصراط المستقيم، صراط الذين لم أنعم عليهم، صراط الضالّين...

ماذا يقول! آه يا البشير يا ابن أمّي. الدنيا واسعة، ولكنها أصبحت أضيق من قلب عاشق حزين. وبقدر ما تتسع تزداد ضيقاً، ويكثر الألم ويتسع وجع القلب. ماذا أحكي وماذا أقول!؟ الكلمات تتصلب مثل الأحجار على أطراف اللسان، لأن الحقيقة تغيمت تحت بذاءة عيون الحاكم التركي. الحقيقة التي كان يملكها الموريسكي لم تكن كافية لتقيه شرّ المرضى والعصابيين. آه يا سيد العالمين، يا ابن امرأة ورجل مجهولين، يا ابن القفار وموج البحر المكسور، يا ابن الدار المسروقة، يا ابن الحنين، يا سيدي البشير.

أينك! أينك! لقد بدأ العدّ العكسي في هذه البلاد. انقذني من خراب الألسن والأدعياء. صممت اليوم أن أقول كل شيء، وها أنا ذا أقول ولتتغير الدنيا إذا شاءت، ولتتركني الخليقة إذا أرادت. لقد انتهى القص يا ابن أمّي، لكن شيئاً ما يشبه الحقيقة ما يزال تحت التربة. أعطني يا الله أظافر حتى أستطيع أن أنبش صلابة الأرض وأخرج بقية الحكاية. أعطني ما لم تعطه للأخيرين من قوة، فالناس


Twitter: @ketab_n

ينتظرون بقية الحكاية التي يجب أن يعرفها الجميع، والتي يا ابن أمّي لا أملكها. انتهى القص ولم ينته. ماذا أضيف!؟ لا أعرف لا أعرف؟!

ـ ها أنا ذا معك يا خويا المجدوب. تذكر. صدى البانجو ينزع أوتار القلب ويسرق الذاكرة من الآخرين، ويعيدها لك. احك يا سيدي. أنت مالك الحكاية. هي ذي الأغنية تسحبك نحو العصر المنسي. هو ذا رمل الماية يغطي صوت البانجو ودمعك.

*غنّ يا عيني. غنِّ.*

*القلب صار وحيدْ.*

*واش بقى لي في القلب شيْ،*

*نصير به عنيدْ.*

*آه يالوليدْ.*

*شكون باعك في سوق لعبيدْ...*

آه يا ماريوشا أنت تسحبين ما تبقى من أنفاسي بعنادك. لماذا تصرين دائماً على قول خويا. أن لست خوك، أنا حبيبك داخل خراب المدينة، عشيقك في وحدة الخوف. لا، لا يا عبد الرحمن المجدوب، هي ابنتك، قريبتك، من دمك. أنت مجدوب والسلام، تملأ الأسواق، تقص الحكايات وفي النهاية يذهب كل واحد إلى بيته لينام على صدر عشيقته. يتغطى بشعرها، يمد يده إلى جسدها، يفليه زاوية زاوية. وأنت أيها المجدوب، ماذا تفعل، تلم زوادتك، وتغادر باتجاه حديقة الحيوانات الوطنية وتنام هناك، طريقك الصدق، ومآلك الموت حقاً.

«احكِ يا عبد الرحمن. لماذا تتوقف اليوم في منتصف الرواية؟!».

ماذا أقول يا ربي سيدي؟! ماذا؟! تغيمت الرؤية وغابت وجوه



Twitter: @ketab_n

الثلج والياسمين. غاب النور وحضر ظلام الحكاية. لم أعد أعرف شيئاً. رموه؟! هرب؟! مات؟! وأنا أحاول أن أبحث له عن حياة جديدة! تخلّى عنه عشاق المهنة؟ لقد تركه الله وحيداً في قفر الموت، قبل أن يصيح بأعلى صوته، يا الله لماذا تخلّيت عنّي! لماذا تركتني وحيداً، أواجه الموت بيدين فارغتين، وذاكرة متعبة وقلب أصبح عاجزاً عن النبض؟! ماذا أقول أيتها الذاكرة الموشومة بألف جرح، وبعدي الذي قربني من ألف قائل وقاتل؟!

هل انتهى الموريسكي، واستسلم وقتها للموت! أم أنّ قصة أخرى قد وشمت في ذاكرة ما من ذاكرات الخلق، عليّ أن أجدها بكل الوسائل؟! عليّ أن أبحث في وجوه كل الأطفال المولودين، عليّ أن أجد من يتمّ الحكاية، قبل أن أعود إلى حديقة الحيوانات الوطنية لأدفن نفسي حياً وأقيم جنازة مع الحيوانات الأكثر إلفة من البشر؟ يقول الكثير من الناس عنك أيها الموريسكي إنك لحظة الحزن أمام الحاكم التركي دفنت نفسك حياً. أنت لا يمكن أن تدفن نفسك. تفضل التبدد إلى ذرات قبل أن ترى نفسك تدخل طواعية داخل حفرة الموت.

نسي سيدي عبد الرحمن المجدوب نفسه. شعر بالحرقة تملأ حلقه. تنتعله من أخمص القدم حتى شعرة الرأس البيضاء. امتلأ وجهه بالتراب، بعد أن تمرّغ كثيراً، يبحث عن الخيط الضائع داخل الحكاية المروية. التربة أحسن من غربان المدينة. نظر إلى الناس، تأمّل قسماتهم. كانوا كثيرين. شعر بالمسافة تزداد قرباً وبعداً في الآن نفسه. صرخ بأعلى صوته.

أنقذوني! أنقذوا الحكاية، لقد ضاعت الكلمات والحقيقة وسط الفراغ. لم يبق معي إلّا حصاني الملون والجرو الأجرب الذي لا يموت ولا يتركني أموت، والثعبان بوسكة الذي ينتظر نهايته ويهيء لموتي القريب.

لست أدري، هل صدقت أو لم أصدق ما كان يحدث أمام عيني. لقد روى الناس في القلعة الكثير عن سيدي عبد الرحمن المجدوب،



Twitter: @ketab_n

لكنهم كانوا بعيدين عن الحقيقة. إنّه يموت من أجل الحقيقة التي سرقت من تحت لسانه. الحقيقة التي يبحث عنها، والتي لا أملكها إلا أنا. سأقولها قبل أن ينكسر الخيط المؤلم. خيط رمل الماية في البانجو كل ما حدث لا أستطيع أن أستعيده بسهولة، ولكن الذي أعرفه جيداً هو أني وجدت نفسي في القارة أصرخ.

ـ حياتك أولى يا سيدي عبد الرحمن المجدوب. هي ذي الحكاية بين يديك. عليك أن تعرفها لترويها للأزمنة الغابرة.

بحلق فيّ بعيون مرتجفة عليها غيمة بيضاء مثل عيون الميت.

ـ لقد تأخرت تسع سنوات يا سيدي العظيم عن تاريخنا.

كان وجهه مليئاً بالندوب والأتربة، مثل طفل صغير، على فمه دهشته يحاول أن يحذفها، ولكنها كانت تستعصيي عليه بقوة.

ـ آه يا سيدي المجدوب، لم يسرق منك شيء. لم يسرق منك إلا الخوف والبذاءة التي أحنت رؤوس الخلق.

• كان علي أن اصدق، لأن المقصود بالحكاية كلها هو أنا. الناس تحكي قصصي، أنا الغرناطي الضائع في الأسواق الشعبية، حتى محاكم التفتيش لم تدفن لساني. لعنت اللحظة ومزقت الصمت. كان أنين البانجو قد زاد توتراً. ماريوشا بمجرد أن رأتني لم تسأل عن أي شيء. دوزنت الخيوط من جديد، وأدخلتني بحنينها في العصر الذي سرق حيي ووطني وذاكرتي. تمنيت أن أصرخ، أرجوك ماريوشا إنني أتمزق، ولكنني لم أفلح أبداً. نظرت إليها من جديد، بعيون ذابلة كحيوان يطلب طلقة الرحمة، ولكنها لم تنصع. شعرت بعيون الحاضرين تسألني.

ـ من أنت أيها الملثّم؟

ـ أنا ما تبقى من الحكاية. الحقيقة المخفية تحت لسان المجدوب.

نهض سيدي عبد الرحمن من مكانه بسرعة، كأن برقاً سرى في


Twitter: @ketab_n

دمه بقوة صاعقة. رأيت الرعدة التي انتابت وجهه بقوة. اقترب مني. تحسسني من رأسي حتى أخمص القدم، ثم نظر إلى الراعي الذي كان يقف بعيداً عن الحلقة بعصاه الزبوجية. تبادلا الابتسامة. هزّ الراعي رأسه في غفلة الجميع إلّا ماريوشا التي كانت تتبع حركات المجدوب واحدة واحدة.

وفجأة التصق بي، كقشة النجاة داخل بحر مخيف. زمّ فمه. سمعت صرير أسنانه وهي تتقاطع بقوة.

ـ لماذا تأخرت يا ابن أمّي. هو أنت يا سيدي. أنت بلحمك ودمك. تأخرت كثيراً أيها الموريسكي الطيب. ورأس لالّا ماريوشا، هو أنت بكل شوقك وعنفوانك. تصوفت حتى متّ بلباسك الصوفي. وجهك المتعب لحيتك التي لم يغطها اللثام، عيونك المندهشة، كل شيء يفضحك. سمعت بعودتك وكدت أن لا أصدق، وها أنا ذا أقف عند أقدامك، علي أن أعترف قبل أن أحترق أنك صفاءنا الوحيد وسط هذا الموت الذي اتسع حتى صار قيامة... قيامة... قيامة...

ثم اندفن داخل نوبة من العويل أثارت المارين.

تمتم أحد الحاضرين في أذن صاحبه يهم بمد يديه إلى سيدي عبد الرحمن المجدوب ليساعده على الوقوف.

ـ أيعقل أن يعذب الجنون صاحبه لدرجة التهلكة.



Twitter: @ketab_n

# 8

عيون شهريار بن المقتدر بدأت تبيض شيئاً فشيئاً، ولكنه قبل أن يقوم إلى السرير، دغدغته نسمة باردة، تسربت من بين الفتحات الموضوعة خصيصاً لتبرد الجو. لكن حاجبيه ظلاّ مقطبين طوال فترة الحكاية. وقتها كانت دنيازاد، قد لملمت ثيابها حتى أوصلتها عند الصرة التي بانت استدارتها الكاملة على غير العادة. اشتهاها، أراد أن يقولها، ولكنه خاف أن ترفضه كالعادة في لحظة الخلوة. شعر بخوف ما يصعد من تحت أقدامه. لقد وقع بين دم الرغبة وسيولة الحكاية. تمتم: ابنة الزانية، تعرف احتراقي المزدوج ومع ذلك تستفزني في حميميتي. وحق محمد سأقلع عينيها وإلا لن أكون أنا، مدّ يده إلى جسدها نزعتها بهدوء. قالت، يا صاحب المقام العالي، بين الحكاية والرغبة مسافة صغيرة اتركها تسير على هدوئها. لا ترغمها. اتركها تمارس سيولتها حتى تصل إلى الجسد المتعب. اتركها يا سيد البلاد والمدن جميعاً.

رسمت ابتسامة طفولية في عينها.

ـ ألا تريد أن تعرف البقية!؟

تقلّب شهريار بن المقتدر حاكم الجملكية على بطنه. ماذا وقع لهذا المنقرض الذي جاء يخرّف، وحوّل كذبة إلى حقيقة. من أين جاء ابن الزانية هذا؟! كان على الحاكم التركي البدين أن يبيده مثلما تباد الحشرات. لماذا ورّثَ لنا خرابهُ.



Twitter: @ketab_n

قالت دنيازاد، أيها الحكيم، يا حاكم جملكية نوميدا ـ أمدوكال،

ـ سمعينا سمع الخير.

قالها وهو يغمغم داخل وسادة نصف ممتلئة كان يضعها على رأسه ويكّز بأسنانه كتانته المعتادة. قالت وهي تتربع من جديد عند رجليه، أتمنّى أن أُسمعك الخير. لكن في القصة جروحاً عليك أن تعرفها، أن تشمّ تعفنها قبل فوات الأوان. لقد غيرت الدنيا بكاملها، غيرت أسماء الشوارع والمدن، أسماء المولودين الجدد. كتبت تاريخك، لكنه الآن يحاول أن يكتب تاريخك كما يراه. سأصير في تاريخه عشيقة لأحد السياح، وسيصير ولي عهدك لقيطاً، وتصير أنت آخر السلالات المريضة.

غطّى شهريار بن المقتدر وجهه من جديد بالوسادة وغمغم ببعض الكلمات. أمّا الأولى فصحيح، وأمّا الثانية فسأنزع لسانه قبل أن يقولها أو يكتبها.

كان الشاطئ، يا صاحب المقام العالي، مقفراً في ذلك اليوم، ولا يسمع في الليل الهادئ إلا تكسّر الأمواج، وهي تتذابح الواحدة بعد الأخرى. مدينة نوميدا ـ أمدوكال، تبحث عن مفقودها وسط الفراغ. ينتحر البحر بألوانه الداكنة عند أقدامها. نبتت على ظهرها سبع هضبات متقابلة يبدو أنها شيدت على بقايا مدينة رومانية قديمة. الوجوه مقطبة تبحث عن مرافئها داخل الفضاءات الواسعة. كل شيء خسر ماهيته وألوانه، حتى التنفس سيصبح بعد أيام قلائل مستحيلاً بدون ترخيص مسبق. مالذي تغير داخل هذه المدينة التي ينخرها الحزن والخوف من المجهول. لا شيء للسرقة، القتل العلني، الاختطافات التي لا تتوقف، الكلاب تعضّ الغادي والرائح، النباح يزداد ضراوة، والصراخات تزداد، وكلما نزلت الظلمة تزداد اقتراباً بشكل غريب. ماذا بقي؟.

التاريخ ملّ من تدوين الكذب، والحزن، والجراح التي تعفنت.



Twitter: @ketab_n

لاشيء تغير في هذه البلاد. نفس الرتابة ونفس القلق. الرعب في داخلي، كأني سحبت ورائي محاكم التفتيش، يقول البشير الموريسكي القادم من الأغوار. أصداء أوامر توركيمادا وزمينير تملأ الآذان. ما الذين تغير يا ابن أمّي. لا شيء. شهريار هو شهريار. خرج من كتب التاريخ المهزوم ليصير حقيقة. أسماؤه تعددت مثل عظماء روما. والفقير في هذه البلاد لا يختلف عن سبارتاكوس، لا يحق له إلا اسماً واحداً، أما هو الحكيم، ابن المقتدر، فله الأسماء كلها. مثله مثل الأسلاف، جيء به من خلاء غير معروف، منذ زمن بعيد يتجاوز الثلاثة قرون. ربما منذ الحاكم الرابع. بعضهم لا يبحث كثيراً في الحفريات، يقول أن أصله يعود إلى 295 هجرية. كان عمره ثلاث عشرة سنة عندما استولى على الحكم، وطُرِد منه بسرعة. وعندما اشتد الغليان دخل بنو كلبون البلاد، واحتلوا قلاعها، وضعوا على رأسه تاجاً وأرجعوه إلى سدة الحكم وأجبروه على بعض الإجراءات الديمقراطية من بينها نزع كلمتي جمهورية ومملكة، وتعويضهما بمختصرهما «الجملكية» وسمي هو حكيماً لرزانته الكبيرة. وحين دفعوا به إلى واجهة التلفزيون في خطبته الأولى شَرَحَ كل الإجراءات التي قام بها. قال: النظام الملكي أصبح مستهلكاً وظالماً، وقديماً. فالملوك إذا دخلوا البلاد أفسدوها. أما فكرة النظام الجمهوري التي تملأ القلوب لم تعد صالحة لأرض مثل أرضنا. يجب أن نختار دائماً الطريق الوسط، فهو أفضل الطرق. خير الأمور أوسطها، قالها نبينا الكريم عليه الصلوات والسلام. وفي الفترات التي تلت عملية التنصيب، أحاط نفسه بجلال الكرسي الأجنبي وعيّن أمه قهرمانة في بيت الحريم. كان يذكرها في كل خطبة رسمية أو غير رسمية. مقياسه الأعلى في التضحية. كانت تقول له دائماً: إذا أردت أن تحكم مطولاً كلبك فما عليك إلّا أن تجوّعه حتى الموت، سيلحس رجليك مع الزمن. إحدى خادمات أمه كانت تقف في ديوان المظالم وتنظر في الدعاوي وتوقع عليها. تعري الناس في حضرته، وتعبث بأجسادهم كما



Twitter: @ketab_n

تشاء. تعلم من أجداده كل أساليب القتل والتعذيب، وحتى عندما فرّ فيما بعد بزمن طويل، وواجهه ابنه بالسكين، كان وزيره المخلوع الطاووس بن أمه أول من اندفع باتجاه دهاليز القصر والمخازن فوجدها مملوءة بالجثث. ديمقراطي في كل شيء. يقول إنها الصفة الوحيدة التي لن يتنازل عنها أبداً مهما كان الأمر، ولهذا طلق زوجته الأولى ببيان رسمي متلفز أصدره في مجلس الأمة. طلقها لأن الدعاية التي راجت حول شرعية ابنها هزت أركان الجملكية. في البداية عزلها. حتى دنيازاد (قطر الندى) كانت تخاف من تهوره. وتدرك أنه إذا لم تأكله سيأكلها هو لاحقاً. قال في مجلس الأمّة: إن زوجته الأولى تجاوزت حدود الله. ماتت مسمومة عند باب المسرح الوطني الذي كان وقتها يعرض مسرحية جديدة عن خصال شهريار بن المقتدر. نفض يديه وقال في التلفزيون، في صورة مكبرة: الآن أتممت شؤوني، وأفضتُ عليكم نعمتي. وهو يلبس لباسه الحريري، ويهمّ بالخروج من مجلس الأمّة تمتم: أبناء القحبة. ظاهرة على وجوههم. الابن لم يكن ابني أبداً. فروخ من فروخا الأحياء القصديرية. كان يسخط في وجهي وهو صغير، ويتدخل بيني وبين أصدقائي الأجانب. ابنة الكلبة يبدو أنها نامت مع زنجي لأن أسنانه كانت بيضاء مثل الحليب، وفي وجهه شيء ليس منّي ومن أجدادي. كلفتُ الدارسين في الأعراق، فلم يجدوا لي ما يبرر شكله. لو فعلتها مع أصدقائي الأجانب لكان الأمر هيناً، أولاً تساهم في تحسين النوعية، وثانياً وهذا المهم، فهم متعودون على كتم الأسرار. أما خدامنا، أبناء الكلبة، الواحد فيهم، إذا نام مع إحداهن، يعتبر ذلك فتحاً مبيناً، ومكسباً وطنياً. دنيازاد أعرفها. ليست مثل دابة الغواية شهرزاد. فهي تركبهم قبل أن يركبوها. هي بنت كلبة ولكنها تعرف ماذا تفعل. تمارس الجنس مثل الجنية. علمها أصدقاؤها الغربيون أن تكون فوضوية فيه. الفوضوية!؟ آه ياباكونين، أيها الدرويش الأعمى. النقطة الوحيدة التي اتفق فيها مع الماركسية هي ترفض الفوضى وأنا أرفضها. يجب ترتيب الأمور. أوان قتل دنيا زاد (قطر



Twitter: @ketab_n

الندى) لم يأت بعد. تكفلت بالأولى، سممتها عند مدخل المسرح الوطني، وصلبت ابنها عند مدخل القصر. الديمقراطية تحتم علينا تخطي الذوات. حتى دنيا زاد عندما سألها عن سرها، بعد هذه الحادثة بزمن طويل، طويل جداً، لم تجبه مباشرة وتركت ذلك لليلة السابعة بعد الألف لتفضي بسرها له. قالت: أن الملك كان عقيماً، وكان في حاجة إلى وريث. نمت مراراً مع أحد الصحفيين. ثم تلعثمت. ربما كان سائحاً. العيب فيه. هو الذي أدخل الوجوه الغريبة إلى البلاد وأعطاها كل الضمانات. حتى أصدقاؤه الأمريكي الفرنسي، الألماني، يؤكدون ذلك. كان عقيماً وكان يعرف الحقيقة. وحتى حينما حاول أن ينتفض من مكانه بعد هذا بزمن قصير كان كل شيء قد انتهى. الليلة السابعة لم تبق منها إلّا بعض الدقائق المعدوادات لإتمام الحكاية. أجلست ابنها على الكرسي لمدة ربع ساعة، ليظهر مرتبكاً على الشاشة في خطاب الأمة، لتنسحب بعدها باتجاه المخازن والأنفاق بين الجثث تبحث لها عن مكان ما للمرور بالطائرة المروحية التي كانت تنتظرها في زاوية مظلمة فألسنة النار بدأت تدخل من النوافذ والأبواب، وأصوات البارود كانت قريبة لدرجة أحست معها أنها داخل القصر. الساعة كانت قد وقفت عند حدود ذلك الزمن، الذي لم يكن من الممكن إطلاقاً تمطيطه ولو لمدّة دقيقة واحدة. لأن الليلة السابعة كانت قد ختمت الزمن الماضي، الذي يقاس بالقرون، بالشمع الأحمر. إذ لم يعد من الممكن على الإطلاق أن ترى الدنيا خارج الأشعة الضوئية الغريبة التي كانت تخترق العتمة من كل جهة. انتهت الليلة الأخيرة، التي كان فيها حكام الجملكية ينزلون إلى الأسواق، وإلى دور النخاسة، يتفقدون الأوجه الملونة للحصول على جارية تضاف إلى الحرملك، أو على بعض الغلمان. فقد كان أمراء الجملكية معجبين جداً بصوت نشوان ويحلمون بأوراك خزامى. زيجات كثيرة تبدأ بشهرزاد وتنتهي بدنيازاد (أو قطر الندى) التي وضع حكيم الجملكية بين فخذيها اللذين لا يفتحان بسهولة كل الأملاك ورؤوس الرعية. قال: الواجهة


Twitter: @ketab_n

النسوية الوطنية يجب أن تكون محلية وجميلة، وأحاط نفسه بالإنجليزيات والأمريكيات، والفرنسيات. يقول في خلوته لندمائه إنك عندما تركب أجنبية فأنت تركب حضارة بكاملها، وبإمكانك أن تبتذلها أو تقدسها كما تشاء. ولكنه في الهزيع الأخير من الليلة السابعة ظل يستجدي أن تضاف له بعض الثواني، لكن الزمن كان قد مرّ. والدماء تملأ الأرجاء، والأدخنة تعمي نوافذ البنايات العالية والشمس تحاول أن تصارع بصعوبة غيمة الشتاء والحرائق الثقيلة.

قبل هذا الزمن الذي انتهى في رمشة عين بفترات قصيرة، وفي لحظات وجله، قال شهريار بن المقتدر: الدنيا تدور دورات غير عادية، وغير آمنة. يجب أن نغير ترتيب الأشياء ولا يمس الإصلاح أعلى الهرم، بل حتى الأشياء الصغيرة. فالخراب قد يأتي من التفاصيل. وبموجب هذا القرار، صار الخياط قاضياً والقاضي شحاذاً. خلع هذا الوزير وسملَ عيون ذاك. وضعية عمي الطاووس بن أمه شملته هذه الرعاية العجيبة كما كان يحلو له أن يسميها. زج بالكثير من أقربائه إلى السجن. سمم زوجته عند مدخل المسرح الوطني، صلب ابنه الذي شك في نسبه أمام الملأ. كل ذلك من أجل تحسين وضعية البلاد والسير بها باتجاه المجتمع الديمقراطي. أحياناً يحلو له أن يعتز بأجداده، وفي أحيان أخرى يرفض كل نسب إليهم. يحبهم لأنهم لم يسلموا الحكم للرعيان. قبضوه من رقبته، وحمّموا المدن بالدم والدموع والقيح المختثر في الجروح التي تعمقت حتى صارت أوراماً. يؤرخ هو في كراسته الصغيرة لأكثر من ألفي مأثرة من هذا النوع لأكثر من عشرين جداً. الأول قَلَبَ نظام والده وسرق من تحته الكرسي الذي التصق بمؤخرته ولم يُنزع منه إلا بعد ما أحدث فراغاً دامياً في إليتيه المنتفختين. الثاني أكل رأس أخيه، والثالث قتل العائلة بكاملها والجيران، والذين يحملون وداً للسابقين، ثم جلس على الكرسي وفي يده سيف ثقيل هو نفس السيف الذي قطع به رؤوس العائلة، ونفسه الذي قطع به رأسه قبل أن يرمى في أنفاق القصر، ويُدفن بين الجثث بدون فونفار ولا موسيقى



Twitter: @ketab_n

جنائزية وقيل إنه انتحر، وظل أبناء الحاكم الجديد يتقاتلون، ولما جاء أكثرهم ثقافة، حكم يوماً واحداً ثم قتل. حينما أراد أن يصلح البلاد طالبته الجيوش المستوردة بزيادة الرواتب. كانت البلاد منهكة، استنجد بأمه التي كانت تملك أكثر من مليون دينار ذهبي، لكنها فضلت أن تتركه يموت. في البداية مُنع عنه الماء والشراب، وحين أصرّ لم يجد إلّا سفوداً ساخناً أُدخل في قلبه حتى خرج من الظهر وهو ما يزال يحافظ على حمرته. بعدها فرجت رجلاه، وجيء ببغل ثقيل فرفس خصيتيه بقوة حتى صعد الدم اللزج إلى أعلى سقف حجرة التعذيب. أخوه الذي جاء بعده مات مشنوقاً. سلم كل شيء للعسكر نكاية في أخيه واستفادة من تجربته. فأكلوا رأسه، وخلعوا أصابع يديه ورجليه، وتركوه يوماً ينزف في أحد الدهاليز، ثم علقوه في شجرة خروب يابسة، وتركوه هناك حتى يبس وتحلل قسم كبير منه. استأثر الأخ الثالث بالحكم بعده، كان مريضاً بالنقرس والفيل، وضجر الناس من حمله فقُتل مسموماً، وحين جاء الجد القريب من حاكم جملكية نوميدا - أمدوكال، وضع الخزينة بين فخذي قطر الندى بعدما التهم نيران كل الثورات ووضعها في جيبه وحولها إلى أيّام زادت في عمره بعض السنوات. وانتهى بين منافذ البحرين وأبواب الجوقة. بعد زمن طويل من هذه الانتكاسات اعتلى الصبي الذي لم يتجاوز عمره ثلاث عشرة سنة سدة الحكم. خلعوه، ثم أعادوه. ارتكب حماقة سياسية خطيرة حينما قال آن الأوان للتفكير في استقلال البلاد وإصلاحها. ويقول حكماء المدينة إنه كان ينوي تطهير الجيش من الداخل، والاكتفاء بالقربى وآل العشيرة، وتنظيف جهاز الحزب من البراثن التي تعيق تطوره. كان مصمماً على بعض التأميمات، فبعض القصور والفيلات التي كان يملكها أناس خارج العشيرة سحبها بعد أن أخرج سكانها، وأعلنها أراضي مؤممة، وضمها مع الزمن إلى حظيرة العائلة الحاكمة. كما صمم على تأميم القناة الوحيدة للتلفزيون. وأصبحت تبث من القصر مباشرة. هو نفس التلفزيون الذي سيبث بعد زمن غير قصير صورة



Twitter: @ketab_n

آخر حاكم للجملكية قمر الزمان ابن شهريار بن المقتدر بعد أن مُلئ وجه بالمساحيق ومُلئت الطاولة التي كانت أمامه بالألعاب الحربية بجانبه إمرأة شقراء قوية البنية تصحح كلماته المتقطعة. أنا حاكمكم الجديد، لقد قمت بإطلاق سراح كل المساجين، من بينهم عمي الطاووس بن أمه وزير الثقافة سابقاً والشحاذ حالياً وطالبت إعادة الاعتبار له ولغيره، وسمحت بالحوار اليومي في الطرقات وضد أن تختصر في الليلة التي تلي مرور سيدنا الخضر وهي تصادف يوم السوق الشعبي. لم يستمر هذا الزمن طويلاً فقد حصر في ربع ساعة كانت كافية لأن تروى فيها نهاية عصر بكامله من اللّاجدوى. شهريار، عندما انتعل البلاد، لم يكن الأمر صعباً بالنسبة له. فقد وجد جهاز التلفزيون مؤمماً قبل ذلك بزمن. فسخّره لكل القضايا التي لها علاقة بمصير الأمة. هناك نصف ساعة يومية، تحولت مع الزمن إلى برنامج يذاع في كل أوقات الفراغ، حيث يذرف الحكيم الدموع المدرارة حزناً على الرعية والناس الذين يقاسموه نفس الشعور بالحزن الأبدي عن السابقين الذين ملؤوا تاريخ البلاد بطولات وتضحيات من أجل الصلاح العام، فتنكفئ كادرات الحزب والدولة بكاملها واءه بالدموع، مصطفين الواحد تلو الآخر، مثل صلاة الجمعة، يلبسون الألبسة الخضراء المزركشة. ذات مرة عثر عسس القصر على مواطن صالح يبكي قالوا له: مما تبكي يا هذا؟! قال: من دموع سيدي. قالوا: كل هذا الحب. قال: أكثر. لقد مللناها. كرهناها. حتى صرنا عندما نريد أن نبكي نشعر باللا جدوى. قولوا له أن يترك حنينه. القيء يدخل إلى عيوننا مجبرين. يا أخي انصحوه. قولوا له إنك لم تعد مقنعاً. بهدلتنا أمام الدنيا والآخرة. حتى الله سيحزن من أجله كثيراً. وبدون استفسار أو محاكمة نزعوا لسانه من الحلقوم في اللحظة نفسها. وحين حكوا القصة لشهريار الذي كان يستمتع بغفوته الاعتيادية. قال لهم: أتوني به. أريد أن أشرب من دمه واستعمل رأسه المقعر لشرب الخمرة. حين عادوا إلى الرجل وجدوه قد لفظ أنفاسه من شدة النزف. ساورهم خوف مزمن.



Twitter: @ketab_n

يعرفون أن العودة بدونه ستكلفهم رؤوسهم. انتصبوا على أحد أطراف الشوارع الخلفية، ثم سطوا على أحد المارة، كان يحمل درعية فارغة. نزعوا لسانه، كمّموه وعيونه مشدوهة لا تعرف سر الحكاية وحين وُضع بين يدي شهريار بن المقتدر، قال له احك! ماذا كنت تقول يا ابن الكلبة. لم يستطع لأن الألم كان يملأ فمه. عرف أنه سيموت، جمع بصقة دامية، ثم رسم بها خطاً مستقيماً لزجاً على جبهة الحاكم. فحزّ رأسه بسكين مثل الشاه ثم عاد إلى الكرسي يواصل غفوته قبل أن يستيقظ على أحد الانفجارات القريبة. طمأنه الحراس بأن الأطفال يمرحون بالألعاب النارية احتفاء بخطابه الأخير. ابتسم، ثم عاد إلى غفوته الأولى بعد أن سمع ما كان يريد سماعه.

أوف هذه هي مدينة الخرافة! ماذا بقي منها؟ إنها تتآكل. البحر يزحف من تحتها، والرياح تتجمع فوق رأسها مثل الطوفان. كنت متكئاً على حائط تكنسر الأمواج. أبحلق في تجاويف هذه المدينة التي لم أفهمها بسهولة، المدينة التي تنام على الهضاب الكثيرة. كانت قلعة حكماء المدينة تبدو مثل النقطة الضائعة في الأفق. لقد نصحوني كثيراً ولكنّي عاجز أن أنام بين الحيطان. لم أكن أعلم أن الدنيا ما تزال حية في أفواه المجانين وأصحاب الحلاقي. علمت فيما بعد علاقة سيدي عبد الرحمن المجدوب بسكان القلعة، لأن ما حدث في السوق كانوا على علم به من الأول حتى الأخير. في لحظة من اللحظات كدت أن أصدق أن ما حدث لي ليس إلا وهماً، ولكن من الصعب علي أن أنسى كل ما حدث لي، وما رأته عيناي. كانت ماريوشا هي ضوئي الوحيد، حتى عندما أدخلت إلى السجن كانت وسيلتي الوحيدة بيني وبين العلماء الذين قال لي شيخهم الأكبر، شارحاً لي ما غمض من الحكاية: العيون التي كانت تستهدفك كثيرة، حتى سيدي عبد الرحمن المجدوب خاف عليك عندما رآك تدخل إلى القارة محملاً بالحزن والشقاء والحكايات التي لا تموت. كانت العيون الطيبة المندهشة تتاسبق نحوك. سمعوا بك وفوجئوا أن يروا



Twitter: @ketab_n

وجهاً غائباً ومغيباً يعود من جديد. هل نقول لك يا ابني مرة أخرى، إنه كان عليك أن تظل مختبئاً وراء اللثام؟! تلك حكاية أخرى. لأننا نعرف أنك لن تكون إلا أنت، وستعصى كل الضوابط والأوامر. وكلامنا سيكون قاصراً، لأن حنينك أكبر ومجيئك اتجاه هذه البلاد علامة. كان المجدوب وماريوشا التي رأيتها لأول مرة عند رماد سيدنا النينوي يريدان رؤيتك عندنا. ولكننا أجّلنا كل شيء إلى الوقت المناسب. قلنا لهما يجب أن لا نستبق الزمن. لأننا عندما نسبقه أو نحاول أن نلحق به، نكون قد ارتكبنا حماقة اتجاه العصر والوطن. العلاقة بالزمن يجب أن تأتي في أوانها. قلنا لهما، ستعرفانه في أعماق الناس. ولهذا، عندما رأى المجدوب وماريوشا، غرناطة والمارية في بؤبؤ عينيك الذي فقد ألوانه الأصلية، أخذته رجفة الاكتشاف. قال في لحظة الدهشة: هي رجفة يا سيدي وتمضي ولكنها لم تمض فبدأ يعوي مثل الذئب في خلاء مقفر. وحين كنت قد توسطت القارة كان المجنون قد مات، وحلّ محل الرجل العاقل، المنظم. انسحب رقاص بوسكة، وبياع الأعشاب الطبية، ونهض الرجل الذي لا يريد أن يمارس نفس الدور. لقد تعب. قلت للشيخ الذي كان يروي الحكاية بتأثر بالغ، وهل أسأت إليه أيها الشيخ الطيب! قال: لا يا ابني، لقد أنهيت دوره فقط، وأدخلته في دائرة أخرى. فالجنون ليس حالة فقط، فهو فعل. كان عليه أن يصبح شيئاً آخر. عندما تغيرت اللحظة، لم يكن بإمكان الدنيا أن تتحمّل حالات الاستسلام.

ـ يا شيخنا، أيحدث هذا وأنا الذي كنت أنوي أن أوقف لعبة الخراب وأن أساعد سيدي عبد الرحمن المجدوب؟

ـ أنت نقلته من الجنون إلى العقل. وكان يجب أن يحدث هذا. الآن سيوغل من جديد في زمن نوميدا المنتهَك.

أتذكّر يا شيخي أن فمه كان مليئاً برغوة الأشواق والسحق والدهشة. كانت عيناه تدوران لدرجة الاستكانة على البياض فقط،



Twitter: @ketab_n

وغاب البؤبؤ داخل موجة الصراخ والندب والبكاء. تمرغ مثل الطفل والصغير. الحاضرون اندهشوا من دروشته العجيبة. أيعقل أن يعذب الجنون صاحبه حتى التهلكة؟! مسح الرغوة من أطراف فمه بكم يده وبدأ يعوي من جديد. هو أنت يا سيدي. لقد تأخرت كثيراً. تسع سنوات بعد القرون الثلاثة؟! تمنيت في تلك اللحظة أن أظل ملثماً أعيش قداسة المشهد، ولكنّي فجأة وجدت نفسي داخل الدائرة التي اتسعت وانغلقت. صَمَتَ كل شيء، حتى حنين سيدي عبد الرحمن المجدوب، عيون ماريوشا لم ترمش، ثبتت على وضع الدهشة. غابت نوميدا ـ أمدوكال داخل نقطة دم استحمت بها عيوني، وسقطت في جوف المدن القديمة، فبدأت ملامح غرناطة تتشكل، حي البيازين. رميت اللثام ولباس العلماء وبقيت بلباس الموريسكين المزركش بألف لون. أردت أن اختصر الحكاية، لكن وجه جدي المتعب بتربة جبال البشرات، والأرمادة، وعيون القرصان الإيطالي، وصراخات حمود الإشبيلي... ملؤوا عليَّ حضوري. نسيت نفسي ولبست جنون اللحظة. كان سيدي عبد الرحمن يغرق داخل غيمة الدهشة. يغرق. يغرق. ويصر بعينيه المتعبتين على معرفة كل الحكاية. يا سادة الخير، العمر مثل الفلك يدور والمتعة لحظة وتزول، والقيامة آتية لا ريب في ذلك، والمراجل لم تعد تطيق الرماد. تبحث عن جمرتها المتقدة. وقبل أن أنهي الدورة الأولى داخل الحلقة، قال أحد الحاضرين، وهو يحاول أن يوصل كلامه لجاره فقط: حق محمد هذا السيد مجنون أكثر من سيدي عبد الرحمن المجدوب. يقول إنه صاحب الحكاية. الله يحفظنا من مظاهر القيامة. كان وجه سيدي عبد الرحمن المجدوب قد بدأ يستعيد صفاءه مثل القمر، تعذب كثيراً قبل أن يولد من عمق الخوف الذي غادر عينيه فجأة. قال أحدهم: هذا كلام المهدي الذي وعدت به الحكاية والكتب السماوية. وكان بيني وبين الكذب مسافة تحولت إلى قطيعة. قلت بأعلى صوتي: لا لست المهدي. لا أملك سحره ولا تاريخه، ولا حتى تفاصيله. لست


Twitter: @ketab_n

أكثر من البشير الموريسكي الذي حرق قلبه مقابل التربة التي عشقتها الذاكرة. لست قصة، فأنا بشر من لحم ودم وعظام.

«احك وقلبنا معك».

قالها المجدوب وهو يحاول أن ينام في حجر ماريوشا التي لم تكن لتصدق ما تراه بسهولة. تذكرت أنها رأت بعض هذه الملامح الرائعة عندما صُلب سيدنا النينوي في ذلك الفجر الأسود. رأيتها وهي تمسد على شعر المجدوب فتذكرت غرناطة. صمتُّ لحظة. تسمرتُ في مكاني. كان حريق ما قد نشب بداخلي. رأيت أشياء كثيرة اندفعت باتجاهي ككومة من الزمن الضائع. ولم يوقظني إلا صراخ أحدهم: يا شيخنا واصل، نحن ننتظر البقية. تمتمت بكلمات لم أكن أعرف معناها جيداً. نون والقلم وما يسطرون م. هـ. ف. ل. ع هي حروف القلب وذاكرة العاشقين. ارحمنا يا معين. كانت غرناطة تلبسني، والمارية تفتح قلبي مثلما يُفتح المحار. ووجه ماريانة، في غيابه، كان ممتلئاً بالفرح. روائح الأسواق الشعبية تملأ فمي وأنفي، العود القماري، عود النوار، أصوات الباعة، العطور الهندية. أشياء مذاقها مذهل على رأس لساني وحلقي. عيون الحاضرين تتسلقني بهدوء ثم تنزل رويداً رويداً، كل واحد يحاول أن يجد تفسيراً لقصته في أعماقه. المجدوب كان قد استسلم لأنامل ماريوشا ولعيوني. غريب كيف يتحول هذا الرجل في لحظة واحدة إلى حمل وديع؟! وهو الذي حارب الشرطة وكتاب الدواوين على مكانه في السوق حينما أرادوا إزاحته. لم يفلحوا بالرغم من كل التهديدات. قال الذين يملكون زمام الأمور: مجنون اتركوه. لا تحوّلوه إلى شهيد قبل الأوان. لن يحرك نملة. لن يصدقه أحد إلا المجانين الذين لا يقتلون ولا يحيون. وماذا لو استحالت الدنيا كلها إلى مجانين! فتحت ذراعي في شكل صليب، بعدها بدأ الذي كان يجب أن يحدث. كانوا يا سادة يا كرام صغاراً. عيونهم تصفّق للرايح والجاي. الناس كانوا ينتظرون شيئاً جديداً. غزاهم حزن المأساة والبحر والشواطئ التي هجرتها النوارس البيضاء. كانوا هنا



Twitter: @ketab_n

واقفين. أياديهم على قلوبهم، ونظراتهم مرتشقة باتجاه الأمواج التي كانت تتكسر أصداؤها على الشاطئ المهجور. آه لو يتذكر هذا الرمل الذي يتسرب بين الأصابع، سيقول الحقيقة، التي حاول الكثير أن يدفنها حية.

«ابكِ يا سيد البحر والموج والألواح. نحن معك».

هو الرمل يا سيدي يغادر شواطئه بحزن كبير. هي الأسماك، يُسحب من عينيها لون البحر الذي لا يستقر أبداً على لون واحد. لقد اختلطت الكلمة بالحكاية. آخر الدمعات سرقها القرصان الإيطالي والبحر الملوث بسماء قاسية. آخر الابتسامات وضعتها محاكم التفتيش المقدس على مناضد التعذيب والحديد. سأصنع معكم أناشيد غرناطة المسروقة، سأبحث عن كلمات الجدب التي دفنت في الأزمنة الفائتة، استحضرها. ولتكن شاهدي في هذه الباخية (la baji المغامرة الجميلة). لست هنا لاسترجاع مجدٌ ليس لنا. الأندلس غزوناها واستعيدت منا بعد أكثر من سبعة قرون. لقد بنينا الخراب، وشيدنا الفلوات داخل مدن لم تكن تملك سوى البحر والكبرياء الزائف. لست هنا، لأن ذلك الزمن انتهى، وعاد إلى طريقه الأوّل. اسمع يا خويا المجدوب، بيننا ذلك الخيط الرفيع من النار المقدسة، وشعاع شمس ملونة لم نرها إلا في الأحلام. أنت تناجي حيواناتك في الحديقة الوطنية وأنا أبحث عن حنينك يا ابن أمي، أبحث عن جدبك لأقرأ عمقه وشوقه، وشوق هؤلاء الناس الذين تعودوا على آلام خيوط بانجو ماريوشا. الباخية تبدأ من تلك الليلة التي انتابتني فيها الرغبة المفاجئة لابتلاع البحر دفعة واحدة. لكن البحر قهقه كثيراً ثم نام بهدوء وطمأنينة. أصعب شيء أحسه حينما يغادرني البحر ويخون أملاحه ويتنكر لذاكرته وآلامي. آه يا وعدي على البحر الذي يَقبل مرتاحاً أن تُسرق ألوانه القزحية أمام عينه. قلتها وأنا أموت بين الموجة والموجة. سمعت أصواتاً متعددة غير متناغمة. عرفت فيما بعد أنها لم تكن أصواتاً حقيقية، ولكن لحظات خوفي وضعفي، هي التي صنعتها. شعرت بندم كبير عندما رأيت



Twitter: @ketab_n

سفينة القرصان الإيطالي تغيب شيئاً فشيئاً وسط قهقهات عالية سحقتها الأمواج التي تكسرت على أطراف الأرمادة. تبعتني الحيتان الكبيرة طوال النهار والليل، ولكنها لم تزعجني، ولم تقترب من قطعة الخشب التي كنت أنام عليها بخوف كبير. ولكن كلما تذكرت عين القرصان الإيطالي وبشاعته، ازددتُ تشبثاً بقناعتي، وبالخشبة. شعرت برغبة كبرى لخوض الحرب المقدسة ضد الموت. علينا أن نقاوم الموت ولو بلحظة حالم. أو غفوة تربطنا بالحياة أكثر.

كلمات جدي الذي سحقته صخور البشرات الجافة لا تغادرني، تدخل معي حتى الفراش. أشياء كثيرة غابت داخل البحر، لكن الذي أتذكره، هو أني عندما فتحت عيني، وجدت نفسي في فلوكا لا تشبه أبداً سفينة القرصان الإيطالي. كانت أقل اتساعاً، ولكن أكثر تعقيداً، لأن بها حجرة فيها أجهزة كثيرة. سألوني أسئلة لا تحصى، لا أتذكر إلا بعضها، وليست لها قيمة تذكر. كان عقلي ما يزال مشدوداً بالبحر الذي نسيتني أملاحه التي أعطاها أجدادي أعمارهم وحبهم وأشواقهم. سمعت كثيراً عن الأطفال الذين كانوا يتصارخون في ألعابهم، ويعبثون بجثتي، قبل أن يفكروا في رميها من أعلى قمة قريبة من الساحل الروماني، ولكني لا أتذكر هذه الحادثة. أحياناً أشك كثيراً في حدوثها، لكنّ أعرف جيداً الوجوه التي قادتني عند الحاكم التركي الذي اغتصب مسبيته أمام عيني. كانت أسئلتهم كثيرة وإجاباتي لم تكن مقنعة أبداً. كانوا يبحثون عن مفردة فيها رائحة الجوسسة للتسليم بأمري. بدا لي في وجوههم المتعبة في البحر كأنهم كانوا يبحثون عنّي، في البداية أتنكر أنهم طلبوا مني اسمي. قدمته. تغامزوا. لم أفهم السر جيداً. سألوني عن علاقتي بالقرصان الإيطالي والأرمادة. حاولت، بالرغم من العناء والتعب، أن أقص كل شيء. قال القصير فيهم: نعرف القرصان، وقد قدم لنا وثيقة تدينك. تحمل اسمك، مقدمة من محاكم التفتيش، وأنك هربت بعدما سرقت ذهب الأرمادة، واكتشفت أنك جاسوس قشتالي. حاولت أن أقنعهم عن قصة الوثيقة، ولكن أحدهم أسكتني، وسكتُ خوفاً من فمه المقعر



Twitter: @ketab_n

الذي انفتح عن آخره بقوة. قال: يا سافل، يا جاسوس الإسبان. نعرف محاكم التفتيش. لا تعطي أوراقها إلّا لخدمها.

بين البحر والبحر، بين السفينة والسفينة، وبين الموجة والموجة، وبين التهمة والتهمة كنت أصغر وأصغر، وخيبة الأمل تزحف وتزحف بقوة، ورأسي يشتعل بياضاً في فراغ مخيف، وعندما أصرخ فيه بأعلى صوتي لا أسمع إلا ترديدي. حاولت أن استعطفهم، لكنهم كانوا قد بدؤوا يفكرون في مصيري. قال الأول: يجب أن نرميه في البحر، وكأن شيئاً لم يكن. لست أدري هل كانوا يفعلون ذلك لتخويفي؟! قال الثاني: ولكن لم ننل ما نريد، لسانه سيلين عندما يصل إلى الصراط المستقيم. وسأعرف فيما بعد أن الصراط المستقيم هو أندل مكان يبتذل فيه القراصنة الأتراك الناس. فكر ثالث، وكان يظن أني ابتلعت الذهب، كما كان يفعل الموريسكيون الفارون. هزني بقوة. قال: لا يمكن، فالذهب الذي ذكره القرصان الإيطالي كثير، وهذا وزنه كالريشة. في الأخير اتفقوا على أن يبقوا على وعدهم مع الرجل الذي كان ينتظرهم على الشاطئ الروماني المهجور. قالوا: نبيعه: أعتقد أن رأسه ليس أكثر مما نتصور. قالوا للرجل الذي كان مقرفصاً على الشاطئ: لم نأتك هذه المرة بالدوقات الذهبية، ولكن أتيناك برأسه الذي يمكنك أن تجلب به هذا المعدن يا سيدي. جاسوس قشتالي هو نفسه الذي تحدث لك عنه القرصان الإيطالي، قائد الأرمادة. سلموني ثم خبؤوا السفينة وتفرقوا. قطعت الشاطئ أنا والرجل البدين. كنت مقيداً. كان يمشي بعيداً عني ويهددني من حين لآخر، إن حاولت الفرار سيقضي عليّ بسكين حاد، لم يغادر يده اليمنى طوال فترة الرحلة. عندما وصل إلى مكان الحاكم التركي رحب به الحراس كثيراً. يبدو أنهم كانوا يعرفونه جيداً. بماذا أتيتنا اليوم. صيدك ليس سميناً كالعادة. قهقه هو من جهته بخبث تراقص في عينيه. كنز ثمين. إنه جاسوس قشتالي لصالح السفن الإسبانية، ويملك معلومات خطيرة تجعل الباب العالي ينتصر على أعداء سيدنا، وأعداء الله. قالوا له بصوت



Twitter: @ketab_n

جماعي، بعد أن خرج أحدهم من أحد البيوت الملونة بألف لون. أدخل يا ريّس سيد الدنيا ينتظرك. بعد فترة خرج. وكانت تلك هي المرة الأخيرة التي رأيته فيها. كان وجهه أحمر. في يده صرة. عند المخرج فتحها. كانت أيادي الحراس قد تمددت قبل ذلك بلحظة. لمعت النقود في أياديهم، بعدها عادوا إلى أماكنهم وانسحب هو. ازدادات الفجوة التي كانت تفصلني عن هؤلاء الناس. وبدا بشكل واضح، أن أي محاولة لتوضيح وضعي ستزيد في الطين بلة. وعندما أدخلوني عند الحاكم التركي سيد الدنيا، كانت هذه الدنيا قد تحولت إلى كومة من الرصاص وانطفأت الأنوار التي كانت تضيء عيوني في اللحظات الأخيرة في المارية. ندمت في لحظات الضعف لمجيئي، ولكن قلت ليكن، فالدنيا خداعة، وعلي أن أدفع ثمن الرحلة. حتى عندما التفتُّ باتجاه الحائط لكي لا أراه وهو يغتصب المرأة المسبية كانت عيناه تستفزاني. فقد التصقتا بشكل عجيب بالجدار، وبدأتا تتسلقان الفجوات، وتحدثان حفيفاً كحفيف الأفاعي. في النهاية رموني في الصراط المستقيم. وضعوني تحت أنفاق البحر. كان الموج الهائج يندفع بقوة وهياج فوق رأسي. كنت أشعر من حين لآخر بزلزال عنيف يدمر ما تبقى من صبرٍ فيّ وكان واضحاً أني إذا بقيت زمناً آخر في هذا المكان سأؤول إلى الجنون الحتمي. أصوات المدافع والأرمادات، وصراخات الناس، وتكسر المياه كانت تصلني، تتسرب من بين شقوق الحيطان. هل يعقل أن تنتهي حكاية الموريسكي بهذا الشكل؟! قلتها في أعماقي وأنا أبحث في الظلمة عن مكان أنام فيه غير مبلل، لأن المياه تسربت إلى كل الأماكن محدثة رطوبة مليئة بالعفونة. ومع تعاقب الأيام، بدأت أتعود على الجو العام، وتذكرت حكمة رجال الحلاقي. أن الله لا يلتفت إلى سحنة حزينة ومكتئبة ورمادية. حين جروني من جديد إلى دار الأسرار، أقسمت لهم برأس كل الأنبياء، إني لست بكل الأهمية التي يتصورون. مجرد قوال يعرف تاريخ غرناطة ويحفظه عن ظهر قلب، ويقص ما خفي من القصص. صرخوا في وجهي، أنت الذي



Twitter: @ketab_n

بعتها للخراب. لم أتكلم. واصل أحدهم. محمد الصغير حمى الدين والدنيا. قلت: يا سادة. هناك خطأ ما. أبو عبد الله، محمد الصغير، هو الذي كتب تاريخه. هو الذي روى ما كان يريد روايته. أسألوا حي البيازين، هضبات غرناطة وقلاعها، ستجيبكم. الحقيقة هناك. لست مهماً، مجرد إنسان يسرق الحقيقة في لحظة عنفوانها من أفواه السابقين، ومن جراح المدن المنسية التي تورمت من كثرة البهتان والكذب. وحين يشتهي سماع حقيقة أخرى، غير حقيقة الكتب، أُخرج الربابة التي صنعتها بيدي وأبدأ في رواية المأساة التي بدأت ولم تتوقف، وحنين الأشياء التي انتزعت من القلب ولم نتوصل إلى لمسها. عشقناها ولكنها سُرقت حين بدأنا نلمسها. لم يكن شيء يفصلني بين الحالة والحكاية. كل شيء صار واحداً. بيني وبين الحضور مسافات كانت تزداد اختصاراً كلما برقت عيون ريس الأرمادة في ذهني المتعب. حين فتحت عيني وجدت الأبواب مغلقة والرّجلين غارقتين حتى الركاب في الوحل والنفايات التي كانت تمر تحت الأنفاق بهديرها المصحوب بصوت تكسر الأمواج على رأسي. لا أتذكر شيئاً مهماً سوى الكلمات الأخيرة التي خرجوا بها. جاسوس قشتالي لصالح السفن الإسبانية وعميل مندس من أجل تدمير ما تبقى من المدن البحرية. انزويت في مكان ضيق وبدأت أتأمل نفسي. كنت منهكاً ومنتهكاً. أيعقل؟! أهذا هو الرجل المقدم على انتزاع عذرية المدن الساحلية وهو عاجز حتى على أن يقف على قدميه؟ عجيب أمر هذه الدنيا، فهي تفكر أحياناً بطيزها وليس بعقلها. حاولت أن أتأكد من مكاني لأني شعرت مرة أخرى أن رجلي لم تسعفاني للتحرك بسهولة داخل هذه المتاهات العفنة. في لحظة من اللحظات، خيل إليّ بأني لم أعد انتظر شيئاً سوى لحظة الموت القادمة من داخل هذه الأنفاق. انتظرت كثيراً قبل أن يحددوا ليّ أسبوع الاعترافات. سبعة أيام بلياليها، كلها أنين وشقاوة وعذاب، وأسئلة تصم الآذان وتخترق حميميتك. قالوا: إذا لم تعترف سنقوم بمحوك مثل الجرذ. في اليوم الأول من أسبوع الاعترافات، لم يحدث



Twitter: @ketab_n

شيء مهم. صعدوا بي إلى أعلى قمة في المدينة التي لم أكن أعرف لا اسمها ولا ناسها ولا وجهها ولا حتى أسماء حيواناتها وحشراتها العجيبة التي عاشرتني طوال فترة حجزي في الصراط المستقيم. قلت في لحظة يأسي، من المستحيل أن تكون هذه هي المدينة التي كان على القدر أن يقودني إليها، مر على ذلك الآن زمن بعيد، لست أدري هل أنا الذي عدت منه، أم أن هو الذي عاد في صورتي. لم تبق الآن منه إلّا الخرائب والحرائق وبقايا السفن الخشبية التي ينام بعضها على أطراف الشاطئ المنفرد بحزنه، وبعضها الآخر اقتيد إلى أقرب المتاحف الوطنية. تركوني وحيداً أواجه حالات متعددة للموت. قالوا: يجب أن تعترف. لكن أعترف بماذا؟! وحين عاودت على مسامعهم قصة مجيئي، وقصة الأرمادة والقرصان الإيطالي، وقراصنة البحر الذين اصطادوا غيبوبتي، أوقفوني في منتصف الحكاية، وقالوا: إذا كنت تريد أن تعيد القديم على مسامعنا، فنحن نعرف كل شيء أبحث عن شيء جديد أو اعترف. ملؤوا بطني باللبن المخثّر، ثم بسطوني عارياً في مواجهة شمس حارة على غير عادتها. ويبدوا أنهم اختاروا اليوم المناسب لممارسة هذا النوع من التعذيب. بدأ بطني ينتفخ، وضربات قلبي تزداد تمزقاً، حتى شعرت بحالة الانفجار تزداد اقتراباً. جاء أحدهم. كانت شواربه طويلة على غير عادة من رأيتهم. كان يحمل ساطوراً عريضاً تلمع شفرته تحت الشمس الحارقة كلما تحرك في يده. وقبل أن يفتح بطني بضربةٍ صارمة ارتسمت في عينيه أوقفه أحد أصدقائه. قال انتظر. ربما اعترف قبل أن يُفتح بطنه ويمتلئ بالذباب والنحل، والكواسر. ولكني لم أضف شيئاً مهماً. في لحظة من اللحظات أحسست بنفسي كأني لم أقل شيئاً. كانت عيوني قد امتلأت بالدم، ولم أعد أرى شيئاً مهماً.

ملؤوني بالأحجار البركانية، وربطوني بالسلاسل الثقيلة وقربوني، بل وضعوني على رأس القمة المطلة على البحر. بدأ رأسي يدور من هول الفراغ والفجوة المطلة على بقايا بحر. كانت أمواجه تتكسر على الشواطئ المهجورة. كدت أسقط لولا أن أحدهم



Twitter: @ketab_n

قبض على الحبل الذي كان يحيط بخصري. بدؤوا يتشاورون. عرفت في النهاية أنهم لا يريدون قتلي والتخلي عني بسهولة، فهم يحتاجون إلى معلومات وينتظرون أن أبوح بها. قال الأول للثاني هل نتركه يموت. أم نتركه هكذا معلقاً بين الموت والحياة؟ أجابه الثاني ولكنه لم يعترف. يجب أن نُخرج لسانه أولاً. ألم يقلها لنا الحاكم، سيد الدنيا. كانوا مصرين على تقيئي كل ما في صدري. عيونك لا توحي أنك موريسكي. أنت لست إلا وليد إيزابيلا القشتالية. كدت أن أتفجر صراخاً أنا ابن هذه الأرض. من أين جئتم؟ من أتى بكم إلى هذه التربة لكي تصيروا أسياداً في رمشة عين. قلتم الإسلام في خطر، ودخلتم البحر، لكن ها أنتم تتقاسمون الجزر وأعماق البحر. جدي كان محارباً عظيماً وشاعراً لا يضاهى، عندما يصاب بالغبن والحزن يحمل الربابة ويجلس في حوش البيت الموريسكي الواسع، ويستخرج كل حنينه. تبحث المساء عن عذريتها ولونها وأشوقاها التي نزلت إليه، تستجدي عند أقدامه، وتطالبه أن لا يوقف أحزانه، تنسحب العصافير من أعشاشها وتأتي إلى حضرته. كان جدي حين يغني تأتيه الشموس والأقمار وتجلس على ركبيته. كان في أحزانه يحول الليل نهاراً، والنهار ليلاً. غرناطة تتذكره، وتحفظ مجده كما تحتفظ بكل حميمتها. كان جدي، في أقسى درجات الشوق المسروق، يعلمني كيف أنتزع الفرحة من ظلال الأحزان. لكن الدنيا لم تعد دنيا. والبلاد لم تعد لذويها. يا الله! يا جبروت الغائبين والحضارين، لوح بيديك. اصرخ بأعلى صوتك في وجه الذين يبتذلون المدن ويحولونها إلى ريح. صمتك يا الله يدفعني إلى إعادة النظر فيك. عليك أن تحرك ساكناً لإبادة هذا الخراب. هاهي ذي الهاوية، والبحر المسروق، والوجوه التي لا ملامح لها، تبعدني عن الشعر والقوالة وتجعلني لا أتذكر إلّا الصخور والظلمة وخيبة الأمل التي كانت تزحف باتجاه قلبي وذاكرتي. كان جحيم ذلك الزمن البعيد قد بدأ، والنار اشتعلت في أعماق البحر، ونسي الناس ذاكرتهم وحنينهم ولم يكن من الممكن إيقاف الخراب ولا جحيم الذي



Twitter: @ketab_n

كان يتسع بشكل مخيف. كانت المدافع الإسبانية تحتل البلاد وتزحف باتجاه السفن الراسية على شاطئٍ صار شبه مهجور. الباب العالي يبحث عن ملاجئ جديدة وسط الموج. ينتقل من بحر لبحر ومن سفينة إلى سفينة. كانت الحروب في ذلك الزمن البعيد تسحب وراءها الموت والمجاعات والطاعون والأمراض الفتاكة. لم يكن مهماً أن يموت الإنسان فقد كان الدفاع عن المدينة هو الشوق الوحيد، لكن حين تنتصر المدينة على أعدائها، يأتي الذين اختبؤوا في الظلمة، بكامل قوامهم، ويسرقونها منهم، ويرمونهم على الأطراف، أو يعلقوا على صدورهم شارات الخيانة. جهنم كانت قد بدأت من كل الجهات. واشتعلت النيران المقدسة داخل الأجساد. كان اليوم الأول قاسياً بشكل كاد يضيعني ذاكرتي، حتى عندما استرجعتها في لحظات، شعرت كأن الكثير من الوقائع أصبحت مستعصية علي. في اليوم الثاني غُلقت على الخشبة التي هيئت في شكل صليب على قياس طولي تقريباً. كتفوني بواسطة الحبال والمسامير ورفعوا الصليب عالياً في صحراء مسودة الصخور لا أتذكر فيها إلا الطيور الكاسرة وهي تملأ المكان. الذي جعلني أقاوم، هو أني لم أكن أملك معلومات مهمة، وكنت أعرف مسبقاً أنهم لن يقدموا على قتلي بسهولة. بدؤوا بالجلد، بعد أن دهنوا جسدي بمادة لزجة، رائحتها كريهة. مع الضربة الأولى، شعرت بالنار تصعد من جسدي. صرخت. قال الجلاد السمين: هذه هي الأولى، ستأخذ منها ألفاً أو تعترف بأسرارك. لم أعد أعي شيئاً، لأنه بعد الضربة المائة كنت قد فقدت وعيي، وعندما استيقظت، كان رأسي قد وُضع بين قطعتي خشب، كل واحدة صنعت بشكل نصف دائري، بحيث أنه من المستحيل أن أحرك رقبتي المطوقة بدون أن أقوم بذبحها. أصبح الأمر شبه يقيني بأن الرجل مقدم على قطع رأسي أو على الأقل تعذيبي بهذا الاتجاه، وظل يسألني عن اسم المنطقة التي يُحضّر القشتاليون لغزوها، لم أجبه لأني بكل بساطة لم أكن أملك جواباً. الشيء الوحيد الذي استحضرته قبل أن أدفع عيني في سماء رصاصية فقدت مبررات وجودها،



Twitter: @ketab_n

ماريانة وهي تنأى على ذلك الشاطئ الأصفر المهجور، المليء بالأشعة الشمسية المنكسرة على البحر، وعلى الرمال. كانت مشدوهة في الفراغ، تبحث عن كلماتها الضائعة وسط الفراغ. شعرت بعنقي يؤلمني. قالت ضع هذه في عنقك. سلسلة ذهبية خفيفة، مصنوعة باليد، هي نفسها التي كاد اليهودي أن يقتلني بسببها، مستحضراً كل مظالم أجداده، وحين حاولت إنقاذه كانت مسألة قتلي قد لوثت دمه ونظرته قد امتلأت بالصدأ والقيح والصمغ الأصفر. كانت ضربات الجلد قد نزعت جزءاً كبيراً من لحمي، لم يعد للألم معنى مهماً. لم أقل شيئاً، وظلوا يستعطفونني، خصوصاً الرجل البدين. نرجوك قل أي شيء، ستنقذ رأسك وتنقذني معك. سأتهم بالتسيب في عملي. آه يا سيدي، مقاومتك غير مفيدة. كانت عيون الناس مليئة بالحزن. لم يكن بإمكانهم فعل أي شيء. جاؤوا بهم منذ الصباح الباكر ليكونوا شاهداً جماعياً على جزاء الجواسيس القشتاليين. لكن يبدو أن عيون الحاضرين لم تكن مقتنعة بما كان يحدث أمام نظرها. لو كنت كذلك لاعترفت منذ اللحظة الأولى، كما تعودوا دائماً مع الجواسيس. كنت أشعر دائماً بأن بعض القلوب كان دفءٌ مخزون لا تستطيع أن تصرح به خوفاً من موت اللحظة. بدأت أشعر بعطف ما مع الرجل المشرف على نزع جلدي. كان متردداً في قتلي. أراد أن يستنجد بالحاضرين لإقناعي، لكن كلهم كانوا قد انسحبوا من الهضبة المطلة على البحر. كنت منهكاً لدرجة أنه عندما نزع الأحبال التي كانت تربطني بالصليب، سقطت على ظهري. وظل يجلدني من أجل أن أقوم على أقدامي، ولكنه لم يستطع ولم أقدر على القيام. حملني بكل ثقله على ظهره. الوحيد الذي كان يشعر بفداحة الموقف، لأن رأسه كان معلقاً في الهواء، وضعني على الحصان، وعاد بي إلى مقرّ البحرية. في الطريق سمعته يتمتم: مشكلة هذا الخراء لو تركته يموت في الصراط المستقيم، لانتهى كل شيء ولأجد نفسي مورطاً من رأسي حتى قدمي. سأقول له أنه لم يعترف وانتهى. التحق بنا الحاكم سيد الدنيا إلى دار الأسرار. سجد الرجل البدين عند



Twitter: @ketab_n

أقدامه: يا صاحب الباب العالي أنت ترى، لقد كدت أقتله ولكنه لم يعترف. وبدون أن يستفسر سيد الدنيا، طلب منه أن يحضر له سيفاً. قال:

- أعطني سيفاً! بسرعة.

- سيفك الخاص يا سيدي!

- أي سيف. أريد أن أنتهي من هذه المهزلة.

برقت عينا الرجل البدين. تمتم: الحمد لله. سيتحمل هو مسؤولية إعدامه، ولن يحاسبني عنه مستقبلاً. هو المسؤول الأول والأخير. لأول مرة أرى الابتسامة والإشراقة تغزوان وجهه المتشنج والمتعب. وحين وضع السيف الحاد بين يدي سيد الدنيا. قال له بسخرية: كنت أنتظر منك أن تأتيني برأسه وها أنت تأتيني برأسك. وقبل أن يستفسر الرجل البدين، وتنفتح عيناه عن آخرهما، كان رأسه المحلوق قد تدحرج حتى استقر عند رجليه بعيون ما تزال الدهشة تملؤها، بينما ظلت الجثة الجسدية واقفة مدة من الزمن، قبل أن ترتطم على الأرضية الملساء محدثةً بركة من الدم. ثم نهض، بعد أن أعطى الأوامر بتنظيف المكان ورميي في الصراط المستقيم. في اليوم الثالث، خرج الناس في وقت مبكر، كانوا يلبسون الألبسة الجديدة، الملونة بألوان غريبة وغير منسجمة مع أجسادهم، وتحلقوا حولي. كنت عارياً ومقيداً بواحد وعشرين قيداً، ثم جاءت جماعة من العمال وبدؤوا يحفرون الأرض بسرعة عجيبة، حتى كونوا حفرة جماعية وأدخلوني فيها. طاوعتهم، لم أبذل أية مقاومة، وكنت مقتنعاً بأنهم لن يقتلوني، ما داموا لم يتحصلوا على المعلومات التي كانوا يريدون الحصول عليها. وسيلتي الوحيدة للحفاظ على تفاؤلي حتى آخر لحظة. وكنت من حين لآخر أتساءل، هل كنت سأعترف لو كنت حقيقة جاسوساً قشتالياً؟ بدأت الأسئلة الكثيرة تعذيني. كنت أشعر بمضايقة كبيرة، لأن جسدي بكامله، بما فيه يدي ورجلي، قد دفن تحت الأتربة. لم أضف شيئاً جديداً إلى ما



Twitter: @ketab_n

كانوا يعرفونه في البداية، لأن إجاباتي المرتبكة لم تكن ذات أهمية تُذكر. قلت لهم، حين أخرجوا وثيقة محاكم التفتيش، أن أخي هو الذي أتى لي بها من صديقه ساموييل اليهودي. فجأة أخرجوني بسرعة، وصاحوا جماعياً: هذا هو الخيط الذي كنا نبحث عنه. يجب أن نعرف البقية الآن. ولأول مرة أشعر برغبة لا تقاوم للحديث، لأني في لحظة ما تصورت أنهم سيقومون بإطلاق سراحي، والاستماع إلى حزني. فأنا لم أدخل إلى هذه البلاد الطيبة جاسوساً. وأكدوا لي أن أخي الكبير يستطيع أن يساعدهم على اصطياد السفن الإسبانية التي كانت تخطط طرقها داخل المتوسط، لأن هذه السفن، على حد روايتهم، كانت كل يوم تزداد اقتراباً وتهدد أمن الميناء الذي إذا سقط بين أيدي البحرية الإسبانية، فالبلاد بكاملها ستصبح تحت رحمتها. تذكرت في لحظة ما من اللحظات، لماذا باع محمد الصغير البلاد بكاملها، ثم وقف في هضبة الـ:UItimo Suspiro d'el Moro يتحسر عن الزمن الذي سقط بين فجوات أصابعه. وقبل أن أتم القصة على سكان نوميدا - أمدوكال، كان عمي الطاووس ابن أمه، الوزير المخلوع قد قفز إلى وسط الدائرة وبدأ يصيح مثل الكلب الذي دخلت دودة رأسه وبدأت تتحرك بشكل جنوني.

- بربك قل لي! من أنت أيها الرجل المزركش بألف لون، هل أنت راوي الكذب أم صاحب الباخية؟.

- مجرد قوال سرقت من قلبه مدينته التي عشقها.

ويحكي الحكايات الكثيرة التي لم تفقد بريقها، وأقسمَ على رأس الذين سقطوا في ذلك المساء البارد، والذين نُزع لحمهم بالكماشات، إنه لن ينام على الحقيقة أبدا وحتى ولو خلعوا جلده ويديه ورأسه. أنا ابن هذه الأسطورة التي مزقها كل واحد لمصلحته الخاصة. لم أربح منها سوى الحكاية.

فنهض سيدي عبد الرحمن المجدوب من مكانه بسرعة وقد تيبس الزبد على أطراف فمه. كانت عيونه مملوءة بالدهشة، وانزعج



Twitter: @ketab_n

لتدخل عمي الطاووس ابن أمه. صرخ في وجهه. الله يلعن اللي جابك لهذه الحلقة. تعلّم. غير عاداتك السخيفة. بوحلاقي عندما يُقاطَع في باخيته قادر على ارتكاب حماقة القتل. ورأس جدك الذي غزا جبال البشرات. أرجوك. أن تواصل. أكمل الباخية يا سيّد الناس الطيبين. أعزفي يالالاّ ماريوشا. أعزفي كما تشائين. أمامك البانجو، والرباب، والسانطور. أعزفي فالله لن يسمع كلاماً جافاً ولو كان شعراً. نحتاج إلى حنين أناملك ودموع البشير الموريسكي. احك. فأنت تعرف ما لا يعرفه المجنون صاحب العود بوبركات الملون بألف لون قزحي، الذي يقطع الفيافي والقفار.

التفت إليه البشير، الذي كان متسمراً في مكانه، لا يبدو على وجهه أي اندهاش أو خوف أو إحساس بالندم. مسد على رأس عبد الرحمن المجدوب. قال: يا سيدي عبد الرحمن أنت أكبرنا، لأنك عشقت مدينتك وأحبابك حتى الجنون. عودك الملون يخون كل الناس ولا يخونك وهذا فخرك. يراه الناس مجرد قصبة جوفاء، لكني أصدقك يا خويا المجدوب أنه عودك الذي لا تستطيع إلا أنت رؤيته ولمسه. مثلك كنت في ذلك الزمن الأندلسي البعيد، عندما أخرج إلى الساحات وأملأ القارات بصراخي. كان العود المرقط الذي كنت أركبه يبث الرعب في قلوب الذي يشكون في أحزاني وآلامي. الباخية يا سيدي عبد الرحمن ما تزال طويلة، وعودي تعب من السير والشقاوة ولكنه لم يكل، والظهر تمزق، وغادرني الأحباب وانسحبت الوجوه على أطراف الشواطئ الحزينة. ماذا أقول يا ابن أمّي. كان الزين في ذلك الزمن البعيد يدخل معبوده إلى الجنة. ماذا أقول، أشياء كثيرة تغيرت في ذلك البحر التركي البارد الذي يعرف ما تجله العيون المهاجرة في الفلوات. في اليوم الرابع يا سيدي عبد الرحمن. عُذبت حتى تقيأت الدم من فمي، وأنفي، وأذني. قالوا هذا من سلالة الجواسيس. طلبوا مني أن أدخل إلى الإسلام وأتخلّى عن المسيحية. أكدت لهم أني موريسكي وأني لم أعرف من جدي إلاّ دينه. وظلوا يقيئونني كل الأخبار، حتى قفزت إلى ذهني محاكم التفتيش. ما الذي



Twitter: @ketab_n

تغير يا ابن أمي. وجه يعذّبُ. ووجه يموت بالتقسيط. تذكرت زمينير وتوركيمادا. ذكرتهما من شدة الآلام. إنكم لا تختلفون. لقد بدأتم في إبادة الناس على أشواقهم وأحلامهم. تأكدوا أني جاسوس لصالح السفن الإسبانية. آه يا جاسوس الكفرة الفجرة. قالها الرجل الذي اقترب من وجهي، حتى أهلكتني رائحة فمه الكريهة مثل الضبع.

- آه يا ابن أمي. يا غريب القلب والدار! يا حنين الذين تركوا قلوبهم في فراغات المدن المسروقة! آه يا ابن أمي، من أدخل بني كلبون إلى هذه البلاد؟! من أدخل القتلة إلى هذه الأرض التي لم ينشف دم مقاوميها وشهدائها المنسيين؟!

قالها عبد الرحمن المجدوب وهو يتمرغ على الأتربة مثل الشاه الذبيحة. ثم التفت إلى الطاووس ابن أمه. وأنت أيها الرجل الذي فقد الوزارة والعيون. احك عن السر الذي يعذب قلبك. إذ كان لك قلب ويعرف العذاب. احك. إنها فرصتك الأخيرة قبل أن تشتعل المدينة وينساك الناس. لقد كنت تأكل من موائد بني كلبون وتنام معهم في نفس البيوت، قبل أن يدخلوك إلى الظلمة ويرموك في فراغ المدينة التي تنسى الذين خانوها بسرعة. احك يا الطاووس احك. صرْ منّا للمرة الأخيرة. صرْ مجنوناً ولن تندم.

- ماذا أقول يا المجدوب. تعرفون الصغيرة والكبيرة.

قالها بحزن كان بادياً على محياه. كان هذا قبل الزمن الذي سيأتي فيما بعد، بحيث يكون من الأوائل الذين دخلوا إلى الدهليز الذي كان يعرفه جيداً مثل جيبه.

- لقد أروك الآخرة يا ابن أمي، يا البشير.

- لا يا المجدوب. أنا لم أر إلاّ الدنيا. سوى الدنيا.

- وفي لحظات العذاب والموت.

- إلاّ الدنيا ووجه الله الذي انسحب بسرعة بعد أن تخلّى عنّي.

آن يا سيد العارفين، عليك أن تحتفظ بسرك وسلاحك فأيام



Twitter: @ketab_n

النار والدخان والدم قادمة. إنها تدق الأبواب الموصدة. تصعد الآن من قلوب نساء الحي جميعاً، من قلوب القوالين الذين أقسموا على رؤوس الشهداء إنهم لن يذكروا إلا الشهادات التي يخاف الوراقون من روايتها. في اليوم الخامس يا سيدي عبد الرحمن المجدوب، حلقوا شعري عن آخره وقالوا بصوت جماعي مسموع: شعرك هو سبب التهلكة والبلاء. أنت لست إلاّ ساحراً من السحرة ومن بقايا الكُهّان الذين كانوا يتحلقون كالقردة من كل جانب حول إيزابيلا القشتالية وفرديناند الأراغوني. أحرقوا الشعر وحجزوا دخانه في قناني بيضاء كالحليب، بدؤوا يبخرون وينادون الجنّي الذي يختبئ في الداخل أن يخرج ولكن في النهاية لم تخرج لا خفافيش ولا جنون. مجرد كومة من الدخان المحروق الذي يؤلم الأنف من الداخل ويعمي العيون. أمّا الشعر المحروق فكان قد تحوّل إلى كتلة سوداء بحجم الإصبع، ساقوها إلى سحرة المدينة الساحلية، جلس الجميع عندما وصلهم الخبر في باحة أحد البيوت القديمة. قالوا، ماذا نقول. لا نستطيع أن نجزم. إنها المرة الأولى التي نصطدم فيها بهذه الحكاية. استشاروا سادة المدينة الذين كانوا يتقاسمون الأرباح، والأموال، والسبايا القادمة من البحر. قالوا بحماس منقطع النظير: شعرة إبليس، لنتخلص منها قبل أن تأكل رؤوسنا واحداً واحداً. وقبل أن يرفع السياف سيفه الحاد لحزّ رقبتي سحبني باتجاه خيمته للتعرف على بعض الوجوه التي عثروا عليها في سفينة إسبانية تائهة. امرأة كانت ترتعد. رأفت لحالها، ولكني لم أكن أملك شيئاً ينجيها من مضاجعة سيد الدنيا الذي كان منهمكاً في نزع تكة شرواله العريض، ويمسد على ذكره لكي ينتصب. كانت ملتصقة بزوجها الذي التصق بدوره بالجدار المحفور بحثاً عن منفذ. سحبها الحراس من حضنه. بطحوها على ظهرها. برم شواربه، قال لهم اقلبوها على بطنها. فتح إليتيها بقوة وهو مقرفص على ركبتيه، ثم مدّ ذكره باتجاهها. كانت تصرخ بأعلى صوتها، وهو يعض على شفته السفلى، ويدفع بكامل ثقله إلى الأمام. عندما انتهى كانت



Twitter: @ketab_n

دماؤها تسيل، بينما لم يستفق إلا على صرخة زوجها الجافة وهو يخرج سكينه من حذائه الطويل، ويذبح نفسه بكل قوة بدون أية شفقة، حتى تلون كامل لباسي بالدم الفائر. وبعد أن استراح سيد الدنيا، استشارني حول خارطة خطت بماء الذهب في قطعة قماش أسود وجدوها في جيب الإسباني الذي قَطَع عنقه على مرأى من الجميع. خفت أن أقول لا أعرف، أن يقطع عنقي بدوري بدون أدنى إحساس بالندم، وعندما بدأت أخط بعض الخطوط الوهمية على أرضية الحجرة، كانت عيناه قد انفتحتا عن آخرهما. ابن القحبة! تعرف كل هذه الأمور وتسكت. قالها مع ابتسامة من اكتشف فجأة كنزاً ثميناً. قفز من مكانه بسرعة، وصاح لعسسه: هيا بسرعة جهزوا السفن لغزو البحر. الجاسوس القشتالي يعرف كل شيء. بسرعة قبل أن نُسبَق إلى الكنز. وقبل أن يغادر المكان جيء له بسحرة المدينة. قال العسكر: ماذا نفعل بهم يا سيد الدنيا. صرخ في وجههم: أنتم دائماً تقفون في حلقي في اللحظات المهمّة. صفق بيديه. جيئه بالسيف. سألهم: أنتم الذين قلتم أن هذا الرجل شعرة إبليس. صاحوا بصوت واحد: نعم يا سيد الدنيا. وكانوا يظنون أن في ذلك نجاتهم. في ثانية واحدة كان قد خلع كل رؤوسهم. ثم التفت نحوي. احك بسرعة. لا وقت لدينا. أي زاوية في البحر. أشرت بيدي ناحية الصخور. يا ابن القحبة تعرف حتى المكان. رأسك يساوي ثمناً كبيراً. قالها وهو يربت على كتفي. يبدو أنك تعرف المنطقة جيداً. ليكن، أنت جاسوس قشتالي، ولكن سنحلّبك ذهباً. بعد العودة سأطالب بإطلاق سراحك. أعاهدك على هذا، وفتح يدي واضعاً بالقوة يده داخلها. عندما كان يعطي الأوامر لتجهيز السفن كنت قد بدأت أكل لساني على الكذبة التي ستكلفني غالياً. وغاب عنّي مطولاً، ولم أسمع إلا أصوات المدافع التي كانت تدك المدينة دكاً. قيل لي فيما بعد وأنا في الصراط المستقيم إنه عندما خرج واجهه أحد الجنود بخبر اجتياح السفن الإسبانية للمنطقة التي أشرت لها. صرخ بأعلى صوته: إنهم يريدون الذهب. ثم دخل البحر ولم يعد منذ ذلك



Twitter: @ketab_n

اليوم، وفي الليلة نفسها اعتلى بحري آخر مكانه وسمى نفسه محمد سيد الدنيا الثاني. أصبح كلامه مسموعاً منذ المجزرة التي أحدثها في جهازه، عندما سمع بأنهم يدبرون انقلاباً ضده، ونُسيت أنا في الصراط المستقيم حتى اليوم السادس حيث أخرجوني من الحفرة النتنة، وقيدوني بشكل قوي. لم أستطع حتى التعرف على وجه محمد سيد الدنيا الثاني. من بعيد أشّر بيده اليمنى، فأعادوني إلى حفرتي. وجه نحس. كل الذين رآهم أكل رؤوسهم، فأعادوني إلى مكاني الأول. وفي لحظات الحزن من نفس الليلة، وقبل أن ينبلج الفجر السابع، تسلل مجموعة من الملثمين إلى الصراط المستقيم، فكوا قيدي. قال العساس الذي انضم إليهم ليصيروا سبعة: لا تتكلم. اتبعنا فقط. زممت فمي. ولم أعرف من يكونوا، ولماذا فعلوا ذلك من أجلي. لم أتكلم، لأني لن أعرف أبداً من يكونون. خمنت كثيراً. وفي النهاية قلت في أعماقي. لنر نهاية الباخية.

كانت ملامح الليلة السابعة قد بدأت بدون أن أعلم بها. وقد استمرت لوحدها ثلاثة قرون وتسع سنوات بالتمام والكمال، في التقويم الهلالي. في الحقيقة لست متيقناً أني نمت في الزمن الذي تلا خروجي من الصراط السمتقيم، لأن ما حدث لي وما رأيته كان حقيقة. لم يكن شيخي مجرد حلم. فوجه أبي ذر ما يزال كالشمعة في ذكراتي. وجراحات الحلاج تخط جسدي. كان الحقيقة التي لا تخبئ سوى حقيقتها وراءها. لعنت الشبلي على صمته، حتى الوردة التي ألقاها على صدر سيدي الحلاج وهو في النزع الأخير، قبل أن تفصله، تحوّلت إلى جمرة قاسية ألهبت قلبه وتأوه حتى قال: آلمتني أيها الشبلي! في تلك الليلة السابعة، كانت الفاجعة التي أرجعتني إلى صورة جدي الموريسكي، وهو يسقط من على ظهر جواده الأدهم. كان جريحاً. حاول أن يتشبت بالدابة من جديد. سقط من جديد، مد يده إلى لجام العود الذي أحنى رأسه مرة أخرى، ثم قفز على ظهره من جديد، قبل أن يسقط الاثنان بين صخور البشرات الحمراء. كانت النيران والأدخنة تأكل الأخضر واليابس في مرتفعات البشرات،


Twitter: @ketab_n

والطاعون يملأ الأتربة التي كان يتنفسها المحاربون. كان يجب أن ينتهي كل هذا الخراب منذ زمن طويل. منذ الليلة الألف. لكن شهريار ظل يصرّ على تمديدها ليلة أخرى، ليزيد في الحكاية التي تزيد في عمره. كان يرفض نهايته. وعندما سقطت الليلة من الحسابات طالب بإضافة سبعة أيام، ليكتمل أول أسبوع بعد الليلة الألف. ليكون فاتحة لعصر جديد. لكن الليلة السابعة تحتضر في روائح الأدخنة التي ملأت شوارع المدينة، رأيتها بين شفتي سيدي النينوي، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ويُجمّع رماده في بوقال الشهداء الخالدين عند علماء (حكماء) القلعة. ما الذي تغير في هذه المدن التي ورثت ذاكرة مليئة بالخوف؟! الأيادي تزداد طولاً، وأنوف الرجل بدأت تتضاءل وتضمر السحق الذي يلتهم حميمية البيوتات الواطئة. حتى الألفة انسحبت من عيون الأنبياء والصالحين. ماذا بقي يا ابن أمي من جحيم الليلة السابعة؟ في البحر دفنت كل الكلمات السرية!

سلاماً أيتها الدنيا العالية التي صارت ذاكرة...

سلاماً أيها البحر المنسي في قلوبنا...

ارتفع صوت البانجو، الذي ارتجف بارتعاشة بين أنامل ماريوشا، واختلطت خيوطه داخل نغم وجداني حزين، وحنين يبحث عن المرفأ الذي أكسته السفن المحلية بالخوف والافتقاد..

سلاماً أيها البحر... أيتها الموجة، يا رعشة العشق الأخير... سلاماً أيها الموج، لقد كنت سيد الشهداء المحبين، وألفة للهاربين من موت الجوع والرمال. سلاماً. فملحك لا يخون إلاّ الخائنين. الريح التي تأتي تزداد جسارة. والقلب امتلأ حتى فاق من الحنين. سلاماً أيتها المدينة التي تستيقظ على خطوات الموت وتنام على دمعات الحرقة وابتهالات حزينة يلتهمها الليل. سلاماً أيتها الشوارع والبنايات التي أقسمت أن تقاوم وتموت واقفة على رجليها وركبتيها، وعلى يديها، ولن تستسلم لعيون القاتلين.

«ارفعي صوت حنينك يا ماريوشا، فالله لا يسمع إلا كلمات



Twitter: @ketab_n

العاشقين». لست أدري هل أنا الذي قلتها أم سيدي عبد الرحمن الذي كان قد دخل في نوبة من الجدبة. كلانا كان قد تحول إلى رماد تقذفه عواصف الأزمنة الخريفية التي تملأ الأدمغة. جاءني الحنين دفعة واحدة من عيون ماريوشا كنسمة ياسمين في بيت غرناطي. جرحتني أشواقها وهي تبحث عن خيوطها التي تقطع قلبي، وتدفع بذاكرتي إلى أقصى حالات جنونها. ماذا أقول يا ماريوشا. بيننا حليب صاف ينبع من أعماق النبض المسروق. بيننا هذا البحر الذي سنخوضه حتى التهلكة. رأيت في عينيها بريق الفرحة. عشت على الوردة الحمراء، ثم أرجعتها إلى شعرها الذي لم يفقد انعكاساته الزرقاء بالرغم من قتامة لونه. ارتسمت ابتسامة ممتلئة بين شفتيها، ولكن أناملها الرقيقة لم تتوقف عن العزف والتعذيب أبداً. ماذا أقول يا فرحة هذا الشط المهجور، ويا هذه الموجة التي انكسرت وحيدة على الصخور العالية؟ الليلة السابعة لم تنته، حتى أنا كنت في أعماقها، وحين فتحت عيني على عذابها، وجدت نفسي فجأة بينكم. وسط هذا الخراب ووسط مدينة متعبة وحزينة، ولكنها لم تلعن بحرها أبداً. فاجعة الليلة السابعة لا تُحكى في ليلة واحدة. إنها غفوة، بدأت وستنتهي مثلما تنتهي أية ليلة مدد طولها قليلاً. فيها تُسترجع الأشياء ولكنها لا تتبدل. جحيم الزمن المسروق يجب أن يروى والعيون مفتوحة عن آخرها. لم تكن ولن تكون هناك ليلة ثامنة، لأني عندما استيقظت في تلك الظهيرة وجدت الليلة السابعة ما تزال مستمرة، دامت أكثر من ثلاثة قرون. ويروي البعض أنها بدأت يوم رمى الحاكم الرابع (والثالث في رواية أقل دقة) سيد العاشقين: أبا ذر الغفاري. الصحابي الذي سرق الشهادة والجبة ممن بشروا بالحور والجنان والشراب الطهور.

ويا سيدي الهائم في الفلوات، تبحث عن عين ماء تسقيك، عن فرحة تؤسيك، عن فراش يؤويك، عن فرج يرضيك. لا شيء. الدنيا أغلقت أبوابها يا شهريار، يا حكيم جملكية نوميدا ـ أمدوكال، قالت دنيازاد وهي تلتف من جديد بالكفن الذي كان يحمله وزيره في يده


Twitter: @ketab_n

من أجل وضعها فيه ميتة بعد نهاية القصة ـ الباخية. كل شيء انتهى يا مالك الزمان، يا حاكم الأركان.

ـ لا أريد أن أستمع إلى هذا الخرا، غيّري. غيّري. عيوني تورمت بالموت.

ـ يا سيد المقام العالي. كل شيء انتهى إلا المدينة والبحر والحائط المتآكل الذي هربَ إليه الموريسكي ولحقته ماريوشا، بعد أن غادرت الاجتماع السري ومارسا الحب في أبهى صوره على مرأى من البحر. قال لها في البداية: أنت لست لي. أنت للمجدوب. قالت أنا لكل المجاديب. سيدي عبد الرحمن عاد إلى رشده وبقيت أنت المجدوب. لم يستطع أن يتفاداها، هبت نسمة بحرية. فاضت المارية في عينيه، ومسحت ماريانة على رأسه بحنان. تأمل وجه ماريوشا كثيراً، أعطاها زهرة الكاسي التي كانت في يده، وضعتها في فمها، قبل أن يعيدها إلى شعرها ويندفنا معاً في قبلة طويلة تحت رذاذ موجة هاربة تكسرت على الشاطئ الذي لم يكن يوحي أبداً بحرب مقدسة طويلة.

وضع شهريار الوسادة في فمه. عض عليها بقوة وصرخ مع بحةٍ كانت تسد صوته، كالغصة.

ـ أتركيني أنام قبل أن آكل رأسك.



Twitter: @ketab_n

# 9

زادت دوريات الشرطة والدرك الوطني على غير العادة. من حين لآخر، تظهر سيارة عسكرية محملة بشباب الخدمة الوطنية. كانوا واضحين من خلال الألبسة المُتربة، والممزقة أحياناً، التي كانوا يرتدونها.

الكل كانوا يذهبون ويعودون داخل السوق.

لكن إحدى الدوريات تمركزت في مكان الحلقة. يتأملون المشهد، يتمتعون، ثم ينسحبون قليلاً بجانب حائط عتيق سقط لوحده من كثرة الإهمال ليتمركزوا مرة أخرى على أطراف الحلقة، وكأنهم ينتظرون أمراً خاصاً.

مدّ البشر الموريسكي يده إلى التربة، حمل حفنة منها ثم مسد بها على وجهه الحزين. أنّ مثلما كان يئن قبل قليل بانجو ماريوشا. أينك أيها الحنين! أينك أيها الوطن الذي يسرق ويباد ويغتصب ألف مرة ومرة، بين الإغفاءة والإغفاءة. هل بقي شيء يستحق الذكر يتجاوز سحر هذه التربة ونبلها الذي لا يفنى.

لكن الشرطي الأول غمز صاحبه.

ـ أرأيت! إنه ساحر. يمارس طقوساً عجيبة لتضليل الناس. يجب أن نتحرك.

ـ القانون واضح. وقد أقسمنا على وثيقة الجملكية أن نحارب السحر والسحرة.



Twitter: @ketab_n

كان سيدي عبد الرحمن المجدوب والراعي هما الوحيدان اللذان تنبها للحركة غير العادية للشرطين. تزحزح المجدوب حتى وصل عند أقدام البشير الموريسكي الذي كان قد تحول إلى ريشة في مهب الريح، أو إلى زهرة كاسي في شعر ماريوشا الملون بألف انعكاس أزرق. قال يجب أن تسمعوا الحكاية حتى النهاية، لأن الثلج الذي نزل في الصيف الماضي لم يكن إلا إيذاناً بخراب الذين جلبوا ابن كلبون من المدن البعيدة التي تقع في شمال البحار المنسية، البعيدة عن قلوبنا آلاف السنوات الضوئية. قال: يجب أن أنهي الحكاية يا سيدنا العظيم، قبل فوات الآوان. لقد رأيت كل شيء، وعليك أن ترويه. عرفت قلوبنا وقلوب الناس جميعاً، وتأكدت كم هي ضيقة. لماذا يا سيدي تردم عينيك في الأرض؟!

الغبار لن يصعد، والماريخا لن تقوم، والله لن يتنازل وينزل إلى أشواقنا. أعزفي يا ابنة أمي يا ماريوشا. أعزفي بحنين السانطور الفارسي، ليفتح قلبه عن آخره ويضعه بين الأيادي. وليترك الغيمة تعانق الغيمة والشوق يواجه الشوق، فالحنين لا يلمسه إلا القلب الحزين والذاكرة المتوحدة. اشعل النار في قلبك. أعرف أن دمك لن يبرد بسهولة. اجعل مدافع القتلة تسكت، واخرج هذا الخراب الذي يملأ قلبك. اخرجي من الأخشاب والأوتار ياماريوشا كل الأشواق، ففيها قلب الموريسكي الذي لا يموت أبداً. أطلقي السانطور، أطلقي الرباب، أطلقي عويل البانجو يا ابنة أمي. فلن تجد طريقك يا خويا البشير إلاّ مع الذين قاسموك الدم والخوف والشوق، ورعشة الموت الأخيرة. هم يكرهونك كالانقلابات الشعبية التي تقض نومهم، وأنت تحب الحياة وتقسم أنها تستحق أن تعاش، وتعشق الأشواق الأندلسية التي سحبتها وراءك بعذوبة وعذرية لا تُحدّان أبداً. أشياء فيك يا سيدي لا تلمس ولكنها تحس، تتمايل مثل الأغصان الطرية. أشياء فيك أيها الكبير، تلفحها الريح الشتوية مع الصباحات التي تأتي بسرعة عجيبة بدون أن تخسر رونقها. أشياء فيك غامضة مثل وجهك. رَكِبتها الأنداء الغجرية ليوم، لا يمكن أن


Twitter: @ketab_n

تمنحه إلاّ لمعشوقة عاشت معك حرقة الليلة السابعة وآلامها. فيك سحر الحياة الذي حوَّل الموت إلى شهوة، وعشق المرأة قداسة. كنت نبياً. حين عدت إلى البيت في ذلك الفضاء الأندلسي الذي ضاق، تعرت أمامك عن آخرها، وضعت عطرها وجاءتك بعد أن رشقت زهرة الكاسي الحمراء بين شفتيها. قالت هُيئت لك! لم تكن عزيزاً خُتَمْت شهوته بفراغ. اندفنت فيها حتى الأعماق، واندفنت فيك بنفس الدرجة. مددت يديك إلى نهديها، سال حليب بلون الماء الزلال. شعرت بالحلاوة في حلقك. أخذت الحلمة ونمت وأنت تمصها. قلت لها الدنيا شرود. ليكن، إذا مت وأنت في قلبي فقد وصلت قمة الشهادة. وفي الصباح وجدت الدمع يغلق عينيك. وحين فتحتهما وجدت كومة رماد، وحريقاً نشب في قلبك حتى الموت. فيك الحزن الأندلسي يا ابن أمي يتمدد عبر خراب البحار، وتكسر الأمواج التي استماتت على الصخور. احْكِ أيها القوال الأندلسي، لقد اختصروا زماني، وها هم الآن يحاولون اختصار شوقك. احكِ أيها السانطور الفارسي. اخرج من غمدك وأرو أسوار الألم التي نبتت في القلب كالشوكة. احك أيها الرباب، الذي قاوم خيطه خوف الجبابرة، عن الناس الذي يجوبون الشوارع، وإذا جاء مساء الخوف يعودون إلى قلب القصيدة يندفنون قبل الموت النهائي. غنِّ أيها الجوال! مما تخاف ذاكرة كان الجنون حبيبها. احك عن كل شيء. لنتم القصة قبل أن تكنس وجوه الخراب شوارع المدينة وأسواقها. قلبي معك.

حتى تلك اللحظة لم يكن الموريسكي يفهم أن المجدوب كان يعرف حقائق هو يجهلها، أولاها، الخطر المحدق بهم جميعاً. ثانيها، كان يريد أن يعرف البقية، لأن حياته لم تعد له. وسيعرف البشير بعد زمن بعيد أنه كان في سباق مع الزمن. كانوا يقتلونه بالتقسيط. كان يشعر بذلك، لكن لا حل له. مرغ وجهه من جديد في الأتربة، فقد كانت الرائحة المنبعثة منها بعد الأمطار الخفيفة تأسره، ثم واصل سرد الآلام التي كانت تخرج بصعوبة. حين انتهت الليلة الألف، بدأ الحاكم يعد الأيام على رؤوس أصابعه، ويدفع الليالي



Twitter: @ketab_n

المتبقية باتجاه يوم جديد حتى تمر الكارثة بخير، ويثبت للآخرين أن كل ما حدث لم يكن إلاّ فعلاً من أفعال الشياطين والسحرة، لأن الخوف من الدماء وصراخ الشوارع كان يملؤه. قال: يجب أن ينتهي هذا اليوم المشؤوم بسرعة. مرت عليه الليلة السادسة بقساوة، لكن بعد هذه الليلة، بدأ زحف ليلة جديدة كان يخافها مثلما يخاف مرض النقرس الذي يعاني منه منذ زمن بعيد. رغوة الشوق في الحكم كانت تملأ عينيه.

في تلك الليلة الآسرة، حكت دنيازاد كثيراً، في انتظار خاتمة المطاف. كان شهريار بن المقتدر يخاف من لسانها، أفعى! لا تنطق عن الهوى. كان دائماً يكررها كلما سمع منها خبراً سيئاً. ينظر إلى وجهها، ويخاف أن يقتلها قبل أن يغتصبها للمرة الأخيرة، وقبل أن تنهي الحكاية. أراد أن يتجاوز الزمن الذي كان يمر سريعاً على ظهره. ليكن هي لي. كلبة لكنها ساحرة. لم يسمع إلاّ تمتمته، ولم تسأل دنيازاد ماذا كان يهذي. مدّ يده إلى صدرها المفتوح عن آخره. كانت الانعكاسات الضوئية تجعل منها كتلة من الشبق والرغبة. أخرج نهدها المنتصب، تأمله طويلاً، هذه المرة لم تمانع، ولكنها لم تشعر بأية رغبة تقودها إليه. عركه بقوة. تأمل اللحم الذي فاض بين أنامله. أيعقل أن تكون لغيره! لم يكن يعلم أنه أصبح يتكلم بصوت عال. وضع النهد المعروك بين شفتيه، مصه المصة الأولى، وتوقف مبتعداً عنها، تاركاً نهدها عارياً. شعر بالمرارة تصعد من فمه. هذه أول مرّة ينتابه فيها هذا الشعور. قال لها بنوع من الانزعاج: لهذا لم تمانعي. مثلك مثل دابة الغواية. لا تعطين صدرك إلاّ لمن تعشقين. في لحظات شبقك المهووس يتحوّل حليبك إلى ماء زلال، والآن صرت مُرّة مثل الحنظل. آه لو كنت أملك قلباً من المرمر أو حجر الصوان لوضعتك بين ركبتي، وذبحتك مثل الشاه، ولأكلت رأسك. وقبل أن أدفنك، أدفن فيك كل رغباتي التي كسرتها في عنفوانها. بسمل وحوقل ثم راح لينام، وفكر في سماع نهاية الحكاية غداً، لكن شيئاً ما في داخله، جعله يعدل عن فكرته. للغد


Twitter: @ketab_n

حديث آخر، وابنه الكلبة هذه تحمل كل أسرار الدنيا. ومن يدري هل أستطيع سماعها غداً. أم أقتل مرارتها في الفراش؟ عاد وتربع في مكانه، وطالبها بمواصلة الليلة السابعة بعد الألف. لأنه أصبح على يقين أن الغد صار يوماً ناقصاً من عمره الذي يريد تمديده قدر ما يستطيع. وظل يتابع تمتماتها وعيونها التي لم تكن لتثبت على زاوية، وكأنها تبحث عن شيء في مكان غير محدد، وفي زمن كان يتسرب من جدول السنوات بسرعة عجيبة. بدأ شهريار بن المقتدر يعرف أن زمنه الرسمي بدأ يتوقف، حتى الساعة الحائطية أصبحت تسير بسرعة جنونية، ثم فجأة توقفت الساعات والدقائق. ولم يعد إلا مؤشر الثواني يسير بتثاقل في حركته. كل شيء يقف ضده. كان يجب أن يتوقف سحر الحكاية عند الليلة الألف، لكنه أصرّ على تمديدها ليلة أخرى لسماع النهاية. شغف بالليلة الواحدة بعد الألف لكنه ظل حزيناً. لأنه شعر في لحظة من اللحظات أن شيئاً كان مخبئاً عليه. دابة الغواية في ذلك الزمن البعيد، شهرزاد، لم تحك ما كان يجب أن يُحكى. خبأت عن سابقي الحقيقة التي كان يجب أن يعرف، وخراب الدنيا هذه، دنيازاد، تخبئ عني الشهوة التي سلمتها شهرزاد لسابقي، وكسبت سيفه وعينيه ياللغرابة! حولته إلى دابة. كان عليك يا ابن الكلبة أن تنهيها قبل أن تورثني هذه السلالة. لماذا استسلمت في الليلة الواحدة بعد الألف. قال له، وكان ما يزال يفتح فمه في عينيها الواسعتين: يا سيدي العظيم، حاولت فاطمة العرة أن تسرق خاتم الملك معروف الذي كان يدير به دفة الحكم. فعلت ما كان يجب فعله. علقت دنيازاد على جزء من الحكاية التي ظل الحكيم شهريار بن المقتدر يراودها من أجل أن تنهي الحكاية التي خافت منها شهرزاد. إن تحرك عقارب الدقائق والساعات من جديد لم يكن دليلاً مطلقاً بأن الزمن عاد إلى طبيعته. لأنه من حين لآخر كانت كل المؤشرات تتوقف دفعة واحدة، وهذا يحدث لأول مرة. لم يكن هذه يهمه كثيراً. المهم هو أن تسير ولو ببطء شديد، قالت: يا سيد الجملكية، يا حاكم نوميدا ـ أمدوكال، الزمن هو الزمن. فالزمن الذي



Twitter: @ketab_n

أمهلك أكثر من ثلاثة قرون، وفي رواية أخرى أكثر من أربعة عشر قرناً، لا يمكن أن يتحرك ثانية واحدة عندما يصل إلى حالة الانغلاق، لن يضيف ثانية واحدة. العرة فعلت ما عجزت عن فعله شهرزاد يا سيدي. كان عليها أن تحول الاستحالة إلى إمكانية لصالحها، في الليلة الواحدة بعد الألف. وقبلها بقليل، كان ابن الملك معروف قد بلغ السبع سنوات، وكانت الزوجة الأولى فاطمة العرة قد عادت من بعيد، من قفار الربع الخالي، تطالب بحقها المسروق، لأن الملك معروف، كما يقول الوراقون وأصحاب الدواوين كان قد «اشتغل بحب الجواري الحسان، ولم يفكر في زوجته فاطمة العرة. لأنها صارت عجوزا شمطاء بصورة شوهاء وسحنة معطاء، أقبح من الحية الرقطاء».

أرادت شهرزاد أن تحكي ما خفي من القصة. لكنها ظلت تصرّ بأن الدرس لا يروى مباشرة، ولكن يُستخرج من السياق. لم تكن تعرف أن الذي كان أمامها كان دابة، تمسخها في كل حين إلى دابة. حاولتُ أن أدخل إليها من باب آخر، هو الباب الذي تستعمله مع شهريار. قلت:

ـ ما أطيب هذه الألفاظ التي هي أشد أخذاً للقلوب من سواحل الألحاظ.

شهرزاد كانت تعرف سحر الكلمات.

ـ أين هذا مما أحدثكم به الليلة المقبلة إن عشت وأبقائي الملك.

وكانت تدرك أنه من المستحيل أن يقتلها، لأن مصيره ظل معلقا داخل الحكاية. في الصباح روت جزءاً آخر مما تبقى. كان الملك يرحمه الله، لأنه بعد زمن يوازي الساعة الأخيرة من الليلة السابعة كان قد انتهى تحت سيف ابن زوجته الثانية (الجزء الأخير نزعته شهرزاد من ألف ليلة وليلة ولم تبق إلاّ على الأشياء المقبولة في الحكاية). كان يرحمه الله إذا أراد أن يجامع يخلع الخاتم من



Twitter: @ketab_n

إصبعه احتراماً للأسماء الشريفة المكتوبة عليه، فلا يلبسه إلا على طهارة. ومتى جامع المحظية، عليها أن تذهب من عنده خوفاً على الخاتم، وإذا دخل الحمام يقفل باب القصر حتى يرجع منه، ويأخذ الخاتم ويضعه في إصبعه، وبعد ذلك كل من دخل القصر فلا حرج عليه، كل هذا حدث في الليلة الواحدة بعد الألف. فاطمة العرة دخلت عليه، ولكن ابنه صاحب السيف القصير المصنوع من الجوهر رآها، وحين سرقت خاتم الحكمة، رفع سيفه وقطع رأسها، وقال لوالده الذي استيقظ مرعوباً من فراش إحدى المحظيات: يا أبي كم مرة وأنت تقول سيفك عظيم ولكنك ما نزلت حرباً ولا قطعت به رأساً أو عنقاً مستحقاً لذلك. وأخبره بالعرة التي سرقت خاتمه، وقال له إنه فتشها بكاملها ولم يجده إلاّ عندما فتح كفها، وجدها مطبقة عليه بين أصابعها. فقال الملك، الذي أختبأ في زاوية ليغتسل من نزال المحظية: أنت ولدي بلا شك ولا ريبة. أراحك الله في الدنيا وفي الآخرة كما أرحتني من هذه الخبيثة. لكن الذي حدث بعد ذلك كتمته شهرزاد على سلطانها، وكان يجب أن تقوله ولو كلفها رأسها، لكنها وجدت نفسها بين المطرقة والسندان. ففضلت أن تقفز كعادتها. فالملك كان يعرف أن الزمن كان يركض بسرعة فائقة باتجاه الفاجعة السابعة بعد الألف. حمل ابنه السيف القصير المرصع بالجوهر في الليلة نفسها وحز رقبته بكل برودة وسرق خاتم الحكمة، ولم يجلس على الكرسي إلى بعض الساعات لأن عاصفة الليلة السابعة كانت قد زحفت نحو القصر وأبادته عن آخره. بقي يصرخ ويستجدي موجة البحر التي ملأت فمه بالملح والزَبد، لكنه لم يستطع أن يُلبى لأن عقارب الساعة الحائطية التي ظلت في مكانها كانت قد توقفت بشكل نهائي. كأن العرق توقف في تلك الليلة السابعة. ظل يصرخ. رجع إلى كل الكتب المقدسة والتاريخ، ولكنه لم يسمع إلاّ صوته. رفع يديه إلى السماء وصرخ: يا الله أتح لي فرصة وبعدها احكم عليّ كيفما تشاء. حتى المرآة التي هرب نحوها في اللحظات الأخيرة من عمره، لم تستطيع أن تعكس وجهه بالصفاء



Twitter: @ketab_n

الذي كان يريده. رأى المدينة تهتز، والبحر يغادر مواقعه باتجاه القصر. بعدها أمتلأت المرآة بالوجوه القروية المليئة بالجراح والندوب، تتوعد وترفع أياديها عالياً عالياً، رافعة شارة النصر. وظل يصر على رؤية وجهه، ولكنه لم يستطع أبداً. وقبل أن ينسحب، رأى جثة منتفخة، قلبها بيده فعرف وجهه. لعنة الله على هذه المرآة المسحورة، ثم ضربها بحذائه العسكري فتشققت، ومن بين الشقوق كان الدم القاني يسيل. هذه النهاية يا سيدي لم تحدث في الليلة الواحدة بعد الألف، ولكن في الليلة السابعة.

تململ شهريار بن المقتدر في مكانه.

ـ لكن الملك كان دابة. كان عليه أن يتخذ احتياطاته حتى من ابنه. خصوصاً إذا كان هذا الابن طماعاً.

لقد فعل كل شيء يا بسيدي. لم يكن غبياً، لكنه نسي زحف البحر. أيام قبل أن يحز ابنه رقبته، استصدر العديد من القوانين التي يتم من خلالها الحفاظ على المستوى الثقافي للرعية، وعلى رشاقة البلاد. أصدر دفعة واحدة سبع مائة مجلة وجريدة وطنية ناطقة بكل لغات أصدقائه، وأصر على توحيد مادتها ومنهجها وإخراجها الذي يأخذ صورة الغلاف للملك كشيء مقدس لا يُمس أبداً. وطالب الوزراء بالحفاظ على الرشاقة وأعطاهم أسبوعاً أمامهم لتنزيل سمنتهم تحت السبعين كيلو، وكل من تجاوزها فقد ظلم نفسه لأنه عندما يسأل من أين لك بهذا البطن ولا يجيب بحسب تصور الملك وفي اللحظة المحسوبة، يشويه ويوزع لحمه على أبناء المدينة، على أساس أنه لحم بقري صافٍ، ذُبح على الطريقة الإسلامية، ووضع داخل علب من كل الأنواع وكل الأصناف. ذات مرة سأل أحد وزرائه السمينين، من أين لك هذا؟ فأجابه بابتسامة المنتصر: كل هذا بفضل خيرك ورزقك ونعمتك التي لا تفنى. لم يدر ماذا يفعل معه، فقد وضعه داخل دائرة مغلقة. تركه في سرداب تحت القصر حتى خسر العشرين كيلو الزائدة ثم أعاده إلى منصبه، لكن المسكين


Twitter: @ketab_n

بعد شهرين مات جوعاً، خوفاً من السمنة. كان يعرف أن أي واحد يتجاوز وزن الملك مصيره الهلاك. تقاليد السلطة تشترط ذلك. أحد وزرائه فكر في الاستقالة مبكراً، لأن قاعدته بدأت تتسع ويعرف أن وزنه يصبح فاضحاً إن استمر في السلطة، وسيتهم بالمس بأمن الدولة والحكم.

ـ والله هذا قال لهم ارقدوا نغطيكم.

ـ كلهم يتشابهون يا سيدي! كلهم يتشابهون.

ـ خليني من رب الملوك فأنا أعرف أوساخهم. كلنا في نفس المزبلة.

ـ احكِ لي. أين وصل الحال بالموريسكي المجنون؟

لا شيء سوى أن صاح بأعلى صوته. الدنيا خسرت قداستها، وعمّ الفراغ عيون الأنبياء، وامتلأت الدروب بالقتلة الذين لا يظهرون، وسيدنا الخضر صار يركب حماراً عجوزاً ولم يعد رعبه يقنع أحداً. لقد انتهى عند بوابات الأسواق القديمة بشكل مخجل.

«آه يا شيخي النبيل، ويا كبير كل الناس كدنا ننسى حنينك وألامك!».

قالتها ماريوشا بعد أن سحبت أعماق السانطور الفارسي في وصلة دامت طويلة مع عيون الموريسكي. كان العرق بادياً على وجهها بالرغم من الرذاذ الذي ندى أرضية القارة. دلت من جديد وردة الكاسي الحمراء، مخترقة شعرها الأسود الذي عاد إلى زرقته اللاّمعة. يحكمنا قوم بني كلبون أيها الرجل النبيل. كلنا أصحاب حكاية. نفس الحكاية التي يريدون ابتذالها أو سرقتها منًّا. بني كلبون يا حبيبي البشير، قالتها، ثم تفطنت أنها تبتلع ريقها بصعوبة زائدة. بالرغم من لون الشعيرات البيضاء، ما يزال مشعاً كلون الثلج الذي لا ينزل في خراب هذه المدينة إلا ليؤكد لها أنها ما زالت بعيدة عن الحقيقة. يجب أن يبدأ النفير أيها الموريسكي الذي سُرقت منه



Twitter: @ketab_n

مدنه الطيبة. الزلزال بدأ يشق عذرية الأرض المسروقة. عندما تأتي الليلة السابعة، فهي لا تستأذن الملوك والسلاطين، تمد يدها وتمسح الخراب بخراب آخر يجب أن يسبق كل حالات العشق. في الليلة نفسها تنفطر السماء وتتناثر الكواكب داخل نظام جديد. تكسر الأمواج، وتفيض البحار وتنفجر القبور مبعثرة كل العظام التي بداخلها لتشتعل فيها النيران المحمومة، وكل نفس تقف عارية أمام البحر، يحاسبها على أملاحه التي ذاقتها في غفلته. الشمس تُكور، والنجوم تتكدر والجبال تُسيَر والعشار تُعطل، والوحوش تُحشر، وحين يسأل الموؤدون بأي ذنب قتلوا، يتدثر الملوك داخل أكتافهم، حفاة، عراة. بعد أن يذهب جبروتهم مع الريح، حين تُكشَط السماء، ويُسعّر الجحيم. النفير يا سيدي الكبير، أنت الآن تعلن عنه، لكن عيونهم لا تعرفك، لا تصدق نبوءك. ولو عرفوا لهربوا. قلوب الناس الذاهبين إلى خراب الغربة مملوءة بالحزن وبرائحة الشوارع وهمّ المدن المسروقة. هل يجب أيها الموريسكي المجدوب أن نسكت. أن نصمت ونترك الوديان والطيور تتكلم. هي يا سيدي وحدها تعرف لعنة السحب والمساوات العالية. تعرف الحنين الذي يستعصي خروجه. تعرف شوق المكنون الحزين. إنهم بني كلبون!

إنه عصر بني كلبون يا سيدي الوحيد! عصرهم. هلّمي أيتها الأنواء. هلمي الليل يزحف. إنه يأكل الأخضر واليابس الأبيض والأسود. لم يبق لنا شيء نخاف أن تخسره. وجهك بيننا وهو لنا. حنينك ياالله الحنانة.

حنينك يا قلباً شبه الشوارع ومدن النور.

حنينك يا بعيداً في القرب وقريباً في البعد.

حنينك يا شواف الغيب ويا حبيب نجمة الرعاة والتائهين.

كان سيدي عبد الرحمن المجدوب قد أخذ البانجو وبدأ يتلوّى في مكانه على مسمع ندب ماريوشا. هي لا تندب إلاّ عندما تشعر أن


Twitter: @ketab_n

أبواب الجنة أغلقت. وأن أبواب جهنم صار من المستحيل كسرها. يسمع عزفه من بعيد. كان يسمعه حتى عمال البحر. قد تبدأ الحكاية من هنا، من نوميدا ـ أمدوكال، من أفواج المجانين الذين لا يعطون قيمة لشيء اسمه الحياة. الحياة الحقة تنشأ داخل حرائق الجنون، وداخل رعشة الجدبة. يا سيدنا الخضر، لقد ضعت وكدت تضيعنا معك. أنتظرناك كثيراً ولم تأتِ ببرهانك يا سيد العارفين. لقد أركبوك دابة عجوزاً ورموك على أطراف المدينة ولم يأخذوا منك إلا اسمك يا سيد الفاضلين.

اكتب يا القوال أنه عاد. اروِ عن الرجل الذي شاف الجحيم وعاش القفار داخل قلبه وخارجه. اكتب تاريخك يا البشير الموريسكي يا شعلة كل المدن المسروقة، فتاريخك الحقيقي يلعب به الوراقون وكتاب الدواوين. أنينك يا سيدي يصل القلب في اللحظة التي تشعر بها أنك صرت وحيداً. عليهم. على بني كلبون أن يعلموا أن دنياهم توقفت. يجب أن تتوقف، هاهنا عند عتبة الليلة السابعة. تتقاطعان يا سيدي الموجوع أنت وحبيب الألم بوزيان القلعي. كان بسيطاً، لم يعرف إلاّ الصدق ورعي الأغنام، والقامة المستقيمة والأنف الواقف والحاد كالسيف. جاؤوه ليلاً في ذلك الزمن البعيد. كان المطر يسقط بغزارة. غسل وجهه بماء المساء الذي لم يفقد صفاءه بالرغم من العواصف والرياح، والأتربة المتصاعدة. كان متعباً وجائعاً. قال ابنتي أرجوكم. أقتلوني وأتركوها. إنها طفلة. قالوا نريد قائمة الفوضويين والذين يناهضون الجملكية ويحلمون بتحطيم أسوارها الواسعة. قال أفعلوا ما شئتم لكن سرحوها. عمرها ليس عمر الألم. لكن عيونهم كانت مثبتة عليها. اغتصبوها، صر أسنانه حتى سمع تقاطعها وتقطّع داخله. قالوا، نريد القائمة. ضرب رأسه مع الحائط الإسمنتي المشنقر. شعر مع الجرح بنوع من الصفاء. وضعوا ابنته في كومة تبن في الحارة الشعبية القديمة ثم أشعلوا النار. لم يسمع صراخها، لأنه ظل يعوي كالذئب المجروح ويتضور في مكانه. ومع انتهاء صرخته كان صوت النار يخفت



Twitter: @ketab_n

شيئاً فشيئاً، لينظفئ بانطفاء جسد ابنته الوحيدة التي خلفتها له زوجته قبل أن تموت. رفع صوته من جديد إلى السماء، لكن هذه المرة كان أبكم. مدّ يده باتجاه قطرات المطر التي بللته عن آخره. كان الخريف قد بدأ يعلن انسحابه من الساحات ومن الأشجار ومن قلوب الناس. لأول مرة يشعر بوزيان القلعي أن مياه الأمطار فقدت حلاوتها وصارت مالحة مثل الدموع. صعد إلى الصخرة العالية ثم ارتمى في البحر بعدما داخله حنين الموت. وحين خرج من إحدى عيون الحيتان كان مغسولاً بالأملاح، يتبعه جيش من الرعيان والصيادين لتحرير مدينته من غزاة الحجارة والأتربة. ويقال في إحدى الروايات المؤكدة، إنه هو الذي خلع رقبة الملك الذي قتل والده واعتلى العرش في ذلك الزمن البعيد. ويوم مات بوزيان القلعي كان الناس يمشون رؤوسهم مرفوعة إلى الأعلى باتجاه السماء احتجاجاً على الله. يحملون في أكفهم طاسات النور، وفي كل مرة يغسل أحدهم وجه بوزيان الأزرق. كانوا يريدونه مشعاً حتى داخل القبر.

آه يا سيدي الخضر أينك! أين كنت يوم كانت الوجوه المنورة تسحب على الشوك؟! حمارك العجوز، المنهك المنفي على أطراف نوميدا، أصبح حزيناً وثقيلاً. قولوا لشهريار بن المقتدر إن الزمن الأغبر يدق على أبواب القصر. قولوا للحكيم إن الماريخا تنشأ الآن تحت أقدامه.

قولوا لدنياه عليها السلام. لقد قال الآتي: إن الليلة السابعة ستطوي كتاب تاريخ الوراقين وأصحاب الدواوين.

تدخل الشرطي الذي كان على أطراف الحلقة.

- عبد الرحمن المجدوب. أوقف هذا الحديث!؟

وقال صاحبه:

- اهذِ كما تشاء، ولكن لا تسم «الأسماء».



Twitter: @ketab_n

ثم جاء ثالث، كان قد نزل لتوه من سيارة سوداء كانت تجوب الأسواق الشعبية وتراقب الوجوه، كان وجهه بارداً مثل قطعة حديد مصدأة. رفع رجله عالياً وقبل أن يهوي على البانجو والسانطور بعنف، كان المجدوب قد دفعه بعيداً. لماذا عندما تخفقون تقتلون الأناشيد والأغاني؟! لماذا تمزقون الألحان. لن تمسها إلا إذا مررت على ظهري. كان الناس قد أغلقوا الدائرة التي ازدادت اتساعاً. الأغاني في قلب كل الناس، صاح المجدوب. حتى المجانين أزعجوا راحتكم؟ الحقيقة التي صارت الآن مؤكدة، ودوّنها علماء المدينة في كتاب المدينة، هي أن الشرطة عندما تدخلت لإسكات صوت عبد الرحمن المجدوب كانت أطراف المدينة تتحدث عن أشياء غامضة تحيط بالقصر. قيل إن حنين الماضي استيقظ في قلب الحكيم شهريار بن المقتدر حاكم جملكية نوميدا ـ أمدوكال، فاتّهم زوجته دنيازاد (قطر الندى) من جديد، بأنها استغلت طيبته والحرية المعطاة لها من طرفه وعشقت سائحاً، وربما عبداً من عبيد القصر، لتنجب منه الطفل الوريث. كان يعرف عقمه، لأن تعداد السلطة المتوارثة توقف عنده ولم يكن ممكناً أن ينجب. مستحيل. حين بكى ليلاً قال: صدرك صار مراً وسيفي صار عاجزاً عن قتلك. أريد ابناً منك مني. لم يكن الزمن زمن المداراة والمزاح. قالت مستحيل أيها الملك السعيد. أنت عاجز وأنا أنثى مملوءة بالحنين إلى الطفولة، قال أرجوك تدبري أمرك، لا يعقل أن نرمي المُلكَ للريح وللرعيان ولعمال البحر، أو لسفلة القلعة الذين تحوّلوا إلى شوكة في الحلق. من يومها صار يغمض عينيه عن السواح الأجانب، وفي المساء يسألها: هه. يا لالّا قطر الندى. يادنيازاد؟! هل من جديد. هه هل تأوهت كثيراً وأنت تنامين عليه. أعرف أنك تعشقين هذه العادة. تريدين أن تركبي الرجل، وترفضين أن يركبك. لكنها لا تجيبه، وإذا أجابته لا تتعدى كلماتها: لم يحن الزمن بعد. وعندما يكون، سأروي لك الحكاية من أولها إلى آخرها. اطمئن من هذه الناحية. وحين جاءه الطفل الذي كان ينشده، راعه كثيراً أنه لم يكن بعيون خضراء


Twitter: @ketab_n

كما كان يحلم به دائماً، وأن في شعره بعض التجعدات التي لم تكن لتعجبه أبداً. في النهاية سلم بالأمر، وبعدها بدأ يصدق أنه ابنه حقيقة ومع الزمن تكونت هذه القناعة مصحوبة بكراهية باطنية للوريث. والحكاية كانت قد وضعت طي النسيان، لكنها استيقظت في الأيام الأخيرة من جديد، وأصبح الحكيم يسأل كثيراً على غير عادته، خصوصاً حين لاحظ بأن الطفل بدأ يمارس عصيانه، وينتظر لحظة موته ليعلوا الكرسي. الملوك يقرؤون ذلك في عيون المحيط بما في ذلك أبنائهم. خصوصاً الأسبوع الذي قضاه شهريار بن المقتدر مريضاً، طريحاً في فراشٍ بدأ يتآكل بفعل الرطوبة المتصاعدة من أرضية القصر ومن الأسرّة. بعد أسبوع المرض الولد بقي في الكرسي، ولم يتزحزح منه إلا بإشارة من أمه. وحين جلس على الكرسي، وهو ما يزال مريضاً، قال شهريار بن المقتدر من جديد: يا دنيازاد، أو قطر الندى كما تشائين. العمر يزحف نحو الموت. هذا ليس من صلبي وليس ابن السائح الذي كان يرتاد القصر. أنا أعرفه وكنت أراقبه بعيون حراسي. كانت مصرة على قول كل شيء، لأنها كانت تعرف جيداً لماذا توقف العد. وتعرف قصة أختها، دابة الغواية، التي نسيت قول ما يجب قوله. نعم، كان سائحاً أجنبياً معجباً حتى الموت بالمدن المتوسطية البعيدة التي غادرها منذ زمن بعيد وعاد لها، كانت عيونه زرقاء كالشعلة الهادئة، وجهه جميل ولكن بدون ملامح واضحة. قالت إنها رأته من النافذة المطلة على القصر يصور جوانب الدهشة من رخام القصر الشرقي. أشرت بإصبعها فجاءها راكضاً. قالت: ألست مغرماً بتصوير داخل القصر، طار فرحاً. سحبته وراءها. صَوّرَ حتى تعب. حتى كاد أن يغمى عليه من كثرة تقلباته على الأرض، وهو يأخذ صوراً للحيطان والأسقف، والحجارة، والكتابات. عندما انتهى عزمته على كأس، أشعلت به داخله المتأجج لرؤية جسدها ملفوفاً في لباس شفاف. سحبته إلى قاعة الحرملك المزركشة بالأجساد التي تحمل كل الألوان وكل أنواع العطور. كان مستمتعاً بهذا الجو.



Twitter: @ketab_n

قالت له ألا يعجبك أخذ صورة للحكيمة؟ إذا شاءت سيدتي. قالها وهو يحاول أن يجمع مفرداته الممزقة. ثم اختفت، وبعد لحظة نادته بعد أن غيرت لباسها من جديد وعطرها، وبدا في عينيها شبق غير محدود أبداً. بدأ يصور، والآلة ترتجف بين يديه، وما كادت تنتهي من نزع فستانها حتى كان السائح الأجنبي قد أعوجَّ وانهار. بالنسبة له لم تكن زوجة الحكيم أكثر من جزء هام من الديكور العام للقصر. لم تكن في حاجة إلى مقدمات. فبعد الكأس السابعة في الفراش، لأن الحكيم تعود أن لا يجامعها إلا إذا انتهى من الكأس السابعة وشمّ الكأس الثامنة. لأنه كان يقول دائماً عنها إنها كأس مشؤومة، ويجب تفاديها. وحين شم السائح الكأس الثامنة، كان قد ارتخى وانتهى تحت وطأة الأحلام الوردية التي ينتهي امتدادها. كانت النجوم قد استقرت في عينيها مع لون أقواس قزح. كان يعرف أنه حين يلمسها ستذوب بين يديه كقطعة سكر. ابتعدت قليلاً. كان الضباب الملون قد بدأ يملأ عينيه. يقال، والعهدة على من يروي الحكاية، إنها نامت في حجره اليوم بكامله، وبأشكال مختلفة. كانت تمارس الجنس كالجنية. لم يكن هناك شيء يمنعها من تحرير جسدها. حتى شهريار بن المقتدر لم يكن موجوداً، كان دائماً يقول لها بعد كل نزال عاداتك سيئة ولكنها لذيذة. وتجيبه هي، الرقدة إذا لم تتجدد تموت. واللحم إذا خاوى (أصبح متآخياً مع بعضه) سيفقد شبقه ومبرر الممارسة. وظلت مع السائح الأجنبي حتى تأكدت من أن هذه اللذة لا يمكن أن تكون فارغة، يجب أن تعلق بها النطفة المرجوة التي تنجب وريث القصر. لكن بعض الوراقين الذين غادروا القصر باتجاه بلاد أخرى، يقولون غير ذلك. يؤكدون على أن وجه الطفل من صلب الرمال والصحارى، وشعره لم يرث إلا الخشونة الرملية. يصر الضالعون في العلم، الراسخون في النبوءة والأخبار والأنواء، وحكايات الأحياء والأموات، أن السائح في واقع الأمر كان همه التصوير فقط، واختياره لهذه المهمة هو نوع من العادة السرية لتجاوز ضعفه الجنسي، لأنه في الحقيقة وُلِدَ مختومٌ بفراغ في



Twitter: @ketab_n

أعضائه التناسلية. وفي اللحظة التي شع فيها جسدها كالشمعة المسروقة من كنائس المدينة المظلمة، كانت الحكاية قد انتهت ووضعته على الفراش عارياً مثل الفأر. كانت النار تصعد من الفراغات الموجودة بداخلها، بحثت، لم تجد فيه شيئاً مهماً سوى عيونه. صرخت بأعلى صوتها، وكان قد بدأ يشخر من جراء السكر، صرخت متأوهة «وخسارة فيك عيونك».

ثم مدت إصبعها الأوسط، عقفته باستقامة ومدته بين فخذيها وظلت تتأوه بجنون، تتحرك حركات العربدة، حتى استكانت فجأة. وضعت لباسها الشفاف بين رجليها وحاولت أن تهدأ، لكنها عندما استعارت صورة وجهه صرخت مرة أخرى: يا ابن الزانية. تعذبني وتتركني فريسة لوحش الرغبة. كانت ترتعش. سحبت عبدها الذي كان يراقب العملية من وراء الأحجبة الخفيفة والستائر الهندية. تعال. لم تبق إلا أنت يا وحش الغابة. ورّيني شطارتك! اكشف عن جرأتك وكنوزك يا عبد جهنم؟ لم يكن يعلم شيئاً، ولا تساءل كثيراً. يعرف أن كلمة الحكيمة دنيازاد هي كل شيء. عصيانها معناه الموت. انسحب وراءها، وفي الفراش نام طويلاً على صدرها. كان ثقيلاً، وكانت تعشق الجسد الذي يحتويها ويملأ فراغاتها. رغت مثل الموجة المكسورة، لأول مرة، بعد الوهن، تقبل أن يركبها رجل، ولكنها قبل أن تعود لتنام تحته، قالت له دعني أقوم، ثم ارتخت على صدره بعدما غاصت فيه مثل الغيمة. لم ير شيئاً سوى ضباب الدهشة ورائحة عود النوار والزهر، وعرق الأجساد الذي اختلط بالمسك والعنبر وأشياء أخرى لم يعرفها. حين انتهى اكتشفت ضخامته. كل هذا يا ابن القحبة وأنت مختبئ وراء الستائر. وضعت الكأس في يده فشرب، وانتهى مسموماً. صفقت. دخل عليها ثلاثة عبيد ملونين. كان السائح قد استيقظ، وأخذ كل اللقطات المدهشة التي مارستها مع العبد. حاول أن يرسم ابتسامة جديدة هي نفسها الابتسامة التي أشرقت بين شفتيه عندما عزمته إلى الحرملك، تأملته بحقد، ثم بصقت على وجهه. طز فيك. خسارة هاتين العينين،



Twitter: @ketab_n

وأمرت عبيدها بنزعهما، ووضعتهما بعد ذلك في محلول كحولي، وكلما رأتهما توحمت عليهما. وحين أرادت أن تحرق الفلم لم تجده. وعندما خاف الحكيم من الفضيحة، لأن رجاله أوصلوا له نصف الحقيقة، حقيقة السائح الذي ضاجع زوجته، طلب من كاتب تاريخ العائلة أن يدون: «اليوم حملت صاحبة المقام العالي من سيادة حكيم الجملكية شهريار بن المقتدر، والقادم من رحمها سيكون باراً وتقياً وحافظاً للدين والدنيا، واسمه محفوظ في اللوح المستور من العين...». كُتبت الوصية بماء الذهب الممزوج بالماء المقدس والمعطر بقشور الرمان ونواة علف حب الملوك، وقشور البرتقال. وظلت أطراف المدينة تتحدث عن القصة، وتُنجّر أخشاب الأشجار الساحلية التي ماتت واقفة، وتصنع من موتها أسلحة لمواجهة اليوم الموعود.

- يا عبد الرحمن، يا المجدوب، أنت تبالغ. لقد أوصلت رأسك إلى التهلكة.

رددها الشرطي الأول الذي تدخل لمساعدة صديقه الواقع على الأرض. وضرب المجدوب على فهمه فأدماه. نظر إليه بعينين قاسيتين.

- آخ يا توركيمادا ويا زمينير ويا... لن تقتلوا الأناشيد، لن تصمت الأغاني لن تموت الدهشة يا أبناء الكلبة.

سأغني سأنهي الحكاية وسأركض وراءها حافي القدمين حتى التهلكة وأصر على حقي في القول. في البداية خاف الشرطة من الناس المحيطين بالمجدوب، لكنهم عندما تذكروا أوامر القصر والحاكم ونوابه وصرامتهم، أصروا على ضرورة سحب المجدوب بتهمة التشويش والمس بأمن البلاد قالوا:

- أنت تشوش وتغالط التاريخ.

- أي تاريخ يا مساكين؟ التاريخ الذي نرويه في الساحات، أم التاريخ الذي يزوره الوراقون في القصور؟.


Twitter: @ketab_n

ـ سيدنا الحكيم فرض احترامه حتى على الدول الأجنبية.

هذا تاريخ الوراقين يا أبناء الزانية الرخيصة. أنا لا أتحدث عن هؤلاء. أتحدث عن الناس الذين يموتون جوعاً وبلادهم تلد الخبز والماء، عن الناس الذين يعيشون في الظلام وشوارعهم يملؤها النور. الذين يموتون عطشاً، وبلادهم تشتكي في الفيضانات. لا أتحدث عن الوراقين، أتحدث عن الجرح، عن الله الذي تخلّى عنا. عن سيدنا الخضر الذي أصبح يخاف على حماره العجوز من الموت أكثر من خوفه علينا. لقد سرقوا نبله وتركوه يموت خارج حدود المدينة. لا يهمني تاريخ الوراقين الذي يُكتب بماء الذهب المعشّق بقشور الرمان والعطر النادر. تهمني العيون التي ترى قلبي ولا أراها إلا بصعوبة، وماريوشا التي أجبرت على مغادرة الجامعة والاقتصاد السياسي، لأنها لا تعرف الكذب.

فجأة علا صوت الحاضرين الذين أغلقوا الحلقة على الشرطة الذين زاد خوفهم. كان ذلك يُقرأ في عيونهم بالرغم من محاولة التماسك التي كانوا يحاولون أبداءها. نريد سماع الحكاية يا سيدي عبد الرحمن المجدوب. نريد الحكاية، ولا شيء سوى الحكاية. صوت الوراقين للوراقين! اقترب المجدوب من الصوت عرف فجأة صاحبه. إنه يلمسه ويعرف صدقه. العالِم السابع في القلعة. كان يتكئ على هراوة ثقيلة، في رأسها دبوس يزن أكثر من عشرة كيلو. كان هو. لأن الموريسكي حين سأل عنه فيما بعد، قالوا مسألة زمن طال كنا نريد اختصاره. وكان العلماء (الحكماء) السبعة يقصدون ما يقولون. كنا نحلم بتحقيق القفزة من زمن الموت والتوحش إلى زمن يبدأ فيه عصر الإنسان. قال العالم السابع: عصر بني كلبون يجب أن يزول. يجب أن نستعيد عيون الله إلى هذه المدينة ونعيد للبحر أملاحه من أجل أن لا يخون البحر عشاقه. أملاحه هي أمله. هي حياته وحلمه.

ـ دعوه يتم، لأن البقية تعجز شهرزاد عن روايتها، قالها العالم



Twitter: @ketab_n

السابع مرة أخرى. لكن قبل أن يفتح المجدوب فمه ضربه الشرطي ضربة خشنة على صدره، وفي اللحظة نفسها كان العالم (الحكيم) السابع قد رمى لباسه الصوفي الثقيل، وأصبح أخف من البرق وأنشط من النار. رفع الدبوس إلى أعلى، وهوى على رأس الشرطي الذي ظلت صورة حذائه مرسومة على لباس مجدوب، ففجه مثل الدلّيعة. هوى على الثاني الذي أخرج مسدسه فبعثر جسمه، ثم رفعها ليبيد الثالث، ولكن هذا الأخير، كان قد انزلق من بين الأرجل وهرب، وصرخ في وجه عبد الرحمن المجدوب: أنهوا الحكاية أيها الناس. أنهوها، لأنكم إذا تركتموها مبتورة سينهيها الوراقون وكتبة الدواوين. وقبل أن ينسحب الجميع انسحب العالم السابع من الساحة بعد أن ترك معلومات تخص مكان الاجتماع السري الذي سيعقده الليلة عمال البحر وسكان القلعة وبعض أعيان المدينة وأهاليها. بينما كانت السيارة السوداء تجوب المنحدرات، وتقطع أفواج الناس داخل السوق الشعبي، وسائقها يصيح في مكبر الصوت. ياللي تسمعون سماع الخير. سيزور سيدنا الخضر مدينته. لا تغادروا بيوتكم وإلا وقعت الفتنة. وجِرصُ سيادة الحكيم، شهريار على رعيته وشعبه العزيز يُجبره أن يخبركم عن حدوث الطامة الكبرى التي تسبقتها حالة هول ثم افتقاد البصر لكل من ينظر من ثقب الباب. فسيدنا الخضر لا يزور المدينة إلا لتنقيتها من الأشرار. ياللي تسمعون سماع الخير. سيزور... بدأت ملامح السر تنكشف، وبدأت الغيمات السوداء الوهمية تزول من أذهان الناس. قيل عن العالِم السابع كلام كثير. بعضهم يقسم إنه رآه عندما دُفِن داخل السيارة السوداء التي كانت تنذر الناس، لكن آخرين يصرون على أنه روى الحكاية وحدد لأصدقائه مكان الموعد ثم انسحب كالبرق، لكن الذين حضروا الجلسة الليلية، كانوا كثراً، رأوا كل الناس حاضرين، المجدوب الذي عاد إلى صوابه، والعالِم السابع الذي أصبح يحمل كلاشنكوفاً بين يديه. كان الجميع في قلعة



Twitter: @ketab_n

المدينة. بقوا زمناً غير محدد، ولكنه كان مختصراً قياساً لاجتماع بمثل هذه الأهمية. تداولوا قضايا كثيرة، لكن الراعي الذي كان يقف عند الباب ظل هو بدوره يقلقهم بضرورة التسرع قبل بداية القصف. عرفوا أن الكثير من عمال البحر والملح أخذتهم السيارة السوداء، التي لا تمر إلا لتسحب من الشوارع نبضها. لأول مرة تشعر ماريوشا أنها وحيدة في جنونها. وفوجئت أن لا أحد يسأل عن البشير الموريسكي. مستحيل. أبهذه السرعة تنسى الذاكرة آلامها، وتختصر طيبة المدينة. قال أحد العمال الحاضرين: هل ننادي لسيدنا البشير. قال أحد العلماء: لا أتركه هناك. فهو في مأمن أحسن من القلعة. يحب تكسر الموجة والموجة على الصخور. وما يزال ذهنه ممتلئاً بالصراخات القديمة. عين العمال تحرسه من بعيد، فهو أمانة في عنقهم. استحضرت ماريوشا كل الصور، ولكن صورة البشير وهدوءه ووجهه ظلت عالقة بعينيها التعبتين. هل هو إنسان؟ ابن هذه المدينة؟ أم أنه حقيقتها المغيبة. في لحظة مسروقة من أنانيتها، تمنت أن يكون مثل جميع البشر لتعشقه مثلما عشقت ذات زمن أستاذها في الاقتصاد السياسي، ويوم اكتشفت نذالته وابتذال الجامعة التي تحولت إلى صورة تافهة للقصر، باعت كل شيء للجميع ونزلت إلى الشارع تمارس طقوس الأمومة المفقودة وجنون الأحلام.

البشير لن يختصر أبداً. سمعت صوته يأتي من الأحجار وموجات البحر، ورائحة العشب، وقطرات المطر الشتوي، ومن صوت الرباب الذي كان ينحت صخور الشط المهجور. سمعته. صرخت في أعماقها: إنها رائحته تأتي. تأتي معشقة بملامح وجهه الحزين وبذاكرته الثنقلة بألوان الجحيم. قامت من مكانها، لم يسألوها، لأنهم كانوا يعرفون حنينها. نزعت وردة الكاسي الحمراء من شعرها ثم أعطتها لأحد علماء المدينة وقالت له: ضعها في كتاب الأمة واكتب تحتها من ماريوشا المجنونة إلى الرجل الهبيل الذي


Twitter: @ketab_n

باع المدن والأحياء والأجداد. من أجل الحكاية إلى البشير. ما تبقى من صدق التاريخ الذي سقط من أقلام الوراقين. ثم نزلت إلى البحر بجانب الحائط المتآكل وهي تدندن أغنيتها الجميلة التي حفظتها عن قصة كارمن.

Me Soy Maryuch a Del Bechiryo no de me Mincharro yo Solo Quasto cuchillo ala Hora de Come



Twitter: @ketab_n

# 10

كانت الجلسة السرية حارة. ثم وافق الجميع بعد الاتفاق على ضرورة الالتقاء على أطراف المدينة، بالجانب المطل على البحر، في بيت الصيادين المهمل في زاوية لا يتنبه لها أي واحد ولا تستثير المارين. كان الراعي عند الباب، يلح دائماً على السرعة، لأن الوقت ضيق، وأن العمال بدأوا يعطون الإشارة الضوئية لضرورة النزول. امتطى كل واحد سلاحه. حمّلوا على الدواب التي بالخارج كل البوقالات التي فيها رماد الشهداء وأنزلوها إلى مكان قريب من القلعة، في الأنفاق الأرضية، التي يُحفظ فيها أرشيف الحكام السابقين وعوضت ببوقالات مملوءة بالرمل. بينما تأبط كبير العلماء كتاب المدينة المغلف بكتان القطيفة. كان يجب فعل ذلك لأن المعلومات المتسربة من القصر تقول بأن الحاكم مقدم على ركوب رأسه وارتكاب الحماقة التي ستأكله، وأن سيدنا الخضر مصمم هذه الليلة على زيارة القلعة ولأول مرة منذ أن انشئت الجملكية. ولهذا كان الجميع في سباق مع الزمن. في المساء الذي سبق الاجتماع، وبعد حادثة السوق، وصل رسول يحمل رسالة عليها ختم حاكم الجملكية شهريار بن المقتدر نقلها العلماء حرفياً في كتاب المدينة بعد أن قدمها لهم عمال البحر: «من فاتح البلدان، وقاهر الطغيان ومبيد المظالم: الحكيم شهريار ابن المقتدر حاكم جملكية نوميدا المصونة. نظرا للتطورات الخطيرة التي تعرفها البلاد في الآونة الأخيرة، سيزور سيدنا الخضر البلدة بكاملها، نرجو منكم البقاء



Twitter: @ketab_n

على الحياد مقابل إعفائكم من زيارة سيدنا الخضر. الجواب ضروري». وكتب العمال في اللحظة ذاتها رسالة تؤكد على حيادهم. ولكنهم في المساء نفسه أخبروا العلماء، وبدأت الاتصالات التي أتخذت طابعاً سرياً تعمم داخل المدينة بكاملها. وبدا جلياً أن المقصود بالحياد علماء (الحكماء) البلدة السبعة. وكانت هنا أولى الحماقات التي يرتكبها القصر والتي تدل على ضعف وليس على قوة. لأن القراءات السميولوجية التي أنجزت على هامش رسالة المبعوث أثبتت بأن الحكيم مقدم على إبادة كل شيء، ربما حتى عمال البحر الذين يخشى زحفهم المفاجئ.

ومع أولى علامات الليل بدأت مدافع القصر تدك القلعة الواقعة على رأس المدينة. وصوت الطائرات لا يُسمع إلا مصحوباً بالنيران والأتربة والسواد. وظهرت تحت بروق الليل التي لم تتوقف الأحصنة السوداء وهي تزحف باتجاه القلعة. كان العمال والعلماء السبعة، وجزء كبير من سكان المدينة المنظمين في شكل ميليشيات مسلحة، يتأملون بحزن شديد المشهد ويزيد يقينهم أن ما كان يقوله العلماء (الحكماء) كان هو عين الصواب. سيدنا الخضر نُسيَ وسط المدينة. لم يعد علمه كافياً لنزع الرقاب وتهديم أسوار المدن.

وعندما اشتعلت النيران في القلعة، وعاد الخيالة متأبطين أحصنتهم باتجاه الشوارع الخلفية للمدينة، كان الحكيم يرفع الأنخاب ويقسم أن الذين راهنوا على الليلة السابعة كانوا سفلة، وبدأ يسن سكينة من أجل الإجهاز على دنيازاد بمجرد الانتهاء من الحكاية.

حافظت المدافع على رتابتها طوال الليل بدون توقف، لأن أماكن كثيرة في القلعة لا يمكن الدخول إليها بسهولة. ومع انبلاج أولى تباشير الفجر الأول في الجملكية، عاد كل الناس إلى مواقعهم وأماكن عملهم، وكأن شيئاً لم يكن، إلا القلعة ظلت مغلقة، بعد أن تهدمت بعض حيطانها الخارجية، ودمر رجال الخيالة بوقالات الرمال بعد أن تضاحكوا عالياً.



Twitter: @ketab_n

- هه! هذه هي بوقالات الشهداء!

ومع الساعة السابعة صباحاً، موعد فتح القناة التلفزيونية الوحيدة، ظهرت صورة الحكيم تملأ الإطار بدل النشيد الوطني. تقدمت المذيعة لتعلن لسكان الجملكية الذين تجاوزوا العشرين مليوناً: حكيم الجملكية يحدثكم فاستمعوا يستمع لكم الله ورسوله يوم القيامة. كان وجهه معطباً، ملامحه ضائعة، عيونه زائغة. أصدقاؤه الأجانب أوصوه أن لكل مقام هيأة يجب احترامها، من أجل كسب عطف الآخرين. بقي أكثر من دقيقة مغنزراً. فجأة، وبدون سابق إنذار رفع عقيرته بأغنية قديمة للشيخة الرميتي:

*ياعيني على اللي راح، والله ما ننساه.*

*لو كان يجيبوا لي الدنيا،*

*وملك فرعون،*

*والله ما ننساه.*

*يا عيني على اللي راح...*

والله ما ننساهم. شدد على الجملة الأخيرة بقوة، حتى كزّ على أسنانه. البلاد تتعرض لعدوان ساعٍ خارجي، بخيوط داخلية، وقد فقدنا ليلة أمس أعز ما تفخر به الأمة. توقف لحظة ومسح دموعه التي استحضرها بسهولة، لأن شخصاً، لا يظهر بشكل واضح على الشاشة، كان يطلق برتابة وبكميات قليلة غازات الأكريمجان، لأن المذيعة نفسها في نهاية الخطاب كانت عيونها مورمة. بلع ريقه بصعوبة، ثم واصل. علماؤنا، حكماؤنا السبعة رحمة الله عليهم، ولهذا أعطيت الأوامر، من أجل اعتبارهم شهداء، سقطوا من أجل قضية وطنية عادلة. وثانياً ضرورة جمع أشلائهم وإقامة جنازة عظيمة على شرفهم. أقسم إن دماءهم لن تذهب هباء منثوراً على الإطلاق. إنا لله وإنا إليه راجعون. وظلت القناة طوال الفترة الصباحية تبث الأناشيد الوطنية المعروفة وغير المعروفة. لأن البث



Twitter: @ketab_n

المسائي خصص للنقل المباشر لجنازة علماء المدينة. أمّا الجرائد الوطنية، فقد ظهرت مجللة بالسواد على غير عادتها. تأخر ظهورها على العادة، حتى الإطار الذي صور فيه جلالته وهو يتباكى كان مجللاً بالسواد والقتامة وتحته مربع آخر لوجوه غير واضحة. تقول الملاحظة المسجلة تحتها، إنها آخر صورة تلتقط عن طريق القمر الصناعي عرب - سات للعلماء وهم يقاومون الهجمة الخارجية. كانت صورة الجنازة مدهشة. حتى العلماء وهم على أطراف البحر مع العمال، يتابعون البث المسائي، كادوا يصدقون أنهم ماتوا حقيقة. كان الديكور مدهشاً وكان الناس يتدافعون مثل النحل. قرئ القرآن ودفنت التوابيت السبعة في مقبرة الشهداء التي تقع بجانب القلعة التي كان يسكنها العلماء في أعلى الهضبة. كان هذا خطأ آخر، يؤكد على ضعف الحسابات عند حكيم الجملكية، وجعل صورته ضعيفة أمام أعدائه الذين كان يحاول أن يثبت لهم قوته. لكن فجأة الانفجارات بدأت تملأ المدينة. وحتى البناية القريبة من القلعة التي خطب فيها حاكم الجملكية، بعد عدة ثوان، تحطمت بقذيفة موجهة. في البداية كان يسمع من بعيد، ولكن يبدو أنه أصبح داخل الشوارع. أصبح دويه يصم الآذان، مختلطاً بأصوات سيارات الإسعاف وهي تعبر الممرات والأزقة بسرعة غير محدودة. بدأ الجيش الجملكي ينتشر عبر كل مداخل المدينة ونزلت الدبابات إلى النصف التحتي من المدينة بدون أن تحاذي البحر. وبدأت عملية اقتحام البيوت علانية، وسُحِل الناس في الشوارع أحياء. بينما كان الدوي يزداد كثافة وعدد ضحايا المسح يتضخم امتلأت المسالك المؤدية إلى القلعة، وإلى وسط المدينة، بسيارات الجيب، وحوصر حتى الذين شاركوا في تشييع الجنازة وأبيدوا عن آخرهم، وقتل حتى بعض الوزراء، ممن تلقوا أمراً بضرورة حضور دفن العلماء السبعة. كانت المدافع المنتصبة في كل الزوايا في الشوارع، تحصد الناس حصداً. في المستشفيات أكد بعض الأطباء الذين يملكون قدراً بسيطاً من الشجاعة، أن في الكثير من المناطق استعمل الرصاص الانفجاري الذي إذا دخل الصدر أو البطن لا يترك مجالاً للحياة.



Twitter: @ketab_n

الناس الذين تساءلوا عن البشير قبل هذا الزمن عرفوا فيما بعد أشياء كثيرة لا تحصى بسهولة، كانوا يجهلونها. فقد غادر السوق قبل حتى أن تأتي الشرطة بعد الحادثة التي وقعت هناك. يقال إن الراعي الذي كان يحرسه بعينيه رآه يغادر المكان بقلب مكتئب. تذكر غرناطة والمارية. كان دائماً عندما يصاب بكآبة يفتح عينيه عن آخرهما وينزل إلى الشاطئ المهجور الذي يقضي الوقت في تعداد الموجات التي تذهب وتجيء. وقف على أطراف الحائط القديم، بعيداً في بيت معزول يكاد يلامس البحر، بني بالزنك وبعض الآجرّ الذي بدأت النباتات الخضراء تغطيه. استنشق حتى امتلأت رئتاه برائحة الملح والأصداف الملونة. انتابته حالاته القديمة، حمل كومة من الرمال، وبدأ يبعثرها داخل البحر، كانت طيور النورس البيضاء، تنزل باتجاهها، ثم ترجع خائبة. إيه يا طيور النورس، قالها وهو يغمض عينيه على موجة قبل أن تتكسر على الصخور البركانية. لم يسمع إلا صوتها وهي تتمزق وترغي بألم. لا شيء لدي سواك يا البحر. لا شيء سوى بياض هذه الأمواج التي تعرف أنها ستنكسر، ومع ذلك تركض بكبرياء نحو حتفها. لا شيء سوى طيور النورس التي لا أملك شيئاً أعطيه لها سوى الرمل، والرمل فارغ.

شعر بالكآبة تنزل عليه دفعة واحدة. وضع يده على فمه. أهلْ يعقل؟ عندما كنت أروي الحكاية. ماذا حدث. خفت أن أنظر إلى وجهها، كانت نبية على القلب. لو اختار الله لرسالاته نساء لكان الأمر أفضل. قلب المرأة أفضل، وأكثر قدرة على المقاومة. الرجال فيهم الكثير من الابتذال. في لحظة من اللحظات كنت عاجزاً، لأني خفت أن أشتعل في اللحظة، وينزلق قلبي أمام عيني، متفحماً، مترمداً. كل شيء فيها يوحي أنها غجرية، وأن بينها وبين ماريانة شبه يثير الدهشة. أوف. أخشى أن تكون مجرد حلم، وسيحاول البعض إقناعي بأني كنت على الساحل وعندما داهمتني الأمطار هربت إلى مغارة. لا يعقل. ماريوشا من لحم ودم. عيونها المائلة ترتشق في القلب وأناملها تجرح الذاكرة. ليست حلماً.



Twitter: @ketab_n

رفع رأسه إلى السماء، كان الرذاذ يزداد كثافة. نظر إلى البحر، كانت موجة أخرى أكثر ارتفاعاً تتهافت باتجاه الموت. مد يديه مرة أخرى، وحين تكسرت امتلأ فراغ كفيه. أيها البحر لتكن ماريوشا حقيقة مثلك، لتكن حلماً يلغي هذا الفراغ الذي يبحث عن ذاكرة يصنع بها مجده. والمجدوب؟! لماذا استثيرت أحزانه، فهل عدت من خراب القرون الماضية لأفر من أشواقي وأبعد الناس عن حاضرهم. ماريوشا هي حاضره الوحيد. لست نبياً! لست المهدي الذي يذهب ويعود. كان علي أن أروي الحقيقة كما تعلمتها في أسواق غرناطة فرويتها. كان علي أن أعيد أشواق ماريانة فأعدتها. لكن ماريوشا سرقتها منّي. والبحر تمزق عند أقدامي ولم يجبني.

جلس بهدوء على الرمال المنداة ووضع رأسه بين رجليه وظل يسمع فقط إلى أصوات الأمواج وهي تتكسر، يمتزج رغيها بأصوات النوارس التي لم تغادر البقعة التي كان يجلس فيها البشير الموريسكي.

كانوا يعرفون أشياء كثيرة عنه. حتى الأسوق عندما خلت ظلت مملوءة بالأساطير وأصداء حكايات الأولين التي لا تروى بدون ندوب تخلفها في ذاكرة الناس. من أين تخرج الصرخة الأخيرة المتبقية. قالتها ماريوشا وهي تعيد ترتيب الدائرة التي بدأت تضطرب.

عادت الحلقة إلى وضعها الأول. هل يعقل أن يموت حرقاً وهو الذي هرب من الحرائق: كانت تصرخ في نفس المكان الذي انعزل إليه البشير وبدأ يفكر قبل أن تخترقه نظرتها الحادة التي لا ترحم. في ذلك الزمن البعيد عندما اتهم بالهرطقة قال الموريسكي لزبانيته: اقتلوني ولا تخصوني. مزقوني ولا تحرقوني لا أريد أن أصير رماداً في هذا العمر، لأني سأكون رماداً لا قيمة لي، والأسواق تنتظر مجيئي. لم يكن هناك خيار آخر سوى الموت.

كان أيها السادة ـ تقول ماريوشا ـ يقضي كل أيّامه يروي في



Twitter: @ketab_n

غرناطة الأخبار التي لم تُحكَ، ولم يتجرأ الوراقون على قولها. هي قصة القوال الموريسكي الذي قتل الموت ولم يقتله. قاتل البحر ولم يخن ملحه. مزق الليل، لكن دثره في خلوته. رأته ماريانة، فقتلت عشيقها. وحين أراد أن يعود باتجاه صراخاته الأولى، قالت له بدمعةٍ، أمام بحر عرف الكثير من الأحزان والآلام: ليكن. في قلبك حنين وحرقة لا تطفئها إلا العودة. لك السفن كلها. لك البحر والسماء، لك الحنين والأشواق التي لا تموت. لك الشوارع التي تنطفئ باكراً على حزنها. لك الدموع المستعصية التي تتكسر داخل البؤبؤ كحبات كريستال صافية. لك الدنيا التي عشقتها وتخلت عنك لحظة الحاجة. لك كل شيء، ولي قلبك الذي يخون. لي صفاؤك حين أصير وحيدة وسط فراغات المدينة التي لم تتعود إلا رؤية السفن المهاجرة، وأفواج البشر العائدين من الفراغ إلى الفراغ. لي وجهك الذي لا ينطفئ، يشق الذاكرة والقلب ويقتحمني بدون استئذان ويخترق حميميتي بخجل لم أعرفه إلا معك. لي...

كانت تعشقه مثل زرقة بحر المارية الذي فتحت فيه عينيها. لم تخنه الموجة حين رمى قلبه على الشاطئ الرملي، في ذلك المساء الذي أظلم مبكراً، لكن القرصان الإيطالي هو الذي خانه.

هل ينتفي البشير، صوت المدينة وحنينها وهو الذي كان يعرف السر من أوله إلى آخره. وحين سألت خويا عبد الرحمن المجدوب في لحظة الإغفاءة، لهذا تتعذب بصمتك، قال، لقد عادت الحقيقة إلى حقيقتها، والرواية إلى مكانها. حق لي الآن أن أخرج عن جنوني، لأن المجنون الحقيقي دخل إلى البلاد. كنت مزوراً في انتظار عودته. المجنون يا ماريوشا لا يموت. و«الفليل» عمره في كفه. وكف البشير ما تزال عالية.

التفتت إلى الحاضرين. بدأت عيونها ترتشق في كل واحد، وتتفرسه بحثاً عن شوق آخر، أو عن لعنة جديدة. لا يهم، أمام الحقيقة يستوي كل شيء. المجنون لا يموت. لقد غادرنا ليعود ممتلئ القلب مرة أخرى، لقد أعاد الرواية إلى بدايتها.



Twitter: @ketab_n

وظلت ماريوشا تصرخ بأعلى صوتها. سمعتها بعض الطيور المهاجرة، فتوقفت على أولى الأشجار وظلت تتآملها وتنظر إلى بعضها زمناً طويلاً، ثم واصلت تحليقها الجماعي.

«لم يقتل البشير ولكن شُبّه لهم. شُبّه لهم».

ثم رفعت يديها إلى السماء تقطف أولى القطرات التي نزلت من وراء غيمة أسودت ثم انهمرت غيثاً. قالوا لها توقفي يا ماريوشا نرجوك بحليب الأمومة. الصراخ يملأ الحارات، والسيارات السوداء بدأت تعبر السوق. قلبنا معك. ضعي شالك الأسود على رأسك، فالمياه ضمختك وجسدك بدأ يبتل والرعدة تملأ شفتيك. لم تجب. فقد شعرت بالأنوار تملأ قلبها وتسري في دمها. الزرقة المنعكسة غادرت شعرها، ولكن الابتلال جعله يسقط على وجهها خصلات خصلات، أعطت لوجهها صدق المتعبدين داخل خلوة العشاق الذين فقدوا العلاقة مع الحياة. لم تكن تعرف أين ذهب البشير الموريسكي. لقد انطفأ فجأة وانطفأ معه الراعي الذي كان يمكن أن تسأله. فهي تعرفه جيداً وتعرف حتى بعض العلماء. لقد انطفأ الموريسكي وهو يحاول إنهاء الحكاية التي أعرفها. قالت وهي تحاول أن تستعيد نظرة عينيه الخجولة ـ الحزينة. لم تعرف بالضبط ما تعني، ولكنها كانت متأكدة. أنها نظرة لا تخون ملح دمعها. يأجوج ومأجوج أيها السادة الذين يملؤون قصر الجملكية، ويتخفون في شوارع المدينة، لقد جاؤوا من بعيد، من البحر الشمالي، ودخلوا معنا في نفس الفراش، واحتلوا كأس القهوة الوحيد الذي نجد متعة لشربه. شوهوا علينا حتى حميميتنا وخلوتنا.

ـ ماذا تعنين أيتها المقدسة؟

قالها سيدي عبد الرحمن المجدوب وهو يضع فوقيته الفضفاضة على جثتي الشرطيين. لقد جاؤوا يا سيدي. كانوا يحفرون السدّ باستمرار حتى إذا كادت الشمس تغيب، قال الذي عليهم، ارجعوا فستحضرون غداً، فيعودون إليه كأشد ما كان، حتى



Twitter: @ketab_n

إذا بلغت مدتهم، حفروا حتى كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غداً إن شاء الله، فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه، فيحفرون، ليجدوا بحيرة صغيرة، فيقطعونها بعضهم سباحة، والأعيان في الزوارق، وعلى الضفة الأخرى، يجدون هناك ينتظرهم حاكم جملكية شهريار بن المقتدر. سلمهم مفاتيح كل المدن الوطنية وقوائم الثوار وعاد في جنح الظلام. منذ تلك اللحظة، نشفوا البحيرة، هرّبوا كل أسماك البحر أو سرقوها، بدأوا يبتلعون الأرض قطعة قطعة وذرة ذرة. يتحصن الناس منهم في حصونهم وقلاعهم، لا يرحمون، يرمون نبالهم وسهامهم باتجاه الغيوم والسماء فتعود لهم وعليها بقع الدم المخثر، فيقولون: الآن قهرنا أهل الأرض وركبنا أهل السماء. ردمة البلاد، والأرض، فتحها يأجوج ومأجوج. وها هم يتناسلون مثل الخلايا. لن يموت منهم رجل إلاّ وترك من ذريته ألفا فصاعداً، تدفعهم ثلاث أمم من الوراء: تاويل، تابس، ومنسك، لهم نساء تجامع من تشاء. لقد بدأ النفخ في الصور أيها السادة، وقيامتهم بدأت تزحف رويداً رويداً.

- هذا جنون يا ماريوشا، جنون.

- واش من جنون يا عمي الطاووس، تصمت وحين تنطق لا تعرف ماذا تقول. لقد مستك لوثتهم.

- يا بنتي أنا خايف عليك منهم، أنت لا تعرفينهم إنهم كالطاعون. إذا مسوك يلتصقون كالعلق حتى الموت.

- وهل تبقى الحياة عندما تقتل مدينتك وتباد حميميتها يا عمي الطاووس؟

لقد سرقوا حنين المدينة. بادوا فضائلها. سرقوا قنينة النبيذ من عاشقها ورموها عند أبواب المساجد، ووضعوا في المداخل رجالاً غامضين ينتعلون الساندالات القديمة والألبسة البيضاء والداكنة الفضفاضة واللحى الطويلة التي فقدت معناها. لقد نهبوا نهد العاشقة من صدر عاشقها ودفنوها داخل تابوت مجوف يعج


Twitter: @ketab_n

بالناس، ورموه هو كالأبله وقالوا له تنكر مثل جميع المتنكرين وعندما لم يستطع بحث عن قبر داخل البحر ودفن نفسه وكتب على ورقة وضعها في قنينة نبيذ فارغة: «هنا ينام الذي لا قبر له. لا شوق له. لا مدينة له، وفاءً لحبيبة كان يجب إما أن يعشقها أو يدفن نفسه حياً في البحر، بين موجتين مكسورتين. وها أنذا قد فعلت».

يأجوج ومأجوج، إنهم يملؤون وجه المدينة ندوباً وخراباً. سحناتهم مثل سحنات الكلاب. يأكلون فلا يشبعون. يلتصقون بالآدمي كالعلق فلا يزولون. ينبحون فلا يسمع لهم صوت. في عيونهم ينام الموت. يعيشون بالدم والفساد، واللحم الآدمي، ولا يخرجون من مغاراتهم إلا مجللين بالسواد والرغبة القصوى في نهب كل شيء. ذات مرة، لم يجدوا ما ينهبونه، فأكلوا لحم بعضهم بعضاً. يقيمون معك في نفس السرير الذي تنام فيه مع عشيقة، أو زوجة. أو صديق مسافر. يستمعون إلى دقات قلبك ويسجلونها واحدة واحدة. ينزلقون وراءك إلى دورة المياه، ويشربون في نفس الكأس التي ترفعها على أنخاب أصدقائك الشهداء.

يرونك بعيون همجية ولا تراهم. ألسنتهم ضامرة داخل الحلقوم، ولا تخرج بطولها إلا لإصدار الأوامر بالقتل والصلب، بالتعذيب أو السجن. يعرفون كل شيء، حتى تاريخ موتهم، لكنهم عندما يصلون إلى هذه النقطة الأخيرة، يقفزون فوقها وينظرون إلى السماء التي تتحول فجأة في عيونهم إلى فراغ أجوف. ولا يخجلون في اختراق حميمتك وأنت في أقصى درجة الفرحة.

هم أنفسهم الذين حكى عنهم البشير الموريسكي وخويا المجدوب الذين باعوا غرناطة، ثم وقفوا على أعلى هضبة مطلة على المدينة وتحسروا، لا على المدينة التي كانت شعلة اللهب تحصدها وتحصد عشاقها، ولكن على القشتاليات اللواتي تعَّودَ أن يداعبهن في لحظات خلوتهِ بمد يده نحو زغبهن وتفتيشه برؤوس أصابعه، وفي لحظات الشبق ينزع شعرة منه، يقول، أنه يحتفظ بها للذكرى، عندما يفاخر الأجداد أمامه بفتوحاتهم، يفاخر هو بفتوحاته، وفي كفه


Twitter: @ketab_n

كمشة من الدلائل التي تعيد تعدادها كل مساء... ألف وست مائة... ألف وسبع مائة... لم تبق إلا القشتالية الكبيرة إيزابيلا وأختم العدّ... عندما كان يعد ويزهو كانت المدينة ترفع المذاري والفؤوس وبقايا الأسلحة التي خبئت عن وجوهم. آه لو كنت أمك يا محمد الصغير لردمتك حياً. لذبحتك من الرقبة مثلما ذبحت ماريانة عشيقها الكريه الذي انتهك جسدها وأشواقها. احفظا عيونكم من بني كلبون. سواعدكم تنجيكم. الجملكية اختبأت في المراحيض وبدأت تعد ما تبقى من أيامها. كل شيء بدأ ينهار حائطاً حائطاً، وزقاقاً زقاقاً، حتى دنيازاد (قطر الندى) لم يبق لها شيء تخبئه عن حكيمها الذي كانت تحتقره في أعماقها. قال لها في لحظات غبنه التي لا يتذكر إلا وهو بين رجليها يبحث عن لذة مكتومة: أريد وريثا. العمر يزحف، وأبناء الكلبة، الرعيان، وعمال البحر يتكاثرون مثل النمل. تقتل هذا ينبت لك ذاك في الزاوية التي لا تنتظرها. يصرخ في كل مساء في فراشها. أريد وريثاً! أريد وريثاً! ثم ينام في حجرها منهكاً على دمعة حتى الصباح، وحين يستيقظ يسألها. ماذا فعلت معك؟ ندبت، وحين امتلأت عيونك بالدموع بدأت تشخر.

بعد حادثة المدافع والقلعة والبوقالات المهربة باتجاه السراديب لحمايتها، وبعد الجنازة الوهمية وعملية التقتيل التي أعقبت ذلك والسحل، انتهى كل شيء. كل الأسرار خرجت إلى البحر، ولم تعد الغيوم تجرؤ على تخبئة نجومها. أصبح الناس يتلاقون في الشوارع متجاوزين كل الطقوس المعهودة. حتى الشرطة، بعد حادثة السوق، أصبحوا يتفادون كل شيء. يغمضون عيونهم عند الضرورة. مياه السواقي المتجمدة عادت إلى حركتها الاعتيادية. والأشجار العملاقة المتآكلة هزت رؤوسها من ندف الثلج الذي كانت تزداد نصاعة كلما ظهرت الشمس بشكل فجائي. انتفضت النباتات الصغيرة من جراء الريح التي بدأت تهب بسرعة متوسطة. خرجت الأغنام والأبقار إلى المراعي مبكراً، بالرغم من حظر التجول. سرى خبر الجنازة الوهمية بين الجميع وشاع خبر عودة العلماء السبعة



Twitter: @ketab_n

إلى الحياة، ما عدا العالم السابع الذي قيل عنه إنه في السجن. وتقول أخبار غير مؤكدة إن الموريسكي بدوره أخذوه بالمصادفة. عندما استنشق صدف البحر أحس برغبة ملحة لدعوة ماريوشا إلى أقرب بار لرفع كأس على نخبها. فقد شعر بها قريبة من قلبه على غير العادة. أخبار كثيرة دارت في أزقة البحر وطلعات القلعة، لكن القلة القليلة هي التي كانت تعرف الحقيقة.

في اليوم الموالي للحادثة، وقف القوال (الوراق) الذي أرسله القصر إلى رحبة الأغنام بصحبة شرطيين يشرفان على حراسته، يحاول جمع الناس ويصيح بأعلى صوته: «احذروا أيها الناس. القيامة تقترب ولن تسقط إلا رؤوسكم يا فقراء المدينة. لقد ألقي القبض على كل المجرمين أعداء الدين والدنيا». كان ابن الكلب طويل الأنف، أذنه شديدة الحساسية. هكذا يقول الذين يعرفونه جيداً. كان يشبه وراقي غرناطة. يصمت لحظة ثم يبحث بعينه عن الناس الذين يمشون جماعات جماعات، ولا يعيرونه أي انتباه يذكر. «عودوا إلى بيوتكم آمنين أيها المؤمنون قبل فوات الأوان. فالأوان إذا حان لن تجدوا فرصة للعودة إلى الصواب. أبواب الجنة تغلق في وجه الذين يعرفون طريقها ويتجاهلونه. ستصلون ناراً ذات لهب، وتصعدون جبال جهنم على وجوهكم حتى إذا وصلتم إلى قمتها وقلتم يائسين: ربي اغفر لنا، قذفتكم بحممها وبراكينها. عودوا إلى رشدكم أيها القوم الآمنين. فقد وضع لسراق جهنم أربعة جدران سمك كل جدار مسافة أربعين سنة مشياً على الأرجل والأيدي، بدون توقف. ماء جهنم أسود وهي سوداء ووجوه ساكنيها سوداء. ماؤها يشوي الوجوه. إذا أراد الكافر أن يشربه وقربه من وجهه شواه، حتى تسقط جلدة وجهه، وإذا اقترب من صهده، وقعت فروة رأسه، وقطعت أمعاؤه، وحين يجوع أهل النار الذين لم يدخلوا إلى بيوتهم عندما مر البارحة سيدنا الخضر إلى بيوتهم، يستغيثون فيغاثون بشجرة الزقوم. يأكلون منها فتجتث جلود وجوههم فيها، ويصب عليها العطش من جديد، فيسقون بماء كالمهل وبئس الشراب.



Twitter: @ketab_n

ياعباد الله. يا سكان جملكية نوميدا ـ أمدوكال احفظوا الباقيات قبل وفوات الأوان». وسأله رجل سكير، كان ماراً من هناك، تأمله من رجله حتى آخر شعرة في رأسه بسخرية: وما هي الباقيات يا شيخ الحكماء؟ انتفخ الوراق الجديد وقال: هو نفس السؤال الذي طرح على أمير المؤمنين عثمان بن عفان. فقال، الصالحات فقيل له ما الصالحات. فقال: هي لا إله إلا الله، وسبحان الله، والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. سأله السكير مرة أخرى أنت دائماً كالقرعة الخاوية، لا تكتشف سخفها إلا عندما تريد شربها. قل لي ما الباقيات يا شيخ الخراب؟ فصرخ القوال الوراق في وجهه. اتلع الله يتلع جرّتك. عودوا إلى بيوتكم أيها الناس المؤمنين ولا تدخلوا أنوفكم في السياسة، فهي كفر وإلحاد. والساسة كانوا إخوان الشياطين. عودوا قبل أن تتساوى المهاد، وتبقى الأرض قاعاً صفصفاً. وقتها سيقوم الخلق بين يدي الله صفاً صفاً وكل واحد يحمل كتابه، من كان مؤمناً سيحمله يميناً ومن كان كافراً زنديقاً سيحمله يساراً. ويروي عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه عندما فرغ من غزوة حنين، يقول الحكاؤون والرواة أنه نزل قفراً ليس فيه شيء، فقال لأصحابه: اجمعوا. من وجد عوداً، فليأت به، ومن وجد حطباً أو شيئاً فليأت به. فما كان إلا ساعة حتى جعلناه ركاماً. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أترون هذا؟ فكذلك تجمع الذنوب على الرجل منكم كما جمعتم هذا. فليتق رجل، ولا يذنب صغيرة ولا كبيرة، فإنها محصاة عليه. مسح الوراق على لحيته بشجاعة، بعد ما لاحظ أن الكثير من الأطفال بدأوا يلتفون حوله. أنتم ذرية الرحمن. أنتم الذرية التي تقدّر علم الأجداد. صلوا يا عباد الله في بيوتكم حتى لا تقوم القيامة على رؤوسكم. صلوا حتى ينبلج الصباح القادم. صلوا حتى لا تحشروا في نار جهنم. الله يحشر العباد عراة، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب، أنا الملك، أنا الديان لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق حتى أقصه منه، ولا ينبغي لأحد من أهل



Twitter: @ketab_n

الجنة أن يدخل الجنة وله عند رجل من أهل النار حق حتى أقصه منه، حتى اللطمة... ويأتي الناس إلههم حفاة، عراة، كما خلقوا وكما خرجوا من بطون أمهاتم. سعداتك يا للّي خدمت لآخرتك. وأربحت قصور الجنة يا اللي طعت كبارك. اسجدوا لله يا عباد الله، وأطيعوا أولي الأمر منكم ولا تلقوا بأنفسكم إلى التهلكة، ولا ترفعوا رؤوسكم فإن الله لا يحب المتجبرين. لم يفعلها إلا إبليس عندما أُمر بالسجود لآدم فقال أنا صنعت من نار هو صنع من تراب صلصال.

ـ عنده حق! هذاك من التراب والآخر من النار.

انتبه إلى الطفل الذي قالها. صرخ بأعلى صوته، هذه هي ذرية الفاسقين التي كان يجب على سيدنا الخضر قطع رؤوسها قبل أن تظهر وتبرز وتفتح أفواهها. «وإذا قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال وحمأ مسنون، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين»، هل تعلمون يا إخوان الشياطين ماذا حدث بعدها؟ فسجدوا إلاّ إبليس كان من الجن. خاف على أصله. خُلق من ماء مارج ومن نار، وأصل خلق الملائكة من نور. فعصى الله، فسخط عليه، فمسخه شيطاناً رجيماً. الله عز وجل جلاله، وعلا بنيانه، هو الذي خلقنا قبائل وشعوباً، فينا الغني وفينا الفقير، فينا الحاكم والمحكوم، القوي والضعيف، فإذا كان إبليس قد طغى فلا تطغون. والحكيم لا يطلب منكم إلا الوفاء للعهود القديمة التي قطعتموها على أنفسكم. أوفوا عهودكم... أوفوا عهودكم... أوفوا عهودكم، حتى لا تكونون من القوم الخاسرين.

ـ الله يلعن اللي علمك هذه الصنعة.

قالها السكير، ثم ضرب زجاجته الفارغة على الأرض، فكسرها من قاعها، وحافظ على مقدمتها في يده ووجهها باتجاه صدر الرجل الملتحي. حاول أن يبسمل، لكن الدائرة كانت قد بدأت تضيق عليه. بدأ الشيخ يتفرس في العيون، لاحظ أنها كانت قاسية. لم ير الشرطيين. شعر بالوحدة تصعد من أقدامه قاسية، باردة كقطعة ثلج.


Twitter: @ketab_n

ماذا حدث يا رجل، حاول أن يستفسر السكير وعيونه مرتشقة على رؤوس بقايا الزجاجة الحادة. لا شيء، قالها السكير جافة. نوميدا تحترق والناس يموتون وأنت تحدثنا عن الآخرة.

بدأت الأحجار تأتي من مختلف الزوايا، لتسقط على رأسه، محدثة أصواتا خافتة. انزعج الشيخ القوال، كتاب الدواوين، من موقف الشرطيين. رأى فجوة بين الأطفال الذين كانوا يضحكون من تهديدات السكير، ومن كلماته البذيئة. حاول أن ينزلق، لكن الجلباب الفضفاض أزعجه، فنزعه بسرعة، واستغنى عن لحيته المزورة التي كان يضعها على ذقنه، فظهر لباسه العسكري الأسود، والنجوم التي تؤكد على رتبته في جهاز مخابرات الجملكية. انهالت عليه الأحجار، وركض وراءه الأطفال، حتى تجاوز الحاجز الأول الذي كانت العساكر تقف وراءه في زقاق البحر، وطلعات القلعة، والسكير يتبعهم بغبطة. لأوّل مرة يشعر أنه أصبح مهماً:

- أولاد الحرام. ظنوا أن القوالة لعبة.

كانت المدينة قد أغلقت باكراً لليوم الثاني على التوالي والمحلات الكبيرة لم تفتح طوال اليوم، والإذاعة لم تبث إلا الأناشيد الوطنية التي تمجد حكيم الجملكية.



Twitter: @ketab_n

# 11

ماذا حدث؟ ماذا تغير في أدمغة الناس؟ النار تأكل النار، والسماء لا تمطر إلا بغيمها. أرادوا ذلك وكان لهم ما أرادوا. كل مابين أيدينا لنا إذا عرفنا كيف نجعله مثل الكرسي الذي يلتصق ونلتصق به. على الرعيان أن يعرفوا كل هذا. هم الخاسرون! هم يركبون رؤوسهم وأنا أعطي الأمر بركوب الطائرات الحربية والدبابات. فيظلمون أنفسهم ثم يبكون كالنساء.

- هناك نساء يا سيدي، أبكت الرجال.

- من الزانية التي تستطيع أن تسيل دموعي.

ونهض شهريار بن المقتدر من مكانه، كأنه يريد أن يعرف هذه المرأة لإبادتها. في جملكيتي الرجل رجل، والمرأة لم تخلق إلا له يا بنت الناس. حافظي على لسانك.

- يا سيدي المسألة ليست هنا. ليست في القوة ولا في الشراسة. أردت أن أقول الكثير من الناس بكوا عندما عرفوا ضعفهم من فم امرأة. وضعتهم أمام الحقيقة التي كانوا يرونها دائماً مقعرة في مرآة مليئة بالشقوق.

لم يقل شيئاً، ولكنها واصلت حديثها بنوع من الحماس بعد ما لاحظت صمته وانكسار حاجبيه على عينيه. آه يا سيد الأكوان القائمة والمندثرة لو تعلم! الذي حدث للموريسكي لم يكن هيناً، قالت دنيازاد وهي تحاول أن تمسد بيدها الناعمة على بطنها وفخذيها



Twitter: @ketab_n

المنفرجين قليلاً اللذين يظهر امتلاؤهما واضحاً تحت اللباس الشفاف الرهيف الذي يأخذ انثناءاته المغرية من انثناءات الجسد نفسه وينعكف كلما ازداد انحداراً باتجاه نهديها وخصرها وأوراكها. الذي حدث يا سيدي يرويه الآخرون ولا يرويه البشير الموريسكي، لأن البشير غار فجأة داخل المدينة. كانت ذاكرته مليئة بالحياة وعيونه تستعرض امتداد روائح المدينة الممزوجة بالبحر، والزعتر والأخشاب المحروقة.

الذي حدث يرويه الآخرون، يقول أحد الرواة الممحونين بحب المدينة البحرية، بعد زمن بعيد من دخول عمي الطاووس ابن أمه إلى عمق القصر ونزوله إلى السراديب ليخرج الجثث التي بدأت تتعفن، وبعد اجتماع القلعة الطارئ الذي نادى به الراعي. وبعد زمن من مقتل عالم الذرة الشاب، الذي كان شعلة المدينة وشعلة الشوارع منذ حقب لا تحصر ولا تعد، الذي خرج عندما سمع بجنازة العلماء، فحصدته نار الدبابات وحرب الشوارع غير المتكافئة. حتى الخبر الذي ظهر في الصحافة في اليوم الموالي كان خبراً مقتضباً وضع تحت صور العلماء التي التقطت بالقمر الصناعي عرب ـ سات. كُتِبَ بخطٍ رقيق جداً: أيدي الإجرام والغزو الخارجي تقتل عالم الذرة الشاب... وكان الحكيم قد وفر له في الآونة الأخيرة كل إمكانات العمل (الحقيقة أنه وقف كل أعماله، وكان يستعد للخروج إلى بلد أوروبي لمواصلة تجاربه). ما حدث يرويه اللاّحقون لأن البشير بعدها حدثت له أشياء كثيرة فقد الذاكرة تحت التعذيب، وظلت عيناه مملوءتين بشوق لم يلمسه ولم يستطع أن يلمسه أبداً. مدّ الروح من أجله ولكنه ظل معلقاً ومعاقاً عن قول ما كان يريده. يقول القوالون، والناس الذين اقتربوا من أنينه، كان السجن واسعاً حين سحبوه في المرة الأولى من البحر مع ماريوشا، قيل أن ذلك حدث عن طريق الخطأ، لأن المقصود لم يكن هو، ولكن أناساً آخرين أقل أهمية منه. لباسه الموريسكي المزركش ظل يستثير فضول الحاضرين جميعاً وانتباه الشرطة، التي وقفت عند رأسه وهو يرفع نخب ماريوشا



Twitter: @ketab_n

والشهداء في أحد زوايا المدينة، في أحد البارات القريبة من الطريق الذي يؤدي إلى مَطْلع القلعة. في البحر قال لماريوشا كلاماً كثيراً لا يحصى، وحين شعر بعجز الكلام، قال لها اعذريني، لساني يصمت أحياناً، تعالي. وسحبها من يدها باتجاه أقرب بار، ولم يكن تهمه أصوات المدافع، والنيران التي كانت تشتعل هنا وهناك. كانت الأمواج قد انتقلت من البحر إلى رأسه، والأمواج التي كانت ترغي أصبحت تتكسر الواحدة تلو الأخرى في قلبه. في البداية ظنوه ساحراً والأوامر في المدينة كانت صارمة. لأن الحكيم كان يكره السحرة لأنهم كما يقول. يحشرون أنوفهم في السياسة. حتى أن بعضهم تجرأ وقال: إن أيام الحكيم معدودة. ويمكن أن يداس في أية لحظة. الأوامر التي أعطيت كانت واضحة، والقوانين لا تحتمل التأويل. أُحرق الساحر مع عشرة آخرين. البعض منهم سُحب من بيته والبعض الآخر ضُبط يحكي في الأسواق، وآخرون أخرجوا من أكواخهم وهم في عنفوان لحظات الإشراق التي لا تأتي دائماً. لم يكن من الممكن أن يتقبل حاكم جملكية نوميدا مثل هذا الوضع، لأنه تَدخّل في شؤون الحكم. حتى البشير عندما سحبوه، كان يحكي لماريوشا، عن حنين غرناطة. اقتربت الشرطة منه. في البداية خافوا، ولكنهم سرعان ما تشجعوا. قالوا: رأسه ولا رؤوسنا. يمكن أن يكون ساحراً يحكي عن غرناطة وعن محاكم التفتيش وعن الملكة القشتالية وعن رحلات البحر والبر، وعن ماريانة التي تدفقت مثل الغيمة على ساحل المارية المهجور ثم اندثرت. بيننا وبين هذا التاريخ قرون. يمكن لهذا الداعية أن يكون قد تلبس بحياة إنسان آخر. قالها أحد الشرطة لصديقه: يجب أن نستفتي رئيس الشرطة أو العسكر. قال آخر: سنقدم رؤوسنا للقطع بهذه الطريقة. إمّا أن نسكته في الحال ولا أحد يضمن مصيرنا وسط هذا البار، وهذه العيون المملوءة بالخوف والحقد، أو نسحبه باتجاه مجهول. قال آخر: ساحر، والساحر في قوانينا يحق قتله بدون محاكمة ولا استشارة. الذين عادوا من غرناطة عظامهم صارت تراباً ووجوههم



Twitter: @ketab_n

خسرت بريقها، والكتب التي حكت عنهم تلعنهم واحداً واحداً. هربوا من مدينة كان من المفروض أن يظلوا داخلها، لأن المدينة تحتاج إلينا في لحظات الوحدة والعزلة والفراغ.

تركوا ملوكهم وحيدين يواجهون الزحف القشتالي وخراب قوات الشمال موحدة. لكن صبر الملوك كان كبيراً. قاوم محمد الصغير، أبو عبد الله، بكل ما أوتي من قوة. صلّى في الساحات الغرناطية قبل أن يمتطي سيفه، ويمتشق رماح المقاومة. قال أدعوا معي الله، لكنه عندما التفت لم يجد إلا بعض الأوفياء، اللذين ظلوا مصرين على السير وراءه حتى التهلكة. وحين خرج إلى الهضباب، نادى في الناس، لكن الرعية كانت قد تخلت عنه وتركته وحيداً في مواجهة الخوف والفراغ. نادى البحر البعيد، خانته الأملاح والسفن، والأمواج تكسرت قبل أن تعلن عن حضورها في المعركة المقدسة. نادى التاريخ الفاطمي، انسحب مع أولى القوافل العائدة إلى مصر! نادى العُدْوة الأخرى في لحظات اليأس! فلم يجبه من أهلها إلا طيور النورس التي ظلت تحلق على الشواطئ ولم تكن معنية أبداً بما كان يدور في الهضاب، وتقول كتب التاريخ أن عَدويه الملكان إيزابيلا القشتالية وفرديناند اعترفا بفضائله الكبيرة عبر التاريخ الأيبيري، لقد قدم خدمات كثيرة لعودة الدنيا إلى ذويها. مثلما فعل كبير أجداده، الحاكم الأول، كتُبْ التاريخ لا يمكنها أن تزيف الحقيقة. فقد دونت بحرف المطابع الملون بماء الذهب، وعروق الزعفران، الكتب والمجلات الضخمة المطرزة التي تملأ كل مكتبات المدينة. في اجتماع سرّي عقده على هامش صهد الحرب والمعارك انتقم من كل الرعاع وسلّم القلاع والمدينة في رمشة عين، ولم يأكل أصابعه ندماً، وتركهم للتهلكة. قال في رأسهم ولا في رأسي، ولا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. هم أرادوا ذلك وكان عليه أن ينفذ إرادةً الرحمن. هتف له هاتف من وراء الجبال وكان حائراً في وضعية الرعية والمدينة. قال له سلم تسلم. اتركهم يجربون معنى



Twitter: @ketab_n

الخيانة والتخلي عن بركتك. فالذي يخون أرضه وأهله لا يستحق أن يحيا.

قالت دنيازاد وهي تتأمل عيني شهريار المتورمتين:

- آه يا سيد الأكوان والأصقاع هكذا تقول كتب التاريخ التي أعطى أبو عبد الله، محمد الصغير، الأمر بتدوينها!؟

- الرعيان. أولاد القحاب. يستأهلون. كان يجب أن يفعل أكثر من ذلك حتى يقدروا فارق الحياة في كنفه أو تحت السيطرة القشتالية.

- لكن يا سيدي المشكلة ليست هنا. يبيع الرقاب والبلاد.

- بلاده وهو مولاها واللي ما عجبوش الحال يخرج. الله لا يرده.

- لكنها البلاد يا سيد البلاد!

- البلاد التي يصبح فيها الرعيان سادة القوم ليست بلاداً.

وزادت دنيازاد إصراراً.

- كانوا عزلاً. لم يعطهم شيئاً. أصدر أمراً قبل أسبوع بسحب وتسليم كل الأسلحة إلى مسؤول العسكر.

- لأنه سمع بانقلاب يدبر ضده.

- لأنه قبلها كان قد اجتمع كذلك بالقشتالية على أطراف المدينة في إحدى القلاع.

- يا امرأة خليك من الكلام الفارغ الذي تقرئينه في كتب التاريخ. التاريخ مزور وبدون استنثاء. الرجل كان يعشق القشتالية الكبيرة. كانت أزمته. طوال حياته وهو يحلم بعينيها. كان يراهما في الأحلام تضطهدانه ولو لم يتزوجها البغل الأراغوني فرديناند لكان أوّل من يقتحم جسدها الغض.

- لكن يا سيد الأكوان هذا تاريخ آخر.



Twitter: @ketab_n

- إنه التاريخ الحقيقي. عندما نقوله لا يقبل منّا. ولهذا نتصرف وفق ما يرتضيه الآتي.

- واصلي، ودعينا من الكلام الفارغ.

قالها شهريار بنوع من الحماس، وهو ينتظر بقية الباخية، التي رواها كثير من الناس في غياب البشير الموريسكي.

قالت دنيازاد (قطر الندى): ظنته الشرطة ساحراً، وظلوا يقلبون عيونهم في كيفية القبض عليه. فالرجل ساحر ويخيف. إنه يحاول أن يسترجع الزمن المنقرض ويشتم القديسين ويرفع إلى السماء من يشاء، وينزل من عليائها من يشاء. يتعلم الحفافة في رؤوس اليتامى. يجب أن نوقفه، فرؤوسنا مهددة. فالقانون واضح كالماء. وأخرج أحد الشرطة كتيباً صغيراً من جيبه وبدأ يتلو على زملائه مواده القانونية: كل من ضَبَطَ ساحراً عليه أن يقوده إلى دار القصاص ويحاكمه. وإذا ثبتت تهمة السحر ضده يقتل حرقاً. والشرطة مكلفة بتنفيذ المهمة. وأي تقصير تتحمل هي نتائجه استناداً على القَسَم الجماعي واليمين الذي أدته أمام خدم صاحب الجملكية وأمام المصحف وأمام التاريخ الذي لا يرحم أبداً، والكتب العظيمة التي دونت بماء الذهب وجلدت بالقطيفة وختمت بالصدف والخوف والورع. خرج الجميع فجأة من الإغفاءة. وقال: هذا عمل من أعمال السحرة. وعادوا يبحثون عن كيفية القبض على البشير الموريسكي الذي كان ما يزال منهمكاً في ترتيل آخر الأناشيد داخل البار، ويحاول أن يلمس قلب ماريوشا الزين، ويرفع الكأس على نخب شعرها الذي كان ما يزال مبللاً بسبب الأمطار الفجائية التي هاجمت الساحل في لحظة غفوته التي لا تتكرر دائماً. لك يا ماريوشا، يا زهر الرمل، وتفاح آدم المجنون الذي لم يستطع مقاومة دفئها ولونها. لك يا زهرة الرمال التي تورث مرارتها في الحلق. حلاوة وطرواة خاصة. لك يا إغفاءة المجنون الذي لا يستيقظ إلا ليهرب من جديد إلى صدرك. آه أينك أيتها العظيمة التي باعت مدينتها من أجل البحر والسفن التي لا تعرف إلا الهجرة. أينك



Twitter: @ketab_n

أيتها القديسة التي فتحت ذراعيها لا لاستقبال حبيب هجرها منذ الزمن الأول الذي لم نعد نعرف عدد سنواته، ولكن لاستقبال جرح الشهداء بكبرياء. أينك أيتها البلاد المسبية التي تُسرق آلاف المرات بين الإغفاءة والإغفاءة، وتنتهك في شوقها وتغتصب في حميمتها. أينك أيتها الشوارع التي تعودنا أن نكبر معها، وحين نحزن نشعر بضيقها، ويوم نفرح نراها واسعة مثل قارات وساحات الحلاقي. أينك أيها البحر الذي يشمخ بكبرياء ويرفض أن يتسخ. ها أنذا يا ماريوشا. يا موجةً تهاجر دوماً نحو الأصقاع البعيدة، البعيدة، وتعود محملة بالحكايات التي تبحث بشغف عن نهاياتها. ها أنذا أرفع كأسي، وألوح به في فراغات البلاد التي ملأتها الصرخات وكواتم الصوت، وأزيز الطائرات، وأخبار الموت. وأعلن أني ما جئت إلى هذه الأرض إلاّ لاستعادة الحكاية التي بدأت تسرق مني. لاستعادة عيون لا أرى الحياة إلا من خلالها.

يقول الرواة الذين استعادوا وجه المدينة المسروق فيما بعد، واستعادوا الأسواق التي كنست رايات الحكايات التي لا ينتهي امتدادها إن البشير أُخذ على ألسنة النَّار على مرأى من ماريوشا التي كانت ما تزال تحت دهشة صوته النبوي، وعلى مرأى من الحاضرين الذي كانوا قد تجاوزوا القوس الثاني من الحسّ الذي حكى عنه الأولون عند باب السجن المحاذي للقصر. قبل أن تنزل الضربة الأولى على فمه رأى البحر الذي شيد القصر في زاوية من زوايا شاطئه الواسع، شاهد الأسواق التي كانت فراغاتها تصرخ بحثاً عن حنينها المسروق. شاهد القلعة التي بدت سوداء اللون من كثرة الأدخنة المتصاعدة ومن كثرة النيران التي اشتعلت على أطرافها. انسابت نسمة بحرية، أثر لفحة باردة قادمة من زرقة البحر، تنفسها بكل عمق. لم تفقد هذه المدينة بعدُ رغبتها في الحياة والعودة إلى شوارعها التي تعودت على هدير البحر وصراخات الأطفال، وحكاياتنا التي لا يتوقف امتدادها. رأى النوارس البيضاء جماعات جماعات، تعبر الأسطح القرميدية الواطئة متسابقة باتجاه


Twitter: @ketab_n

مرتفعات القلعة. قبل أن يدخل إلى السجن، حاول للمرّة الأخيرة أن يغمض عينيه على ما تبقى من الأشياء الجميلة في هذه المدينة.

الشرطة حين جرته من البار، لم تكن تعمل أكثر من تنفيذ نصوص الجملكية التي أدت اليمين عليها وتعرف أن موقف الحكيم مع السحرة واضح، ولا يستثير أي جدل مسبق. كان يصر دائماً على عدم قتل الضحية قبل محاكمته والاستماع إلى حججه، لا لتبرئته، ولكن لإدانته أكثر وقتله حرقاً، ثم تسجيله في الكتب التاريخية المذهبة المجلدة بالقطيفة والجلد. حدث ذات مرة، تحت تأثير الخيبة الخاصة، أن أكل الحكيم رأسي ضحيتين اتهمتا بتعاطي السحر وشوى جسديهما، وكانا من الحرس الوطني المكلف بالسهر عليه، يومها أعاد النظر في كل القوانين السابقة التي تسير عليها جملكية نوميدا. قال العفن إذا مس طرفاً في الجسد يجب نزعه أو إبادة الجسد بكامله. استصدر أمراً صارماً يقضي بضرورة إعادة النظر في المواثيق الوطنية التي تسهل التعامل وتوضحه مع الكفار الذين انزلقوا إلى الإسلام وإلى جهاز الدولة متنكرين. بدأ يشك في كل الناس، وشعر في لحظة من لحظات الضعف وما أكثرها، أن جهازه الداخلي مخترق. وتفاديا لكل الشكوك التي يمكن أن تضر الرعية، وبمسألة الديمقراطية التي أشيعت في البلاد وسجلت في كتاب الأمة بماء الذهب، اشترط الحكيم أن تخضع البلاد بكاملها لعملية إعادة مراقبة الختان، لمعرفة أعداء الإسلام المتسربين. وكان الخبر يذاع في التلفزيون بعد كل نشرة رسمية (كانت لا تحصى) «نهيب بالمواطنين السعداء أن يمروا على جهاز مراقبة التختين. الذي لم يفعل، عليه أن يقوم بذلك، لأن التاريخ محدود. ووثيقة إثبات الختان ضرورية من أجل مغادرة الوطن سياحياً، أو استخراج الأوراق والوثائق الإدارية، وتُظهر أمام السلطات العسكرية والمدنية كلما دعت الضرورة إلى ذلك تعرض صاحبها لأقسى درجات العقوبة: الصلب والحرق». وبعد أسبوع من الإعلان، حوصرت الطرقات وأغلقت مطارات الجملكية وأوقف النقل، وحوصرت الغابات إلا



Twitter: @ketab_n

البحر ظلت ملاحته حرة، ولكنهم حاصروا الشواطئ التي كانت تحت سيطرة الحكيم وجيوشه وامتد الخبر كالخيط من القلعة إلى البحر، إلى القصر. وسيجت المدينة بدائرة عسكرية مجهزة بالأسلحة حتى الفم. وكلّ رجل غير مختون حل قتله بعد محاكمته، لأنه يجب أن تأخذ العدالة مجراها وتمارس استقلاليتها التامة في إطار الإنجازات الديمواطية الجديدة. وفي الخطبة التي سبقت عملية مراقبة الختان قال الحكيم شهريار بن المقتدر حاكم جملكية نوميدا ـ أمدوكال السعيدة، ماذا يقول عنّا الغرب: إن جهازنا الأمني ضعيف وإننا مخترقين، لا وألف لا. يجب أن نُظهر للآخرين سطوتنا ودقتنا في المراقبة. انطلقت العملية مع الفجر الموالي بتنظيم دقيق. وقفت الطوابير السبعة بانتظام، ممتدة في طولها عبر كل شوارع المدينة وهضابها. وصمم المشرفون على أن لا تتجاوز العلمية يوماً واحداً. البداية خُصصت للصف الأول المتكون من جهاز الدولة بكامله وضباط الجيش من الجنرالات والعقداء، يتقدمهم الحكيم وابنه قمر الزمان، الذي كان متيقناً من ختانه، وزوجته دنيازاد. الصف الثاني مكون من رجالات الحزب، ولم تكن الأمور تمشي على ما يرام بين الحزب والدولة، وضم إليهم أعضاء السلك الديبلوماسي الممثل في الخارج الذي استدعي في مهمة عاجلة. الصف الثالث، متكون من مسؤولي المقاطعات الكبرى والولايات وإطارات الدولة من ذوي المناصب العليا. الصف الرابع، التجار والحرفيون. الصف الخامس، الموظفون الصغار في سلك الدولة والقطاع الخاص. الصف السادس، أئمة المساجد والمعوقون والذين استقدموا من مستشفى المجانين. الصف السابع، خصص لأفراد الجيش البسطاء والجنود، وبقية المواطنين الذين يحتلون آخر المراتب في السلم الاجتماعي، حيث كانت الرقابة مشددة جداً، منعاً لأي تسرب أو أي تدخل أجنبي في شؤون الجملكية التي كانت تزهو دائماً أمام غيرها بديمقراطيتها المتميزة والمحلية جداً. إذ لأول مرة يستطيع حكيم جملكية أن يثبت للجميع أن الديمقراطية لا تنتزع، ولكن يمكن أن


Twitter: @ketab_n

تقدم هبة من رجل حكيم، يعرف احتياجات رعيته. وما كادت ساعة المدينة الكبيرة تدق دقتها الثانية عشر، تحت حراسة مشددة، حتى كانت الجموع تملأ الشوارع. الوحيد الذي كان يتعامل مع الظاهرة بسخرية هو سيدي عبد الرحمن المجدوب، لأن الشرطة التي نهته آلاف المرات عن التبول في الشوارع وتحت النصب التذكارية تؤكد وتشهد أنه مختون وبالتالي فلا داعي لإعارته أية أهمية، لأنه يمكن أن يجلب المشاكل أكثر مما يفيد وينفع. كانت الطوابير تتدافع للمرور على جهاز مراقبة الختان وفحصه عن قرب. كل شيء كان يمر بسرعة. يدخل الرجل إلى قاعة مظلمة مصحوبا بزوجته. تؤخذ شهادة الزوجة إذا كان الرجل متزوجاً وشهادة الوالدين إذا كان أعزباً. وإذا حدث أن كذب أحد الطرفين يُحرق الجميع. القاعة التي يدخلها الإنسان المفحوص مظلمة جداً، قتامتها مقلقة. ينزع المعني سرواله ويسلط ضوء حاد على عضوه، فإن كان مختوناً فهو أمن. يدخل إلى قاعة مجاورة، يأخذ ساندويش الطون. يأكله لاسترجاع الدم الهارب من وجهه من شدّة الخوف، ثم يخرج إلى شؤونه منتشياً بخروجه سالماً من هذه المهزلة. القاعة التي يدخلها المتعرض للفحص مظلمة، ولكنها معطرة بشكل يعطي رغبة الانتصاب والجنس، ويقولون، إن العملية مقصودة، لأن فحص ذكر منتصب لا تدع مجالا للشكوك أبداً حول مسألة الختان. مع الدخول ينزع المعني سرواه عند المدخل، يضعه في يده بصحبة كل الألبسة الداخلية التحتية، يسقله أحد الجنود على مؤخرته فيدخل، ويسلط عليه الضوء الحاد، فإن أَمِنَ من الحرق يسلم على الأرض تيمناً بالتربة التي وضع عليها حكمته (جلالته) رجليه. في التقارير النهائية، التي استعمل فيها العقل الألكتروني من أجل السيطرة عليها لأنها متنوعة وكثيرة، ظهر أن هناك وزيرين تسربا إلى الحكم بدون أن يكونا مختونين: وزير المالية، ووزير الخارجية. ويقول بعض الرواة إن شهريار بن المقتدر، كان يعرفهما أنهما من غير دين الإسلام، وكانا يزعجانه في اتخاذ القرارات، ولهذا فبرك هذه العملية


Twitter: @ketab_n

بكاملها، بمساعدة مستشاريه الأوروبيين القادمين من مجموعة من الدول الصديقة، الأمريكي، الإنجليزي، الفرنسي، الألماني. وهناك خمسة أشخاص غير مختونين: الأول رجل طاعن في السن، لم ينتصب ذكره بشكل يعطي للجنة حق القول بأنه مختون، فارتكنت إلى الحل الثاني، الثاني شاب سلك هذا الطريق يوم ختانه، هرب من البيت، ولم يعد إلاّ بعد سبع سنوات، والثالث كان مشلولاً بالولادة، الرابع ولد مختوماً بفراغ في مكان جهازه التناسلي منذ الولادة، والخامس مولود لم يتجاوز السنة الأولى، توفي والده في حادث سيارة. كانت المحاكمة جماعية، والقرار جماعياً. رُبطت أعناق المتهمين بسلاسل ثقيلة، مضافاً إليهم عضوان في السلك الديبلوماسي الممثل للجملكية في الخارج. كان الحكم صارماً، لأن مرجعيته كانت تستند مباشرة إلى الخطبة الأخيرة التي ألقاها سيادته على الأمة، ولكن لم يكن من الممكن العفو على الجواسيس المدسوسين في المدينة، الذين سربوا الكثير من المعلومات إلى الخارج الذي يتربص بنا وبطبيعة الحكم الديمقراطي في الجملكية. الخلاصة التي خرج بها الحكيم، هو أن قوته لا شك فيها، وأن سنده في الجيش لا يدخله شك.

لقد أثبت للجميع، تقول الحروف الذهبية التي دونت مواقفه، إنه الوحيد القادر على تسيير دفة الحكم. ثم جيء بالمندسين والمحكوم عليهم: الوزيران والآخرون. ومن أعلى البناية التي كان يقف في شرفتها المغلقة بزجاج مضاد للرصاص، رمى قطعة الكتان المشتعلة على الأجساد المهيأة للحرق، التي كانت قد طليت بالزيت والبنزين. كان الجميع مربوطين على صليب حديدي قديم، ما يزال القديد البشري عالقاً به. كان الحكيم هو أول من دشن المحرقة، بدأت ألسنة اللهب تتصاعد، ولم تعد تسمع إلاّ صراخاتهم المتوالية وكلماتهم المبهمة، وخرخشة عظامهم التي كانت تتحول شيئاً فشيئاً إلى أحطاب يابسة، ورماد تمسحه الرياح التي بدأت عاصفتها تتشكل بهدوء. ويقال في الجملكية أن الرعية التي تحتل مسؤوليات


Twitter: @ketab_n

كبيرة في جهاز الدولة، أصبحت تراجع في نهاية كل شهر المرآة البيتية الحميمة لتفحص ما إذا كان هناك جسم قد بدأ يتكون حول محيط حشفة الذكر، قد تبدو للفاحص كأنها اللحمة التي كان يجب ختنها. ويقال كذلك أن عمليات كثيرة جرت في تلك الشهور التي تلت الفحص الإجباري الذي سنّه حاكم الجملكية، وكثرت الانتحارات المتوالية خوفاً من عذاب المحرقة. قال وقتها أحد الفنانين المهمشين: يا بورب، وصلنا إلى عصر محاكم التفتيش. بئس لعصر الانحطاط الثاني، ثم ألقى بنفسه من أعلى جسر في المدينة، يربط وسطها بالضواحي. كان في ذلك الزمن الذي صار بعيداً، سيدي عبد الرحمن المجدوب يملأ الأسواق الشعبية بأنينه وبكائه. لماذا يا الله تخليت عنّا وسط هذه البرية المخيفة وهذا القفر؟ لماذا يعيدون كتابة سماحتك بأحرف من المرارة والخوف؟ هل وصلنا إلى عصر محاكم التفتيش الذي كان يحكي عنه سيدي البشير الموريسكي في حلقات غرناطة وفي أزقة المدن الهاربة من قلبه ومن ذاكرته؟ إننا نمشي باتجاه الموت الذي خاف الظلمة. سيطعنوننا من الخلف باسمك يا الله، ستدخل السكاكين في قلوبنا، ويحاسب المجنون على جنونه، والعاقل على عقله، والمرأة على أنوثتها والرجل على ذكورته، والوطن على كبريائه، والفنان على حماقته، والله على تسامحه. إني أرى الآن الأغطية السوداء تنزل على البلاد، وتسترد أنفاسها القديمة لطمس ما تبقى من نورك يا الله، ولكن الدماء ستعود إلى ذويها مطالبة بدفئها ولونها، ويصير الأنين وروداً. لن يذهب الصراخ مع الريح. لن ينسى البحر قتلاه. هاه، يا سيدي البشير، أنت أعرفنا بسر الظلام الذي بدأ يزحف نحو البحر والمدن، إنهم يقسمون من الآن، بأننا لن ندخل تربتهم، ولن ندفن في قبورهم، ولن يقرؤوا الفاتحة على أرواحنا. لقد نزعوك من قلوبنا يا الله. أتعرف بأنهم يلعبون معك القط والفأر. يريدون تأميمك يضعونك ضمن الأملاك الحبوسية.



Twitter: @ketab_n

لم يفهمه الناس إلّا بعد زمن طويل، عندما كان الناس يدوسون على الصحف المجللة بالسواد، وبوجه الوريث الجديد للجملكية (قمر الزمان) الذي أعادها إلى الملكية القديمة. لم يفهم الناس سيدي عبد الرحمن المجدوب إلا عندما جاءته العصابة وضربته على فمه بقوة. وبدأ يعوي مثل الذئب. وتصرخ بأعلى ما في قلبها، ماريوشا: ما قتلوه، ما صلبوه، ولكن شبه لهم. ما قتلوه، ما صلبوه ولكن شبه لهم، وكانت تظن أن البشير قد سُرِق من الأسواق ولم يعد قلبها إلى صدرها إلاّ عندما عرفت أنه بجانب الحائط المتآكل، على أطراف البحر ينظر إلى تكسر الأمواج.

البحر لا ينسى قتلاه يا ابن أمّي، حزنه قاتم، موجه مكسور، بياضه في قلبه فقط، رغبته في الامتلاء لا تحد. لم ينه الأنشودة الحزينة، المليئة بالندوب التي كان قد بدأها مبكراً. عوى كثيراً حتى ذبلت شفتاه:

*يا الرايح. وين رايح.*

*جيب لي أخبار.*

*ريث غيمة جافلة.*

*ما عرفت لا ما لبرد ولا مالنار...*

*يا الرايح، وين رايح.*

*راني وحيد، راني وحيد...*

آه يا ابن أمّي لو تعرف!؟ لقد سرنا في الطريق الغلط، وركبنا رؤوسنا على الخراب. كان في زمن ما بالإمكان أن نعاود الطريق ونصححه، ولكننا لم نفعل، فاستفحل المرض. تركنا ابن رشد في فراغات المدن يبحث عن نفسه، وعن كسرة خبز وقلم، وزاوية مظلمة يكتب فيها أحلامه، ووقفنا نصفق بأننا حققنا النصر العظيم. سرقوا عقله منا، بينما كان يصرخ في أسواق قرطبة، لكن لا أحد كان مستعداً لسماع ندبه. وضعوا له الكمائن في كل مكان حتى أخرجوه



Twitter: @ketab_n

من أسوار المدينة إلى العراء. آه، يا أبا الوليد سرقوا أشواقك ودفئك منا: تقاسمتك مدن عشقتها. وحين استقر بك المقام في قرطبة تحكم بين الناس والدنيا، وحين جاءك الأطفال والذراري وأصبحوا على رأس القوم كان قلبك حزيناً. سألك أبو يوسف يعقوب الذي كان قد تولى الخلافة إثر وفاة والده، لم تقل كلاماً كثيراً، فقد كان قلبك ممتلئاً بالنار والحزن. قلت: اسمع يا أخي، الدنيا دنيان، دنيا قائمة ونرفضها، ودنيا مغيبة نبحث عنها، إنها تمشي بالمقلوب. لكز أبو يوسف يعقوب أحد ورّاقيه. اكتب: اليوم نفينا أبا الوليد خارج أسوار قرطبة حتى لا أُقدم على قتله. لقد تعدى حدوده وحدود الله وحدود الحكم: أولاً، أنا خليفة ولست أخاه. ثانيا، الدنيا دنيان، واحدة نعيشها وأخرى ستعيشنا. وما غيرها كفر وزندقة. وفجأة يوقف سيدي عبد الرحمن الحكاية في منتصفها وينظر إلى العيون المبرققة، والمهيأة لسماع بقية الحكاية.

ـ ومن بعد يا الشيخ!؟ ماذا حدث لابن رشد؟ للمدينة.

ـ عشرة دورو للمسكين .. عشرة دورو.. يا الله مدو يدّيِكُم لجيوبكم.. ونكمل الباخية يا الله.

يوقف دائماً حكايته، قبل الآذان بقليل. لأنه عندما سمع صوت المؤذن، قريباً من الحلقة، حمل زربية السيد علي، كما كان يسميها، بعد ما امتلأت بالقطع النقدية التي رماها الحاضرون. قال سأعود بعد الآذان والصلاة، ثم انسحب، وبعد دقيقة انسحبوا لأنهم يعرفون عاداته جيداً ويعرفون، أنه لن يذهب إلى المسجد. سينزلق مباشرة باتجاه الزقاق المتقاطع مع المسجد، المؤدي إلى حانة الإيمان. وإلى ماخور عيشة الطويلة. يأخذ قنينة روج ثم ينزل إلى زاويته في حديقة الحيوانات الوطنية، وهناك يجلس بين الطيور والقردة ويبدأ في شربه وحواراته التي لا تنتهي، حتى الشرطة تعودت على وجوده، فتحاول دائماً أن تتفادى لسانه الطويل. بعدها ينام على أول كرسي يصادفه، متدثراً بزربية السيد علي، يقول إنها دافئة جداً. لكنه قبل ذلك، ينهي طقوسه، يطعم ثعبانه وكلبه، ويقيد المكان الذي ينزع منه



Twitter: @ketab_n

مع الفجر الأول أعشابه الطبية وهي طريّة، وحين ينام ينكفئ على فمه ويسترجع اليوم بكامله، بصراخاته وحزنه ووجوهه، ثم ينام على عيني ماريوشا السوداوين وشفتيها الممتلئتين. وحكاياته التي يلقيها في الأسواق تبدأ من لحظة نومه. وعندما يعجز عن إيجاد بقية الحكاية، وهو يروي، لا يستطيع أن يكذب، يقول لا شيء أصدق من الحلم. وعندما يستعصي عليه كل شيء، يرفع عينيه إلى السماء ويحتج كالرعد، ثم يعوي كالذئب: أربعون سنة وأنا أتأملك يا الله، أربعون سنة، والآن تضعني في الزاوية الضيقة؟! تمد يدك وتربت على كتفي، وتقول هدئ من روعك، ستأتي البقية. أين البقية. سأرفع صوتي عالياً. أرفعه لأطالب بحقي في الصراخ في حضرتك. آه ياسيدي. أنا الذي كنت أريد أن أعرف غير الذي ترويه الكتب ذات الحروف الذهبية وذات التجليد بالقطيفة الملونة والورق المصقول، المسروق من أورقة الجنة. كان يظن أن الكتب بقدر ما تصر على البهرجة، فهي تخبئ كذباً عظيماً. كان يحمل عداوة مطلقة لها. يقول إن الحقيقة تموت داخل أورقة الجنة. الكتابة لا تنشأ إلاّ داخل المعصية، لأن العالم في أساسه مبني بشكل غلط. قيل له في ذلك الزمن البعيد، عندما وقف حائراً في قصة الموريسكي الذي دخل إلى هذه البلاد. قل إنه مات في البحر. عوى مثل الذئب وصرخ. يا أبناء القحبة تريدونني أن أصير من كتاب الدواوين. أنا رجل الحكاية، ولست وراقاً. قل إن محاكم التفتيش المقدس صرعته، ورمته داخل المحارق. صم آذانه. التفت باتجاه الحائط الهرم. اجتهد البعض الأكثر رأفة بحاله، فقالوا له، إنه كان من الرعية التي فرت من غرناطة. حملت أشياءها الثمينة ولم تلتفت وراءها إلى المدينة التي كانت ألسنة اللهب تأكلها. ضحك بسخرية، قال لهم: الموريسكي كان آخر المغادرين. كلام تقوله حتى كتب الأعداء. نصحوه: يا رجل انسه. ليس لك ولست من عصره؟! ربما كان مجرد خرافة، أو حكاية من الحكايات لرجل يعيش الآن بيننا ويتنفس هواءنا. أنت تعذب نفسك على فراغ واسع. قال: البحر توقّد عند أقدامه، بجبروته



Twitter: @ketab_n

وموجه، ولم يستطع إذلاله. الليل لم يثنه عن عزمه. محاكم التفتيش اختبأت في القاعات الضيقة تحاول أن تبحث عن وسائلها الجديدة لنزع لسانه الذي لا يعرف الصمت. تنازل عن ماريانة التي كانت قلبه وذاكرته، مقابل شوقه لمدن يحلم بها، ولم يرها في حياته. أين هو عذابي من عذاب البشير. لا. لا. لا... سأظل هاهنا أعوي وأصيح حتى تتم الحكاية. سأنتظر كل القرون حتى يجيء من يعرف الحقيقة. لن أملأ فراغ الموت بالكلمات التي خطت بالذهب، والمداد المقدس الذي لا يروي إلا أخبار الملوك. وإذا ذكر الرعية فمن أجل إدانتها على تهاونها في ولائها. سأظل أعوي حتى يأتي الصادقون، الراسخون، العالمون علم اليقين. وحين عاد البشير، ظل مندهشاً، يتلوى في أتربة السوق، ولم يستيقظ إلا عندما وجد نفسه وحيداً وماريوشا يصرخان.

ـ «ما قتلوه، ما صلبوه، ولكن شبه لهم» حدث هذا بعد مجزرة السوق. حلمي الآن أن أوضع في بوقال الشهداء رماداً. لن تموت أصداء النوارس ولن تُبدد الأصوات. لن تُقص أجنحتها البيضاء. لن تنتظر الموت، الذي يزحف إلى فراشها. ستذهب إليه وتذله. لن تلغي نجومها، لأن الذي يموت منا، يستقر نجمه في قلبه، لا بيت لنا في الجنة ولا في النار. أما الجملكيون، سيسقطون في فراغات الموت، وتمّحي نجومهم التي زوروها عبر العديد من السنوات والقرون.

لم يكن سيدي عبد الرحمن المجدوب يكذب أو يهذي، فقد كان من القلة القليلة التي تعرف أسرار المدن المسروقة، وسر البشير الذي عاد متأخراً بعد ثلاثة قرون وتسع سنوات، وأكد له علماء المدينة أن كل شيء في أوانه. إذا سبقه، تنكس الأعلام، وتطمس العيون وينبض الحبر بدون معنى وإذا تأخر، يكون الزمن المستعاد قد مضى ربما بدون رجعة. ولهذا كان ينتظره، وليس متأكداً ما إذا كان سيراه أم لا. عرفه من الجملة الأولى التي أخرجها من فمه. عرفه من عيونه. فيما بعد من لباسه. ما دونته الكتب المذهبة، المغلفة بالقطيفة الملونة، كان فراغاً وكذباً وتلفيقاً. منذ الحاكم



Twitter: @ketab_n

الرابع وهي تفعل ذلك وما زالت حتى اليوم كلهم ذهبوا ولم تبق أمامه إلا الوجوه التي لا ينفذ إشعاعها. حرقتها الصلبان الحديدية، المنصوبة في كل مكان.

البشير عندما سحبوه من البار، من عيون ماريوشا، كان حزيناً. وعندما وقف عند مدخل السجن، رأى أشياء كثيرة قبل أن يدفن في أعماق الحفرة التي كان لا يخرج منها إلاّ للحديث مع الحكيم وإثبات هويته لأنه لم يكن يحمل أوراقاً ولا هوية لإثبات وجوده مما عمق وضعيته أمام الآخرين. في وقفته قبل أن يندفن تذكر أشياء كثيرة، لكن وجهها (هو لا يدري إن كانت حقيقة ماريوشا أو ماريانة، ووقع لها ما وقع له) ظل يملأ قلبه. شعر بمذاق عود النوار يملأ فمه، بحلاوة حادة تقف في حلقه. ماريانة... يا ماريانة... يا ظلال المدن الحارقة، ومقصد المجانين، وحليب اللوز المر. عندما اقتحمت البيت لأول مرة، في ذلك الزمن البعيد، لم يكن مهتماً كثيراً بحركاتها. غجرية! مجنونة كغيرها من الغجر، وهو رجل الحكاية! غجرية! لكنه كان يقرأ في عينها جنوناً خاصاً. وردة الكاسي الحمراء التي لا تغادر الشعر الذي أصبح أزرق، كلما كانت الأشعة الشمسية متنوعة. قالت له بسذاجة، لماذا صوتك يملأ الأرجاء عن أشياء انتهى زمانها؟ وعصرها. صوخ بعنف. ثم تراجع بعد لحظة. لا أريدها أن تعود!؟ لقد صارت في قلبي جزء من ذاكرتي. كانت غجرية، ولم تكن تهتم كثيرا بردود فعل الآخرين، فتقول كلماتها الخام، ثم تمضي. ثم خرجت إلى ساحة البيت تتنفس رائحة المسك الغرناطي. أول مرة حين التقت به، كانت تفكر في سرقة الأموال التي كان يرميها الناس على الزربية. كانت تقول هذا الموريسكي محظوظ. لديه سحر خاص، يدفع بالناس إلى دفع أموالهم بسخاء. تدور عينيها السوداوين في محجريهما الواسعين. ثم تنظر إليه، وهو منهمك في ممارسة سحره، وكلما التقت عيناها بعينيه شعرت بحرقة في بؤبؤهما. عليه اللعنة. يملك حتى سحر السيطرة على الغجر. وحين اقتربت من ألبسته الموريسكية



Twitter: @ketab_n

المزركشة أعجبها امتداده وامتشاقه في الأرض كالرمح. كانت خيامها منتصبة على أطراف المدينة، وزوجها في الخيمة ينتظر عودتها محملة. عندما انتهى وتفرق الناس، قالت له، كنت أريد سرقتك. لماذا؟ ردّ مندهشاً. لمّ كل ما كان عنده ووضعه في جيب لباسها البنفسجي الواسع الفضفاض. مولعة بالبنفسجي والأصفر. ثم قال لها: اشتري ما شئت.

لفّت قليلاً في المدينة ثم غابت. فكرت أن تخبر زوجها كالعادة. ولكنها كذبت عليه، وأهملت القصة. لكن شيئاً ما ظل يؤرقها، ويحرق بؤبؤ عينيها، مع وجه بدأ ينشأ في قلبها كلما تأملت بحر المارية في وحدته. في البداية لم يكن موجه يعني لها الشيء الكثير، لكن مع الزمن بدأت صورة زوجها تتشوه ومحيطها يدفعها إلى النفور. بعد شهر عادت إلى رحبة السوق. في النهاية جمع النقود وهمَّ أن يقدمها لها. ابتسمت. شعر بإشراقة خاصة تشع بين شفتيها الممتلئتين. قالت: اترك نقودك عندك. هذه المرة جئت أسمعك. أحزنتني حكايتك كثيراً. ثم غابت داخل الأزقة، حتى قبل أن يسألها. لم يستطيع أن ينسى حركاتها وهي تتكلم معه. حاول أن يمحو صورتها ولكنه لم يستطع. أوف مجنون إن كنت أحلم بترويض غجرية. في المرة الثالثة فأجأته وهو يندب حنينه الذي غاب وسط الأزقة الضيقة. كانت تحمل على ظهرها رباباً مصنوعاً من جلد الماعز. قبل أن يسألها قالت له: هذه المرة جئت أملأ معك السوق. صوتي ليس سيئاً. لم تكن أغاني البشير تستحق تدريباً قوياً. قال لها اتبعي صوتي، وغني معي، وسيأتي النشيد وحده، لكن فوجئ أن في صوتها شقوق الخوف وشغف المتصوف ونعومة الطفولة وهدير الأمواج التي أفقدت السفن ربابنتها. لأول مرة يشعر مع أمرأة أن في حلقها يمكن أن تنام حكايات الأولين، السابقين واللاحقين. غنت كثيراً عن الضياع، عن التشرد، عن الوحدة. عن قساوة الذين أحرقوا أزمنة الحب. عن حكايات البشير، عن سفن الموريسكيين التي أحرقت في عرض البحر. أغمض عينيه، وحينما فتحهما لم يجدها



Twitter: @ketab_n

ربما كان حلماً. لم يصدق نفسه أنه يمكن أن يكون قلب الغجرية مليئاً بالندوب والأحزان وورود الكاسي، والأشياء الرقيقة. يعرف جيداً عاداتهم التي لا تتعدى حالات السرقة والقتل بدون سابق إنذار. من أين جاءت؟! لأي بلاد تنتمي تلك العيون الحادة التي لم يزدها الميلان والانكسار إلا مزيداً من الدهشة والاستغراب؟! ثم أقنع نفسه من جديد!؟ أوف! مجرد عابرة سبيل، تستمتع كغيرها بالقوالة التي حوّلها حزننا إلى حرفة. لم يكن يعرف أبداً أن يوماً سيأتي وسيصعب عليه الوقوف على أقدامه أمامها، ويلتصق بها، مثلما التصقت عيناه بهذا البحر منذ زمن بعيد. فضّل في ذلك المساء الخريفي أن يغادر الحلقة مبكراً حاملاً على ظهره ربابها الذي تركته وراءها. من أين كانت تأتي تلك الكلمات يا الله! شيء فيها لم يكن ملكاً للأرض. وقبل أن يتجاوز الزقاق المؤدي مباشرة إلى بيته، أراد أن يناديها لكنه لم يكن يعرف اسمها. ركض وراءها. وقف أمامها وجهاً لوجه. لم يثرها على الإطلاق، ولكنها قبل أن تذوب داخل الزقاق الخلفي: زوجي في المدينة. سأعود إلى المارية. تعال إلى هناك ستجدني عند البحر. أراد مرة أخرى أن يسألها عن المكان. المارية تحرق قلبه. طفولته ماتت هناك. لا يعرف الآن منها سوى البحر، والسلاسل الجبلية التي تنحدر محروفة من بعيد تبحث عن أجسادها المتآكلة داخل البحر، وأخوه، أحد كبار تجار المدينة، وصديقه اليهودي. سأراك في البحر. ظل قلبه طوال الأيام التي تلت مليئاً بها. حاول أن ينفي صورتها ويعود إلى الحلقة ولكنه لم يستطع. تذكر ذات مرة وهو يعبر شوارع المدينة أنه لم ينم منذ أكثر من أربعة أيام. قال سأسافر، ولتُحرق المدن التي لا تعرف مدافن قلبي. كانت المارية وفية لتقاليدها، لا أحد يسألك أين تذهب، وماذا تحمل، حتى طفولته لم يتذكرها طويلاً، لقد كان يحاول أن يتفادى كل شيء سوى وجهها الذي لم يفقد ألقه رغم مسحة الحزن. حاول على شاطئ المارية أن يستحضرها صافية، ولكنها اختلطت بزرقة البحر وألوان قوس قزح الملونة بشكل غير اعتيادي، وبحنين السفن



Twitter: @ketab_n

العائدة التي تنتظر إشارات الانطلاق من أماكن رسوها داخل البحر. النوارس التي نسيت أعشاشها تتذكر فقط الدهشة التي كانت تملأ عيونها كلما حكى عن الذين حملوا الفؤوس والشفرات الحادة والمناجل وبقايا الأسلحة التي لم يسلموها لشرطة محمد الصغير، ووقفوا مثل الحجارة في حلق الوافدين من الشمال الذين كانوا يحملون الموت في حدوات أحصنتهم. لم يقل البشير شيئاً، ولكنه ارتكن إلى الحائط الصغير الذي كان يفصل البحر عن اليابسة. كل هذا لم يمنع الموجات المتكسرة عند أقدامه من أن تغسل وجهه المتعب. مد يديه، تناهى الرذاذ حتى مس ذاكرته. تمنى أن يسرق البحر ليضعه في جيبه، ويستخرجه كلما دخل إلى الحلقة، ليقول للناس، من هذه البحار شقت الأمواج البشرية طريقها، من هذه البحار عجنت ملامح امرأة غجرية، من الملوحة، والزرقة. كان يعرف أنها لن تأتي وأنها وعدته في زقاق هارب من الخوف، والجوع، حتى مجيئه بدونها لم يعد له معنى. حتى أخوه لا يراه إلا في فترات متباعدة. كان أذكى واحد في العائلة. وكان يكبره بأكثر من عشر سنوات. الوحيد الذي عرف كيف يستولي على أموال والده في حياته وفي مماته. قبل أن يأكله البحر قال له الوالد: إخوتك! آلامهم في عنقك. لم يكن الأمر مهماً بالنسبة له، كان يعرف أن البحر سيأكله ذات يوم. حتى الوالدة لم يكن يعيرها اهتماماً كبيراً في حياته، هكذا قال لي أحد إخوتي. فأنا لا أعرف وجهها. عقدة الذنب تتبعني أينما سرت. توفيت يوم وضعتني. كلهم يقولونها لي: لولاك يا وحد الجن لبقيت حية. الوحيد الذي كنت أشعر بكبريائه وعطفه هو جدي. قالوا عني، المفروض أن أموت أنا وليس هي. ولكني على ما يبدو كنت بسبعة أرواح. روحي وروح أمي، وروح والدي، وروح الأخوة المحتملين الذين كان يمكن أن يأتوا لولا حماقة وجودي ببطنها. لكنه فجأة حينما شعر بأنها تأخرت وأنها لن تأتي، أحسّ بحرائق الخيبة تلتهمه من رأسه حتى أخمص قدميه. فكر أن يذهب عند أخيه، ولكن كل شيء بدا له مبتذلاً. أوف. مجنونة، كانت



Twitter: @ketab_n

مارة على غرناطة. جابت بي الوقت ثم انسحبت. يا الله الشمتة والخيبة عندما تلتقيان؟! نهض من مكانه، استنشق رائحة البحر التي كانت ملوحتها قاسية. حمل كمشة من الرمل ثم رماها في الفضاءات وتمناها أن لا تعود إلى الأرض. ولكنها نزلت على البحر، مشكلة دوائر متداخلة صغيرة وكبيرة، شعر برغبة في دندنة أخيه عن البحر، كان ينشدها مع أصدقائه أيام الطفولة.

*يا موجه يا موّاجه*

*خذيني في ماك*

*ما عندي لا دار ولا دوار*

*راني في حماكْ.*

ـ لن أعود بدون هذا البحر إلى مدينتي...

قبل أن يتمّ صرخته المكتومة، نزلت على كتفه يد ناعمة، حركت شيئاً ما في داخله بألم شديد. نحن عندما نحب نتألم كثيراً لدرجة الجنون والموت. التفت، وقبل أن يصرخ: أهذه أنت! سبقته ابتسامتها المشرقة.

ـ وماذا يبقى للمارية حين يسرق بحرها!؟

ـ خليك يا رجل! المدينة مدينة والمرأة امرأة.

ماذا يبقى للمدن حين ما يسرق بحرها. وماذا تبقى للأناشيد حينا تخسر ألحانها؟ وماذا يبقى للمارية، حين تسحب منها هذه الغجرية. كانت الكلمات تنحدر بأعماقه بصفاء، مثل هذه الأنداء التي لا يتوقف سقوطها. هل يعقل أن تكون هذه المرأة ممتلئة بالحنين حتى الموت. تتحدث مثل غجريات بلاد الأندلس اللواتي تعرفن أسرار المدن التي سقطت في التواريخ الفائته. حاول أن ينظر إلى وجهها. عاودها الألم الذي في البؤبؤ.

ـ عمري كلها قضيته مع الرجال ولم أر مثلك؟! في عيونك سحر ونار.



Twitter: @ketab_n

ـ أوف. مجرد غرناطي فقير، قلبه مليء بالحنين إلى الحكايات التي يريدون قتلها.

سألته من جديد

ـ لم تسألني عن اسمي. هل أهمك إلى هذه الدرجة.

ـ لست أدري. مهما كان اسمك، فأنت أكبر منه. جئت لأراك فقط وأعود. اشتقت إلى غرناطة.

ـ بهذه السرعة؟

ـ أوف! أتعرفين غرناطة مدينة رائعة، لكن ينقصها البحر.

ـ وماريانة.

ـ ماريانة! ماريانة! لك البحار والمدن. لك الأشواق والحنين. سأعود ولكنك ستظلين في الذاكرة. أنت ممن يدخلون القلب بدون استئذان مسبق. مرحبا ماريانة بك وبالبحر.

ـ أنت تسرق الكلام من عيوني تقول ما بخاطري.

ـ أوف. الدنيا بنت الكلب.

ـ لكننا التقينا على شاطئ قلما أعرته انتباهاً.

ـ البحر لا قيمة له في غياب عينيك.

ـ هل أنت من قرطبة. يقال إن أهلها يتقنون الغزل.

ـ من أم المدن التي بيعت حيّة. غرناطة.

ـ في قلبك ندم وحزن!؟

ـ لا أندم على شيء ليس لي، ولكنني أحببته.

سألته عن جده. عن حرب البشرات. عن لباسه الموريسكي الملون والمطرز. خوّرت عينيها الواسعتين ولم تنس أن تسألني عن أمي، عن المارية. عن رأيي في البحر، في التربة، في وجوه الناس التي لا تعيرنا أي انتباه، ثم سألتها عن حياتها.



Twitter: @ketab_n

- إيه يا البشير! من أكون.. غجرية تدخن الرجال ويدخنونها.

- فيك أشياء أعظم من هذه.

- شيء ما قادني باتجاهك منذ أول لحظة. فأنا لست لاكونفرسوس، ولا موريكوس، مجرد بوهيمية!

المرأة في بلادنا يا البشير، قالت ماريانة، إما أن تكون امرأة أو لا تكون. الرجال تافهون، يمارسون نفس العادات السخيفة. ينامون معك ليلة طائشة، يحبونك في لحظة سكر، ثم يرمونك على أطراف الطرقات الضيقة، ويستعيدون سيرتك باتساخ في بار البحارة وهم يقرعون الكؤوس ويرفعون الأنخاب، ويتنافسون حول من استطاع أن يعذبك أكثر، من استطاع أن يشبعك. وكلهم جرذان. حتى أصبح الجنس مبتذلاً. أمارس معهم بقدر ما في جيوبهم.

- وزوجك.

- خليني أرجوك من ربه. ليس أحسن منهم، يتنافس معهم. ويكرهني في أعماقه لأنه يظن دائماً أني من عرق موريسكي. سينزع رقبتي لو يراني معك. وعندما أغلق فمه بالدوقات، يصمت! ابن القحبة.

المرأة في بلادنا مثل هذا البحر الواسع. تعطيك بقدر ما تعطيها. تفتح في عينيك المستحيل إذا كنت عظيماً. وتبتذل الدنيا من تحت أقدامك إذا كنت تافهاً.

مدّ يده إلى شعرها. رفعت عينيها من جديد. شعرت بالدمعة تتكسر في البؤبؤين.

- أوف أشعر بتفاهتي.

قالتها ثم انحنت برأسها على ساعده الذي كان يحاول أن يطوقها. المرأة في بلادنا يا البشير حياتها في عينيها ووجهها وشعرها. ومتى تكون جميلة عليها أن تجمع الكثير من الصفات المستحيلة. ثلاث ميزات لا يمكن التنازل عنها وكلها بلون أسود


Twitter: @ketab_n

ومدهش. بؤبؤ العينين، والحاجبين، والشعر. وثلاث مستحيلات في الوجه. حمرة الخدود الدائمة، رقة الأصابع، وشفافية الشفتين رغم امتلائهما. بوهمية يا البشير. قطعت الدنيا. جئنا من جبال بعيدة في الحملات الحربية القديمة التي لا أعرفها، لكن يقال إن جدي كان من البرابرة الذين ماتوا على أطراف البحر. يقال. ولا أهتم كثيراً إن كان هذا صحيحاً أم غير صحيح.

تأملها من جديد. كان يريد، لو كانت الدنيا له، أن يأخذها بين يديه، ويغيب داخل هذا البحر حتى الموت. هي السمرة الأندلسية الصاعدة من جسدها تفتح أمامه هذه الأمواج المغلقة، تمس الغيمة بعينيها فتنزل ماء، هي السحر يأتي من هذا الرذاذ وهذه الروائح المنبعثة من البحر، ومن جسدها ومن زهرة الكاسي التي لا تغادر شعرها الذي بدأت خصلاته تلتصق بشفتيها المبللتين بهذا الجو الخرافي الذي لا يُلمس إلا بالقلب وحدّ الذاكرة. ماريانة. تجمع الاستحالة في جسدها. مقاييس المدينة جاءت منها. عيون رائعة، وحادة، في ميلانها انكسار خفيف يزحف نحو أنف حاد يعطي الانطباع دائماً بأنها تتهيأ لرد فعل عنيف من الحياة ومن الناس، إذا أنزعجت، يتداخل وجهها في بعضه البعض مثل النمرة الشرسة، وحين تنفرج شفتاها، تظهر أسنان بيضاء عاجية. كلما قهقهت بأعلى صوتها، ازدادت نصاعة بياضها.

كانت جميلة ورائعة على طريقتها. في جسدها شيء من عود النوار، واللوز المر، وقشور الرمان والصدف البحري، وشيء من الياسمين الذي يملأ حدائق المارية. هذه هي رائحة ماريانة، حارة مثل الشوق والحنين. شعرها قاتم بظلال زرقاء مثل زرقة الطاووس تحت أشعة شمسية منكسرة صفراء، وبيضاء، وخضراء، وبنفسجية. بوهيمية. تنطقها بسهولة! عيونها جميلة، مثل عيون الذئب كما كان يقول دائماً سكان المارية في أمثالهم الشعبية. قلت لها: احكي يا ماريانة. أخرجي مدافن القلب. قالت مع ابتسامة عريضة، سرعان ما ابتلعها البحر بسرعة، قبل أن تسرقها



Twitter: @ketab_n

النجوم والشواطئ والأصداء التي تملأ مدينة المارية الرائعة التي تنام بهدوء عند أقدام الأمواج التي تنكسر باستمرار. قولي يا ماريانة. أعرف أن آلامك لا تضاهى.

ـ أتريد أن تعزف الباخية la baji؟

ـ قوليها. قلبي معك.

ـ إيه.. Laguna,eme bihotsarena.

كانت تحكي وتتأوه. قالت: آه لو كنت أحمل الرباب، لجلسنا عند حافة الصخرة، وغنيت معك أشواقاً لا تعرفها. ربما وجدت امتدادتها داخل أزقة هذه المدينة الضيقة. لست أدري هل طال بنا الزمن أم قصر ـ يقول الموريسكي ـ ولست أعلم إذا كانت الدنيا تمشي بمنطقها الحر، أم بمنطق من يملكها؟! لا علم لي سوى أنها في لحظة من اللحظات، عندما رأت الشمس، بدأت أشعتها تنكسر، على الكنائس وبقايا المساجد والبيوتات الواطئة، قالت ماريانة: الحيوان ينتظر عودتي. قال لي تنقصني الدراهم، قلت له سأصطاد حمامة (رجلاً) في أزقة المدينة، أنومه تحتي، وأخرج مرارته، وأفرغ جيبه. تضاحك هو وأصدقاؤه الذين كانت رائحة الخمرة قد أفقدتهم كل تبصّر وإشعاع. قال، اذهبي واقحبي مع من تشائين املئي جيبك فقط. كانت الكلمات تخرج من فمها بسرعة عجيبة، بل بدون حتى ذرة تحرج، لكن مسحة الحزن لم تغادر قلبها أبداً. ارتسمت واضحة على محياها وهي تحاول أن تقبل يدي بحرارة.

ـ أرجوك سأعود إلى مقهى البحر. إنهم ينتظرون.

فكرت أن أسحب من جيبي بعض النقود لكي تستطيع تبرير موقفها أمام الآخرين. قرأت ما كان يدور في قلبي.

ـ لا تفكر، لقد سكروا وأخذت من أنوفهم ما أبرر به موقفي الآن. سأقول له أن الحصاد كان ضعيفاً. إلى الجحيم إذا لم يقتنع.

وقبل أن استحضرها كاملة للمرة الأخيرة، في ذلك اليوم البعيد



Twitter: @ketab_n

البعيد، كانت قد انسحبت، هناك من ينتظرها لإتمام الرقصة الغجرية. أردت أن أتبعها لكنّي خفت عليها من الأفواه القذرة التي كانت تنتظرها هناك. لم أركض وراءها، ولم أصر على الذهاب، كان قلبي يحدثني عن البقية. لا يمكن أن أطلب من بوهيمية أن تعطيني أكثر مما أعطتني ماريانة. حين عدت كان من الصعب علي نسيانها. لأني كنت أعرف، أنه كان علي انتظار زمن آخر غير محدد لأراها ثانية وربما قد لا أراها أبداً. بقيت عيونها ماثلة بعيوني وذاكرتي. جسدها القوي والمقاوم كغصن زيتون. في لحظة من اللحظات، كان علي أن أبردها بكل الوسائل. لقد بدأت الحكاية في الأسواق الشعبية تتضرر. لم أذهب مرتين، لم أنزل إلى البار الأندلسي الموجود في أحد الأزقة لأتبادل الحكايات مع ناس آخرين. بدأت عادتي اليومية تُخترق شيئاً فشيئاً. قلت في خاطري لا! لا!؟ يجب أن أحبها. وأن لا أخون وعد الجد الذي لم تبق إلا تفاصيله في ذاكرتي، لأن الكتب والوراقين كانوا يملؤون الدنيا. كانت صورتها مجزأة. حاضرة بكاملها ولكن كان من الصعب علي تجميعها. حاضرة بعينيها أو بشفيتها، بكلماتها المتقطعة، المبهمة. أو بحكاياتها عن زوجها الذي كان يدفع بها باتجاه الخراب لدرجة أنها حملت ذات مرة سكيناً ونزلت على بطنه ولكنه في اللحظة الأخيرة اعترض الضربة بيده، فارتشق في ذراعه حتى اصطدم بالعظم. شرسة لدرجة ارتكاب الحماقة. ورقيقة، لدرجة أن البحر يحسدها على عنفوانها، وأجواء المارية بكاملها تنأى حين تحضر ماريانة إلى الساحل المهجور.

وردة الكاسي التي كانت تضعها دائماً منذ أن بدأت أراها، إمّا في صدرها بين شقي نهديها البارزين حتى النصف والممتلئين مثل تفاح المجانين، أو بين شفتيها، أو تدفنها داخل شعرها الذي يصبح أزرق كلما انكسرت عليه ألوان الشمس الكاملة. بالرغم من الأيادي الغليظة، لم تفقد أي ألق وإشعاع ورغبة اتجاه الحياة. كانت ممتلئة بالليل، ولكن الأقمار التي في عيونها لا تعد.



Twitter: @ketab_n

عندما كان يقف عند مدخل سجن نوميدا، لم يتركوا له لحظة إتمام وجه ماريانة، التي يقف بينه وبينها زمن غير محدود. فرصة التنفس قطعوها منه. كان يريد استرجاع ألق الأشياء كلها، ولكنهم مصرون على دفنها في قلبه. حتى ماريوشا، كان من الصعب عليه أن يميز وجهها داخل الوجوه التي كانت تهاجمه دفعة واحدة. قال له أحدهم.

- دير روحك مجنون، تشبع كسُورْ. امش.

- يا سيدي أنا مجنون حقيقة!

- ما تخافش راح تصير عاقل يا السي محمد.

لم يكن السجان النوميدي يعرفه، كان يدفع به مع الأمواج البشرية التي كانت تُكدس مثل البضاعة الفاسدة داخل صندوق قديم لرميها في أية مزبلة. امش. حين التفت، وجد وراءه جثة كبيرة. وعيوناً تحمر كلما استفزت، فانكسر وواصل انحداره باتجاه الحفرة الموجودة في أعماق الأرض التي يدفن فيها الناس أحياء. قالوا له أغمض عينيك يا الدرويش، وامش بدون التفات لا على اليمين ولا على الشمال، لا إلى الأمام. ولا الوراء. امش. وبعد أكثر من ساعة، لم يتأكد إلا من شيء واحد. أنه كان يزيد انحداراً كلما مشيَ. بعدها قالوا افتح عينيك الآن. حين فتحهما، كأن شيئاً لم يحدث، لأن الظلمة كانت قاسية. بعد لحظات بدأت أشعة قليلة تتسرب من مكان ما داخل السرداب. كانت تعطي بعض الضوء للمكان. لم يكن هناك أي واحد من العسس. لكن بالرغم من ذلك كله كان ممتلئاً بالأشواق والحنين لأشياء انكسرت في منتصف طريقها. سحبت من عينيه وهو لم يكون بعد صورتها التي حلم بها جميعاً. في لحظة من اللحظات المكسورة شعر كأنه لم يعش في هذه المدينة ولا لحظة واحدة، أو أنه عاشها بذاكرة مفقودة هاربة باتجاه بحر ليس لها. كلما حاول الإنسان أن يتراجع إلى الوراء، ازدادت الظلمة قتامة، ولهذا وجدت نفسي مجبرا أن أراوح داخل زاوية محدودة، يقول



Twitter: @ketab_n

البشير، سكان الجملكية وحكامها، ورثوا المدينة، رثوا سراديبها، ولهذا كأن شيئاً لم يتغير في هذه البلاد. سمع بعدها صرير الحديد والآلات التي كانت تصعد وتنزل برتابة مقلقة. تورث أصواتها طنيناً دائماً في الأذنين. عرف أنه مدفون تحت آلاف الأطنان من الأتربة، شعر بالأزمنة الغابرة تعود دفعة واحدة مثل الخوف، الحاكم التركي، المغارة، أهل الكهف.

لم يكن الأمر مهماً جداً، كله يؤدي إلى الموت حياً وفقد الذاكرة التي صارت هي معضلة حاكم الجملكية وإلا لماذا قَصَفَ المدينة، وأباد الناس الذين حضروا الجنازة وأعدم عالم الذرة المتميز الذي كان بإمكانه أن يحلّ مشكلة الماء المستفحلة في الجملكية. الأزمنة المنقرضة تعود، تتسابق لتتسرب إلى القصر وإلى رأس الحكيم الذي صمم على إشاعة الديمقراطية في جملكيته الآمنة.

تسربت إلى أنفه الروائح الكريهة التي كانت تملأ المكان. سمع أصوات الحشرات والجرذان وهي تتقاتل فيما بينها. حاول أن يجلس لكن شيوع الروائح الكريهة إلى دماغه أورث عنده حالة من الغثيان. وبالرغم من ذلك أصر أن يبقى متمترساً في الزاوية، بدأت الأصوات المتداخلة تتكشف شيئاً فشيئاً. حتى تأكد أن صوت البحر يتناهى إلى مسمعه من جديد. هو البحر يا ابن أمي يعود إلى الذاكرة، ينخز القلب بإبره الحادة. ماذا أفعل. البحر لم يعد أمامي ولا ورائي مثلك يا ابن زياد. لقد صار البحر في كل شيء اتسخ ما عداه. تأكد من أن كل قنوات تصريف المياه تمر فوق رأسه وتنتهي عند تخوم البحر. لقد بدأ العقل يرسم كآبته داخل هذا الفراغ المظلم. تذكر الزمن الذي مضى، عندما رماه حاكم البلاد التركي، سيد الدنيا والباب العالي كما كانوا يسمونه. وُضِعَ داخل الأنفاق ولولا صدفة الهجمة الإسبانية على أسوار المدينة البحرية لكان قد أكله حياً بسبب كذبته، وأنه يعرف أسرار الخريطة التي ضُبطت مع السائحين المسكينين. حاول أن يغفو، لكن النوم استعصى عليه. يا الله. كل ما يحدث الآن يدخل في مجال الخرافة!؟ أمر لا يصدق! لا مبرر لوقوعه



Twitter: @ketab_n

على الإطلاق، بعد كل هذا الزمن الميت، ما تزال الأنفاق هي نفسها تستعمل لخنق الأصوات وتدمير حشرجة المتعبين، وإبادة حنين المفقودين والعائدين من الأسفار البعيدة!؟ هل يعقل أن نرمي الذاكرة ونفكر بعقول مستعارة لم ترث من تاريخها إلا الخيبة؟ مازلنا بعد كل هذا الزمن في العراء المطلق، المفتوح على فراغ مهول. ظهورنا للنار وصدورنا للبحر الذي ملَّ لدرجة الموت من ترقيع جروحنا بأملاحه. حتى الملح امتصوه وتركوا البحر بدون معنى. بذل مجهودات مضاعفة للنوم، ولكن الجراح التي كانت تملأ جسده منعته من هذه الإمكانية. إنه الشوق إلى العذاب الصوفي، إلى الحياة التي تحولت إلى شيء مبهم. لم يفكر على الإطلاق في الهرب، فكر فقط، كيف سيكون داخل هذا الخراب، وهل عاد من مغارة لينتهي داخل حفرة. هذا يعني أن حسابات العلماء كانت مخطئة من أساسها. كيف سيواجه الموت. أهو الموت الذي تختاره بكبرياء. أم الموت الذي يختارنا بإذلال؟ حتى الآن لم يواجهوه بأية تهمة، سوى أنهم عزلوه عن الجميع ووضعوه هنا، في هذه القتامة التي تزداد أكثر كلما غادر المرء المكان الذي يقف فيه. لا! لا! المسافة بعيدة بين أبي عبد الله، محمد الصغير، وعلماء المدينة. تقف بينهما شعلة النار المقدسة، والحكايات، وكتب التاريخ المذهبة، المطرزة، والمجلدة بالقطيفة الملونة. في لحظة الشوق الذي بدأ يفقد ملامحه داخل هذا الجحيم، تمنى فقط أن لا يضيع رماده، وأن يوضع بجانب رماد سيدنا النينوي الذي صلب وهو يصرخ، أن لا أحد يستطيع قتل الله. لا أحد يقتل الله. لا أحد يقتلني. ولم يقتلوه، فقد شبه لهم، هذا ما رواه العلماء فيما بعد. حتى الصلبان الحديدية لم تكن كافية لإبادته ومحوه من عيون الناس. هو الآن ينام في أحد البوقالات البيضاء المليئة برماد الناس الذين لا ينتهون. الرماد لم تأخذه الريح، لم تبعثره في الفراغات الواسعة. ينام هنا. ثم وضع يده لا شعورياً على قلبه، ليكن. لو يعاد التاريخ ألف مرة إلى الوراء، وهو لن يعود أبداً حتى ولو شاء الناس، لن أكون إلاّ البشير الموريسكي المليء



Twitter: @ketab_n

بالحنين والمتحرق إلى الحقيقة التي عدت من أجل استعادتها أو خسران نفسي ثانية. سأحمل كل العيون التي لا ترى إلا النور، وأروي عن كل القوالين الذين شاهدوا الحقيقة ولم تتح لهم فرصة قولها. سأكرر نفس فصول الحكايات المنسية ولو تعود ماريانة! آه يا ماريانة ما أجملك! لو تعودين يا ابنة بحر المارية، وسحر الموج المتكسر عند بوابات الشواطئ البعيدة. سأكرر نفس الحماقات، ولن أتوانى مطلقاً عن الجري معك على أطراف شواطئ نوميدا التي تشبه أحلام مدينتك.

لم يسألوه، لم يقتربوا منه أبداً. كان يعرف أن كل ذلك ليس إلا محاولة يائسة لترويضه. أغمض عينيه ثم نام بهدوء. منزوياً في ركنٍ داخل بطانية رائحتها كريهة جداً. هل سيأتي العلماء؟ هل سيتحولون إلى الملثمين السبعة كما حدث له في ذلك الزمن البعيد حين أخرجوه قبل ثلاثة قرون من نفس الحفرة التي لم تتغير كثيراً. نفس الزمن الذي نسي أنه يجب أن يكون قد انتهى منذ فترة بعيدة. الفارق الوحيد، هو أنه لا يتذكر هل أنقذه القرصان حقيقةً، أم اشتراه رجل من الأطفال، أم الرجل البدين الذي قبض ثمن رأسه سلفاً. حتى الأطفال الذين جاءتهم الفكرة الجهنمية باللعب بجثته، ورميها من أعلى قمة، والتسابق معها في الفضاءات العليا، لا يتذكر ملامحهم مطلقاً، كل ما يعلمه جيداً هو أنه لم يرَ لا المدينة ولا البحر. ولكنه سمع أشياء كثيرة وتخيل ما لا حصر له من الأشياء. تخيل أحاديث الناس، أشواقهم، عاداتهم، صورة البحر وهو يزمجر فوق رأسهم، وجوه السفن وهي تقاوم تكسرات الأمواج على ألواحها القديمة، ملامح الناس التي تغيرت كثيراً باتجاه التشوه، شكل المدافع التي لم يكن يسمع إلاّ طنينها، وعواء الذئاب الذي كان يأتي من بعيد من الغابات التي تحزّم المدينة بخضرتها التي لم يكن لها معنى أمام زرقة البحر الذي تحول إلى ميدان واسع للقرصنة. اقرأ الآن في كتب التاريخ المذهب. أن أسطولنا أرعب أوروبا في مياه المتوسط. أية مياه؟! وأي أسطول؟ قراصنة سلبوا البلاد والعباد.



Twitter: @ketab_n

وعادوا بها إلى التاريخ البدائي المريض. سيد الدنيا كلها، لم يكن حتى سيد نفسه. علينا أن نعيد للقوالة مجدها. الحقيقة لا تردم ولا تغرق الكلاب التي لا يحلو لها النباح إلا عندما تأخذنا إغفاءة النوم الأول. المآذن التي ترتفع عالياً عالياً، بحثاً عن سماء كلما اقتربت منها ازدادت ابتعاداً عنها. صورة غرناطة تعود، مآذن إشبيليا التي سرقوا أفراحها وأبادوا عقولها. مآذن قرطبة العالية، العالية التي ترفع من وراء البيوتات والأزقة الواطئة. باعوا قاضيها وأبادوا فارسها. أخرجوه من أسوار المدينة. ابن رشد لم يطلب شيئاً سوى تحديد طريق الدنيا الذي صار آلاف الطرق التي لا تؤدي إلا للفراغ. قال افصلوا وسيروا. دعوا الجحيم للجحيم. الدين دين والدنيا دنيا! لم يخلط القلب بالعقل. انفتحت العيون عن آخرها في وجهه. قالوا له اخرج قبل أن تخرج عمرك. حملوه ورموه خارج الأسوار. جاء من سرق العقل الجاهز، وبقينا نحن مشدوهين، والموت يزحف نحونا. هي ذي الدنيا نفسها، تعود على عكازاتها القديمة. تريد أن تعطي معنى لنفسها، ولكن لا شيء يسعفها. يا ابن أمي. ضع رأسك بين يديك واصرخ. اصرخ حتى تهد الجبال، اصرخ حتى تخرج الأرض أثقالها، وحين يقول الإنسان مالها، اردم فمه بالأتربة، وزمه! قلها له علانية. يا ابن الزانية تسألني مالها وهي تتحرك من تحتك يومياً آلاف المرات. إلى الجحيم! إلى الجحيم! أرى سواداً ينشأ من خراب، نشأ هو بدوره ذات زمن غير بعيد من خراب آخر. أرى بشراً مكممين بالشعر الآدمي، ونساء مضمدات داخل لفائف الأموات يعلنون العودة الميمونة إلى العصر البدائي الأول ويبحثون عن تأويل لموتهم داخل الحروف التي فقدت سحرها. أرى الأرض أصبحت سماء، والسماء صارت أرضاً وما بينهما صار ظلاماً ثقيلاً. أرى ما يراه الحالم في غفوته، وبدأت أفقد علاقتي بأشواقي ذاتها. هل هو الخريف يا ابن أمي!؟ كل الفصول تتشابه. كل الفصول تصفر فيها الأوراق وتسقط. كل الفصول يموت فيها الأطفال قبل الأوان. كل الفصول ينشأ فيها الحزن ويحفر القلوب، وتتفصد الجراح، لكنه الخريف يا ابن أمّي،



Twitter: @ketab_n

يسحب وراءه حنيني وشوقي الذي يسكن قلبي. هو أنت يا ابن هذه البلاد وتلك، هل رماك البحر في قفر الحرف؟ هل جئت من القفار، أم من غفوة على الساحل الروماني المهجور، أم من تكسر موجة اندحرت عند صخور الشط؟ هل هي لعنتها، أم تتبعك لعنة المدينة التي باعها محمد الصغير لجيوش القشتاليين والأراغونيين. التاريخ يا أبا عبد الله، محمد الصغير، ليس فقط عند كتاب الدواوين، ولكن في حلوق الناس وفي العيدان اليابسة التي عندما تحفرها تعميك، وفي الجرح المفتوح أبداً، تجففه أملاح البحر، ثم تفتحه من جديد نيران الحروب الحقيقية والمفتعلة. هو الخريف يأتي محملاً بالرغبات القصوى لإحياء الأحزان الدفينة. يمر ثقيلاً مثل الرصاص. لن يتنازل العلماء عني. لن يتركوا للريح ما انتظروه منذ أكثر من ثلاثة قرون وتسع سنوات هلالية. سيفكرون على الأقل كيف يضعون رمادي في بوقالات القلعة ويكتبون عليها: هنا ينام قوال غرناطة الذي نسي كل شيء إلا ذاكرته.

والإغفاءة تهزه، والصحوة تنسحب من عيونه، والتآلف مع الظلمة والبرد يزداد شيئاً فشيئاً. رأى ماريوشا، هي هي، كأنها تقف بلحمها ودمها أمامه. لا يعلم لماذا كلما داهمه حنين المدن البعيدة، وأشواق ماريانة، وقفت هي في الوسط كشعاع من نور يحمل آلاف الألوان. عندما رآها، في ذلك الزمن الذي لم يعد بإمكانه أن يجدده، شعر كأنه يعرفها منذ أكثر من ثلاثة قرون. متعود على ملامحها وتقاطيع وجهها التي تتجدد كلما رآها في حالة مخالفة للحالة الأولى. تحب الورود. تضعها في نفس المكان الذي كانت تتشهاه ماريانة. بين فجوة النهدين، على الشفتين، أو تغيب وردة الكاسي داخل شعرها الذي يضيع لونه الأسود كلما غزته أشعة الشمس. حين رآها للمرة الأولى كانت الأحزان تنكسر داخل عينيها الواسعتين بفظاعة كبيرة. كانت تنظر إلى صليب المحرقة وهو يحمر والشيخ النينوي يتحول إلى رماد. لم تقل شيئاً، لكن دمعها كان ينزل أحمر،



Twitter: @ketab_n

ملوناً ألبستها البيضاء الناصعة بخطوط حمراء مليئة بالقداسة. لست أدري في الواقع، هل ما كنت أراه كان حقيقة أم مجرد هوس كما قيل لي فيما بعد، بحيث شككت حتى في عودة علاقتي بغرناطة. حين رآها علماء (حكماء) المدينة قدموا لها البوقالة الزجاجية، حملت حفنة من الرماد ممزوجاً بالصنوبر المحروق ورمتها داخل البوقال، بعدها بدأ علماء المدينة يفعلون نفس الشيء. أردت أن أسألها في تلك الليلة، ولكن الأمر بدا لي محزناً فرأفت لحالها ولحالي. حتى الراعي، لو سألته، لم يكن من الممكن أن يعطيني إجابة تتجاوز حدود القلعة. كانت صورتها واضحة في ذاكرته، مثلما التقى بها في المرة الأخيرة، قبل أن يسحبوه من الخمارة. كان في البحر، بجانب الحائط المتآكل، يتأمل الأمواج المتسارعة نحو حتفها. هل من المعقول أن يركض الإنسان نحو حتفه. استرجع كل اللحظات الأخيرة قبل أن ينسحب، عَبَر الأزقة باتجاه البحر، لم يكن خائفاً ولكنه في لحظة من اللحظات شَعَرَ كأن محمد الصغير عاد إلى المدينة حاملاً لسانه بين يديه، ويقسم بأعلى صوته: وحق الرب الكريم سأبيع المدينة والخلائق لأنهم أبناء كلب، يصفقون لك في قوتك ويبيعونك لأول القادمين الأقوياء. صفقوا لي، رفعوني في القصر على رؤوسهم، ولكن عندما دخلت القشتالية الكبيرة إلى البلاد، نسوني، وظلوا يؤلفون الكتب عن كرمها. محمد الصغير كان يزحف داخل الشوارع، ولهذا كان على البشير الموريسكي أن يتفاداه، لأن بينهما دَين لا يمحوه إلا الدم. نظر إلى البحر طويلاً، لكنه لم يتلق من الأمواج المتكسرة إلا الأجوبة الحزينة. عندما فاجأته ماريوشا وهو جالس على الحائط المتآكل، لم يصدق نفسه، وضعت يدها على كتفيه قالت: أوف من أكون؟ ماريوشا! أتعس طالبة في العلوم السياسية. من أكون يعني؟ حكيم الجملكية، قالت بابتسامة مليئة بالأنوار. تأملها جيداً. نفس الوجه. نفس القسمات. نفس الحالات الحزينة. نفس الكآبة نزلت على وجهها عندما بدأت تتكلم عن أستاذها الذي عشقها، واكتشفت فيما بعد أنه ليس أكثر



Twitter: @ketab_n

من عميل تافه ومُخبِر صغير للقصر. يومها أقسمت إنها لن تعود إلى دروس العلوم السياسية التي لا تعرف إلا فتوحات الجملكية وكرم الحكيم شهريار بن المقتدر وأياديه البيضاء التي فرضت الديمقراطية الوطنية، التي لا تشبه أية ديمقراطية في العالم. ديمقراطية نابعة من خصوصيات الوطن، ومن تقاليدنا العربية الإسلامية. هكذا كان يقول دائماً. خاف مرة أخرى أن تكون ماريوشا مجرد وهم يتكرر من جديد. ثم يصدق بوجوده بعد فترة. ربما كانت عيون ماريانة التي لا تغادر قلبي هي السبب؟ لا. ماريوشا موجودة. وأفرغت لي ذاكرتها وكان البحر شاهدنا الوحيد، والحائط الروماني المتهالك. فجأة امتلأ قلبه بالنور. أباد قليلاً الظلمة التي كانت تحيط به من كل الزوايا. وظل مقتنعاً بذلك طوال الساعات والأيام التي تلت سجنه. غزته ابتسامة لم يستطع حصرها. بدأ يتأملها وهي تبهدل في عمي الطاووس ابن أمه، الوزير المخلوع. مسحت به الأرض، ولم يجرؤ على كلمة واحدة. عمي الطاووس كان يعرف أن لسانها طويل، ولكنه كان يدرك كذلك أنها تركت مقاعد الجامعة وهي في السنة الأخيرة. كانت أكثر جنوناً وبوهيمية من سيدي عبد الرحمن المجدوب نفسه. عندما كانت تواجهه، كنت أروي حكايتي وأستعيد في أعماقي الزمن الضائع. في لحظة الحزن لم يبق أمامي إلّا الصياح بأعلى الذاكرة. آه يا أبناء أمّي! آه يا خرابي الكبير! إني أموت. إني أموت يا سيدي العظيم وشيخي الحلاج، الذي تفنى الدنيا، وتُحرق كل أشجار الصنوبر المقدس، ويبقى هو شامخاً كالرمح في قلب أزقة بغداد التي تعفنت ببذاءات المقتدر. إني أتناهى يا شيخي في مسمع الذين سقطوا ولم تتح لهم فرصة الشهادة. م. هـ. ح. ف. ل. ع هي حروف القلب والجنة. مسطّرة في كتاب العاشقين والكتب الصفراء النادرة. إذ تأتيك يتسع قلبك، وتقوم الملائكة من أمكنتها حاملة سجادات الأنبياء تبحث عن نبضك الضائع وسط المذابح المتكررة، تدفن في قلبك كلماتها المعصومة من النار، ثم تعود إلى أمكنتها الأولى. كلمات



Twitter: @ketab_n

مصففة، مثل أرواح المقتولين الشهداء، تأتيك واحدة. واحدة تبحث في عينيك عن السر المكنون. إذا سئلت. فلا تدع أفصح!؟ قل حديث القلب يبدأ بالميم (م) وينتهي بالعين (ع) وما بينهما حروف الوهج المكين. وإن أصروا يا شيخنا أفصح!؟ فقل ما لم تقله في الأول. قل تلك حكاية أخرى سيأتي من يفتح سرها ويدفنها إلى الأبد داخل دمعة في العين. هي العين المائلة مثل قلم الأنبياء التي سجتك من غرناطة إلى هذا المكان، إلى هذه الأسواق التي لا ينتهي ضجيجها وشوقها. افتح فمك عن آخره وتأمل. ماريوشا، طفلة هذا العمر المنسي، قالت لك وأنتما تبحثان عن ضياعكما داخل البحر، والدي طردني من البيت وقال لي عليك أن ترددي عليَّ كل مساء خطب الحكيم مصحوبة بآية قرآنية. قبل هذا طلب منك أن تلتفي داخل رداء أبيض ولا تظهري سوى عينيك. رجوته. قلت له أنك ما زلت على قيد الحياة. قال لك تعاليم الحكيم ترى ذلك، والإسلام يؤكدها. أصرّ وكان إصرارك أكبر. صرخ لست في حاجة إليك، وقلت لست في حاجة إلى خراب آخر ونزلت إلى المدينة. تارة تبيتين عند أختك الكبيرة، وأحياناً في الحي الجامعي، وفي أغلب الأوقات في الحديقة، وبعدها صار العلماء يستقبلونك بعدما زكاك سيدي عبد الرحمن المجدوب. وإن قالوا كذلك، ياشيخنا صمتك يذيب الحجر، والصوان، والبراكين، فقل إنها هي، الحروف التي لا تموت، تأتي صافية مثل الماء الزلال، تنزل من الحلق بهدوء، ناشبة حرقتها في الذاكرة والقلب المطعون. هي الشعلة الزرقاء المقدسة، التي تسبق الانطفاءة بقليل.

هي التي ملأت ظلمته، وبددت قتامة المكان، وقللت من وحشية السراديب. قال في أعماقه، وهو يعد الأيام التي قضاها في نفس المكان، بعد أن تبدد الزمن نفسه، صار يوماً واحداً مظلماً لا ينتهي. سأقول لها: أنت الشعلة الزرقاء. وحين جاءته، وهو لا يعلم كيف دخلت، ولم يكن يهمه ذلك كثيراً، أراد أن يسألها عن العلماء، عن



Twitter: @ketab_n

نوميدا، ولكنه وجد نفسه يتكلم كلاماً آخر. إني أرى الآن كل المدن في عينيك، سأخرج ما في قلبي وأضعه بين يديك. نفس الموجة التي قادتني من البلاد البعيدة تقودك الآن إلى مياه المارية. اختلطت بمياه نوميدا. لمست ماريوشا رأسه، وقبل أن تبدي ملاحظتها بحرارة جسده، قال ليس سوى الموت الذي يثلج الجسد. دعيني أهذي، فأنتِ الوحيدة التي تعرف سحر الكلمات وروعة الخرافة. استمعي الآن لأني بعد زمن قصير سأتبدّد وأصير أتربة وغباراً تلوحه الأرياح في فضاءات الدنيا الأربعة. استمعي يا ماريوشا، ها في قلبي بحر لا يحدّ ولا ويوقف. الشعلة تصعد من دروب المدينة الفتية، ثم تندلع في وسط البحر، سيقول الناس تلك علامة القيامة، لا، قولي تلك علامة الحماقة الكبرى، التي جاءت بشهريار بن المقتدر من حرملك القهرمانات اللواتي يلعبن به بين أفخاذهن الملحمة التي تُغري استدارتها وملامستها بلحظة غفوة. لامست شفاهه شفاهها. كان المكان ضيقاً. شعر بحرائق الدنيا بكاملها تهاجمه. قالت: احك. احك أيها الجرح النازف من العصر الممتد من الوريد إلى الوريد، احك ولا تتوقف. هل احكي عن حروف التوهج؟ قالها بخوف: لا أملكها ولكنها تملكني. أعشقها فتؤلمني.

م. هـ. ح. ف. ل. ع. أعبدها، فتحولني إلى حكاية تمضي مع خرير الوديان. الوجه يشيب، والشعر يتجعد، والعمر صار يزحف نحو حتفه. إنه أقصر مما كنت أتصور يا ماريوشا، مثلك مثل هذا الحرف، تأتين في أوّل الليل مع أولى نسمات الفجر الشتوي. ماذا بقي أيتها الحلم المستحيل. ها أنذا أرفع يدي في هذه الظلمة، وأشهد أن الحرف كان دائي وَدوائي، وأنك جزءُ مهمُ من قلب أضعه الآن بألم تحت حذائي. وأضغط بكل قواي، واستمع إلى صوته وهو يتكسر ويئن معي. لم أتوقف، ما زلت أصرّ على الضغط على أقدامي. بدون ألم لا معنى للقداسة، وبدون موت لا معنى للحكاية. وبدونك لا معنى لهذا السرداب الذي بني على الظلمة وتغييب زرقة البحر. قالت



Twitter: @ketab_n

ماريوشا وهي تندفن في صدره كالروح: يا سيدي قلبنا معك. لست وحدك في فراغات الدنيا، والذين يملكون الحب كثر، والذين يشتهون طلعتك لا يحصون. العلماء يعرفون كل حكاياتك، ما ظهر منها وما خفي. جئتك لأبلغك حنينهم، وأن البلاد خالية بدونك وأن أجلك ما يزال طويلاً وأن عمرك لا يحده زمن. لقد أمضوا عمرهم وهم ينتظرون عودتك، ولن يسلّموا فيك بسهولة. والحكيم لن يأمر بقتلك أبداً، إنهم متيقنون من ذلك تماماً. لأنه في حاجة إليك، فقد بدأ ينتابه خوف أزرق، وتجتاحه الموجات التي كانت تتكسر تتابعاً عنه الشاطئ الروماني المهجور.

أنت تعرف، وهم يعرفون، والقصر يعلم، والحكيم لا خيار له سوى الحفاظ على حياتك. لقد وصلته كل المعلومات المتعلقة بك، ولم يصله إلّا ما أراد العلماء وعمال البحر تسريبه له.

كانت تتحدث وعيونك مشدودة بنبضها الذي كان يدخل صدرك قاسياً، قاسياً كالأناشيد الحزينة والمآتم التي لا تنتهي. تحاول أن تستحضرها بكاملها. قبل أن تصلك في النفق أو السرداب تشم رائحتها. تتخيلها. تسمع أنفاسها وهي تتقطع في الأدراج الملتوية التي تصعد وتنزل. ثم تسمع صرير الأبواب وهي تُفتح، مع ملاحظة السجان الدائمة: وقتك محدود. ثم ينزع عن وجهها اللفافة السوداء وينصحها بالتقدم إلى الأمام بدون التفاتة، حتى تلتصق بك. فهي بدورها تعودت على رائحتك، تقولها بفرح من فمها بعفوية كبيرة: البشير! أنت هنا! آه يا حنوني ما أشوقك. ثم تنكسر كالبسمة، كالغيمة الوحيدة داخل صدرك. تتلمسها. هي هي. شعرها، وردة الكاسي، شفاهها الممتلئة، أنفاسها المتقطعة، رائحة القرنفل الإشبيلي التي تملأ جسدها وألبستها التي تتخيل أنها لم تتخل عن توردها الدائم. يدها حين تلمسها تندفع باتجاهك بقوة وبدون حدود. تمّحي الوسائط بينها وبين ماريانة بنت بحر المارية. قالت لك في المرة الأولى بحزن كبير، يا البشير ورّطناك في فراغ كنت



Twitter: @ketab_n

بعيداً عنه. كنت صامتاً. قلت من جديد، هل تراني يا البشير! قلت أراك مثلما يرى شيخي الحزين معبوده. أراك، مثلما كان يراني سيدي النينوي وهو يحترق تحت جمار الصنوبر المقدس، ويؤشر إليّ بعينيه خوفاً علي، ابتعد! ابتعد! شدته إلى صدرها من جديد، واندفنت بكامل جسدها الصغير، وقالت: هل رأيتني في ذلك اليوم البعيد؟ أعادت السؤال من جديد؟! قال: كنت حرفاً من الأبجدية التي كلما خسرت حرفاً نبتت مكانه حروف جديدة. رأيتك أكثر مما أراك الآن. لباس أبيض وشوق دفين، ووردة الكاسي، وانعكاس شعلة النار على شعرك الذي صار أزرق، وعلى وجهك الذي صار كتفاح المجانين والمأخوذين بحب المستحيل. أراك مثلما يرى الليل نجومه وألمسك مثلما يلمس سيدي عبد الرحمن المجدوب جنونه، ومثلما كان يفعل شيخي الحلاج عندما يستعصي عليه استحضار وجهه. آه، كيف لا أراك. قالت: آه يا البشير، ثم انتبهت فجأة أنها لم تستعمل كلمة سيدي. أرادت أن تقولها، ولكن بدت لها مفتعلة. لو تعلم يا البشير، قلبنا لا ينبض إلا بك، وعيوننا لا ترى إلا من خلال عينيك. من كان يعرف هذه الدهاليز لولاك، لأنك الوحيد الذي بإمكانه الخروج حياً. بك تعيد المدينة كل حساباتها. جئتك من القلعة. في البداية أصروا على عدم دخولي، وعندما عرفوني تركوني. إنهم يكشفون عن ضعفهم من خلال كل هذه الممارسات. صرت الآن عند العلماء وعلماء البحر. انتظرت كثيراً عند الباب الخارجي، مع سيدي عبد الرحمن، الذي ما يزالون يظنون أنه مجنون، وقد عاد قبل أيام. قال لن أترك الحكاية إلا عندما يعود صاحبها. الناس كانوا كثيرين، الذين جاؤوا للزيارات. مددوهم على الأرض أياديهم فوق رؤوسهم، كلهم أصروا على ضرورة دخولي، وعلى رأسهم عبد الرحمن المجدوب. عند الباب قال لي الجميع قبليه عنا جميعاً. هو يحتاج الآن إليك أنت. حين رأيتني يا البشير بجانب سيدي النينوي، وراء النبتة، ثم وأنا أضع الحفنة الأولى من رماده في بوقال العلماء،



Twitter: @ketab_n

كانت في عيني دمعات مليئة بالدم والرماد. شعرت بك تملأ قلبي. هل حدث يا سيدي ما كان يجب أن يحدث. قال وهو يمسّد على شعرها بهدوء، وفي يده ارتجافة خفيفة لم يدر ما مصدرها. حدث ما كان يجب أن يحدث. ذهب النينوي ممتلئ القلب، متيقناً أن لا أحد يستطيع أن يسحب المدينة منذ عينيك، لا أحد من اللحظة تلك يستطيع أن يشوه ذاكرتك. حدث ما كان يجب أن يحدث. أنت وماريانة فولة انقسمت على إثنين. قالت، قالها لي القوالون. تَفَوه بها قبل زمن غير بعيد عمّي المجدوب. كان يصّر عليها حين ينطقها. فولة انقسمت على إثنين. سيجيء خويا حمو ويغطيني بالزربية. صبّي يا النو، ما تصبيش علي. سيعود خويا البشير ويأتي بالحكاية الصحيحة وحين تسمعينه يا ماريوشا ستظلين سنة مشدوهة في عينيه المليئتين بالصدق والوفاء لكل الذي يحيط به. في ذلك الزمن العائد، سأتنازل عن جنوني لغيري. أنت يا ماريوشا وجه آخر لماريانة التي فجرت مكامنه الغرناطية. قالت للبشير من جديد، وهي تحاول أن تضع يده في قلبها. كانت حارّة مثل كل الأشياء الثمينة التي لم تفقد ألقها. أنا ماريوشا، فهل تراني يا سيدي. إنها الظلمة التي تزحف من الأركان الأربعة، إنها أصوات الجرذان التي تتقاتل على لحمك وأنت ما زلت على قيد الحياة، إنها المياه التي تتسرب من كل الزوايا. إنها القتامة التي تضيع كل الملامح، فهل تراني. أراك، قالها بدون أي تردد. أراك تملئين هذا الخراب بالنور، وتسحبين البحر من شعره، وتجبرينه على الجلوس بجانبي داخل هذا الفراغ المقلق. تنادين الموجة الهاربة من الشط فتأتيك وتموت باستكانة عند قدميك. أراك مدينة يدجنون فيها كل الخلائق ولا يدجّنوك. هل تراني؟ أراك! هل عاد محمد الصغير في سفنه الأولى التي هرب على متنها؟ لا لن يعود لقد انتهى عند أبواب البحر، وهو يتركك تشتعلين وتموتين، الذاكرة التي وضعته على حافة المدينة لن تتركه يدخلك أبداً. سيمشي طويلاً طويلاً مسافات تقاس بالسنوات، وربما بالقرون، وربما بمئات



Twitter: @ketab_n

القرون، وسيجد نفسه دائماً عند باب البحر الذي غادره وغدره، تاركاً وراءه الوجوه للنار، والأشواق للجحيم. لم يكن مجبراً على المقاومة، فالمدينة لم تكن له، لكن كان عليه أن يحفظ وجه آخر المماليك التي ملأت الدنيا. سيمشي طويلاً هو وسيده الخضر الذي صنعه على شاكلته، الذي لم يعد نافعاً لإقناع المدينة بمزيد من التنازل، تقتلهما الشمس، يمدان أياديهما، لكن الأشعة تزداد استقامتها حرقة. يجدان صخرة كبيرة، يحفران تحتها من أجل أن يختبئا احتماءً من نار جهنم، لكن الرمال تنزل بالحفر، والصخرة تتبعهما. قرن من الزمن وهم يحفرون بدون فائدة، مثل بني كلبون. هل عاد محمد الصغير؟! لا لن يعود بهذه السهولة، ما يزال يمشي مع صديقه الذي صنعه مثل الصنم بيده. يمشيان... يمشيان بدون نهاية.

علماء المدينة يعرفون كل هذه التفاصيل مثلك يا البشير. نزعت يده من صدرها ووضعتها على وجهها الذي كان بارداً من شدة الرطوبة في السرداب. يعرفونك ويعرفون كل التفاصيل. منذ أن دخلت تلك الحفرة، أو أدخلك الملثمون وهم يتداولون مراقبة المكان، جيلاً بعد جيل. خاضوا حروباً كثيرة من أجل أن لا يُقلق أحد راحتك. بعضهم كان يريد أن يحوله إلى مكان للعبادة، وآخرون قالوا ليكن ثاني أقدس غار بعد غار حراء. القصر نفسه أراد أن يستثمره من جهته. حاول مرات عديدة ولكن بدون فائدة. حاول أن يكتب عنه تاريخاً جديداً، بماء الذهب وأغلفة القطيفة. كان الحكيم يريد أن يقنع الرعية بأنه من سلالتك، لأنك من سلالة الأنبياء والمرسلين، لكن عمال البحر وعلماء (حكماء) القلعة دحروه بقوة، ومن يومها فكروا في طريق سري تحت الأرض، مثل النفق يوصل القلعة بعمال البحار، تفادياً لكل المفاجآت. لكن القصر من يومها لم يكرر الفعل، ودخل في اتفاق ضمني غير مكتوب، ترك العلماء والقلعة وعمال البحر على حدة، لأنه كان يخاف من تحالفهما، ففي ذلك خطر على الجملكية الميمونة.



Twitter: @ketab_n

وقبل أن تنهي حديثها، الذي كان ينسجه قلبها وأشواقها الدفينة، كانت قطعة الكتان السوداء تغمض عينيها، والسجان يسحبها شيئاً فشيئاً إلى الوراء. سمع صرير الباب الحديدي وهو يغلق وتكسر خطواتها غير المتوازنة على الأدراج الملتوية. وكلماتها الأخيرة، قبل أن تغيب وسط هذه المتاهة.

احك يا البشير. احك. قلبي معك.



Twitter: @ketab_n

# 12

ماريوشا سحر الحزن الدفين، وصراخات المدن المسروقة في لحظة غفوتها، وموجة السواحل التي تقدس أشواق زرقتها. ماريوشا تتذكر جيداً، وسط هذه المدينة التي ما يزال ناسها يبنون ما تهدم ويرممون ما فات، وجه الموريسكي بكل ملامحه التي لم تمحها الأحزان أو شقاوة ظلمة الحزن. كانت تساهم مع العلماء (الحكماء) وجمع غفير من الناس، في الأيام التطوعية للانتهاء من إنجاز السور الطويل المواجه للبحر، لدرء أي هجوم محتمل من طرف حاكم الجملكية. إذ أن السور المنجز، يكاد يفصل القصر ومحيطه عن بقية المدينة. فعندما يقترب منه، ينكسر باتجاه الجزء العلوي من الشاطئ، ويبدأ في الانحدار باتجاه الواجهة المطلّة على بحر نوميدا ـ أمدوكال الرائع الذي يشكل معماراً نصف دائري، يطوق قسماً كبيراً من فوضى هذه المدينة. قالت ماريوشا وهي تمسح عرق أحد العمال: فعلاً إنه يشبه سور الصين. أجابها بأنه مبني على طريقة جديدة، تحمي المدينة حتى من غزوات البحر والقصر. وعندما ننتهي من إنجازه ـ أضاف قائلاً: سنسميه على اسم ياسين الذي وضع هندسته العجيبة، قبل أن يقتل في الجنازة الوهمية التي دبرها الحكيم لينتقم من كل المشاركين. كان مهنياً وعالماً متميزاً في الندرة، من بقايا العصور السالفة، حين كان العالم يتقن أكثر من علم واحد. أكبر تكريم له كما قال العلماء، هو الانتهاء من سور المدينة وحراسة المدينة من دخول ابن كلبون. حتى



Twitter: @ketab_n

الخبر عندما وصل إلى الحكيم شهريار لم يعلق كثيراً: لا يهمني القسم الذي يحوطونه، أولاً لأنه متكون من جياع المدينة وهذا يجعلني غير مسؤول عن بني هندل هؤلاء، ثانياً يجب أن نفكر بشكل استراتيجي، ونتركهم ينتهون منه، لكسب الزمن، وبعدها قد أعطي الأوامر لسلاح المدفعية أو الطيران لإبادته. ثم أهمل المسألة بالرغم من التقارير التي كانت تلح على أن علماء المدينة اختلطوا بعمال البحر، بل لبسوا ألبستهم. حلل ذلك بهروب إلى الأمام، وبداية ذعر سيكون مقدمة للإبادة، ولكن يجب التفكير في الطريقة. أصبح الآن يدقق في كل شيء، لأن خطأ آخر سيكون قاتلاً. حتى الآن لم يبرر قضية العلماء (الحكماء) الذين قال عنهم أنهم ماتوا، ثم فجأة يظهرون من خلال الرسائل الموجهة للقصر بشأن البشير، كلها تهديدية.

ماريوشا لا تنسى شيئاً. لا تنسى الوجوه والبحر، والحلقات التي تتسع كلما ازداد الحزن توهجاً. لقد أصبحت الأشواق تملأها والحنين إلى البشير يعذبها، ويقودها مغمضة العينين. حين واجهته بعد أسبوع من المواجهة التلفزيونية مع الحكيم، قالت له أنك عظيم، وأنك قادم من عصر بعيد، لوضع أناملك الرقيقة على نار الجحيم، باحثاً عن استدارة القمر، التي صارت شبه مستحيلة في جملكية نوميدا ـ أمدوكال. فتحت له قلبها. كان صامتاً يتأملها من شعرها حتى حذائها الرقيق الذي كان يعطي لحركتها خفة ورشاقة، قالت: أنت تعرف أني غادرت الجامعة، لأن الآفاق فيها أغلقت، وأن الوجوه المشبوهة تكاثرت، نزلت إلى الشارع، فكرت في عمّي المجدوب. حين رآني كانت عيونه متورمة في ذلك الصباح الحزين. قال لي: دراستك يا ماريوشا. حلم والدك وحلم المدينة. حكيت له القصة بكاملها. يا عمي عبد الرحمن، الدنيا مغلقة، لماذا نحاول فتحها على تفاهة أكبر. لم يكن الأمر مهماً فقد قرأ كل شيء في عيني. يا بنتي الدنيا التي أعيشها صعبة. وتحمّلك لها أصعب. أنت



Twitter: @ketab_n

امرأة في مدينة كفّنت المرأة وهي حية. قلت: ومالو يا عمّي عبد الرحمن. صوتي جميل، وأناملي قادرة على العزف، لماذا لا أبقى معك.

كان البشير يهز رأسه من حين لآخر بالموافقة مع ما كانت تقوله، شعرت ماريوشا بأن البشير يقرأ قلبها الحزين، وكان الوحيد الذي يستمع إلى حنينها الذي كانت تحمله في قلبها المتعب. تنظر إلى قسمات وجهه التي غامت شيئاً فشيئاً وسط الظلمة، بدون أن تفقد ألقها وتوهجها. هذا الرجل لا يحمل شيئاً سوى حبه، وصدقه هو الذي قاده إلى ممارسة الجنون في أجلى صوره ولتفادي رؤية محاجر عيون المدينة فارغة من بؤبوها مثل عمّي المجدوب، الذي كان يجوب شوراع المدن الهبيلة، يروى الحكايات، وأنا اكتشف سحر الحكاية، وزيف كل ما دوّن في كتب التاريخ. حتى جاءني ذات مرة مشحوناً بسحر الأندلس. قال ناس القلعة يحكون قصصاً عن رجل سيأتي من بعيد، لا أحد يعلم من أين، في الحقيقة كانوا يعلمون كل شيء. أصيب في النهاية بعدواهم، وبسحر انتظارك. لقد أُصيب بدائك في الزمن الفائت. قيل أنك ستأتي بعد ثلاثة قرون بالتمام والكمال، ولكن حساب الأنجم والأفلاك والأنواء أراد غير ذلك، فأضاف إلى الخطوط تسع سنوات. وقد وردت هذه السنوات في القرآن مع أهل الكهف، التي يقول فيها الشارحون: أنهم بقوا ثلاثة قرون مضافاً إليها تسع سنوات بالحساب الهلالي. وكان يجب أن يصاب عمّي عبد الرحمن المجدوب بلوثة وهو يحكي عن كل شيء. وإذا لم يصدقه بحاسته الحيوانية الرهيفة، فهو لا يحكيه. الحقيقة عنده كان لها معنى آخر. يقول دائماً: الكلمات التي لا تشعل في داخلك نيران البركان لا حق لها في الدخول والاستكانة داخل القلب. ممتلئاً كان بقصصك، ولكنه عندما تعوزه شعلة الحقيقة يصرخ، صعّدي يا ماريوشا، أرجوك يا ابنتي صعّدي إلى الأقصى، لقد جرحتني الكلمة الغائبة والوتر المنسي. اعزفي داخل عذاب النسيان، فسيكون اللحن شجياً. وأبدأ داخل البانجو، أو السانطور، أبحث عن


Twitter: @ketab_n

التصدعات التي ملأت قلبي. وعن ذعري داخل الخيوط واللوح المجوف، الذي يسحبني شيئاً فشيئاً باتجاه سماء تغرب كلما حاولت أن ألامسها. وأصرخ يا الله. يقترب مني. اعزفي أرجوك ولا تستغيثي، فصوتك يغيث. إن الله الآن يقف عند عتبة الجنة، واضعاً يده على قلبه، يستمع إليك بحزن ويستعيد كل الوجوه التي أذنبتْ ويضعها داخل شعلة الأشواق هذه؛ داخل دمعاتك لتغتسل وتمر باتجاه الجنة. الله الآن يتأملك! اعزفي. اعزفي ولا تتوقفي أبداً. وحين يصعد الحنين داخل وتر الغياب، يعوي سيدي عبد الرحمن المجدوب بأعلى صوته. عو... و... و... و... ويتلوى أرضاً. أين الحقيقة يا سيد العاشقين! لقد تأخرت كثيراً، والدنيا تزداد انغلاقاً. يبكي الحاضرين. بعضهم يقول، بمسحة حزن ترتسم على ملامحه المنكسرة، تلك نوبته الاعتيادية التي تنتاب المتصوفة الممتلئين عادة بالإيمان. إنه يحس بقساوة الحقيقة، ولكنه لا يعرفها. كان هناك أناس كثر من بني كلبون، عيونهم مدورة مثل الفراغ، يسرقون كل كلمات الحنين ويذهبون بها مباشرة إلى القصر، يكتبون التقارير، يوصلون الأخبار، ثم يعودون لكي يتشتتوا داخل شرايين المدينة، يلتقطون تنفسها وحزنها وشتائمها، فيعودون إلى القصر ثانية، لكن القصر ملَّ منهم مع الزمن، فأعفاهم من مناصبهم الوهمية وهذه المسؤولية، وفي المرة الأخيرة، عندما أصروا إمعاناً في خدمة القصر، صلبهم، بعد أن اتهمهم بالعمالة والعمل المزدوج لمصلحة العمال والعلماء، مع إيهام القصر بأن المعلومات التي تصله صحيحة، ولكنها كانت كلها تافهة. فحكام الجملكية تأكدوا بما لا يدع مجالاً للشك، بأن سيدي عبد الرحمن المجدوب ليس إلّا مجنوناً لا قيمة له، يلهي الناس عن التفكير في شؤون المدينة والجملكية، يحكي الأوهام، ويداوي بالأعشاب التي يلتقطها من حديقة الحيوانات الوطنية، ويرقص الثعابين مثل العيساوي ويقسم أنه سيقتلها في النهاية، أو تقتله، يجر وراءه من حين لآخر كلباً هزيلاً بانت عظامه يسميه قطمير، يقول أنه الوحيد المتبقي من أصدقائه



Twitter: @ketab_n

الأفلين، ويحكي بجنون عن رجل ركب أول سفينة أندلسية (أو غير أندلسية)، قطع أهوال البحار مثل السندباد، وعانى ما عانى من الأهوال، دخل أو سيدخل البلاد من أجل تحريرها من بني كلبون الذين تسلطوا على المدينة مثل القوارض، ولا أحد يعرف الآن مكانه ما عدا العلماء (الحكماء) الذين يقولون عنهم، إنهم يملكون كتباً ثمينة، هربوها من هناك قبل أن يحرقها توركيمادا في شعلة محاكم التفتيش المهولة، لهذا فهم يعرفون الحقيقة أكثر من غيرهم. أول شيء فعلوه في ذلك الزمن البعيد أنهم بنوا القلعة، بمساعدة عمال البحر، في أعلى قمة مطلّة على المدينة، حتى أن بعض الروايات غير المؤكدة تقول أنهم وعمال البحر شيء واحد. وحين حاول في ذلك الزمن البعيد، القصر، أن يتخطاهم، ليحتل المغارة التي لم تكن بعيدة عن القلعة، جرب أن يدك القلعة، ولكنه ووجه بصرامة وعاد مهزوماً. جربَ ثانيةً فسحق، وفي الثالثة وبعدما أعد العدة صرخ الحكيم في وجههم jamais deux sans trois وسرح جنوده الذين عادوا إلى مواقعهم، ورمى ضباطه في السرداب البارد بتهمة الخيانة الوطنية العظمى، وقيادة الجيش إلى التهلكة. وفي خطبته التلفزيونية الاعتيادية صرخ والزبد يتطاير من فمه: إني أرفض، أرفض، أرفض، أرفض تحت الماء، عفواً... عفواً... ما تزال أغنية عبد الحليم في ذهني (إني أغرق، أغرق، أغرق تحت الماء). أنا لا أغرق. أنا أرفض، وأرفض ثم أرفض أن يقاد جيشي إلى التهلكة، وأن يفقد سمته الوطنية بقتل الشعب. الجيش وجد لحماية الشعب لا لقتله. أرفض أن أنزله إلى الشارع وسيعاقب كل الذين أعطوا الأوامر لإنزاله في المرات السالفة، وأظهر التلفزيون في المساء نفسه كبار الضباط وهم ينزلون حفاة، عراة، إلى السرداب على وجوههم حيرة لم تعرف أين تستقر.

كان عمّي عبد الرحمن المجدوب، الذي أصبحت أقول له خويا من كثرة الألفة، يركّب ويعيد تركيب قصصه داخل الحلم، وعلى كرسي الحديقة الوطنية للحيوانات، وهو يجمع الأعشاب، خصوصاً



Twitter: @ketab_n

في المسائل المتعلقة بالجملكية. تلبَّس بك لدرجة عدت هاجسه ياسيدي. سأل علماء المدينة عنك كثيراً، فأعانوه بكتب التاريخ والسير والروايات القديمة التي رواها ناس عاهدوا أنفسهم أن يظلوا أوفياء للحقيقة حتى الموت. قالوا له اسمع يا عبد الرحمن، إذا كنت تريد أن تصبح ورّاقاً لست ملزماً بالحقيقة، فما عليك إلا أن تلتحق بالقصر، أحسن من أن تعذب نفسك وغيرك وتحول الأسواق إلى مكان للدعاية للقصر. صرخ بأعلى صوته: تموت الدنيا، وأظل أنا حياً داخل قطرة الحقيقة الأخيرة. كان يكره الورّاقين، ويوم وجدني، وفاجأته، كرر عليّ ما قاله الحكماء، وكررت عليه جوابه. كان عمي المجدوب، عمّي حقيقةً، الوحيد الذي اخترق طقوس العائلة، ولهذا يوم غادرت الجامعة كان أول شخص فكرت فيه. حين فتحت عيني وأنا صغيرة، فتحتها في حضنه وفي بيته المتواضع الذي كان يسكنه هو وزوجة لا تنجب إلا الفراغ، وكثرة النصائح بعدما رأت علامات الجنون تغزو قلبه وعينيه. وعندما يئست، اتهمته أمام المحكمة بالجنون والسكر وتركته مبكراً. فعلت ذلك قبل أن يفعلها هو، وبالرغم من الوساطات، لم ينفع شيء. أتتذكر الكلمات التي قالها لي، بعد أن عدت من الجامعة في ذلك اليوم في وقت متأخر على غير العادة، عمّي عبد الرحمن!؟ قاطعني قبل أن أنهي، كان سهل عليه أن يقرأ ما كان بعيني! اسمعي يا ماريوشا، أنت طالبة ربما لا تعرفين أكثر من الجامعة والاجتماعات مع أحزاب المعارضة، (كان قد شم ذلك في وقت مبكر جداً)، لكنّي يا ابنتي، عمري لا يسمح لي بالخطأ ثانية، أُمنيتي الوحيدة الآن أن أموت في الأسواق المليئة بالوجوه الطيبة، حاملاً في قلبي كتب الحقيقة، وكان يقصد مخطوط «كتاب المدينة» الذي سمع عنه عند العلماء (الحكماء) وأعاشر حيوانات الحديقة لأنها لا تشوهها أبداً. كانت سبيله اليومي وسط هذا الفراغ المخيف والهوة التي كانت تزداد اتساعاً يوماً بعد يوم. يعطيها الأكل والشرب، يحدثها عن همومه اليومية، عن أشواقه وانكساراته، وإذا جاء الليل يتركها وينزوي على الكرسي، بينما


Twitter: @ketab_n

يختبئ كلبه قطمير تحت الكرسي. يخرج زجاجة الروج، ويبدأ في شربها وتعذيب ذاكرته التي تستعصي عليه أحياناً، وأحياناً يتخطى ألفته المعهودة، ويقولها صراحة، مع صرخة قلقة، تشرئب لها أعناق حيوانات الحديقة الوطنية! يا ربك يا البشير!؟ لماذا تأخرت عن المجيء؟ لماذا تأخرت!؟ أما آن أوانك يا سيد الحزن والكآبة، والبحث الدائم عن الأشواق المنسية؟ الزمن حين يذهب لن يعود بسهولة! كان يريد أن يعرف الصغيرة والكبيرة. حكيت له ذات مرة عن الثورات كيف تنشأ وكيف تُكسَر في منتصف الطريق. حكيت له عن الذين يخططون للشوق ويموتون، وعن الذين يأتون من تحت الخراب ويجدون كل شيء جاهزاً، فيقتطعون الحنين من قلوب أصحابه، ويسقطون على المدينة في الصباح مثل الجراد وفي المساء يعلنون أنفسهم حكاماً وطنيين. قلت له: يا عمي ويا خويا عبد الرحمن المجدوب، وكان ممتلئاً بالأحزان والقروح في داخله واليأس، يحلم بحرق المدينة بكاملها، والناس، آه يا سيدي عبد الرحمن يحبونك. أما نيرون الذي أحرق روما فقد كان طاغية، وأنت ابن المدينة وأشواقها أشواقك وحنينها حنينك. ما يمسها يمسك. لست نيروناً يا المجدوب. جنونه جنون الخيبة والحكم، وجنونك جنون الأمل المسروق وقلب الناس الواسع، قلبك يا صاحبي. هكذا الدنيا! الثورة إذا سبقتها خسرتك وإذا سبقتك خسرتها. ومسألة التوقيت يا عمي المجدوب في غاية الخوف والدقة، وقلبك لا يخونك. وذاكرتك بوصلتك. في الأخير اقتنع، ولكن صاغ ثرثرتي في كلمات صغيرة. الزمن المتسرب لا يعود، تلك هي عين الحقيقة. وظل يرويها للقاصي والداني. هو صواب المجانين الذين يملكون عقلاً صافياً لا تدخله الريح اليومية القاتمة. وحين سألها البشير وهو يبحث بملمسه عن شعرها الذي بدأ ينزل على وجهه وماذا بعد يا ماريوشا!؟ لا شيء يا سيدي. قالتها وهي تمد يدها لتدفنها، لتدفنه داخل يده التي لم تفقد حرارتها بالرغم من الجو البارد. لا شيء سوى أن نارك المقلقة ظلت تحرق قلبه وشرايينه. طلب أن يراك في



Twitter: @ketab_n

ذلك الزمن البعيد، فوعدوه بأنك ستنزل حتماً إلى السوق الشعبية، لأ
قول الحكاية يعذبك في داخلك. عاد حزيناً، لأنه كان متأكداً بأ
سيراك في ذلك اليوم. التقيت به في ركن الشارع المطل على القلع
إذ أن في تلك الزاوية الكلام ممكن، لأن شرطة القصر تكاد لا تمر م
هناك، وإذا مرت فهي تفعل ذلك بسرعة خارقة وعلى متن سيار
سألته، هل رأيته؟! قال: إنه في قلبي، أراه به. يقال أنه عاد وسينز
إلى السوق. تصوري يا ماريوشا! يراه الواحد وبعدها سيموت
سيربح دنياه التي ضيعها وسط هذا الصمت المخيف. كان لباس
مليئاً بالتراب، فقد مسح الأرض بآلامه. كان من العائدين من العمل
بعد أن ساهم مع عمال البحر وعلماء القلعة في تنظيف الأحياء، وف
حفر الخط السري، تحت الأرض، الذي يربط القلعة بمعاقل وأسر
عمال البحر، لأن علماء المدينة كانوا دائماً يتوقعون هجوماً فجائ
يقوم به القصر، ثم يخرج صباحاً بكبار مسؤوليه ويترحم عل
الضحايا. لولا ذكاؤهم لسقطوا تحت قوّته وبطشه، الذي ينميه يو
بعد يوم بني كلبون. يقولون دائماً عن العلماء: يا لطيف! غُظَمْ وحصَ
في الحَلقْ. تدربوا كثيراً على فنون القتال. والقصر علّمهم دها
وحيلته.

إيه من بعد؟! قالها البشير، وكأنه يبحث عن شيء آخر؟!
شيء، أجابت ماريوشا، سوى أن المدينة تنتظرك. تنتظرك.
تنتظرك.

المدينة لا تنام في غياب ذاكرتها يا البشير.

كل ذلك حدث في السرداب، بعد أسبوع من المقابلة التلفزيون
التي ألّبت الرعية ضد الحكيم من حيث لم يكن يقصد. فالرسائ
المتعددة المبعوثة إلى الحكيم من طرف العلماء، أكدت للمرة الأخير
أنهم ما يزالون على قيد الحياة، وأن الجنازة لم تكن مقنعة. حتى
المتخصصون في صياغة الأخبار الذين استدعاهم الحكيم،
يكونوا مُقنعين بالنسبة له، صَعبَ عليهم إعادة إخراج كذبة استشه


Twitter: @ketab_n

العلماء (الحكماء). لقد خاب ظنه مثلما خاب في المرة الأولى، عندما حاول أن يستولي على المغارة التي كان ينام فيها البشير الموريسكي. منذ قدوم هذا الرجل الغريب والمدينة تتحرك حركات غير اعتيادية. أصبح العصيان المدني الملاحظ هنا وهناك أمراً اعتيادياً ويمارس في نقاط مختلفة من الجملكية. الناس يتحدثون في الشوارع، في الأزقة، في المنخفضات، في الظلمة، في النور، عن كذبة القصر فيما يتعلق بالعلماء، بالرغم من صرامة الأوامر التي أعطيت للشرطة. حتى الشرطة أصبحت تغمض عينيها عن بعض ما يحدث خوفاً على ذاتها، لم يحدث عصيان مثل هذا منذ ثورة الجوع التي أعلنها ذات صباح خريفي عمال البحر على رئيس السفن، ونائب وزير الصيد البحري المرتبط مباشرة بالقصر. أكلوا رأسه وأعلنوا جهتهم منطقة حرة، ونصبوا واحداً منهم. منذ ذلك اليوم استفحلت الحرب التي اشترك فيها العلماء بالتخطيط والتنظيم، من يومها ملكوا قسماً كبيراً من البحر والسفن، ومصانع تعليب السمك. حتى الحكيم كان يريد أن يغلق هذا الباب. يأكلون الخبز ويشربون الماء. يعفّوني وخلاص. جاء هذا الموقف بعد محاولات متعددة للاستيلاء على الشواطئ، والإغراءات المتتالية الفاشلة. وفي الأخير أعلن عن نواياه الحسنة بضرورة حقن الدماء الوطنية، وتفادي حرب أهلية مدمرة تأتي على الأخضر واليابس. وظل يكرر عبثاً في كلمة النوايا الحسنة، لكن عمال البحر كانوا مصرين على موقفهم السابق، الملوك إذا دخلوا بلاداً أفسدوها. كان منطق علماء المدينة (الحكماء) هو قبل أن تضرب غيرك حوّط نفسك جيداً، أدرس وضعك بدون استسلام، أكثر طرح الأسئلة على نفسك، قبل أن تفاجأ بقنبلة موقوتة موضوعة في قلبك بعد أن ثبتها أقرب الناس إليك. كل هذه الأمور كانت تأتي إلى حاكم الجملكية تباعاً، ولهذا حتى عندما حوكم البشير الموريسكي، وحكمت محكمة أمن الدولة عليه بالإعدام حرقاً على طريقة سيدنا النينوي، أراد أن يستفسر الأمر جيداً. حتى المحكمة نفسها قبل التنفيذ فضلت أن تستشير الحكيم فهو سيد الأمر


Twitter: @ketab_n

أولاً وأخيراً. فالوضعية في هذه الأيام غير اعتيادية، خصوص
بعدما شاع الخبر، بأن علماء المدينة ما يزالون على قيد الحياة
وأن كل ما فعله حكيم جملكية نوميدا، الحاكم شهريار بن المقتدر
لم يكن إلا كذبة جميلة سرعان ما تكشفت، وتكشفت بعدها الخيبة
ورسائلهم التي كانت تصل تباعاً، وعليها أختامهم السرية، دليل
واضح أقنع القاصي والداني. بل هناك رسائل عليها الختم البريدي
للقصر، الأمر الذي زاد في استفحال الوضعية. في إحدى المرات
عندما أرادت ماريوشا أن تزور البشير، قيل لها بأن في الأمر
استحالة. كانت وقتها المدافع قد دكّت جزءاً كبيراً من قلعة العلماء
وبعض الحيطان المنخفضة، كانت أولى الرسائل قد وصلته وعليها
كل توقيعات العلماء، إلّا سابعهم فقد قيل عنه الكثير، أنه قتل، في
القصر متخفي، مكلف بقتل الحكيم، قيل كذلك أنه في سجن غير
معلوم، وكل الرسائل كانت تحذره من مغبة قتل البشير. القصر نفسه
أصبح مقتنعاً بهذا الخطر. أصرت ماريوشا على الدخول، وأصر
الحارس على تنفيذ الأوامر. في الأخير رجته أن يضع الرسالة في
صندوق القصر، نظر يميناً ثم شمالاً، ثم قال لها: لأجل عينيك سأفعل
هذا. ولكن أرجو أن لا يتكرر. غمزته بعينها السوداوين ثم انسحبت
فكرت أن تنزع وردة الكاسي وتضعها في فوهة بندقيته، ولكنها في
الأخير لعنت فكرتها، ونزلت إلى أزقة المدينة تبحث عن سيدي عبد
الرحمن المجدوب.

كانت محكمة أمن الدولة مصرة على استشارة الحكيم الأخير
قبل الإقدام على أي فعل. طلب أن يهيأ له «بيت الرجاء» لاستقباله
وهو البيت الذي يفترض أن يستجدي المتهم المحظوظ سيده للعفو
عنه، وقد يعفو عنه. بحسب مزاج الحكيم شهريار بن المقتدر. وقبل
ذلك، أرسل عيوناً سرية تستقصي المكان الذي جاء منه البشير، هل
حقيقة هو أم شخصية مزورة، ولأوّل مرة، يغمض العمال، وعلماء
المدينة عيونهم، من أجل مرور رجال شهريار بن المقتدر. المرور
إلى الكهف صعب ولهذا عندما وصلته الرسالة التي تؤكد بأن العلماء


Twitter: @ketab_n

سمحوا لزوار الكهف بالمرور، لم يكن مفاجئاً. حين عادوا من رحلتهم الاستقصائية قدموا للحكيم كراسة ضخمة مليئة بالمعلومات الدقيقة أو التي تبدو كذلك، وأكدوا له أن الكهف صار مفتوحاً على الشمس وأن الحجارة التي كانت تسد مداخله لم تعد موجودة. حتى الأسوار الصغيرة التي بنيت بالتربة السوداء المحروقة انهارت، وبدأت تتساقط ولم تعد قادرة على مقاومة فصول المدينة المتحركة بسرعة عجيبة. أمّا الكهف، فشقوقه الداخلية تزداد كل يوم اتساعاً مثلما أكد ذلك أحد الرعاة. لم تبق إلا الظلال الكثيرة، وخطوات غير متوازنة بدأت الأرياح تمحوها يوماً بعد يوم. لكن المكان الذي كان ينام فيه الرجل العائد من الأندلس ما يزال على حاله، وكأنه مكان إنسان قام لتوه من داخل الكهف، ويمكن أن يكون هو الرجل المعني. كان يهم شهريار أن يستولي على هذا المكان من أجل توجيه الرأي العام، وإقناع الرعية بأنه من سلالة تنتمي إلى هذا الرجل العائد من بعيد، لكن هذه الورقة خسرها في وقت مبكر، تقول ماريوشا. العلماء كانوا يعرفون كل هذه التفصيلات وكانوا يريدون إيصالها إلى القصر بكل الوسائل الممكنة وغير الممكنة. لأن وصول المعلومات فيه بالضرورة إمكانات واسعة للحفاظ على حياة القوال الموريسكي. وفي اليوم الثاني حينما أرسل وفداً وطنياً تأكد من نفس المعلومات الأولى. وكان على القصر أن يدرك أنه أمام ذاكرة وطنية يجب أن لا تتلف، أرسلوا وثائق أخرى تهديدية، وأنهم على علم مسبق بالوفد الوطني المرسل للتحقق. جُهز البشير كما يجب ولكنه انتظر طويلاً قبل الدخول إلى «بيت الرجاء». شعر بصدره يزداد اتساعاً، وبالأقمار والنجوم تملأ قلبه وذاكرته. فالمدينة التي دخلها عاشقاً لم تتخلّ عنه أبداً. أكد له الحراس بأنه سيمتثل أمام جلالته، وعليه أن يملأ صدره بالإيمان، ويقابله بطلب الغفران والرهبة، والكثير الكثير من الخنوع. قالوا له: قبّل رجلي سيدك، فهو الوريث لقوة الله في أرضه. ولا ترفع رأسك فتكونَنّ من الخاسرين. الله لا يغير ما بقوم، حتى يغيروا ما بأنفسهم. العسس أنفسهم لم


Twitter: @ketab_n

يكونوا يعرفون سر هذا التشريف، لأن الحكيم قليلاً ما يطلب رؤية مسجون إلا عند الضرورات القصوى وبتدخل أصدقائه الغربيين (الفرنسي. الإنجليزي، الأمريكي، الألماني)، وقليلاً ما يخرج المسجون سالماً، بل في أغلب الأحيان، كثيراً ما يزيد المسجون من حدة العقوبة من خلال إجاباته. مزاجه صعب، وعلى المعني بالأمر أن يجيب وفق خيالات الحكيم شهريار بن المقتدر. أعد عمال القصر البشير الموريسكي مثلما تعد عروساً وسط الألبسة والمسك والعنبر، وحمامات قشور الرمّان، والبرتقال وورق الليمون المغلي والمصفى. ثم عُطّر بآخر العطور الفرنسية التي يجلبها له أصدقاؤه مع الويسكي الأسكتلندي، والبيرة الألمانية والهامبورغر الأمريكي. لم يندهش البشير لهذه الأجواء، ذكّرته بمأساة محمد الصغير. ولم تدهشه أيدي النساء الملساء وهنّ يقمن بغسله بصمت مطبق، ومع ابتسامات شاردة من حين لآخر. أراد أن يسألهن هل هنّ من الجملكية أم من مدن بعيدة، ولكنه أهمل الفكرة مع لذة الماء الدافئ والمعطر الذي كان ينزل على رأسه لينزل إلى كامل جسده. الذي أدهشه داخل هذا القصر أن اللغة العربية تكاد لا تستعمل، لغات متعدّدة ومتضاربة متماشية مع أوامر الحكيم «يجب أن لا تُحصَر الجملكية الناشئة في جو مغلق. علينا أن نتفتح على البلدان الأخرى. الذي يعرف لغة أجنبية، يعرف حتماً سرّ البلاد المعنية. وجهل اللغات الأجنبية من النار يا سيدي». أكملها الوراقون المجهزون لإنقاذ الحكيم كلما هربت من ذاكرته الكلمات. ثم ألبسوه كل ما يروق للعين ولكن كل شيء كان أخضر وبلون واحد، ما عدا التطريز، الذي كانت ألوانه لامعة مثل النجوم. قال الحكيم: يجب أن تعرف الرعية بأننا نكرم ضيوفنا، لأن المسجون مثل الضيف ليس أقل. كانت الدهشة قد بدأت تنسحب وهو يرى نفسه قد تحول إلى غابة من الألوان. حاول أن يجد أعذاراً خاصة لأبي عبد الله محمد الصغير، من يعيش داخل هذا الريش، يصعب عليه كثيراً أن يسلم بهذه الأجواء بدون ضمانات مشابهة. محمد الصغير ضَمِنَ قصراً في فاس، فأنقذ رأسه وجنونه.



Twitter: @ketab_n

وهذه الوجوه الملساء الرقيقة التي يلتقي بها كل مساء، كل ليلة، في بيت الحرملك الذي جهزه بآخر الأجساد، يقول عنها إنّها فسحة الرجل الذي يخوض حرباً ضد أعداء الأمة، فإذا خسر هذه اللحظة، يقول الحكيم، لا يستطيع أن يقف على قدميه المنهكتين. قليلة الحظ هي المحظية التي يكون دورها يوم انكساره، بعد أن ينتهك جسدها، يأكل نهديها ويمتص داخلها، يقلبها بثقل ويضع وسادة تحت جسده المنهك. يسألها سؤاله المعتاد: هل هي المرة الأولى التي تنامين فيها مع رجل؟! يا صاحب المقام العالي، تقول المحظية، لم يلمسني لا إنس ولا جن. إنك أول من يقتحم عذريتي. يمسد على رأسها للمرة الأخيرة، ثم ينادي السياف ويقول له جرها إلى الجنة يا صاحبي، ولا أحد يعرف أين تقع الجنة. بعضهم يشك، ويقول إنها الدرج السابع تحت القصر، حيث يُرمى في السرداب كل من لا يرضى عنه الحكيم. يقول إن المكان مليء بالجثث التي اختلطت رؤوسها وأجسادها. وعندما دخل في ذلك اليوم المشهود عمّي الطاووس بعد انهيار الحكم، كان أول الداخلين إلى الأنفاق الأرضية لأنه كان يعرف أشياء كثيرة كان من الصعب عليه قولها أمام الناس. حتى ماريوشا عندما نزلت بعده وجدت «الدار الباردة» التي كانت تعلّق فيها النساء، ما تزال وجوههن باردة، ولكنها محافظة على رونقها ودفئها الداخلي وكأنها وجوه حية. كن يخنقن هكذا. إذ أن كل محظية ينتهي شهريار من تفتيش جسدها تصبح ملكاً للعسس والعسكر. يقول، خلقن للمتعة ليس أكثر. نهايتهن الدار الباردة للحفاظ على أنوثتهن أبداً. وكثيراً ما يقتل إحداهن خنقاً، ثم ينزل بعدها للدار الباردة، يعيد تعريتها من جديد، يتأمل جسدها الذي ما يزال لم يفقد بعد رونقه، يلمسها، بعدها يفرغ البيّت من كل العسس، يمتص نهديها، ثم ينزل حتى عانتها، حيث يغيب برأسه ولا يسمع إلا شخيره المتقطع، وبعدها يتمدد على صدرها عارياً كالفأر. يفتح فخذيها بقوة، ويلجها ثم يستكين طويلاً، قبل أن يقوم مذعوراً من عينيها المفتوحتين، المرتشقتين في وجهه الناتئ. الله يلعنك. أنت


Twitter: @ketab_n

هكذا دائماً تبدين، هادئة مطواعة وفي الأخير تفتحين عينيك بدهشة مثل أية قحبة. أشيع عنه بشكل ضيق بأنه يمارس الجنس مع الجثث كلما أصيب بانتكاسة في الحرملك أو مع دنيازاد، ولكنه قبل أن تسري الإشاعة قطع كل الألسنة التي قالت، وقطع الأذان التي سمعت والعيون التي يشك أنها رأت.

قبل الدخول لمواجهة الحكيم في المناظرة التلفزيونية، كان على البشير الموريسكي أن يمر على الباب السادسة، التي تنفتح على قاعة تحمل اسم قاعة «الوصايا السبع». جلس على كرسي، وقابله أحد الكهنة المحنطين مثل المومياء، يحيط به وجهان وسط جمع من الحضور استدعي خصيصاً لمرور البشير عبر بوابات الوصايا السبع. الحدث كان مشهوداً. حتى الحكيم نفسه أصرّ على طابعه غير العادي. كان الكاهن يتكلم مع البشير، والبقية يترجمون إلى كل اللغات الأجنبية المتداولة داخل القصر الفرنسية، الإنجليزية، الألمانية، وأحياناً الإسبانية. النصائح سبع لا غير، يقول الكاهن، سيوضع بينك وبين سيدنا الزجاج المقوى، لأنه يخاف من عدوى الأمراض المعدية التي تجتاح القصر هذه الأيام، كالسيدا مثلاً، ويخشى أن تُنقل إليه. في الحقيقة لم يفهم البشير جيداً ما كان يقوله الكاهن، بل لم يشعر أبداً أنه معني بما يحدث أمامه. اقترب الكاهن من البشير، حتى كاد أن يلامس وجهه بأنفه الطويل والحاد كأنف اليهودي. اسمع أيها المسكين: إننا نقول ولا نكرر. هذه هي الوصايا بين يديك!

أولاً: قبّل الأرض بين رجليه.

ثانياً: أذرف الدموع المذرارة بأية وسيلة وأطلب الصفح والعفو.

ثالثاً: لا ترد إلا إذا طلب منك ذلك.

رابعاً: لا ترفع صوتك فتكون من الخاسرين.

خامساً: أجب في حدود السؤال وبما يرضي سيدك.


Twitter: @ketab_n

سادساً: لا تدخل واقفاً ممتشقاً وأخرج معوجاً. فالاستقامة تعادل فعلة الكبائر.

سابعاً: استعمل لغة أجنبية في حديثك ربما جلبت لك بعض الرحمة.

صرخ البشير بأعلى صوته داخل قاعة الوصايا السبع. الله يلعن هذه الوجوه التي لا تعلّم إلّا البؤس والمذلة. الله يلعن امرءاً يحرم امرءاً من قول الحقيقة، الله يلعن كل الكلام الذي يلغي لغة القوالة ويعوضها بكلام كتاب الدواوين! كانت حالة الهستريا قد بدأته من رأسه حتى أخمص قدمه. الزمن كان يمر بشكل غير منطقي، والساعة الحائطية الذرية كانت تمشي بأقصى سرعة. أفضّل أن أموت في الحفرة. أرجوكم، أرجعوني إلى بلادي الأولى، أرجعوني إلى حنيني المفقود. أرجعوني فقط إلى خراب السراديب. حاولوا إقناعه بالصمت، وأن الأمور ستمشي بشكل جيد. لكنه أصر. في الأخير تباكوا عند رجليه بما فيهم الكاهن. نرجوك أن تفعل ما تشاء، ولكن طبّق النصائح ولو ظاهرياً، لأننا مهددون بالحرق أحياء. الحكيم يا سيدي البشير لا يرحم. قام من مكانه. شعر بالأرض صغيرة جداً. التفت باتجاه الكاهن. لماذا تريدون قتلي قبل أن يحين موتي. سيوفكم كثيرة. افعلوا ما شئتم، فلن يحاسبكم أحد سوى هذه الذاكرة المسروقة من عصور قد لا تعود أبداً إلى هذا الظلام. عمري! عمري بكامله قضيته أشتم محمد الصغير الذي باع رؤوس العباد، ووضع كلمات الله الطيبة في متاحف المدن التي احتلها الشماليون. كل هذا العمر المجروح قضيته أبحث عن الحقيقة المسروقة، لأجد نفسي في النهاية أمام أحد أحطّ أحفاده أستجديه بخشوع. جرى الكاهن مباشرة إلى الباب الزجاجي فأغلقه بإحكام. يا سيدي البشير وطي صوتك، لا تستعمل الكلمات النابية. سنروح فيها مثل شربة ماء. الله يرضى عليك ويحفظك من العين. هز البشير رأسه بأسى. أيعقل أن يخاف الإنسان من الموت إلى هذه الدرجة! أنتم مخطئون. عليه هو أن يدخل زاحفاً إليّ. لقد تنازلت لرؤيته. بدا


Twitter: @ketab_n

لهم واضحاً أن إثارة البشير قد تزيد من عنفه وصراخه وشتائمه. فكروا في قتله وإبادته، وإتلاف كل آثاره، لكن خوفهم من أن العيون يكونون قد أوصلوا جزءاً من الحقيقة إلىٰ القصر جعلهم يتغاضون عن الفكرة. كان وقتها الأصدقاء الأجانب قد أقنعوا الحكيم بضرورة عدم قتل البشير، لأن قتله سيجعل منه شهيداً للمدينة. ابتذله، قالوا له، امسخه أمام الرعية، ثم اتركه يسيح داخل المدينة، سيقتلونه هم أنفسهم. سيخسرك الناس إذا أعدمته، شهّرْ في وجهه ديمقراطيتك واتركه من تلقاء ذاته. سيُمحى من الذاكرة الجماعية بسهولة. قال اتركوه يمر إلى الباب السابعة المؤدية إلى القصر مباشرة. كانت عدسات التلفزيون منصوبة في كل الزوايا، والشاشات تعلن عن بلاغ هام، مع موسيقى وطنية عسكرية عن شيء غير اعتيادي سيحدث في المساء. تتبعوا مفاجأة جلالته في إنجاز ديمقراطي جديد، يضاف إلى المكاسب القديمة التي حققت في عصره الميمون. وعندما دقت ساعة الصفر، انفتح إطار الشاشة على وجه جلالته المضاء بألف مصباح ملون وألبسته العسكرية الخضراء الفضفاضة والفوسفورية المضيئة. ظهر البشير وهو يدخل في شكل عملاق، عريض الأكتاف، مرفوع الرأس، لم يكن لا مكبلاً ولا مقيداً، بلباس رائع، كأنه موريسكي، لولا اللون الأخضر. المعِلق كان يروي الاستقبال الحار الذي خصصه جلالته لضيفه الكريم، بألف كلمة في الثانية. انظروا أيها الناس كيف يتعامل الحكيم، أدامه الله ذخراً لهذه الأمة، مع سجنائه، إنهم ضيوفه الكرام. ولكن صوته تهدج فجأة، عندما مد الحكيم يده إلى البشير، وبدل أن يقبلها، هذا الأخير، مد له هو كذلك يده، ثم تهالك على أقرب كرسي، حتى بدون أذن مسبق. أمره بالجلوس بجانبه مع ابتسامة مصطنعة. اعتذر البشير. ليعذرني سيدي فأنا عمري كله قضيته بعيداً عن كراسي الملوك، أبحث عن الوجوه التي ضيعتها كتب التاريخ والسير القديمة، المكتوبة بماء الذهب والمجلدة بالقطيفة. ووجدتهم في الأخير يا سيدي، مرميين في صحراء الربع الخالي يلعقون آخر قطرات الدم الذي سرق منهم


Twitter: @ketab_n

في لحظة غفوة. أُصيبوا بخيبة أمل، بنوا الأوطان ورفعوا الأركان بعدها نفوا من بلدانهم لأن عيونهم ترى أكثر مما ينبغي، وألسنتهم تجاوزت الخط الأحمر الذي يفصل بين الكلام المسموح والكلام الممنوع. يا سيدي، عمري بكامله قضيته وقفاً في الحلقات الشعبية أستعيد التواريخ المنسية، وعندما جلست، أجلسوني على خازوق، أو أُجبرت على الجلوس في السجون. أرجوك يا سيدي لا تجبرني على الجلوس في كرسي لم أختره، فقد فعلت هذا معي محاكم التفتيش قبل أكثر من ثلاثة قرون. كان ذلك عندما عدت في المرة الثانية إلى أحد أحلامي الممنوعة التي ملأت بها أسواق غرناطة، وبدأت أصرخ يا سيدي، أنا من تلك البلاد التي لا يعرفها إلّا قلبي، ماالذي جاء بي إلى هذا الخراب وتركني داخل هذه الوحدة المقلقة. كنت أعرف الجواب يا سيدي، وكثيراً ما أدنت طارق بن زياد. تمنيت في أعماقي لو لم يحرق سفن جنده وعاد من حيث أتى. ورثاؤه يا سيدي باعوا رؤوسنا بأبخس الأثمان، وكانوا سادة البلاد وحكامها. مزقوا لحمي بالكلاليب، قالوا إنك تمارس الهرطقة، ثم اتهموني بقتل زوج ماريانة التي لم تكن بينه وبين الصفات الحيوانية أية مسافة تذكر. في المرة الثانية، رماني الباب العالي سيد الدنيا كلها في سرداب يقع تحت البحر، الذي ملأت أمواجه دماغي، كانت الردمة عميقة ومندّاة. وبعد ثلاثة قرون يا سيدي عندما غزاني الحنين الصوفي لعشقي القديم وصرخت في أسواق غرناطة، وفي خماراتها ساقني عسكر نوميدا ـ أمدوكال إلى هذه الحفرة التي أكلت لحمي، وفتح لباسه عند الصدر، الذي بدت فيه الندوب التي علتها خضرة ما واضحة للعيان. ردموني في نفس الردمة. وأُقسم برأسك إنها نفس الردمة القديمة. بنفس خيوط العناكب. ونفس المواسير التي تمر عبرها المياه، متجهة إلى البحر. نفس وجوه الزبانية الذين كانوا في الردمة في ذلك الزمن البعيد، البعيد. دعني هنا يا سيدي لا توقظ أساي، ربما كانت المرة الأخيرة التي يراني فيها الناس الذين أعرفهم والذين لا أعرفهم.



Twitter: @ketab_n

كان الحكيم شهريار بن المقتدر يحلم بأن يظهره مجنوناً أمام المشاهدين، وكان يطبق حرفياً تعاليم أصدقائه، في محاولة لاستثمار حضوره ديمقراطياً. ولكن يبدو أن النتائج كانت عكسية تماماً، بل دفعت بالكثير من الناس في اليوم الموالي إلى الوقوف في محيط القصر، والمطالبة بإطلاق سراحه. سأله شهريار بنوع من الخبث الظاهر: تقول يا السي البشير أنك موريسكي. نعم يا سيدي، أجاب البشير بدون أي تفكير. واصل الحكيم، وتقول أنك قادم من الأندلس، وأنك كنت تعيش في غرناطة قبل ثلاثة قرون. ابتسم البشير. نعم، لقد غادرتها سنة 1687، أنا لا أضيع التواريخ يا سيدي. ولكن يا البشير، أضاف شهريار بن المقتدر: نحن في سنة 1987، والسنة تكاد تنقضي.

- أعرف هذا يا سيدي! هكذا قيل لي. لكن لم أشعر بأي فارق بين هذا العصر وذاك؟

- لا يهم، ولكن أين كنت طوال الثاثة قرون هذه، الناس يريدون معرفة حقيقتك.

- كنت في كهف، إني متأكد يا سيدي أنك تعرف بقية القصة، لا يمكن لأي نظام أن يدوم وهو بعيد عن رعيته. البعد والمسافة يا سيدي يقتلان الحكم والحكمة.

طار عمال البحر والعلماء فرحاً من الجملة الأخيرة التي قالها البشير، ولم يستطيعوا أن يكتموا فرحتهم. كانوا مشدودين بصورة التلفزيون. ابتلع الحكيم ريقه ثم واصل أسئلته التي ظلت تدور حول نفس الفكرة.

- وهل يعقل أن يعيش الإنسان أكثر من ثلاثة قرون. هذا مستحيل يا البشير. هذا مس أو جنون.

- أنت تكفر يا سيدي. فأنت تحكم البلاد باسم الدين.

- ما دخلْ شعبان في رمضان؟

- ألا تؤمن بالقرآن.


Twitter: @ketab_n

كاد أن يقوم شهريار من مكانه ويذبحه بيده. هو يعرف أنه يستمد جزءاً مهماً من سلطته من خلال الدين. وابن الكلب هذا يريد أن يكفرني أمام الأمة بكاملها.

- وهذا سؤال يا البشير. القرآن مآلنا الأول والأخير في الحكم.

- ناس الكهف يا سيدي عاشوا أكثر من الزمن الذي عشته.

- ولكن يا البشير!؟

- لا يا سيدي يبدو أنكم لم تقرأوا أهل الكهف؟!

- لقد برمجتها. وسأقرأها إن شاء الله لاحقاً.

- ولكن يا سيدي من أين لك بسيدنا الخضر إذا لم تقرأ أهل الكهف؟!

- سيدنا الخضر هو سيدنا الخضر!؟

- سيدنا الخضر ليس هو سيدنا الخضر، العالم الجليل لقد بتر لسانه، وسملت عيونه ورمي على أطراف المدينة، وتُرك يدور في حلقة مفرغة على ظهر دابة عجوز.

ارتبك وجه شهريار من جديد، وبدأ الدم يغيب من ملامحه. ابن الكلبة هذا مجهز لبهدلتي. سأقف في حلقه. نظر إلى المنقذين الذي كانوا يقفون وراء الكاميرا. وأكدوا له بعيونهم أن المسألة اعتيادية ويجب أن لا يبدي أي انزعاج وأن يكون سباقاً إلى الأسئلة التي تغرق البشير في دائرة الجنون، وتوهج خيالاته الدفينة والأوهام الغرناطية والأشواق الأندلسية.

- جئتنا من غرناطة لنشر العدالة.

- لا سيدي لا أكذب عليك العدالة لا يمكن أن تنتشر في العفن.

- ولكننا في مجتمع ديمقراطي. تعددية في الرأي وقريباً تعددية حزبية.

- آه يا سيدي لو تعرف ماذا وقع هناك، في ذلك الزمن البعيد!



Twitter: @ketab_n

أبو عبد الله، محمد الصغير، من هنا فتح أبواب السجون. ومن هناك باع البلاد كلها للقشتالية. وفي الغد كان على الهضبة يتأمل المشهد المريع لرجال عاهدوا قلوبهم أن يفنوا ولا يسلموا تربة المدينة التي صنعوها حتى ولو لم تكن لأجدادهم.

وقف شعر رأسه. بدأ الغليان يمحي خطوط وجهه. ابن اليهودية يقارنني بمحمد الصغير. أنا لم أبع البلاد، وإذا كان يقصد الأوروبيين، فهؤلاء أصدقائي، ومثلما يستثمرون البلاد، استثمر أنا لغاتهم وتكنولوجيتهم. الاستثمار متبادل. وسمحوا لي بفتح حساب بالعملة الصعبة في عواصمهم؟ لم يعد بإمكان شهريار أن يضف ولا كلمة واحدة. كان الزبد قد بدأ يملأ أطراف فمه. في اللحظة نفسها، تدخل أحد الأقزام الذي كانوا يوجهون الحكيم من بعيد. قال:

- سيدي يريد أن يعرف، إذا كان ممكناً أن تدخلنا في أجواء حياتك؟

- حياتي أيها الرجل المأمور هي حياة جميع الخلائق التي أحبت مدنها وأوطانها، وحين استفاقت من لذة العشق، وجدت أنفسها خارج جدران مدنها. أنا حفيد الحلاج وابن رشد يا سيدي. عشقت مدينتي التي وجدت نفسي غارقاً فيها حتى الجنون. ويوم أحسست بأن المدينة ليست لي، حملت نفسي وعدت إلى أرض اكتشفت متأخراً أنها اغتصبت من قلبي. من أنا؟ هل في الأمر أهمية بالنسبة لشؤون البلاد والعباد؟ في ماذا تهمّ التفصيلات؟

- نريد سماعها يا السي البشير. جميعاً يريدون معرفتك عن قرب. عرف بنفسك، هل أنت إنسان أم مجرد خرافة؟!

- ليكن. أنا البشير. البشير فقط. لأن الفقراء في الأعراف القديمة، لا يحق لهم أكثر من اسم واحد. مثل سبارتاكوس الذي حكيت عنه كثيراً في حيّ البيازين وليس مثل الأغنياء الذين يحق لهم احتكار قوائم بكاملها. سبارتاكوس كان يحمل عيوناً غرناطية، وملوك الرومان يا سيدي اندثروا وأبيدوا وبقيت الحقيقة. محمد



Twitter: @ketab_n

الصغير خرج من الكتب التاريخية عارياً بالرغم من الديباجات التي كتبها عن نفسه، والمدونات الكاذبة. وسيدي الكبير يحمل الأسماء كلها: الحكيم، شهريار بن المقتدر، قرن الغزال، العادل، الذي سك اسمه على كل النقود الوطنية، واستصدر القوانين المتعددة لحذف الكثير من أسماء الحيوانات من قائمة القواميس العالمية. تملك حق تغيير كل شيء أيها الباب العالي لكنك لا تملك حق تدوين الزيف ومسخ الذاكرة. هذا أمر يا سيدي لا يستطيع فعله أي واحد، أنا لا أستحضر عند الحاجة سوى دمي الأندلسي مصحوباً بزفرة الفقير الذي رأى غرناطة تسقط، راح ليموت بين صخرتين في جبال البشرات. عمري يبدأ منذ زمن بعيد. بعيد جداً. عمري يبدأ في اليوم الخامس أو السابع، لا أعرف، من الشهر العاشر، أو الحادي عشر. كلمات السر يا سيدي، عندما يلمسها قلبك، يسقط سيفك مبتلاً بدمك. وتتفتت كل الأسوار التي تفصل الحاكم عن المحكوم. ن. ض. ق. ف. و. هي نحن يا صاحب الباب العالي. وإذ يأتيك وهج الكلمات، فلا يبقى أمامها سوى أن تقوم، أو تترك النيران تنحتها أو تعيدها إلى الجمل المهزومة في القرون المنسحبة من ذاكرة الناس. نأتيك بالحرف لنبين لك وللأوّلين أن الحرف يتوهج مثل النور داخل الظلمة، وحين يعم النور يتطهر وينسحب إلى قلوب الناس الخيرين. تلك أحرف وكلمات. لم نخسر شوق البلاد إلا لكوننا خسرناها وأهملناها إلى أبد الآبدين. تركناهم يعبثون بالفاء والقاف والسر المكين. حروفنا يا سيدي ليست حروف الحاكمين. نحتت من جروح الحنين وآلام العاشقين. دفنتنا الواحد بعد الآخر وبعد قرون متعددة، ومتكررة مثل الداء، عرفنا أنه بدون صدقها نستحق أن يحكم رؤوسنا رجل مثل محمد الصغير. حين يتحد جسد الكلمات التي ختمت بالنار سنعرف كم كنا أغبياء حينما رميناها لذاكرة الموت. تريد أن تعرف أكثر. ولد في منخفضات الأحياء الفقيرة، قضيت العمر بكامله أبحث عن السرّ الذي خلفه الناس الطيبون الذين ركبوا الموجة المكسورة ولم يتركوا وراءهم إلا آلامهم وأصداءهم.



Twitter: @ketab_n

كانوا يستنيرون بالبحر، الذي لم يفقد زرقته إلا في أيام الحشر العسير. هل تريد أن تعرف أكثر، أم تترك الحكاية لخرير الوديان، وعصافير الجنة التي لا تموت؟!

- نريدك أن تتحدث عن نفسك، عن أجدادك... عنك.

كانت الأسئلة مرتبكة. الأمر لم يكن يستوجب فطنة كبيرة إدراك أن الكل أصبح في ورطة. لا يمكن أن يوقفوا التصوير، لأن المفاجأة الديمقراطية ستموت، قتله يحتاج إلى حسابات دقيقة. الخيار الوحيد المتبقي هو محاولة توجيهه بما يخدم الجلسة والتصورات المسبقة التي عقدت من أجلها.

- أيها السادة، جدي الأول كان فحاماً. الجد الثاني بحاراً، وأورث أشواقه وآلامه إلى الجد الثالث الذي جاء من بعده. أبي أخذ بعضاً من هذه الحرفة، ثم سافر جدي إلى غرناطة، يبحث عن سيف آخر يمتلك قدرة المقاومة. وفي خلوته يمتشق المخطوطات التي كتبها أصحابها وقبل أن يضعوا لها خاتمات، أُغلقت أفواههم بالموت. كان أبي يريد أن يخرجني بحاراً. كان يقودني معي دائماً إلى أعماق مياه البحر. يقول إنها مهنة الموت، ولكنها هي ما تركه لنا الأجداد. لكن تأثير جدي كان أقوى. ترك كل شيء وأصبح يفكر في أشياء أخرى، غير تلك التي كنت أراها. ذات صباح، حملت زادي، وألبستي المقطعة والزاد، وأعطيت يدي الصغيرة لجدي. قلت له خذني معك إلى غرناطة. والدي أبدى اعتراضاً، أخي الأكبر الوحيد الذي قرأت في عينه فرحة خاصة، لم أفهمها إلّا فيما بعد، رحت أبحث معه عن أشياء ضاحكة داخل مدينة كبيرة، كنت أسمع بها ولم أكن أعرفها أبداً. أدركت بعد زمن بعيد أن الفضل، كل الفضل، يعود إلى جدي الأخير. كان كلما قرأ كتاباً في التاريخ يرفع صوته عالياً، يصيح بدون حدود: يا الله لماذا؟ لماذا؟ إنهم يكذبون يا البشير، وعليك أن لا تصدق. لم تتح لنا فرصة واحدة لنقول أحلامنا. إنهم يكذبون حتى على الله. ثم يسحب سيفه ويضرب بقوة على الأرض ويخرج إلى سطح البيت وينظر بعيداً، عبر مياه



Twitter: @ketab_n

المارية، إلى الوجوه المنحدرة من الشمال، يحملون الموت والخوف في المدافع الإيطالية. كانوا يا البشير يزحفون مثل الجراد إلى المدن التي كانت تتساقط مثل النجوم، كحبات اللوز اللي طابت بزّاف، بزّاف. لقد باعوها للقشتالية والأراغوني. تأكدت يا سيدي بعدما امتلأ صدري بالحرف الوهاج الذي كان يقدسه جدي، أن التاريخ يكتبه المنتصرون. يجب أن نبحث عن عين أخرى، عن قلب آخر نبحث به عن أشواقنا. عيوننا نحن وليست عيونهم. الكتب كانت تبيض الكذب. كان جدي يعرف سر الحكاية، ولهذا عندما دخلت لأول مرة إلى أسواق غرناطة، كانت أول حكاية أحكيها هي عن جدي الذي سلمني سيفه وكتابه، وأشعار حمود الإشبيلي الذي شق البحار، والأشجار، وطاردته محاكم التفتيش، وطلب من البحر أن يفتح له طريقاً، لكن البحر أبى واستكبر. لكن في الحكاية استدركت، لأن عيون الناس كانت مندهشة، فحولت النهاية، وضرب بيده على الموجة البيضاء فانشقت على اثنتين لتهيء له طريقاً داخل البحر. رماني الحاضرون بالحجارة وكل واحد يصرخ ورائي، وأنا أشق الأزقة الضيقة، كنت صغيراً، وكانوا يصيحون ورائي، ظننت نفسك موسى يا ابن الزانية... لو كان نقبضك نأكلك حيّ. كنت أحاول في الحقيقة أن أصنع نهاية ترضي حنينهم إلى الحرية. بدا الكذب واضحاً على وجهي. وحين رويت القصة لجدي لم يكلمني أسبوعاً بكامله، ثم جاءني ذات مساء وكنت منكفئاً على فمي تحت شجيرة الياسمين الإشبيلي في بيتنا الغرناطي الضيق، ولكن المليء بالحنين. هه يا موسى!؟ كان يضحك منّي. كنت حزيناً، ولكني عندما رأيت الابتسامة ترتسم على ملامحه من جديد فرحت، ونسيت كل قطيعته السابقة. قال، مازلت أتذكر استقامته وهو يحكي، لا يا البشير أنت لم تخلق لهذا، خلقت لفك الرمز المكنون، المحفوظ في الصدر بين الضلع والضلع حيث تختفي حروف التوهج. فكّها، وحاول. وأرو ما تراه صادقاً مع ذاتك. لا تكذب على الناس لأنهم يعرفون حقيقة أخرى قد لا تعرفها أنت. فهم لا يصدقون كتب


Twitter: @ketab_n

التاريخ منذ أن اكتشفوا أنها مملوءة برماد حرائق محاكم التفتيش والناس المأجورين. إنه تاريخ كتاب الدواوين والوراقين الذي يكتبون وعيونهم مثبتة على جيوب سادتهم. تجولَ معي في كل الأسواق، وعرفني بأصدقائه. سمعته يتحدث معهم، كانوا يروون حكاياته وحكايات أصدقائه بمسحة حزن كبيرة، يوم أمتشق سيفه، وحصانه وذهب مع الذاهبين إلى البشرات التي كانت تعيش آخر فترات مقاومتها للزحف الشمالي. حين وقفت أودعه في ذلك الصباح البارد مسح عيني من دمعتين ساخنتين. لقد صرت كبيراً يا البشير، أما أنا فسأعود، ما يزال السيف حاراً والعود قادراً على المقاومة. حين أردت أن اصطحبه أبعدني بهدوء. لا يا البشير. أنت صوت القوالين في هذه المدينة. دافع عن الضمير الحي. الأسواق تحتاج إلى وجودك لمقاومة كتب التاريخ المزور. قل الحقيقة. قل أننا دخلنا إلى بلاد لم تكن لنا، ولكن قل كذلك أننا بنيناها من العدم، وعشقناها، وحق لنا أن نعشقها. فيها عرقنا ودمنا وعظامنا. الوراقون يملأون الدنيا، كتاب الدواوين يزورون حتى وجه الله. لا تسالم، وتعلم كيف تقاوم. اكتب تاريخنا قبل أن يتمموه هم. اذهب وكن نوراً يملأ عيون الأطفال والبلاد.

بعدها أصبحت كل الأمور تسير بشكل اعتيادي، مثل عمي حمود الإشبيلي، الذي بذل مجهوداً ليجد لي مكاناً داخل الأسواق الشعبية، ليس بعيداً عنه. يقول لي دائماً جدك كان أميراً وحبيباً. تعال وخذ هذه الزاوية إنها أجمل مكان، وقريبة من المسجد شبه السري، كلما خرج الناس بعد الصلاة يمرون بجانبك، ويستمعون إلى حكاياتك التي قطعت مع الكذب. بدأت الأخبار تدخل إلى البيوت والحلقات والشوراع وصراخي يزداد. كل هذا لم يكن مهماً بالنسبة للشرطة. كانوا يقولون دائماً: واحد من القوالين. اتركوه يحكي ما يشاء، لا يقتل ولا يحيي. لا يضر إلا نفسه ولا يضيع إلّا وقته. لكنهم حين فتحوا متأخرين عيونهم على هول الحكاية كان كل شيء قد انتهى. فكروا في سحبي من الأسواق الشعبية، لكن الأمر استعصى


Twitter: @ketab_n

عليهم. فحتى محاكم التفتيش يا سيدي، وكلاب الصيد التي كانت تربى خصيصاً لتمزيق اللحم البشري، أصبحتْ عسيراً على هضمها. ومع الزمن وجدت نفسي داخل تنظيمات موريسكية. تحاول أن تعترض فرق محاكم التفتيش لتخويفها، ولهذا كانوا عندما يحاولون الدخول إلى حي البيازين يحسبون كل الحسابات، وتأتيهم على رؤوسهم من حيث لا يتوقعون. في المرة الأخيرة اضطرنا الموقف لقتل قائدهم وهرب الآخرون. أعفيك يا سيدي من سؤالك المحير الذي لا تستطيع الإفصاح به. لماذا غادرت المدينة، أنا نفسي أسأل نفسي لماذا تركت المدينة التي امتصت أهلي وطفولتي. قلت في نفسي يا سيدي، يا البشير، يا شاعر الأندلس وقوال مجانين غرناطة وحي البيازين، ألم يكن أمامك حلّ آخر يا ابن أمّي. ألا تشبه محمد الصغير الذي ترك البلاد والعباد؟ أنا لا أملك غير فرحي وذاكرتي التي لا تموت. نعم يا صاحب الباب العالي. يا حكيم الجملكية، كانوا يأتوننا من بوابات القصور، يلبسون لغة الشعب ويستعيرون صورته المحزنة، وحين تعلو النار في الأزقة، يحملون سيوفهم وينزلون على رقابنا، وبعدها في لحظة الهزيمة نمتطي فلائك العودة باتجاه أي بحر كان، حتى بحر جهنم خوفاً من مدينة أصبح فيها الموت أمراً حتمياً. لم أكن أريد الهرب، لكن المدينة التي خسرناها كانت قد خسرتنا منذ زمن بعيد، بعيد جداً، عندما كانت القوات الشمالية تحضر نفسها للحملة الكبرى. الأسواق التي خنا تربتها خانتنا. البحر الذي خنَّاه رمى أملاحه باتجاه الغير وتركنا نموت. من أين تأتينا الثقة يا سيدي!؟ من العمق أم من السطح. وأنت ترى، وبعد هذا العمر، لا أعمل لا قنابل فتاكة ولا مدافع إيطالية ولا دبابات، لا أعمل سوى أناشيد الحنين والانعتاق التي لا تخيف إلّا محمد الصغير وورثاءه، لا أحمل في قلبي سوى الحكايات التي تروى عن رجال أكلتهم الغابات قبل أن تأكلهم شوارع المدن الميتة.

تململ الحكيم في مكانه. كان الحزن، حزن الخيبة بادياً على وجهه، ومع ذلك فالحركات التي كانت تأتيه خفية من أصدقائه



Twitter: @ketab_n

الأوروبيين، كانت تشجعه أكثر، والذهاب وراء المغامرة حتى نهايتها.

- أي حكاية وأي نشيد أندلسي؟

- آه يا سيدي لقد أيقظته فيّ. النشيد الأندلسي المليء بالحنين. ملكي الوحيد الذي لم يقتل طوال الرحلة. جاء معي ويبقى معي. قالها لي جدي قبل أن يموت. أمامك النشيد إذا ضيعته، ضيّعك. قالها قبل أن يسقط بين صخرتين، مثخناً بجراحه عندما سقط عوده عند أقدامه داخل بركة دم كان البخار ما يزال يتصاعد منها بكثافة. تريد أن تعرف النشيد الذي قاله جدي وهو يقف على الصخرة المحاذية للهضبة التي وقف عليها محمد الصغير متحسراً يصرخ مثل الذئب. استرجع جدي كل حنين حي البيازين الفقير وبدأ يخدش قلبه ويستمع إلى آلامه:

*أيتها الهضبة المنسيّة!؟*

*لن نستجديك يا ابنة التربة، والحجارة البركانية.*

*جاؤوك من قبل في عيونهم ريشة الطاووس.*

*مهزومين، أعلامهم منكسة، وعيونهم مغلقة.*

*وها نحن نعود. لا شيء في أيدينا.*

*سوى السيف وحنين الجبال المنسية.*

*جاؤوا بنا هاذي البلاد، وتركونا.*

*وحيدين نواجه الوحدة والخراب.*

*لن نستسلم أيتها الهضبة، أنشودة صنعناك من دمنا.*

*لن نستسلم، ولن نطالب بما ليس لنا.*

*لن نعطي القلب لسراق المدينة،*

*وللذين باعوا رؤوسنا في لحظة الغفوة.*

كان الصوت شجياً يا سيدي، اسمعه الآن يتدفق في قلبي



Twitter: @ketab_n

كشلالات الضوء المسكوب في كؤوس الجنة. حين فتحت عيني كان أخي يقول لي دائماً أنت نذير بؤس وشؤم، أكلت رأس أمّك يوم ولادتك. بسببك غرق أبي في البحر، أكل الزرقة وصراخات الموج. أخي كان أكثر تفاهة من محمد الصغير. تجارته الميتة مع اليهودي هي كل شيء. دنياه الوحيدة.

في لحظة من اللحظات، انتعش وجه الحاكم تحت الانعكاسات الضوئية المتعددة للكاميرات المسلطة على وجهه المليء بندوب الجدري. تململ في مكانه. رسم على شفتيه قهقهات مُقاسة بالسنتيمتر. ها... ها... ها... ثم تمتم في أعماقه. هاه ... حالات الجنون بدأت تخرج. الآن ستتغير صورته أمام الناس. واصل يا ابني. واصل... واصل، أمامنا الليل بكامله. قالها وهو يتململ في مكانه، مفتعلاً حالة ارتياح خاصة، وكأنه يتقن إجادة الإصغاء. في اللحظة نفسها كان مُخرج المناظر يركز أكثر على أذني شهريار بن المقتدر الكبيرتين، كتبت تحت الصورة مادة من مواد الدستور. «الذي يجيد الحكم عليه أن يجيد الإصغاء كذلك».

آه سيدي لو تعلم ولكنك لا تعلم، قالها البشير الموريسكي وهو يغرس عينيه في الأرض بحثاً عن تربة دافئة وسط هذا الزحام ووسط الذاكرة المهزومة. النشيد الأندلسي ما زالت حرارته تملأ قلبي وذاكرتي، لقد أنشده جدي في ذلك الزمن البعيد مصحوباً بالنغمة الإسبانية، ممزوجاً بعذابات الفجر الغرناطي الذي حين استيقظ في الصباح وجد نفسه وحيداً، وسط الفراغ المطلق. سبعة قرون يا سيدي ذهبت مع الريح، الأندلس لم تكن لنا، ولكننا بنيناها بدم لا يجف. في اليوم العشرين من الشهر الثاني عشر كنت أعرف أنهم سيلقون القبض عليّ، أنا وكل القوالين الذين كانوا يملأون حي البيازين. في السبعين يوماً السابقة لهذا التاريخ وضعنا تحت الرقابة الجبرية، لكن الأصوات ظلت عالية والنشيد الأندلسي لم يسقط أبداً تحت نعل محاكم التفتيش المقدس. أناشيدي التي حفظتها عن جدي، ظلت تقاوم وتقاوم. كانت تأتي مثل الريح الساخنة وتتحول



Twitter: @ketab_n

إلى وخز في قلوب كتاب الدواوين ومحرّزي القصور الموبوءة، مليئة برائحة شجيرات الياسمين التي جاء بها جدّي من إشبيليا في ذلك الزمن الذي صارت أعوامه لا تحصى. أنا يا سيدي منذ أن غادرت الكهف وأنا غارق في الرواية. رواية الألم الذي يقتل ولا يموت، فالناس بدأوا يخسرون حنينهم البعيد. في تلك الليلة الباردة، شتاءات غرناطة قاسية وقبل أن أؤخذ إلى نار الحديد الساخن وأرى الوجوه التي سرقوا أشواقها وأفراحها للمرة الأخيرة، وقبل أن يصمّ ناقوس الخوف أذنّي ويدمي أنفي المتعب والضربات والكلمات، كتبت نشيداً أندلسياً جديداً، سميته «سينتصر شعبنا» تذكرت فيه الوجوه القمحية التي سقطت بين الأتربة في جبال البشرات. كان الجو مثلجاً، وأنا يا سيدي لا أكتب إلّا في الشتاءات، أو في الفترات الفاصلة بين الخريف والشتاء. أيام ديسمبر باردة يا سيدي، ولم يبق أمامي إلّا التدفؤ بنار الكلمات. وغنيت بالرغم من كل شيء لديسمبر. لهذا الشهر أناشيده. فأحفاد جدي نهضوا في ذلك اليوم يبحثون عن رأس محمد الصغير يأكلونه. كانوا يريدون أن يموتوا، موت الأنبياء، قبل التفسخ في فراش الفقر. فالموت يا سيدي واحد، ليكن في مواجهة الابتذال والتصاغر. لقد فهموا سر الكلمات التي ختمت بين الضلوع منذ ذلك الزمن البعيد، منذ الحاكم الرابع أو ربّما منذ أن سلّم محمد الصغير غرناطة لقاتلينا، القشتالية إيزابيلا وعشيقها المسلول فرديناند. قبل ذلك كله، بزمن بعيد، بعيد، بدأ يفقد ملامحه، تذكرت كل الوجوه التي خاضت الحرب الضروس، لا لاسترداد الأندلس ولكن لاسترداد العقل الذي سرق منا. الكثير من مقاطع أناشيد ديسمبر كتبتها في ذلك الزمن، كانت ماريانة تملأني حتى القلب. لم يكن مهماً أن أملكها وتبقى معي، مثل ظلي الذي ذبل تحت ضغط الهزال الذي أصاب جسدي، فقد كنت لا أنام إلا إذا استحضرتها وابتحضرت من خلال رائحة الياسمين الإشبيلي جدي الموريسكي الأخير. ماريانة يا شوق المنفي ويا سحر المجانين! هي التي سربت كلماتي عبر شقوق حيطان المدينة العتيقة. صوتها



Twitter: @ketab_n

ملأ حي البيازين والأسواق الغرناطية المكتظة بالبشر. غنّت معي لليالي الباردة، للحزن الوحيد، للنوافذ التي أغلقت على مآتم الدفن والخوف، للزجاج الملون الذي تنكسر عليه كل صباح الشموس الغرناطية الملونة بألف لون. ملأتني الذاكرة المضاءة بالرغم من الآلام والكسور والدم والعزلة، لم يستطع أحد أن يسرقها مني. (هذا كله كان قبل أن يخرج إلى الشوارع الملفوفة في أردية الأدخنة المتصاعدة، يبحث عن وجه آخر لماريوشا، قريباً من ماريانة التي تكون الأتربة قد أكلتها، ماريوشا التي كانت تمشي بجانبه، آخذة بيده، تحكي جنينه المسروق، وهو يتأملها بعيون غارقة بالنور والدهشة). كان يجب أن ندفع الثمن غالياً. هو ذا أنا يا سيدي، لا أعلم شيئاً مهماً عن قصتي سوى ما قلته لك. ربما أنت تعرف ما لا أعلمه أنا نفسي. فجهازك يراقب حتى درجة تنفس الإنسان. ستقول أنها ليست الحقيقة، ولكني يا سيدي لا أملك غيرها. بيني وبينك الآن أيها الملك الحزين مسافة ذراع ونصف، لكن داخلها تتحدد أشياء كثيرة يصعب حصرها الآن. صراخات كثيرة. ووجوه أحرقت في عز عنفوانها، وشيخي النينوي، الذي صلب، وهو ينظر بعينين مفتوحتين باتجاه البياض، حتى لا يكتب عنه الوراقون، أنه مات وهو يستجدي الناس من أجل إنقاذه. لا أحد ينقذ الآخر! لا أنا قادر على إنقاذك، ولا أنت قادر على إنقاذي حتى ولو شئت، هناك تفاصيل كثيرة تتجاوزك وتتجاوزني.

- وضح يا السي البشير.

قالها شهريار وهو يغمز أصدقاءه الأوروبيين بنوع من السخرية التي تنم عن إحساس دفين بالانتصار.

- كل شيء أمامك مثل النور!

عندما بنيْتَ هذا القصر لم أكن موجوداً، وعندما باعنا محمد الصغير لم تكن حاضراً. الدم الذي لم يفقد لونه ما يزال يجري منذ أكثر من ثلاثة قرون (وربما خمسة عشر قرناً) هو الذي يعمق الهوة



Twitter: @ketab_n

والمسافة. والنيران التي تملأ القلب والذاكرة تفصلنا عن بعضنا البعض حتى الموت.

الأمر خرج من يدي، وخرج من يدك.

كانت ملامح شهريار بن المقتدر قد بدأت تتغير وتفقد ملامحها الأصلية، وبدأت نشوة الانتصار تتحول إلى مجموعة من علامات الاستفهام القابعة على رأسه. بدا له واضحاً أن البشير الموريسكي لم يكن لا مجنوناً ولا هبيلاً كما كانت تؤكد له دائماً عيون المدينة التي لا تغادر الأسواق والزوايا الضيقة. ومغادرته للسرداب حياً معناها دمار الجملكية وخرابها. يستحيل أن تقوم القيامة قبل أوانها. النفير بدأ يزحف باتجاه الفراش الذي يجمعني مع دابة الغواية الجديدة: دنيازاد. القحبة ابنة القحبة، أخت القحبة، تريد أن تمسح جسدي بالتربة وتمرغني في الأوحال. مسألة استراتيجية كما يقول أصدقائي الأوروبيون. هم لا يخطئون إلا قليلاً ولكن يجب أن أعترف أنهم يقيسوننا من خلالهم، لا يعرفون سحر خصوصياتنا. اللعنة! ثم اللعنة! أين كان هذا الخراء مختبئاً بدوره!؟ ازدادت الأسئلة وتعمقت الحيرة أكثر!

كانت أضواء التصوير قد أطفئت، والكاميرات سحبت على ظهور أصحابها، والبث انقطع بشكل فجائي، حتى بدون أية مقدمات وعوّض بالأناشيد الوطنية، القديمة، ومطولات أم كلثوم. ظل البشير فترة طويلة مندهشاً يتأمل الزرابي الفارسية، والأيقونات اليونانية، والمياه التي تسيل من كل الأطراف، وبمختلف الألوان، والستائر العملاقة التي جيء بها من سمرقند والهند، وعطور بلاد السند، وورود بلاد الواق واق التي لا تموت. كان يرى الشعلة وهي تصعد منها وهو يتأسف، لأن كل هذا الرخام وهذا الزليج كان من القوالين. فجأة نطق في الزاوية المظلمة، والمضاءة بأشعة خافتة من لامبة نيونية لا تكاد تظهر. كان الوراق دقيقاً في كلامه.

- ماذا أكتب يا سيدي الملك وصاحب المقام العالي.


Twitter: @ketab_n

- هل كتبت كل ما قاله هذا المجنون الهبيل؟

- دونته يا سيدي في كتاب تاريخ الأمة وبه أنهيت المجلد السبعين بمآثركم.

- الله يلعن دينك ودين والديك، ودين الطاسيلا أنتاعك.

مرة أخرى ارتسمت الحيرة في عين الوراق. هذه كلام أهل الشوارع والسراق وليس كلام حاكم يحكم البلاد والعباد.

- ولكن يا سيدي هذا ما كنت أشعر أنك تريده!

- أنت تريد أن تخرب كل ما كتبته في المجلدات السابقة، انزع خراب المناظرة، وأرو الرواية كما يجب أن تُروى.

نهض من مكانه، في عينيه ارتجافات الغزلان المذبوحة. امتشق الحسام الحادّ من الشفرة على الجهتين. شعر بالزلزال يصعد من تحت أقدامه. لم يجد ماذا يفعل، ولم يعرف من أين يبدأ؟! عليّ من الآن أن أتفادى الرعاع، لقد سلمت للرعية سلاحاً جديداً ضدي، قنبلة موقوته ستنفجر داخل القصر. كان يمكن أن أتفادى ربّه بكل سهولة.

- لا يا سيدي! لا تستطيع أن تتفاداني مطلقاً، لأني الحقيقة التي تصطدم يومياً بها، وستصطدم أكثر، لأن النيران تصعد الآن من تحت رجليك، القنابل الموقوتة ستجدها في كأس القهوة المسائية.

نظر إليه شذراً، لم يعلق كثيراً، ولكنه صرخ.

- قودوه إلى الحفرة، وعلموا دين أمه الزنباع وين ينباع.

لم يجبه، ولكنه تأمل حالته بكثير من العطف الداخلي. وقبل أن ينسحب قال: كتب عليّ يا سيدي أن لا أفيدك، وأن لا تفيدني.

كان رجال الصحافة قد سحبوا آلاتهم، وخرجوا منكسرين من الأبواب الضيقة، المترجمون غادروا المكان بدورهم، ولم يبق إلّا هو والوراق الذي صرخ في وجهه.

- أغرب عن وجهي قبل أن أقطع رأسك. سكيني. سكيني. أنا



Twitter: @ketab_n

متعب وبدأ يعض في وسادته الاعتيادية. جاؤوه بالسكين الحاد من الجهتين، كانت عيونهم قد جحظت وبدأت تغادر مواقعها من كثرة بروزها. ثم انسحب باتجاه الحرملك الذي تعالت صراخاته حتى وصلت إلى السماء وإلى الدهاليز. كانت وقتها كل الأبواب قد أوصدت، ولم يسمع إلا صوت السكين وهو ينغرس بقوة في الأجساد النسوية الطرية.



Twitter: @ketab_n

# 13

كانت الغيوم قد تحولت إلى أشكال تقترب من الأفاعي والحيوانات الأسطورية. لا شيء هدأ طوال الليلة الماضية التي كانت قاسية. فالمدافع كانت تدك من الساعات الأولى من الليل، حتى أولى ملامح الفجر الغامض، الذي سبقته طيور النورس البيضاء التي ظلت تحوم على شواطئ نوميدا ـ أمدوكال، جماعات، جماعات، تبحث عن أشياء غامضة دفنتها بروده هذا الصباح الشتوي. الضباب الذي كثيراً ما يملأ فجر المدينة بدأ يزول شيئاً فشيئاً مبرزاً الصوامع أولاً ثم الكنائس القديمة التي هدّمت بعد أوامر الحكيم بتمديد الإسلام إلى كل زوايا المدينة وفرضه، خصوصاً بعد حملة الختان التي أخذت بجدية مطلقة، لتتحول مع الزمن إلى مقياس عن الإيمان أو عدمه. يتضح الأفق البعيد رويداً رويداً، بدون أي لون، ما عدا السفن التي كانت ما تزال راسية على الأطراف، بعضها ابتعد إلى أعماق البحر، خوفاً من قصف الليل، وكان العمال كلما انتهوا من إفراغ باخرة، أو ملئها، يدفعون بها باتجاه البحر، ويؤشرون للسفينة الموالية بالاقتراب تحت حراسة مشددة، لم يكونوا ليتركوا أي شيء لحسابات الصدفة. يعرفون جيداً ماذا يفعلون. علمتهم التجارب القاسية أن الثقة في الحكيم هي جزء من الغباء الذي يمكن أن يمارسه الإنسان بشعور أو بدون شعور، وعندما يحتاجون إلى حل الإشكالات الصعبة يستفيدون من خبرتهم النظرية في تسيير أمور الدنيا.

ويبدو، كما يقص أهل المدينة، أنه عندما تتكاثر طيور النورس



Twitter: @ketab_n

في السماء، فذلك يشكل نذير شؤم. يتفاداها شهريار بن المقتدر ولا يريد مطلقاً أن يراها وهي توقوق وتحلق فوق القصر العالي. يتمنّاها دائماً أن تتجه باتجاه البحر، وتبتعد عن حيطان المدينة الملكية، المحاذية للجزء الشرقي الصغير من البحر. حتى النافذة المطلة على الزرقة البحرية، كثيراً ما يضطر إلى غلقها بعنف ليعود بعدها إلى إغفاءته الاعتيادية، مستحضراً صورة الأجداد الآفلين الذين أقاموا الدنيا ولم يقعدوها. تتدحرج في أعماقه صور الحكم مكسورة بمآلاتها ومآزقها المحزنة. أوف! حكموا البلاد والعباد، الإنس والحيوان، وربما الجان. كانت أسماؤهم عالية، عالية مثل صوامع المدينة. قتلوا من استحق القتل، أهدروا دم الهاربين والهاربات، وأعفوا على من شاؤوا. فالمغفرة والرحمة في أيديهم. هكذا كانوا. هكذا سيكونون. هؤلاء البشر إذا لم يُلجموا سيأكلون بعضهم بعضاً، مثل الحيوانات المفترسة. مثلهم مثل بني إسرائيل يوم تنكروا لألواح موسى التي خطت فيها الوصايا العشر بأصابع الله التي لا تخطئ. يبدو أن الأمور يجب أن تعود إلى ضوابطها الأولى. المُلك تفسده المغفرة الزائدة. والقلب الطفولي يملي علينا أن نتعلم كيف نحبط أبناء الكلاب الذين يحلمون بإزالة النظام الجملكي من على الأرض. بدأت الخطوط تضيع وتختلط. كيف يتجرأ ابن الزانية أن يقف في وجهي بتلك القوة، ولا يقبّل رجلي؟ مسكين! يقول أني لا أستطيع أن أفعل من أجله شيئاً وهو لا يستطيع فعل أي شيء من أجلي؟ نكتة لا يصدقها حتى طفل صغير! ماذا يحدث لو أمرت بنزع رقبته؟ لا شيء، ومع ذلك لن أتيح له فرصة الشهادة. في هذا كان أصدقائي الأوروبيون على حق. من السهل أن نقتل إنساناً مهماً، ولكننا من حيث لا ندري، نعمل على تخليده في قلوب الناس. تأكد يا البشير أنك ستعدم بالطريقة التي يقترحها أصدقائي. وطرقهم لا تحصى. أبناء الكلب يفكرون بعقول مجنونة رزقها الله كل الإمكانيات. علينا أن نتعلم من دهائهم، وإلا لا قيمة لحكمنا. ابن الزانية ينهي كلامه بالمجهول ودنيازاد (قطر الندى) هبلتني بحديث



Twitter: @ketab_n

الليلة السابعة بعد الألف. تريد أن تقول مالم تقله دابة الغواية أختها. في اليوم السادس. أنا الذي سأجبر دنيازاد على الركوع عند قدمي، والكلام حتى الصباح، وعندما تخترق الشمس الجبال البركانية التي تغلف المدينة سأكذب النبوءة الوهمية وأذبحها من الأذن حتى الأذن. فالمحظيات كثيرات. ومع الصباح، أنزل على الرعية بالبلاغات والبيانات حتى تسقط عند أقدامي مثل الحشرات. بعدها لن أتشاءم بالطيور التي تحمل في مناقيرها نذر الشؤم. يجب أن نفتح هذه النافذة المغلقة، لأن رائحة الكافور والأجساد المحنطة التي تنام في البيوت الباردة تسد الأنوف. الأمر يجب أن يكون على ما يرام، لا شيء يعكر صفو هذا اليوم سوى هذه الأوهام والوساويس التي صارت جزءاً يومياً من الذاكرة. لقد غسلت لحظة اليأس بالأجساد والدم. ونظفت يدي من نساء الحرملك قبل أن أنام مع هذه البغلة الفارسية التي أنجبت فرخاً من عاشق أسود، وجاءت لتقنعني أنه ولي العهد، أني أعرف، وهي تعرف أني لا ألد. صحيح أني أغمضت عيني وعيون غيري عن السائح الأجنبي المولع بالمنمنمات والقصور الإسلامية، لكنها مدت جسدها لوجه آخر. لو كنت أعرفه لنزعت ذكره ووضعته في فمه، يأكله وهو ينزف حتى يموت. يجب أن لا تتوقف العبقرية عن الخلق الدائم لأشكال الموت، وإلا يسقط النظام في الرتابة التي تنقلب ضده مع الأيام، لو كنت أعرف الذي رغت على صدره؟ أمر يعذب، وأنت تلمس امرأة تحبها فتشها شخص قبلك لا تكن له أي حب. كل حركة على جسدها تفسرها به وليس بك. بنت الكلبة جميلة ومحزنة حين تنزع رقبتها ورأسها عند أقدامي. سأبكي قليلاً ثم أنساها. ماذا أفعل؟ يجب أن أفجر قلبي من أجل وحدة الذات ووحدة الوطن. تقول بأني أول وآخر زوج تغمض عينيها عليه، وأنها أنجبت هذا الوريث من أجلي. وهل طلبت أنا أن يتحول القصر إلى بورديل أو مفرخة!؟ ربما هي الآن تخبئ عشيقها في زاوية ما، تنتظر سقوطي لتنصبه ملكاً على القوم. تفتح الحجاب بهدوء مقلق. ثم تبتسم في وجهه. أخرجوا يا الفيران مالغيران!



Twitter: @ketab_n

ويخرج هو مطأطئ رأسه كالضحية. ابن الكلب، ليس لا سائحا ولا أي شيء آخر، وجه عربي محرود ومخدوش بآلاف الجروح في وجهه. لا يمكن أن تكون سمرة ابنها من شخص إنجليزي أو فرنسي، عيناه زرقاوان أو خضروان. لنضع الأمور في خطوطها المستقيمة! كيف أدخلته إلى البيت؟ لا يهم. المهم أنها وجدت نفسها وجهاً لوجه أمامه. تعرت أمامه قطعة قطعة كما تفعل معي دائماً. كانت النيران تشتعل في دمها. اختبأت وراء الفاصل الخشبي الفارسي الملون، وعندما عادت له كانت تلبس غلالة فضفاضة أعطت لانثناءات جسدها رغبة قصوى لا تقاوم للنوم تحت أي رجل قوي. أغمضت عينيها. تدحرجت باتجاهه. شربت الكأس السابعة، فهي عادة لا تتجاوزها. تزحلقت بيدها إلى انفتاحة فخذيها، أدخلت إصبعها ملفوفاً بالغلالة البيضاء الفضفاضة.

كان ابن الكلبة لعابه يسيل ويسيل مثل كلب مكلوب. الحرّ يملأ أرجاء البيت والأجساد التي بدأت تنز عرقاً خاصاً يشبه رائحة الحلزون وشجيرات المارمان الناتئة. سحبته غمامة رائحة عصير الكروم النوميدية المسكرة. تمددت على الفراش بكامل طولها شيئاً فشيئاً. وبهدوء تام كانت النيران قد وصلت إلى دماغه وبدأت تثير الشعلة الجسدية المقدسة. انعكف اللباس الفضفاض عند حدود الانفتاحة الخفيفة للفخذين. قالت: تعال. وأشرت بكلتا يديها. أتاها يزحف على يديه. آه يا ربي سيدي ماذا حدث؟! إنها جهنم التي تدخل إلى القلب وتنتعل الذاكرة الخاوية، المملوءة بالرياح الساخنة التي فقدت معنى وجودها. تفتح فخذيها أكثر، يبين تحت اتساعها الفراغ الذي خلفه. تغمض عينيها، تفتحهما، لا يظهر إلا البياض الذي يقود إلى تهلكة الغوص حتى الموت في الجسد المنهك والمنتهك. كان ابن الزانية عارياً. يرفع اللباس. يدخل رأسه بين رجليها، تمد يديها، تقبض على شعره من تحت الغلالة. تقبض على شعرها. يضغط. تغرق في صراخات وغمغمات غير مفهومة. يضغط أكثر، دافناً رأسه أكثر في جسدها. يبحث عن استدارة سرتها. يمد لسانه. يلمسها.



Twitter: @ketab_n

تغمغم من جديد. أ... ه... يا ابن القحبة... تعلمت مع كل المحظيات... أكثـ...ر... أكثــ...ر... ترغي مثل الموجة المكسورة. تتحرك بجنون في كل الاتجاهات. أكثـ...ز... يفتح فخذيها، يمد يديه إلى نهديها المنتصبين، اللذين لم يفقدا استدارتهما وامتلاءهما. يسحبها من كتفيها. تصرخ بأعلى صوتها... أكثر... أكثـ ... ر سحبها باتجاهه من جديد بقوة. يزداد بياض عينيها. تغمغم مرة أخرى أرجوك... لا تتوقـ... ف... لقد كان... شهريار... عاجزاً... أرجوك... عنيناً... سخيفاً... تافهاً... مريضاً ... ا... ي... مليئاً بالخيانات الوطنية... أدخل... أكثـ...ر... يضغطها مثل الورقة، حتى تتحول بين يديه إلى كمشة من النور. إنها الحالة القصوى التي لا تعطيها المرأة إلا لمعشوقها مرة واحدة في العمر. والبقية كلها تنويعات على حالة واحدة لا تتكرر دائماً. المحظيات، بنات الكلبة يفعلن نفس الشيء مع حراسهن في الخلوات التي تأتي بين الفسحة والفسحة، والفجوة والفجوة. وحين يتعب ويريد أن يقوم، تقول له مرة أخرى: لنغير المواقع سأركبك. يعتصرها مثل الليمونة وهي تتأوه فوقه، غارقة في غيمة بنفسجية. ربما حدث هذا مرات عديدة في اليوم الواحد. القحبة بنت القحبة ألم يكن أمامها حل آخر لإنجاب ولي العهد، سوى هذا الرغي، وهذا الصراخ الذي يذكر بجهنم عندما تتمزق الأجساد، باحثة عن أطرافها المشتعلة! كان بإمكانها أن تمتلئ بمني رجل بصمت. الرغبة وحش. هل كانت تريد طفلاً، أم كانت تحلم بالتحول إلى سفينة مكسورة على صدره؟! الله يلعنك ويلعن أبوك يا شهريار ابن الزفت واللفت، كانت شهرزاد تحكي لك خرافاتها، وحين تغيب عنها لشؤون الدولة، تخرجه من وراء الستائر وتحكي له عن عجزك وعن غلظتك وعن ثقل صدرك وبدانة بطنك وانتفاخ خصيتك بدون أي معنى رجولي. كنت مثل الدابة العجوز التي انتهت وظيفتها. وإلا قل لي كيف كانت تستطيع أن تقص عليك خرافات الدنيا. وحين تضع يدك المرتعشة على نهدها المغيم تحت غلالة شفافة، تقول لك يا سيدي لقد لاح الصباح ويحب



Twitter: @ketab_n

أن أصمت عن الكلام المباح؟ وبدل أن تفكر فيها تظل مشدوداً لبقية القصة. ألف ليلة وليلة وهي تلعب بك مثل الدمية، وفي الأخير خرجت فرحاً مثل الحمار بذكورك الثلاثة! كيف صنعتهم يا طويل العمر وأنت لم تلمس شهرزاد في حياتك؟! من قال لك أيها المسكين أنهم لك؟! الأوّل أبيض، والثاني أصفر، والثالث أحمر مثل البرتقالة، ووجهك أسمر مثل الصخور البركانية؟! من قال لك يا ابن أمي؟! أنا لا أحسدك، لأني لست في وضع أحسن منك. افتح لي فقط قلبك، أفتح لي قلبك، أعرف الحقيقة كلها. لن أنزل إلى الشوارع وأفضح سرك في الحلاقي، مثلما يفعل مجانين هذه المدن. في هذا العصر المتأخر، سأموت مثلما مت، محافظاً على سري وسرك حفاظاً على سير الحكم والدنيا في نوميدا ـ أمدوكال. أنت عقيم، والذي يأخذ العرش من بعدي ليس من صلبي، تعبت كثيراً، مثل المجنون، ولم أحصل عليه، بل لم أحصل مرة واحدة على جسدها. كلما لمستها تكمشت على نفسها كالأفعى. وعندما أنتهي من جماعها ينتابني الإحساس بقماءتي، وبجيفتها. ماذا حدث يا الله!؟ إنه الجنون المخبوء داخل ذاكرة تتزن بزيفها وأنت يا حبيبي شهريار تحزنني جداً، يؤلمني صمتك، وأنت منزو في ركن تفكر في مصير الأمة، ولم تحل معضلتك، من أدراك، أنك لست ابن عبد متسخ؟! أو ابن حاجب مولع بعشق محظيات الملوك والسلاطين، أو ابن رجل فارسي دخل قصر السلطان من باب العسكر. في الهّم نشترك يا صاحبي. لن أشتمك، لن أقول عنك أيها الفرخ، أيها اللقيط الفارسي، أنا عقيم، وهذا الوريث الصحراوي الأرعن بدأ منذ الآن يقلد كل حركاتي. تقول عنه أمه دنيازاد: انظر يا ابن المقتدر! انظر يا حكيم الجملكية ما أعظم طلعته، كل ما فيه يوحي بقدرته على تسيير البلاد. قاتلت كل المدن من أجلها، وهي الآن تبيعني وتأتي بخطيئتها الصحراوية لكي تحكم البلاد. لن يكون هذا! لن يحدث ولن يتحول قصر ابن المقتدر إلى مبغى شعبي. أوف! هذه الطيور المشؤومة ما أبشعها. لست أدري من أين دخل عليّ هذا الغراب الأسود. قبل قليل كانت النوارس والآن



Twitter: @ketab_n

تقفز إلى القصر هذه الغربان! تفو. يا لطيف أذكر الكلب يأتيك الغراب! تفو. كان الغراب قد نزل على أكواريوم الأسماك وبدأ يدور عينيه باتجاه الحكيم بشكل عجيب. يتتبع كل حركاته، انكسرت هياماته المختلفة، استقرت عند حدود السواد المطلق. فتح النافذة من جديد. نشّه. خرج الغراب وهو ما يزال ينظر بعينيه المدورتين إلى وجه الحكيم الذي تفاداه. أغلق الشباك وعاد إلى مكانه الأول. وضع رأسه بين يديه بحزن. أوف. والله لن تصدق أبداً نبوءة هذا المغربي الكئيب الذي جاءني من مغارة، وظن نفسه أنه عاش دهراً. لن يكون إلّا أحد المجانين القادمين من مدن مجاورة، وربما من هذه المدينة ذاتها. يقول أصدقائي الأوربيون، أنه رجل مريض، كان على الشاطئ، ضربته الشمس على رأسه، أو داهمته أمطار، فاختبأ في حفرة وفي غفوته، حين نام، رأى كوابيس المجانين وفجأة صدق نفسه أنه عاش الزمن الذي كان يقرأ كتبه. جده صحيح كان موريسكياً، ولكن هذا المعتوه ابن هذا الزمن. لا يعقل أن يأتيني من سنة 1687 كما قال ويقول دائماً، جاءني من حفرة سقيمة، ليحدثني عن محمد الصغير. إلى الجحيم أنت وهو، ما شأني أنا إذا كان هو باع غرناطة للقشتالية. ليكن. الشعب شعبه والمدينة مدينته. والعشق جنون. لقد سحرته القشتالية الكبيرة. يا أخي قلة أدب. أنا لم أكن هناك حتى أُحاسَب على حماقات غيري. أعرف الحقيقة التي لا يقولها المؤرخون، ولكنها لي. ملكي. تنام في قلبي وفي ذاكرتي.

وأعرف أن ما دوّن ليس بالضرورة هو الحقيقة. أخبار الملوك يجب أن تُقرأ مقلوبة. كان يضاجع القشتاليات بينما في لحظات سهوه، كان القشتاليون يدخلون فيه خوازيقهم حتى الفم وهو يتلذذ بشكل عجيب. كانت الأفخاذ له، لكن الرؤوس كانت لإيزابيلا وفرديناند ومحاكم التفتيش التي كانت تتلقى من الحريم القشتالي الموضوع تحت تصرف محمد الصغير، كل المعلومات السرية. لقد أغرقنه بالأطفال الذكور. ويتمحكن عند أقدامه: لقد ملأنا قصرك بالنجوم يا جليل القدر. فينحلّ هو، ويتوزع في أحجرهن مثل



Twitter: @ketab_n

الشكارة المملوءة بالتبن. بطن مملوء بالخراء. هذا كل ما فيه. يجب أن أقول الحقيقة لهذه النفس الأمارة بالسوء. عليها أن تسمع ولو خفية ما لم تتعود سماعه، وطز بعد ذلك. سأحكم ولو بالدم، وأعلن القطيعة بعدها مع كل ما سبق، حتى مع حكم والدي وجدي الله يلعنهما. أعتقد أن كليهما كان يشك في أصوله. لم أخطئ عندما نزعت رقبته الواطئة التي اختبأت بين كتفيه. حين اقتربت من والدي، كان يرتجف مثل الدودة. قال أرجوك. أمي هو الذي خنقها، شدها بين كتفيه حتى تدلت عيناها وغادرتا المحاجر. ثم قال: توفيت، يرحمها الله، لحظة الوضع. المولود عاش وهي ماتت. في القصر لم نر المولود. وفي الأيام التي تلت صرّح بأن المولود بدوره مات. وسخّرت الصحافة الوطنية لنشر خبر وفاة والدتي مجللاً بالسواد. حتى الذين كفنوها من يومها لم نرهم، أي منذ أن خرج الخبر الحقيقي من بين الحيطان عن المرأة بدون عينين؟! عندما دخلت عليه كان أحمر مثل الدودة في الحرملك. كان مصراً على الحكم حتى آخر لحظة من عمره. منظر جسده كان بشعاً. قلت له جئتك مصمماً، إما أن تنعزل أو أعزلك بنفسي. كان أصدقائي الأوروبيون يقفون ورائي في الصغيرة والكبيرة. تمدد في حجر إحداهن بكل نتوئه وهو يقهقه. هذا أنت يا شهرياري الصغر، تريد تنحية المقتدر بكل هيبته وجلاله؟! عيب؟! مازلت صغيراً على الحكم. ربيتك مثل القط، والآن تترجل عليّ يا ابن الزانية مثل أمك. سأطير عينيك يا وحد الخامج إذا حاولت. أمك مثلك لعب الفأر في صدرها كان يجب أن أحسم الأمر معها. صرخت في وجهه بحدة أكثر. أعزل نفسك أو أعزلك إلى الأبد. لا... لا... قالها بصوت عالي، ثم التفت إلى إحداهن يمصمص نهدها المنتصب. وضعت يدها على كنزه القديم وزغبه. بادلته نفس الضحكة. أيها الضفدع. قام من مكانه بسرعة. عارياً، وهو يصرخ: حسامي حسامي يا محظيات، لكن أصدقائي الأوروبيين أحاطوا به. فانسحبت كل النساء باتجاه الحرملك وهن يرتعدن. بسليقتهن عرفن أن الأمر في غاية الجدية. تريد أن تقتلني! سأقطع رأسك قبل أن... وقبل أن ينهي جملته كنت أمسح السيف من دمه، تدحرج رأسه مثل



Twitter: @ketab_n

الكرة حتى وصل عند الزاوية المحاذية لمخرج الحجرة، وظل يتأملني بعيون مفتوحه، وفم مليء بالدهشة والخوف، وبعد لحظات أغمض عينيه. في الطريق نزعته برجلي وواصلت سيري باتجاه الحرملك، فنظفته عن آخره. كان يجب أن أفعل ذلك، يا أنا يا هو، لأن رأسي كان سيسقط بعد زمن قصير. انتهيت من خرابه، في الليلة نفسها أُعلن خبر وفاته البطولية في التلفزيون. وأنجزت حصة تتحدث عن مآثره، وأقفل ملفه إلى الأبد. هذه هي كتب التاريخ المحفوظة في الصدور. الكتب التي لا تقال إلا في اللحظات الحميمة. أوخ يا رأسي! من أين تأتي هذه الروائح الكريهة، هل هي لجثث متفسخة، أم لطيور ماتت فوق الأسطح؟! المشكلة إذا فتحت الباب دخلت أسراب النوارس، وإذا أغلقتها تقتلني هذه الروائح التي تشبه حيض النساء. تغيير هذا النظام النحاسي الأخرس كان ضرورة. فعلت ما أملاه الواجب الوطني. العلماء والعمال، لست المسؤول عن وجودهم، توارثتهم عن والدي. هو الذي تركهم يقوون شيئاً فشيئاً. كان يقول دائماً: هؤلاء يجب أن نعطيهم عظماً، يتركوننا ونتركهم. ذهاب قطعة أرض من الملك ليست القيامة، فالقواعد العسكرية الممنوحة للأصدقاء الأوروبيين تتجاوز ذلك. هذا كان منطقه. ولكن الفجوة التي تركها في الحكم تطورت وأصبح من المستحيل كسرها. كان يجب أن ينتهي، لأن الإنسان عندما يطول في الحكم يتفسخ. في البداية أعلنا أن الملك مريض بمرض خبيث. تأثرت الرعية. فالرسائل التي غزت القصر لا تحصى. كان يغدق عليها من الأموال النفطية. مراكز النفط موجودة داخل البحر. حتى العلماء لا يمكنهم أن يتصوروا بناء دولة بدون الاستيلاء على قواعد النفط البحرية. سيضطرون مع الزمن إلى الرجوع والتوبة، ووقتها سيغني المغني لهم. سأصلبهم علانية في الساحات الشعبية، وأعلن البحر بكامله منطقة محررة. بعد أسبوع أبكينا الجميع، فقد نقل موته مباشرة على الشاشة الصغيرة، بعد أن أسبقناها بحصة خاصة بمآثره. وتأكد الناس أن ملكهم مات، وأن رخاء البلاد سيستمر طويلاً. في فترة المرض الوهمي كانوا قد ألفوا وجهي كمسيّر جيد للبلاد. كنت أدير



Twitter: @ketab_n

شؤون الوطن بيد مفتوحة أكثر منه. أغرقت الأسواق بالبرادات والتلفزيونات، والهوائيات البارابولية، وكل البضائع التي كانت نادرة في فترة حكم والدي. بسبب الندرة وبسبب جزء من الأزمة النفطية. ولكن البلاد بدأت تغرق. كان لا بد من وضع حدّ نهائي لهذا الرخاء المؤقت. فالرعية مثل الدواب لا تعرف إلا الأكل والضرط، والرهج!؟ الحكم جاء بالدم، وإذا استدعى الأمر يُحافظ عليه بالدم. وسأثبت للمغربي التافه، القادم من الأغوار الوهمية، بأني قادر على تغيير الأقدار، حتى قدره هو. سأتجاوز الليلة السابعة التي كان يريدها نهاية لي. يقولون أن فاجعة الليلة السابعة بدأت منذ الحاكم الرابع. لن يحدث ذلك أبداً. أنا هنا لتمديد زحف الليالي إلى ما لا نهاية. دابة الغواية ستنتهي تحت قبضة سكيني الحاد من الجهتين. لن أتحسر. لن أقف على هضبة المدينة وأبكي أمجاد الماضي. لأني لن أغادر المدينة إلا ميتاً أو أخلد فيها. سيقفز الزمن من الليلة السادسة إلى الثامنة، متجاوزاً ليلة الشؤم. المشكوك فيهم سآكل رؤوسهم قبل أن يأكلوا رأسي. المسألة مسألة زمن. لا نسبقه ولا نتأخر عنه. وسأجبر دابة الغواية دنيازاد (قطر الندى) أن تنهي الحكاية، وفي الصباح الموالي لن أكون شهريار المسكين الذي لعبت برأسه شهرزاد التي فاجأته بثلاثة صبيان من رجال غامضين. سأنادي الكفان، ومؤرخ الأمة، وأجبرهما على رؤية وتدوين الحقيقة التي يريانها أمام أعينهما. قالت دنيازاد: عفواً سيدي، أريد أن أتفقد الرعية، وأشم هواء. فالدنيا تأكسدت من الداخل. ابنة الكلبة، هي ولا شك الآن معه. لكن أصدقائي الأوروبيين وراءها. يقتفون خطواتها، ويسجلونها بدقة. يملكون آلات تسجل حتى أفكار الإنسان قبل أن يمارسها. الجملكية لن تسقط. اختلفت في هذا حتى مع أصدقائي الشماليين.

قلت لهم في لحظة انزعاج، عندما أكدوا لي أني أكشف سراً خطيراً للرعية. هذه شؤون داخلية تخصنا. النظام الجمهوري لا يصلح لنا. وأعطيتهم أمثلة عن بلدان سارت على النظام الجمهوري. وظلت تمارس طقوساً ملكية في الحكم. يأتي الحكام عادة من طريق



Twitter: @ketab_n

انقلابات عسكرية يرفعه العسكر إلى السماء، وينزلونه إلى الحضيض. يلعبون به مثل القرد. والملكية تشدد على الحريات الديمقراطية للناس، والتشديد ضد دوام الحكم. ونحن نريده أن يدوم ولهذا طالبت بالنظام الجملكي، الوسطي. عملاً بسنة نبينا الكريم. خير الأمور أوسطها. الذي يتيح قليلاً من الديمقراطية غير المضرة للناس ويتيح فسحة من التأمل للحاكم. وحين يأتي المؤرخون، حتى أكثرهم عداوة لي، لن يستطيع أن يقفز على مرحلة حكمي، بدون الوقوف عند هذا الإنجاز العظيم. ولولا إزعاجات العلماء الذين خربوا عقلية الشعب لحدث شيء آخر أكثر أهمية. كان يمكن أن أطلق سراح هذا المغربي التافه ولكن لا. ثم لا. الأمور الآن تغيرت. سيرى إني أنا الذي يسيّر قدره وقدري. ولن أجعل منه شهيداً في غير وقته. ولن أسلمه إلى أصحابه إلا عندما يفقد هذه الذاكرة الهرمة، وأرميه في الشوارع الخلفية داخل المدينة، يبحث بيأس عن غيمة صيفية تائهة في سماء بدون معنى. لن أستطيع أن أحميك يا سيدي، ولن تستطيع فعل ذلك. هذا ما قاله. الله يلعنه بهدلنا أمام الرعية. أصدقائي الشماليون (الأوروبيون) أخطأوا في تقييمهم. كنا نريده أن يظهر مجنوناً للآخرين، ولكننا ظهر كأننا كنا المجنونين! الشماليون كانوا يفكرون بعقل غربي لا يفهمنا أبداً إلا انطلاقاً من ذاته. قلتها لهم في العديد من المرات، ما يبدو لهم غريباً عندنا هو عين الصواب. لو خرجوا إلى الشارع لعرفوا الحقيقة. لكنهم يظلون رابضين هنا بالقصر، يتأملون الصغيرة والكبيرة. أبناء الحرام، حتى هم، يجب أن نقولها، لا يعرفون إلا النفط والذهب. ليكن! فهم على الأقل يوفرون لنا الحماية عند الضرورة. في الحوزة يجدهم الإنسان أمامه. إذا انكسرت الدنيا، لا قدر الله، يجد الإنسان طريقه وسط الظلمة. إنهم قرشنا الأبيض ليومنا الأسود الذي لن يكون في الليلة السابعة بعد الألف مطلقاً. سأجبرها في هذه الليلة أن تحكي الحكاية، وفي الصباح أنحرها مثل البعير الهرم، وأخوزقها، وأترك البقية لمؤرخ الأمة، أن ينجز



Twitter: @ketab_n

نعوة تحزن الله، والبلاد والعباد. وأُلحقه بها. لا أمان في عيون ترى. قبلها أجبره على الكتابة. أكتب يا ابن الزانية: لقد ماتا وهما يؤديان واجبهما الوطني في الدفاع عن حصون المدينة التي لن تسقط. أكتب ولا تنظر إلى وجهي وافتح الكفن وقل لحانوتي القصر، أن يجهز كل شيء، رشوهم بقشور الرمان والبرتقال، وماء الياسمين وعطر الندى. ياسمين السند، وليس ياسمين نوميدا - أمدوكال، الذي أصبح مشاعاً وفقد ملوكيته. سأخطب على الملأ في الصباح الثامن. الدنيا تغيرت. لقد انفتحنا على صراط جديد لن تسود فيه إلا العدالة وأعلن الحرب المقدسة لتوحيد البلاد. لن أضيف لدابة الغواية ولو دقيقة واحدة. في الصباح عندما تنتهي، أو لم تنتهِ، سأحز رقبتها. بعدها سأعلن أمام الملأ، بأن اسم شهريار لا يتناسب مع الديناميكية الديمقراطية للبلاد، سأنزعه من تاريخي، واحتفظ بالحكيم فقط، والحاكم بأمره، وقرن الغزال. حاكم نوميدا. الحاكم أحسن من الملك. أكتب يا ابن الزانية. أكتب، أنتم الوراقون دائماً مع المنتصر. مع الذي يحز بدم بارد رأس سابقه.

أكتب أنت، قبل أن يكتب عني كتاب الدواوين القادمون مع الآتين الجدد. أكتب كل ما قلته لك.

- يا سيدي، كنت تتمتم ولم تقل شيئاً واضحاً.

- أنت هنا يا ابن الـــ...

لم يكملها لأنه فوجئ بالمؤرخ مقرفصاً عند أقدامه ينظر إلى شفتيه وهما تتحركان بسرعة عجيبة.

أكتب أنني أتبرأ من لقب شهريار، لأني فجأة اكتشفت أن ابن الكلب، كان يتعامل مع الروم والفرس ويبيع البلاد للوافدين، ولهذا فلست في حاجة إلى هذا اللقب الذي ورثته ولم أصنعه. أوف. حتى في هذه القضية يصعب على الإنسان أن يقول كل الحقيقة. فقد جئنا من صلبه. الله يلعن هذا الصلب المليء بالرغوة. إذا اتهمنا شهريار علانية سنسقط كلنا في نفس الفراغ ونصبح بالضرورة لقطاء.



Twitter: @ketab_n

ويتحول القصر إلى بورديل ومفرخة. يكفي أن نعرف نحن الحقيقة. فالحقيقة إذا اشترك فيها أكثر من إثنين شاعت. وأنا لا أريدها أن تصير ملكاً مشاعاً، ستصبح النار الحامية التي يقذفها علماء (حكماء) نوميدا - أمدوكال وعمالها. يجب الاحتفاظ بالسر حتى نستطيع القفز بدون كسور باتجاه الليلة الثامنة متخطين القميء، وأرمي رسائل العلماء التهديدية في المزبلة. أبناء النمس، يعرفون الصغيرة والكبيرة في هذه البلاد. لقد خسرت الحرب معهم يوم المباغتة. لو أبدتهم، لوجهت الرأي العام باتجاه الحرب الوطنية المقدسة لتوحيد جزر البلاد الممزقة. ندفع ثمن حماقتك يا شهريار. أعرف أنها لو توقفت قبل الليلة الواحدة بعد الألف، لكنت قد قتلتها. لكنها شهرزاد، دابة الغواية الأولى، كانت أذكى منك. سحبتك من شواربك مثل البهلول، باتجاه الليلة الواحدة بعد الألف لتروضك وتضعك تحت فرجها الذي استقبل الكثير من الضباط المرشحين لمسؤوليات كبرى وحاجبك الأمين الذين لا يشك فيه أحد. في الأخير وضعتك أمامهم. نظرت إليها بعيون فيها الكثير من الدهشة. أبناؤك الذكور الثلاثة. ابتسمت. قالت لك إنهم ذكور. عانقتهم بدون أن تسأل من أين جاؤوا!؟ كانت تعرف ضعفك. آه يا شهريار، لو واصلت تقليدك!؟ لا يستأهلن إلا الذبح يا صاحبي. عندما يخرج الدم من الأعناق الناضجة، ويضرب في الوجه، يشعر المرء بمتعة لا تضاهى. وعندما أصابك الوهن، تمددت في الفراش، لم يحركك أحد. بحثت عنها، كانت في الحجرة المقابلة تمارس الجنس مع حاجبك الأمين. لم تسمع إلا تأوهاتها وشخيرها ومثل الغبي ظننت أنها كانت تبكي من أجلك. انعزلت إلى الحجرة الأخرى حتى لا ترى دمعها. ما أسوأ ظنك يا ابن أمي وما أصغرك. تقلبت في مكانك. صعدت إلى أنفك رائحة كريهة. رائحة تشبه الأجساد وهي تتفسخ. بذلت مجهوداً، زادت الرائحة. مددت يدك، رأيت الدود الأبيض وهو يتآكل في حجرك. آخ... آ... خ يا شهريار. ظللت تصرخ، بينما كانت هي مستلقية على صدره، اندفنت فيه عن آخرها. وحين وصل الدود


Twitter: @ketab_n

إلى عينيك كان كل شيء قد انتهى. تصور الآن يا شهريار لو يدخل عليّ أحد أبناء الكلاب، من الذين أويتهم من برد وأطعمتهم من جوع. ويقف عند الباب، متكئاً على مقبض سيفه، ويطلب مني أن أتنصل على الحكم. ماذا سيحدث. سآكل رأسه نيئاً. لكن حين أقوم من مكاني، يرفع سيفه، لينزل به على رأسي. سأنظر إليه برأسي المقطوع وأتمنى أن أصرخ: ابن الكلب درتها بي قبل ما نديرها بك. لكن الدم يملأ فمي ورأسي. فأصمت إلى الأبد، متأملاً برأسي المقطوع وعيوني الجاحظة القصر وهو يغيب شيئاً فشيئاً، وأرى النجمة وهي تنكسر في الفضاءات الواسعة، وأرى ابن الكلبة يحضنها إلى صدره، ويقهقهان بأعلى صوتهما. إنها ذاكرة الحزن تزحف إلى وجهك أيها الملك السعيد، وحين تريد أن تصرخ بأعلى صوتك، يكون ابنك قد قطع رأسك، وضربك بحذائه العسكري، ورماك بعيداً لتستقر عند مدخل التواليت. كل هذا المجد العظيم، ينتهي عند هذه البوابات التي ندخلها مكرهين. والوراقون، أسوأ ما خلق الله، بمجرد ما تنقلب الأمور، يتغيرون، ويبدأون في رواية الحقيقة التي رأوها. الثقة فيهم مغامرة. يجب أن يسمعوا ولا يرون. وأن يدونوا ما يسمعونه فقط. من العبث أن يجد القادم بعدي كل هذه الخيرات تحت أمرته. سأحرق كل شيء، ومن بعدي الطوفان. الستائر القادمة من سمرقند، والخشب الفارسي، وعطور ومرايا بلاد الهند والسند. والله لن ينام في مكاني ابن الزانية. وكنزها الذي تخبئه وراء الأردية والأحجبة لن يلمسها في هذا المكان، ولن يولدها مرة أخرى، لن تفتح فخذيها لاستقباله ولكن لاستقبال الخازوق هذه المرة. في المرة الأخيرة حين أنجبت ولي العهد، ولي الزفت، أغمضت عيني ولم أتكلم كثيراً، فقد قضيت أسبوعاً بكامله صامتاً، لا أنطق بكلمة. كنت أحاول أن أقنع نفسي، أن ما حدث كان من أجل استمرار الملك. أقنعتني كالأفعى بأن أقبل كل شيء يأتي منها. آه يا شهريار يا ابن أمي. لقد خدعت مثلك. لماذا يا ربك عتقتها وتركتها حية. الفارق الوحيد بيننا يا صاحبي، أنني سأوقف اللعبة في الليلة



Twitter: @ketab_n

السابعة بعد الألف، لأنقل الزمن إلى عصر جديد، يبدأ وسط صفاء آخر.

كانت بعض الانفجارات تسمع هنا وهناك، قريبة من حيطان القصر الخارجية. أوف لا شيء جديد. قالها الحكيم باستكانة وهدوء. إنهم يطاردون كل الفلول التي تسربت باتجاه المدينة الملكية التي تنتهي كل طرقاتها السبعة باتجاه بوابات القصر، مشكلةً نجمة سباعية. أعطيت أوامر صارمة. يجب أن لا نتساهل ولا أن نتهور. الأمور محسوبة بدقة متناهية. أبناء الكلاب طمعهم كبير. ويكبر مع الأيام. قضى والدي أكثر من عشر سنوات وهو يعلمني تقاليد الملك والحكم. قال لي ستفرض احترام شعبك لك، عندما تحترم هذه الطقوس اللباس الأخضر المطرز الذي يوحي للناس بأن البلاد تتعرض لعدوان غير محدود، وفي حالة استنفار دائمة، ضد عدو يضرب ويهرب. وضرورة تمطيط الكلمات التي تريد أن توصلها إلى الناس. ولكنه لم يقل لي أبداً، أن ذلك كله يمكن أن ينتهي في لحظة من اللحظات، مثلما سقط هو على يدي. يمكن أن يخرجك شعبك (العزيز) إلى الساحات ويلبسك جلد حمار عجوز ويقول لك: أركض في الشوارع الفقيرة يا دابة الموت. يضربك الأطفال وترد صك (رفس) الحيوانات، ويركلك ربما كل أهل القرية وربما يعضك أحدهم من المؤخرة وقد يدخشك آخر بإبرة، ويبعصك آخر بإصبعه نكاية فيك وفي ملكك المنزه من الخطيئة. تقول لهم في لحظة الحسرة الأخيرة: أنا الملك الجبار يا أبناء الكلبة، الذين كنتم تمسحون مواطئه. يقهقه الناس من كلامك بأصوات عالية جداً، وتخسر كل الملامح التي كانت تتبعك وتدّعي أنها تحبك. تنضم بدورها إلى قافلة الشيطان التي تريد جَلدك. يكشرون في وجهك بعنف شديد، ولولا شرطة الانقلابيين التي تحيط بك سيأكلك الناس. في الحقيقة نحن كذلك لم نكن بسطاء، فقد قتلنا وأحرقنا حتى مللنا. آه يا والدي، كنت تعرف أسرار الحكم، لكنك كنت تجهل النهايات. كلكم مثل بعض. بل كلنا. ابنة الـ... دابة الغواية؟ دنيازاد (قطر


Twitter: @ketab_n

الندى)، ماذا لو سألتها الآن أين تخبئ عشيقها الذي تهيئه للحكم؟ ماذا ستقول؟ لقد رميته للكلاب والأسود في سراديب القصر التي تعشش بالحيوانات والبشر. هل يمكن أن يحدث هذا مع دنيا زاد؟ هل يمكن أن يحدث مع امرأة رغت حتى ماتت على صدره، وأبيضت عينيها مثل المصروع. حصرها في الزوايا عشرين مرة، رافعاً رجلها اليسرى عالياً ويضغطها أكثر باتجاه الحائط، وهي تئن من اللذة المجنونة. ورماها على السرير مثل الخرقة الخفيفة، وفتح فخذيها عن آخرهما، ثم سفدها في ليلة واحدة أكثر من ثلاثين مرة، وهي تحشرج: أرجوك لا تتوقف. أر... جو... ك... لا... تت...و... قــ... ف! يضغطها باتجاه صدره، حتى تسمع عظام صدرها وحوضها تتكسر عظماً عظماً، وحين يتعب، تذهب ألفتها، تحمر عيناها مثل جهنم، ثم تصرخ بأعلى صوتها يا ابن الزانية، هذا هو أنت! قم عاود من الأول. يدخل إلى الحمام. يحاول أن يسترجع كل ملامح جسدها الذي يشبه الجمرة، والشمعة، من أجل أن يحقق انتصاباً ما، لكنه عاجز، وعندما يفشل، يجلس عند قدميها. أرجوك يا سيدتي، لقد خارت قواي يا سيدتي. أعطيني ساعة واحدة للراحة، وأتيك أقوى من الأوّل. اذهب فأنت الطليق. وتختبئ في زاوية ما تمارس العادة السرية وتنتظر عودته الميمونة والسريعة. أبناء اليهود، كالأفاعي تخبئهم من البرد، فيخدعونك في أول فرصة. كان يجب خصيهم منذ البداية. الرحمة من شيم الضعفاء. أوف يا شهريار المسكين. أتعرف، وأنت خير الجاهلين، أن بين الجنس والحكم ألف علاقة. به تقوم الدولة، وبه تنزل، به نحكم ومن خلاله نُباد، ماذا يفعل الإنسان خصوصاً إذا كان حاكماً، وهو يواجه الخيانة في الفراش الذي يسكنه، في كأس القهوة الذي يشربه؟! أوف ومن قال أنها خيانة! هي جزء من اللعبة السرية للقصر. فقد رضيت بذلك مقابل ولي العهد. لكن، يا ربها؟! من قال لها مارسي الجنس بذاك الجنون. ألم يكن بإمكانها أن تنام مثلما ينام جميع مسلمي الجملكية. تأتي الرجل من حيث أمر الله ورسوله؟! يبدو أن تعب الذبح


Twitter: @ketab_n

للمحظيات ما يزال يملأ رأسي، ولكنه أراحني كثيراً. الأشياء التي تُغسل بالدم تخفف الوهن والإرهاق. كان يفترض أن أبهدله في التلفزيون فبهدلتُ نفسي. كنت أريد تدمير الخرافة التي أسسها البشير الموريسكي، وأظهره أمام الناس كرجل فقد عقله، ويبحث عن مبرر لجنونه داخل الأوهام، لكن العكس هو الذي حدث. أنا على يقين أن الرعية ضحكت كثيراً من غبائي. كان يجب أن أغسل العار بالدم ولولا نصيحة أصدقائي الشماليين لأحرقت المدينة بمن فيها، وأمتطي طائرتي الخاصة باتجاه الشمال، ولتنته الدنيا بعد هذا. صبرت كثيراً، ولولا محاولاتهم لرفع معنوياتي لذبحته في تلك اللحظة. حسناً لم أفعل، لأن المسالة كان يمكن أن تتطور باتجاه الأسوأ. بهدلة الشاشة كانت كبيرة وتجلدي كان أكبر. لكن حين غادرت الاستوديو كنت منفعلاً حتى الموت. طلبت السكين الحاد. السكين البوسعادي الذي يقطع من الجهتين، طردت مؤرخ الأمة. قلت له سجل وانسحب قبل أن أدخل لأنام:

«وخرج جلالته على الحرملك، فوجدهن هناك، الخائنات العشر اللواتي خدعن ثقة سيادته. نصحهن بالعودة إلى جادة الصواب، وأقسمن عند رجليه أنهن لن يكررن نفس الفعلة مطلقاً. رمى السكين البيضاء وتركهن يذهبن إلى مراقدهن. من يومها لم يحدث أبداً ما يعكر صفو الحرملك، وأصبحن من أعظم خادمات القصر، وأكثرهن تقوى. ويوم أخطأت إحداهن من جديد، هزها سيادته من كتفها، وقال لها، يا بنت! يا بنت! يا بنت!... ثلاث مرات. فردت وهي تحاول أن تزحف على ركبتيها: سمعتك يا سيدي. فقال لها يا بنت الناس، شوي للربّ وشوي للعبد. وقضى سيادته الصبيحة بكاملها معها. ومن يومها وهن وفيات للحاكم والدين حتى توفين في كنف جلالته وهن في عزه ونعيمه». وعندما انتهى من الرواية، طرد المؤرخ الذي تعود على عادات جلالته، فاختبأ وراء الباب الخشبي المطل على الحرملك وبدأ يتأمل جلالته وهو يتعامل مع محظياته. لا يهم. لقد تعودت عليهن، يقول الحكيم. دخلت إلى بيت الاسترخاء وناديت


Twitter: @ketab_n

عليهن، كن كثيرات وجميلات. عرفن من عيوني المحمرة أن في الليلة إما لذة جهنمية أو دم، وطلبت منهن أن يهيئن أنفسهن. ثم انسحبن بسرعة. صفقت بيدي فجاءني الكفان، دخلت عند الأولى قالت: هل يحتاج سيدي إلى حكاية للهدهدة أرويها له وهو ناعس على صدري، أرضعه من حليب نهدي كعادته؟ قلت لها: لا. افتحي فقط. طاوعتني وأنا أشخر على صدرها. كان الكفان وراء الحجاب. أكلت نهديها وأدميت شفتيها، ولكنها ظلت واجمة ولم تصرخ، هناك دمعة شقية فقط بقيت ملتصقة بطرف العين اليمنى. لم تصرخ. ويجب أن لا تصرخ. قلبتها على بطنها. طاوعتني بدون مقاومة. كانت تظن أنها عادتي الغلمانية. لم أدر كم دام الوقت، فقد غرست السكين البوسعادي في رقبتها حتى التصق بعظمة الرأس. كان لحمها طرياً مثل لحم الأطفال. لقد صممت منذ تلك الليلة أن لا أسمع إلى كذبهن الساحر. سيتغير كل شيء في الجملكية التي بنيتها بدمي. انزلقت عند الثانية. كانت محظية ممتلئة وجميلة. شعرت من خلال عيوني بخطر الموت. قالت سيدي أقتلني مباشرة ولا تعذبني. وقبل أن تنتهي من الجملة الأخيرة كان صدرها قد صار أحمر من جراء الطعنة الثانية. مع ذلك ظلت واقفة، الدم يملأ عينيها وفمها. ومع الطعنة الرابعة التي مزقت جزءاً كبيراً من حوضها حتى أعوج رأس السكين البوسعادي القوي، تدحرجت، ثم سقطت. حتى الكفان لم يعرف كيف يلف جسداً ممزقاً في كفن أبيض. ثم مررت على الثالثة، فالرابعة، الخامسة، السادسة، وعندما وصلت إلى السابعة كنت منهكاً، لكن رغبتي في الدم كانت تزداد كلما قطعت صدر إحداهن. قاومت كثيراً ولولا تدخل الكفان بجثته الضخمة لقتلتني. صرخت كثيراً عندما كتفتها كالخروف أنا والكفان. لست أدري أي جنون أخذني، لكني انزعجت كثيراً. كيف تهزمني امرأة؟ ولم أرتح إلا عندما قطعت رأسها ورميته على الحائط بكل قواي حتى ارتسمت خيوط سريالية من الدم على الصبغة البيضاء. العاشرة لم تقاوم كثيراً، ولكنها حاولت أن تفعل ما فعلته شهرزاد، قالت سيدي وحاكمي العظيم،



Twitter: @ketab_n

وحبيبي الذي لا يُنافَس، أعرف أنك جئت لقتلي. اعطني ليلة واحدة من نعيمك، وأعطيك عنقي لتفعل به ما تشاء. عندما انتهيت من مضاجعتها في المرة الأولى، قالت: هيت لك مرة أخرى يا حاكم العرب والعجم، فسفدتها مرة أخرى، كانت لذيذة مثل الحمام التركي، لكني شعرت بالوهن مبكراً. غيرت لباسها من جديد، وتعطرت بماء البرتقال والرمان والياسمين، كان اللباس شفافاً، وسماوياً. هذه المرة، بالرغم من الوهن، شعرت بلذة الماندرينا في فمي. ولم أتمالك نفسي إلا عندما وجدتني أركض وراءها من جديد تحت الطاولات والأسرة، ولولا تدخل الكفان الذي سألني، إذا كانت هناك صعوبات ما؟! قلت له انتظر، وكنت قد عدت إلى رشدي. كانت هي تهم بالخروج، بعدما ارتدت لباساً أخضر شفافاً مثل ضباب يظلل حديقة بكاملها. وحين فتحت عيني في وجهها، كنت قد بدأت أخط بالبوسعادي خطاً أحمر أمتد من العنق، مخترقاً الحجاب، حين اصطدم بعظام الحوض. رشني الدم في عيني ووجهي كالنافورة. كان طعمه مالحاً. لم تقل شيئاً لم تصرخ، ولكنها نامت على دهشتها، فمها يحاول أن يرسم ابتسامتها الأخيرة، ثم تهاوت مثل الشجرة. كان اللون الأخضر البارد قد صار من جراء الدم أسود كالقطران. تنهدت بعمق، شعرت بعرق الجماع والراحة ينزل في داخلي. لو لم أفعل ذلك كنت ذبحت دنيازاد، وذبحت معها المغربي المجنون. يا سيدي في الحرملك ولا فيها. كادت أن ترميني في فراغ شهريار الأول. لكن نباهة الكفان غيرت كل شيء. يجب أن يرقّى الكفان إلى أصول الحكم. شم الخطر من بعيد كحيوانات الغابة.

أوف... منهك حتى القلب... الآن، والطيور قد هدأت والشرطة قد كنست شوارع المدينة، وضجيج طيور النورس لم يعد يُسمع، أسأل: ماذا كان يتمتم ابن اليهودية بكلامه وهو يريد إقناعي بأن الدنيا بكاملها بنيت على رموزه (ن. ض. ق. ف. و). إنها الأسرار! وإذا تأتيك الكلمات، إما أن تقوم أو تترك نار القيامة تنحتها. نأتيك بالحرف المكين، لنبين لك وللأولين، أن الحرف سجن للطغاة



Twitter: @ketab_n

والظالمين. تلك حروف ذهبت مع الريح، ولم نخسر البلاد إلا لأننا خسرناها. وماذا بعد. هل كان يريد أن يقنعني بتخريفه وحماقاته؟ بدأ يصدق حقيقة جنونه، وأنه قادم من مدافن ثلاثة قرون؟ لا يعقل؟! مسكين البشير الموريسكي. ما يزال بعيداً عن الحقيقة. هو لا يعرف بأني مستعد لإبادة الثلثين لإصلاح الثلث. لكن سر هذه الحروف، يعذبني، النون (ن) والقلم وما يسطرون. وردت في القرآن. كلمات الشلل والخوف. مازلت هنا. لن أسلم في الدنيا بسهولة. سأنام على هذا السرير الفارسي طويلاً، وبعدها أبيع البلاد للذي يقدم أكثر من أصدقائي الشماليين. لا وريث لي سوى البحر والصخور والبراكين. خدعني الكل. حتى زوجتي. أعوذ بالله. هي ليست كذلك. واحدة محظية من نساء الحرملك المحظوظات. لابد أن تُرجم، ولا بأس من أن تسجل في كتاب الأمة، على أساس أنها كانت عظيمة وساهمت في الدفاع عن حصون الجملكية. الكتابة لا تكلف كثيراً. صحيح أن هذا كله كذب. ليكن. ولا يصدقه أحد. ليكن. لكني ابن النار وجهنم، فككت الحروف الوهاجة وفتحت الدروب المغلقة ولن أجد صعوبة في رواية حكاية دنيازاد (قطر الندى) كما أشاء. لتأت الليلة السابعة، مرحباً بالفاجعة. لن تكون إلا فاجعة المدينة، ودنيا زاد، والمغربي الوافد، سيبدأ بعدها العد الزمني كما أراه. سأغير الدنيا بكاملها، بل سأغير الألسن والعيون والملامح... سمع القذيفة العاشرة. كان صوتها قوياً وقريباً. لم يهتم كثيراً، فالطرقات كلها موصدة. وأبواب المدينة أغلقت عن آخرها. حتى الذبابة لا تستطيع المرور. أراد أن يفتح النافذة، لكنه خاف من صوت الغربان والنوارس. الساعة كانت تركض بسرعة مذهلة. أراد أن يوقف انسياب الزمن ولكنه لم يستطع. نزع الساعة الحائطية وبكل ما أوتي من قوة، ضربها على الأرض. فتراقصت أرقامها، لكن النهار ظل مستمراً في الامتداد، والليل الذي كان يعيشه لم يغير دورته. ليكن لكنّي سأعرف كيف أحسم اللحظة الخاصة. يا أنا، يا هم. يا شهريار بن المقتدر، المتمرد على كل الطقوس التراثية، يا البشير الموريسكي لهبيل الذي


Twitter: @ketab_n

يريد أن يرجعني إلى زمن حسمت علاقتي به. رغم انزعاجي منه، أعطيت أوامري الصارمة بعدم قتله. أصدقائي الشماليون، يشاطرونني في نفس الأفكار. قالوا سيسقط من تلقاء نفسه، سنغريه بالحكم، فالحكم يسيّل اللعاب. سنوفر له أجمل الشماليات، والإنجليزيات، الفرنسيات، الألمانيات، الأمريكيات، وإذا لم نستطع، سنلغي ذاكرته، ونرميه في الشوارع ولن نتيح له فرصة التحوّل إلى شهيد. عليه أن يرى شهريار بن المقتدر وهو يغير مسار الليلة الثامنة. الأصدقاء محقون. قتله سيوحد القلعة والبحر، وسكان المدينة الشعبية. قلت لهم: غيروا هذه الذاكرة بأسرع ما يمكن فأنتم تملكون الأجهزة الحديثة القادرة على فعل ذلك، إنها مسألة وقت، ولكنّي أيها المغربي القذر، لن أصيرك لا الحلاج ولا النينوي. المؤمن يلدغ من الجحر مرة واحدة. الحلاج، على عظمته أسقطناه بهدوء. ردمناه في السجن طويلاً، حتى نسته الرعية، ولكنها كانت متأكدة أنه ما يزال حياً، وهنا بيت القصيد. ومع الزمن نسيه حتى مريدوه. ويوم أنزلناه إلى أسواق بغداد للرجم، مسبوقاً بالتهمة القاتلة: زنديق، وساحر، وصاحب كرامات، ومدبر ثورة القرامطة الكافرة، كان كل شيء قد انتهى، حتى الشبلي، الذي كانت نيرانه تتآكل في أعماقه، رماه بوردة ثم انسحب، ولم يلتفت وراءه. اكتفى بسماع آلامه وهو يصرخ. آه يا سيدي، قتلتني وآلمتني. آه يا الله، آه يا أنا ما أبعدك عني وأنت فيّ. من هذب نفسه في الطاعة وصبر على اللذات والشهوات ارتقى إلى مقام المقربين، ثم لا يزال يصفو ويرتقي في درجات المصافاة حتى يصفو عن البشرية، فإذا لم يبق فيه من البشرية حظ، حل فيه روح الإله الذي حل في عيسى بن مريم ولم يرد حينئذ شيئاً إلّا كان كما أراد، وكان جميع فعله فعل الله تعالى. الدنيا لم تكن مستعدة لتتحمل إلهين. يا هو! يا المقتدر!؟ موته كان قاسياً. لقد صفته النار حتى أردته خيطاً من نور. ربما كان الخطأ هنا. لقد غسلت جسده النيران ليواجه بعدها ربه الذي لا يتحمل أوساخ وأدران الزندقة. هكذا قلنا في كتب الدواوين. لكن في



Twitter: @ketab_n

الحقيقة، فقد كان المقتدر لا ينام إلّا وحلمة ثدي إحدى محظياته في فمه، ممزوجاً بعود النوار والزعتر والقرنفل. قتله مريدوه. الحلاج مات قبل أن يصلب وقبل أن يحرق. قلنا كان كافراً. أوف ومن كان مؤمناً في ذلك الزمن. لقد باع المقتدر الحكم والدنيا لقهرماناته الفارسيات والتركيات. لا أحد يحل مشاكل الدولة المعقدة غيرهن. الثقة فيه منعدمة، لكنه أحد الأجداد الذين حافظوا على الحكم بأسنانهم وأظافرهم. المُلك يعمي الأبصار، والحكم قيامته. هو دم يحل دمه، وجرح يفتح جرحه، وفرح ينجب خوفه. لو لم يقم المقتدر بذلك من خلال ابن الفرات المسخوط لقاد الحلاج العصيان الشعبي، ولدخل العرايا قصور العباسيين، ولأكلوا جمال بغداد بكامله مثل الجرذان. كان يجب أن يحل دمه. محونا الذاكرة وكتبنا تاريخنا، لكن القوالين أعادوه إلى الدنيا من جديد. حتى الطبري كان معنا، لا يكتب إلا بالإشارة. قلنا له دبج يا شيخنا. فرصف الكلمات الثقيلة «يقال أنه كان زنديقاً، ألقي عليه القبض في أسواق بغداد، التي قتل فيها يوم الثلاثاء الموافق لـ 6 ذي القعدة سنة 309 هجرية، والموافق لـ 6 آذار سنة 922 ميلادية». السيادة لن تكون إلا بالقوة، والتاريخ الذي نكتبه ونعيد كتابته، ونعيد تصحيحه كما نراه، لنعيد كتابته مرة أخرى. هكذا التاريخ، عندما نفقده، نخسر كتاب الأمة، ونفقد المُلك. لا يا الموريسكي، لن أرتكب حماقة قتلك. أصدقائي الشماليون يقرأون الطالع. قوتهم لست أدري من أين جاءتهم، ولكن كل ما توقعوه حدث بالفعل. لن أرتكب حماقة قتل النينوي. فقد قُتل ببلاده (في ستين داهية. الله لا يرده). أعطيناه فرصة الشهادة. قابل الموت بابتسامة. يقال أنه عندما رأى بياضاً، فتح عينيه بدهشة المتصوف، ثم فجأة غرق في نيران الصنوبر المقدس. لم يقل ولا كلمة واحدة. لم يستجدِ أبداً. الكثير من الناس يكونون قد تعلموا من كبريائه. بالرغم من أوامر سيدنا الخضر (أوامري) الصارمة، فهذا الشعب مصنوع من حجر البراكين، لا يمكن ترويضه. لا يصلح إلّا للحروب الوطنية والزلازل. لو تغلق الدنيا كلها في عيونهم سيجدون حتماً ثقباً يرون



Twitter: @ketab_n

الشمس من خلاله. ولو أغلقنا كل الممرات، ستفاجأ بهم يشربون معك نفس القهوة المسائية. سيدنا الخضر لم يعد نافعاً لهذه البلاد. عندما أتخطى مصاعب الليلة السابعة سأعطي أوامري الصارمة لإلغائه من تراث الجملكية. وسيخرج من حدود نوميدا ـ أمدوكال في ظرف 24 ساعة. سأقوم بإعدامه إذا استدعى الأمر ذلك لأنه لم يكن ذكياً. لم ينصحني ولا مرة واحدة. كان دائماً مثل الدابة ينفذ ما أقوله له. سأعيد النظر في كل شيء، في سيدنا الخضر، في برامج التلفزيون، في التاريخ، في التراث والسياسة، في نظام الحكم ذاته، القصر، المحظيات... وبعدها سأسمح للموريسكي بمغادرة السرداب. أرميه في شوارع المدينة الشعبية، وأتركه هناك يحكي ما رآه. يروي عن الماضي، الذي يكون قد اندثر، لأن زمن فاجعة الليلة السابعة بعد الألف يكون قد سقط من الحسابات والتقويمات الهجرية والميلادية، وتكون ذاكرته قد تفتتت مثل تربة الكهف المحروقة. أرمية داخل مجموعة تروي الحاضر الذي يعد بالخير والنور. سيموت من تلقاء نفسه. يخلق من الشبه أربعين. سنصنعهم على شاكلته. الشرطي لن يستطيع أن يكون قوالاً. الذي أرسلته عاد إليّ لاهثاً في ذلك اليوم، يا سيدي لقد طاردني الأطفال بالحجارة. قلت له ألبس لباساً أبيض واذهب أنت وحارسين. قال فعلت يا سيدي، ولكني رُفضت. يريدون صاحبهم الغائب. قلت له أهذِ كما كان يهذي هو. احك عن عذاب جهنم والقيامة وعذاب القبر. قال فعلت ذلك كله وطردوني وكادوا يقتلونني. صرخت في وجهه: يا الحمار. مدخل المدينة لا تستطيع أن تحكي فيه. الله يلعنك ويلعن الي علمك هذه الصنعة قال، سيدي قلت لك فعلت ذلك كما قلت لي. قبضته من عنقه وكدت أخنقه بكل قواي، وعندما تدلت عيناه تركته، كان يسعل ويحاول أن يسترجع أنفاسه المتقطعة.

ـ سيدي، قلت لك مدخل المدينة؟!

ـ أي، مدخل، قلت لك قم بحلقاتك بعيداً عن وجوه الصبية؟!

ـ يا سيدي لم أفهمك!



Twitter: @ketab_n

كان الحاجب قد دخل على الحكيم بشكل فجائي وهو في حالاته التي تريد أن تهرب من الذاكرة بحثاً عن حميمية مفقودة.

ـ أنت يا سيدي قلت لي، في الحالات الخطيرة لا تستأذن. أدخل مباشرة وأخبرني.

ـ أنت أحميدا بوحلاقي!

ـ يا سيدي أنا حاجبك الخاص.

في تلك اللحظة أدرك أن جهنم التي كان يعيشها تداخلت مع الحاضر الذي لم يعد ممكناً رؤيته خارج الخراب الكلي، وخارج الفاجعة التي كانت ترتسم في آفاق نوميدا ـ أمدوكال.

ـ لولا ثقتي فيك لقطعت رأسك، ماذا وراءك لم أسمعك جيداً.

ـ مدخل المدينة الأول استولى عليه عمال البحر.

ـ أوف هذا ما كان؟! للمدينة سبعة مداخل. لنا مدينتنا وبحرنا.

ـ أتركهم يستنزفون قواهم. لن يغيروا شيئاً. ماذا فعل العلماء عندما احتلوا القلعة منذ أكثر من نصف قرن؟ لا شيء!

ـ عساكرك يا سيدي يقولون أن في الأمر خطورة.

ـ الضباط دائماً يغالون لإعطاء قيمة لأنفسهم. احتلال مدخل واحد لن يغير موازين الحرب. الصباح رباح. روح ترقّد خير لك.

كانت أصوات المدافع قد ازدادت قوة، وأصبحت جافة وحادة أكثر من المرات الأولى. بينما طيور النورس والغربان كانت ما تزال تضرب بمناقيرها على زجاج النوافذ والأبواب والأسقف، خوفاً من أصوات المدافع والرصاص، وبحثاً عن ملجأ تخبئ فيه رؤوسها. تنّبه لها. كشر من جديد بالرغم من الكآبة التي نزلت على قلبه فجأة. ستموتين هناك يا طيور الجحيم. لن أفتح زجاج النوافذ، لن أفتح الأبواب. لتلتهمك النيران، فقد كنت دائماً نذير شؤم.

بدأت في آخر الليل أصوات المدافع تخفت شيئاً فشيئاً حتى


Twitter: @ketab_n

خفتت. تمدد في فراشه. في بيت الخلوة مطط رجليه جيداً. أوف. البرد يدخل العظام كالمسامير.

الآن يستطيع الإنسان أن يغفو بدون أي ضرر.

ـ لن يحدث أي شيء. للمدينة سبعة مداخل.

ثم أغمض عينيه على نجمة هاربة، تفتّت في الفضاءات العليا إلى آلاف الشظايا.



Twitter: @ketab_n

# 14

«لم يمت ولكن شبه لهم. لم يمت ولكن شبه لهم».

يا حنين القلب أدرك معبودتك، إني أموت حزناً. النار تصعد من أقدام المدينة، إنهم يحاولون إنهاء التاريخ وإيقاف الزمن الذي تحول إلى وادي أصبح من المستحيل إيقاف سيولته. أنقذني أيها الحنين. في القلب صفاء يصعب عليه أن يزول، في العين رؤيا. هي زرقة البحر، هي ألوان الأسماك التي أجبرت على مغادرة أمواجها. في الذاكرة وجع يذهب ويعود مثل الريح الساخنة. قالوا مات. لا!؟ لا!؟ البشير لم يمت ولكن شبه لهم. يخلق في الشبه أربعين. لا يمكن أن ينتهي الموريسكي عند تخوم مدينة عشقها ولم يرها. كانت ماريوشا تتألم وتتمتم، وهي تقطع الأزقة الضيقة باتجاه السوق وبعض الأبنية العالية التي أصبحت داخل السور الجديد الذي بني مؤخراً بعد الاستيلاء على قسم من المدينة الجديدة وعلى أحد مداخلها السبعة. كانت عائدة من القصر. رأته بصعوبة ولكنها رأته بفضل تهديدات العمال وعلماء القلعة. لأول مرة تحمل الرسالة الموجهة إلى القصر وعليها ختمان (العمال والحكماء). انتظرت ماريوشا أكثر من ساعتين، ولكنها في النهاية سُمِحَ لها مع حراسة مشددة فوق العادة. شعرت في لحظة من اللحظات كأنها المرة الأخيرة التي ترى فيها البشير مشعاً كعود النور. كان عالياً، ولكن حزناً عميقاً كان يملأ قلبه وعينيه. من حين لآخر، تأخذه غفوة



Twitter: @ketab_n

فينسى محيطه وأصدقاءه. كان على ماريوشا أن تلمس دفء يده. تدخلها إلى صدرها. تضعها بين نهديها. يتأملها من جديد. يعود إلى صفائه، راسماً ابتسامة حزينة بين شفتيه. كان يشعر بحاسته البعيدة كأن شيئاً ما يمشي على غير عادته، في خط غير مستقيم. وأن سفينة نوح التي رآها لأول مرة في الحلم بدأت تغرق، تغرق بدون هوداة. الغريب أنهم غيروا مكان إقامته. صار في حجرة جميلة، مؤنثة بشكل رائع. الحرارة والدفء ولوحات عالمية غالية، لرينوار، وبيكاسو ورفايلو، ولوحات سلفادرو دالي، ودافنشي. وكلها لوحات أصلية. مقطوعات موسيقية لتشايكوفسكي، بيتهوفن، الإخوة شتراوس وغيرهم. قالوا لي، تقول ماريوشا، عندما سألتهم عن هذه التحولات، نحن لم نعذبه، لم نفعل معه أي شيء يمكن أن يمسه في داخله. لا شيء يثير الانتباه أو يخيف داخل هذه القاعة، سوى غفوته المتقطعة.

ـ هل خسرنا البشير يا ماريوشا!

فاجأها عمي الطاووس ابن أمه وهي تهم أن تقف بجانب السور الجديد، وتتفحص شقوقه، بسبب دك المدافع التي لم تتوقف أبداً. كان يحمل سلاحاً أتوماتيكياً على ظهره.

ـ البشير ليس طفلاً يا عمي الطاووس. ليس إنساناً عادياً.

لقد خلق للعذاب. خلق لإنقاذ الآخرين من المسرحية السخيفة التي شيدت منذ أكثر من ثلاثة قرون، وربما أكثر من خمسة عشر قرناً. هو لا يبيع الله لإنقاذ ذاته. الله في دمه وفي عروقه، في عينيه وفي ذاكرته، في الملائكة التي لا يحبها كثيراً وفي الزبانية، في عيون ماريانة وفي البحر الذي شقه وحيداً، بالرغم من جهنمية القرصان الإيطالي.

لو كان أنانياً لبقي هناك. فقد كانت ماريانة الغجرية كل عمره. ومع ذلك عاد، لا يحمل سوى أصداء البحر، وذاكرة مليئة بالأوساخ



Twitter: @ketab_n

والجروح. أرأيت يا عمي الطاووس مفعول المواجهة. الحاكم بأمره، الحكيم، شهريار بن المقتدر، لن يغفر له ذلك أبداً. تفهمه بقوة صفائه في الصباح الموالي للمواجهة التلفزيونية، أنت تعرف ماذا حدث. كل الناس كانوا يريدون أن يدخلوا في الفرق الانتحارية لإنقاذه أو الموت عند عتبات القصر. شعروا أن لهم صديقاً عظيماً جاء من أجلهم جميعاً، ويوم أردنا اقتحام المدينة الجديدة كانوا هناك. ويوم بدأنا بناء سور المدينة، لم يتوقفوا. لا ليلاً ولا نهاراً. وحين طلب منهم العمال وعلماء (حكماء) المدينة بوضع قنابل حارقة في البنك الوطني الرئيسي، داخل المدينة الجديدة، قاموا بذلك بدون أي تردد. وحين دخلنا إلى الجهة اليمنى من السوق الداخلي كانوا هناك. لقد أخرجوا سيدنا الخضر من ذاكرة الناس. لأن سيدنا الخضر لم يعد يزور المدينة القديمة، فقد انسحب وخرج من أكثر المنافذ ضيقاً. هو لم يمت، ولكن شبه لهم يا عمي الطاووس. الشمس لن تغير دورتها. ستظل تشرق من شروقها وتغيب من مغيبها. لن تغير الأدوار بأمرة الحكيم أبداً. أصبح الناس على يقين أن ما يحدث يمكن أن ينتهي ذات يوم كما تنبأ له البشير. حنين المدن البعيدة، وأوجاع الحزن العميق وذاكرة الذين لم ينسوا تدوين هزائم ملوك غرناطة. أرأيت يا عمي الطاووس، البحر لن يفقد أملاحه والسماء لن تخسر زرقتها. قال لي قبل أن تصيبه الغفوة في زيارتي الأخيرة، أنا على يقين يا ماريوشا أن هذا النعيم لن يدوم طويلاً. شفت يا ماريوشا، كيف يتحسس جلدهم من التاريخ. يرتعبون من الحقيقة. لم يعذبوني على الإطلاق منذ زيارتك الأخيرة. يعطونني كل ما أطلبه، لكني كلما رغبت في شرب كأس ماء يقدمونه لي، مصحوباً بقرص ملون بلون يقارب البرتقالي. قالوا لي أن القرص يساعدني على الراحة النفسية. قلت لهم لا أشعر بأي وهن نفسي. قالوا أنها تساعدني على تنظيم تنفسي لأني أشخر في الليل كثيراً. قلت نومي يكاد يكون هادئاً ولا أشخر مطلقاً. قالوا. يجب أن تشربها يا البشير حتى تقاوم رطوبة السرداب. قلت الحجرة دافئة ومكيفة. في الأخير



Twitter: @ketab_n

انزعجوا من كلامي وصرخوا دفعة واحدة، كانوا أصدقاء الحكيم الشماليين، يا أخي الحكيم خائف عليك من الموت المفاجئ، وهذه أوامره. منذ مدة وأنا أشربها، ليس لها أي مضاعفات جانبية. حموضتها تشبه حموضة البرتقال. دائماً قبل أن يخرجوا يفتحون فمي ويتأكدون ما إذا مر القرص مع البلعوم أم أنني خبأته تحت لساني. ثم ينسحبون بكل أدب، وبدون طرح أي سؤال، مع أني قبل أيام، في الفترة التي تلت المقابلة التلفزيونية، كنت أنتظر أن أخرج إلى الساحة وأُعدم حرقاً، بشجر الصنوبر، أمام الجميع. لأني رأيت جنيّاً أزرق يعربد في عيني الحكيم. كان حزيناً، يخبئ انزعاجاً غير محدود. هكذا الحكام. يقبلون منك أن تكون تافهاً ونصف إنسان لكنك عندما تحاول أن تكون أنت، تصير وجوههم مثل الرماد، ويدخلون بعنف إلى قلبك، وينزعونه من جذوره. كانت تقاطيع الحزن تبدو واضحة على وجهه وهو يتكلم. قلت له يا البشير؟ إن المواجهة بينك وبين الحكيم كانت مفيدة. لقد حركت جنون المدينة وكشفت القذارات والجهل الذي كان ينام عليه القصر. وبعد لحظات من الغفوة. لست أدري هل سمعني أم لا، قال: على العلماء أن لا يتركوا الليلة السابعة تمر بهدوء. الليلة إذا مرت لن تعود. الكتاب المفتوح يجب أن تبدأ الكتابة فيه انطلاقاً من هذا الجرح الذي يحتاج إلى فصد جديد حتى ولو كان مؤلماً جداً. ن. ف. ق. ف. و. لم يعرفها الحكيم، حتى وهو يغسل يديه وذاكرته في دم محظياته. قلبه مليء بالظلام، لكن يا سيدي، تقول ماريوشا، نحن فهمنا وصيتك. أدركنا أنك تدعونا للوحدة لكسر الشوكة. النون (نحن) الفاء (الفقراء) القاف (قوتنا)، الفاء (في)، والواو (وحدتنا). لم تمنع الحيطان السميكة وصول وصاياك. بفضلك ربحنا نصف المدينة وتحوطنا أكثر وبنينا الأسوار لحماية السكان من الهجمات المحتملة. ننتظر عودتك يا سيدي البشير نورك في عيوننا، ونارك تملأ قلوبنا. غفا طويلاً وبعدها عاد من جديد، ومسحة حزن تقرأ بسهولة من بين قسمات وجهه. قال: بدأت أنسى كثيراً يا ماريوشا.



Twitter: @ketab_n

أتعرفين ماذا طلبوا مني!؟ أوصلي هذا إلى العلماء. جاءني الشماليون. كان الصباح بارداً. هم الذين عملوا على نقلي إلى هذا المكان. قالوا ان حكام البلد رعاة ومتخلفون، لا يقدرون مجهود وصدق العلماء. كنت أظن أنها كلها مقدمات لطمأنتي قبل قيادتي للذبح والسلخ والصلب. ما حدث للحكيم لم يكن هيناً أبداً. كنت قد بدأت أفكر بجدية كيف أواجه الموت. قلت في أعماقي، تدحرجت الكلمات منكسرة، ليكن!؟ عليّ أن أقف شامخاً قبل أن أُحرق. وإذا كان لابد من الموت فلنمت واقفين. وماذا حدث بعدها؟! بعد ما رأيته قد صمت طويلاً، قالت ماريوشا. الذي حدث يا ماريوشا، يقول البشير، هو أنهم أصروا على أن أنقل من السرداب إلى هذه القاعة المجهزة بكل روائع الدنيا. قلت لهم: الأمور عندي سيّان. النور الذي في داخلي لا يهزم، لا تلينه الرطوبة، ولا تطفئه حماقات الحكيم أو خيانته الوطنية. لا أطلب تكريماً اطلب منكم أن تدعوني وشأني، فذاكرتي مليئة، وأستطيع أن أعيش معها قرناً من الزمن بدون ندم. وبدون الإحساس بعذابكم وخرابكم. قال لي الشماليون، بعدما بدت الهزيمة منكسرة في أعينهم، جئنا بك إلى هذا المكان لأننا نقدرك ونحترم كل ما قمت به من أجل شعبك وذاكرتك. ونقدر جرأتك الكبيرة في تجاوز خرافات الكثير من الحكام، حتى العلماء لم يقوموا بما قمت به أنت. شعرت أن وراء ذلك أشياء كثيرة، ودقيقة، لا يمكن لمسها بسهولة. وعندما وصلوا إلى حديث المواجهة مع الحكيم في التلفزيون قهقهه أحدهم وهو يمد يده باتجاه المكيف لينقص من حرارته الكبيرة. أوف نوميدا ليست للملوك فقط. من حق الناس أن يعرفوا أسرارها وأسرار الحكم في هذه البلاد. أنت عالم كبير يا سيد البشير، لقد جئت من زمن يتجاوز الثلاثة قرون لتعيد الأمور إلى نصابها. سألوني حول هذا الموضوع كثيراً، ولكني متأكد أنهم خرجوا بنتيجة واحدة، وهي أنهم يقفون أمام مجنون مسلوب بعشق المدن التي لم تعد موجودة. وكانوا في كل مرة يحاولون أن يوحوا لي بأني كنت مولعاً بحب قراءة الشقاء الأندلسي


Twitter: @ketab_n

في كتب التاريخ، في المكتبة الوطنية، وأنها مع الزمن تحولت إلى حالة تلبس. يقول أحدهم من العارفين بعلم النفس بأنها حالة تقمص، حدثت معي يوم تلقيت ضربة شمس على الشاطئ الساحلي للمدينة، أو هاجمتني الأمطار، فأختبأت داخل مغارة. خرجت بعدها متوهماً بأني من بقايا أهل الكهف. (ليسوا متأكدين إذا كانت ضربة شمس، أو الأمطار الغزيرة هي التي دفعتني إلى الكهف). كل كلامهم كان يوحي لي بأني مجرد رجل أصيب بحالة مسّ من الجنون. تكررت زياراتهم عليّ من أجل تيئيسي، ولكن عبثاً كانت محاولاتهم. في اليوم الأخير، قرأت التصميم في عيونهم قالوا: المدينة تهتز بسببك، وعليك أن تدفعها إلى الصمت بوسائلك الخاصة. استعمل حكمتك، فلست رجلاً عادياً قالها أحدهم باللغة الفرنسية، وترجمها آخر بالعربية. لا نريد أن نجرح عودتك أمام الناس، لن نقول أنك رجل عادي هرب من الساحل خوفاً من الشمس أو المطر، ولكن عليك أن تفهمنا. تأكدت من عيونهم مرة أخرى أني مجرد مجنون استعصى عليهم قتله. وأكدوا لي جميعاً أني، إذا أخليت المدينة من الناس والمتاريس والعودة بها إلى الوضع القديم، سأجازى على مبادرتي التي لن ينسوها أبداً. لكني رفضت، لأني لم أكن أفرّق بين الحقيقة والكذب عندهم. ولهذا افترضت منذ البداية. أن كل ما يقولونه كان موجهاً ضدي، وضد ناس نوميدا ـ أمدوكال البسطاء. كنت أتمنى أن أخرج من هذه الحفرة، ومن الحجرة الضيقة التي كانت تسد نفسي، بالرغم من جمالها ودهشتها. لكن بأي وجه أقابل ناس المدينة!؟ المدينة التي وصلني بأنها تدافع بأظافرها وأنيابها على حقها في الحياة. حتى ولو فعلت ذلك، واستمع إليّ عشرة من الناس فلن يسمعني لا البحر، ولا الأزقة الضيقة، ولا أسوار المدينة العتيقة والجديدة. يستحيل أن أتخيل نفسي محمد الصغير، أبا عبد الله!؟ لن أكون إلّا الشوق الأندلسي، وحزن شواطئ المارية، ووحدة جبال البشرات! يستحيل!؟ ظلوا يصرون بدون جدوى. في الأخير، قال كبيرهم، العالم النفسي، وهو يربت على كتفي: يا البشير، كن



Twitter: @ketab_n

رجلاً نكون رجالاً معك. لم أفهم جيداً. واجهني. نظر إلى عيوني بهدوء، يا البشير، تأكدنا أنك بالفعل رجل قادر على إدارة البلاد. كنت أظن أنه يلمح لي بمنصب قارئ للوثائق الأندلسية القديمة بالمكتبة الملكية القديمة، وأسامر الحكيم في خلواته المتعددة. ولكنه ذهب إلى أبعد من ذلك. صفق العالم النفسي، أغلقوا كل الأبواب، سكروا الأجنحة، علقوا المصاعد بعد أن عطلوها مؤقتاً في أعلى السرداب. لم أعد أسمع على الإطلاق صريرها وهي تصعد وتنزل. اقترب من أذني اليسرى. قال سنفضيك سراً يجب أن تحافظ عليه، لأن رأسك مرهون به. قلت لا أستطيع، ما أسمعه ليس ملكي، فهو ملك للأسواق والشوارع. وإذا كتب لي أن أعود للمدينة ثانية سأكرر نفس الشيء وفي كل الأسواق. قالوا لا يهم. المهم أن لا يصل هذا الخبر الخطير إلى الحاكم بأمره. قلت لا أعتقد أن الحكيم بعد الذي حدث يرغب في رؤيتي. لن يحدث ذلك إلا من أجل طمأنتي بأن قطع رأسي أو حرقي قد حان. شعرت بالفرحة تملأ عيونهم، فقد كان هذا الأمر أساسياً بالنسبة لهم. قالوا، البلاد تغلي، والناس يزحفون باتجاه الحصون الأخيرة. في يدك خاتم سليمان السحري. إلعن الهدوء والطمأنينة وانهض لرؤية الشمس، إنها تأتيك محمولة في لفافة زرقاء. أنقذ البلاد من بحر الدم. أعطها رحماً جديداً للولادة. بأقصى درجات السذاجة قلت لم أفهم ما تريدون الإفضاء به. أشياء كثيرة ضاعت عني داخل حديثهم. قالوا: نريد أن نقفز بك باتجاه عصر آخر مع احتفاظك بذاكرتك.

- أوقف هذا البحر من الدم الذي يلوح في الأفق.

- لا أملك الوسيلة.

- بل تملك أعماق الناس. لوح بيدك يتبعك الجميع.

- أنا قلتها للحكيم. لا أنا قادر على حمايته ولا هو قادر على حمايتي.

- الخراب سيعم البلاد.


Twitter: @ketab_n

- سنعاود صنع الحياة من جديد.

- اسمع يا البشير. نقولها لك الآن صراحة. نريد إلغاء النظام الجملكي وننصبك ملكاً على البلاد.

- ... ... ...

- يا أخي هل أنت من حديد!؟ صوان!؟ هذا جمود عقائدي لا نريد منك شيئاً سوى الحفاظ على أسواقنا وعلى حصتنا الثابتة في النفط الوطني.

- والحكيم الذي وضعكم في منصب الاستشارة.

- نتكفل به نحن. نستطيع أن ننزعه متى تشاء. نريد رجلاً يحافظ على الهدوء وعلى وحدة البلاد.

- ماذا تربحون من ورائي.

- لا شيء. ولن نكذب عليك. تعرف أن شركاتنا تسيطر على السوق النفطية في البلاد. وهذا يعني الكثير بالنسبة لنا. اقبل نتوجك الآن.

بدأت الآن أفهم اللعبة. يريدون حرقي في وجه الناس الذين قتلوا على أسوار المدينة من أجل إنقاذي. جاءني وجه محمد الصغير، أحمر، ساخناً، ممزوجاً بابتسامة ممطوطة أكثر من اللاّزم بسخرية. دغدغني، لكزني بكتفه مثلما نفعل عادة مع الأصدقاء القدامى. تمتم في أذني. لا أحد يسمعني يا صاحبي. أنصحك أن تقبل. لا تضيع الفرصة. الملك إذا لم تأخذه سيأخذه الرعاع. أكرهك لأنك شوهت سيرتي في الأسواق، ومع ذلك فأنا أقبل بك وأسامحك، بل أصادقك إذا قبلت أن تتعاون مع الأصدقاء الشماليين مثلما فعلت أنا منذ زمن بعيد. يملكون القوة يا ربك، والزين، وممّو العين، والزغب القشتالي. لا تكن غبياً، فلن تنطح السماء. حضارتهم أقوى منك ومنّي ومنا جميعاً. الرعاع سيتخلون عنك في لحظة الحسرة، ويبيعونك للحجارة مثلما باعوا الاتقياء من قبلك. تعودوا على السوط



Twitter: @ketab_n

والجلد. استعملهم قبل أن يستعملوك يا صاحبي. أردت أن أصرخ في وجهه، ولكني أدركت في اللحظة ذاتها أني لست في حاجة للردّ عليه أبداً. كلامه كان بعيداً عني، مثل بعده عن قلبي. لا أملك القدرة لأكون محمد الصغير، ولا لأكون شهريار بن المقتدر حاكم الجملكية، لا أعرف الزمن الذي قذف بي إلى هذه التهلكة. هل حقيقة عدت من غرناطة ونمت زمناً تجاوز الثلاثة قرون في الكهف، أم أنها الكتب التي أخذت عقلي كما كان يقول أصدقاء الحكيم الشماليون (الأوروبيون). لكن من أين جاء جدي الذي التهمته البشرات. من أين جاءتني ماريانة التي أحرقت قلبي، وأرمادة القرصان الإيطالي أي خيال أبدعها، وهل أنا صغت الزحف التركي على أسوار هذه البلاد الطيبة؟ بيني وبينهم شيء لا أدركه ولا يستطيعون إدراكه أبداً. لست أدري بالضبط ما الذي جاء بي إلى هنا، ولكن لم يكن ممكناً أن لا أجيء. أينني من حكم البلاد. ليعيدوا لي حنين الضائعين، ودموع ماريانة، وأشواق غرناطة ومتاعب حي البيازين، وبحر المارية، وليعيدوا البلاد إلى ذويها، وسأندثر مثل الغيمة الممطرة، مثل الضبابة الفجريّة، التي تأتي وتنكسر مع أولى الأشعة الصباحية.

- لا يا سادتي. لن أكون أبا عبد الله، محمد الصغير.

- ولسنا لا إيزابيلا القشتالية ولا فرديناند الأراغوني.

- لم أفهم جيداً؟!

- كنا مخيرين بينك وبين دنيا زاد وابنها. وأنت تدفعنا باتجاه الحل الثاني وإلى مزيد من الخراب.

- لست صانع الخراب.

- تتحمل المسؤولية كاملة. خفنا على دم المساكين الذي سيضيع بسببك. أنتم الخاسرون. نحن نعرف أن ساعة الحكيم بأمره قد توقفت. سنجد حلاً لتمطيطها بتعويضه. سنغامر بابنه. ولتكن دنيازاد قهرمانته الكبيرة.

- لا أملك أي جواب!؟



Twitter: @ketab_n

- نريدك أنت يا البشير لإنقاذ البلاد، لأنك أكثرنا حكمة.

- حكمتي الوحيدة، أن تعيدوا البلاد إلى ذويها. أما أنا، لست شيئاً سوى ذاكرة لا تباع ولا تشترى أيها السادة.

كان قلبي قد زاد امتلاءً بالنور، وبروائح المسك الغرناطي وساحل المارية. اشتقت لضجيج المدن القديمة. لحنين المقتولين ظلماً.

آه يا شيخي الحلاج. وضعوا الملك في يمينك. قلت أنا الله. وضعوا الأقمار والشموس مجتمعة في كفك الأيسر. قلت أصغر من حلمي الذي لا يحد. كانت جراحك غائرة وصوتك صافياً كشمعة في لحظات احتراقاتها الأخيرة. لقد كنت صغيراً يا الغزالي. أيها المتكلم الأشعري الصغير. حين قال شيخي أنا الحق، قلت له: فمن قال أنا الحق مغتر. ويعتبر الأمر محل الالتباس. إذ المتجلّي يلتبس بالمتجلّي فيه كما يلتبس لون ما يتراءى في المرآة بالمرآة، فيظن أنه لون المرآة. ما أصغرك يا سيدي، لأنك لا تعرف سحر الكلمات وصوفية الموت عشقاً. حين قتلوه كان مصطلماً بحالات العشق التي لا تحد. طاسين النقطة دخل إلى قلبك كالإبرة. قلت يا سيدي وأنت تخيط في جرحك وتقطع الخيط بأسنانك. تحير فأبصر، أبصر فتحير، شوهد فشاهد، وصل فانفصل، وصل بالمراد، فانفصل عن الفؤاد ما كذب الفؤاد ما رأى... فكان قاب حين تاب وأهاب، ودعي فأجاب، وأبصر فغاب، وشرب فطاب، وقرب فهاب، فراق الأمصار والأنصار والأبصار والآثار.

ماض صاحبكم...

ملأ النور قلبي أكثر، وشعت الذاكرة أكثر من أي زمن مضى ولو للحظات وجيزة. ماذا يريدون من رجل اصطلم بشيخه؟ من يومها لم يكلموني في موضوع الحكم، ولكنهم عوضوا حديثهم بالقرص البرتقالي الذي أبلعه مجبراً كلما طلبت ماء. قالوا الحكيم يريد ذلك، بعد أن عجزوا عن إقناعي. حين صرخت في وجههم


Twitter: @ketab_n

مطولاً، قلت إن ذاكرتي بدأت تضيع. لم يتكلموا كثيراً، سوى الجملة التي سمعتها كثيراً في هذا المكان: لن نجعل منك شهيد نوميدا ـ أمدوكال. بعدما اسودت الأيام، وغابت الشمس، ورجعت الأصوات التي تملأ دماغي، قالوا لي، هل انصعت أم ما زلت. قلت: أرجوكم دعوني أموت بهدوء. لقد سرقتم البلاد. اتركوا الذاكرة لأصحابها. أكدوا لي بأنهم سيطلقون سراحي بعد أيام لأذهب عند سيدي عبد الرحمن المجدوب.

ـ اشتقت لسيدي عبد الرحمن أكبر مجاذيب الدنيا.

ـ هو لك.

قال كبيرهم. هو الذي يتكلم أكثر. شعرت أن في عيونهم أشياء كثيرة لا يريدون قولها.

ـ وراءكم سر عن سيدي عبد الرحمن.

ـ لا شيء سوى أننا تركناه يتدروش كما يشاء. يتناول جرعته يومياً من السموم التي تقتل على أمد طويل. سيدخل مرحلة الهذيان، وبعد زمن ستتعطل وظائف مخه، وبعدها تتوقف كامل أعضائه ويصاب بشكل سريع، بعدها بثانية يموت مخنوقاً برغوة ستصعد إلى حلقه لتسده. هل بيدك ما يغير مصائر الناس. سيقول الجميع أنه مات ميتة عادية في الشوارع المتسخة.

ـ أنتم تكذبون. تريدون إقناعي لتذليلي.

ـ أنت مخطئ، لم نعد الآن في حاجة إليك. لقد حسمنا كل الأمور. نحافظ على حياتك لأننا لا نريد أن نجعل منك أحد شهداء هذه المدينة أيها الرجل المتوهم بأندلسٍ لم يقرأها إلا في الكتب.

ـ كل هذا كذب! كذب!؟ سيدي عبد الرحمن أكبر منكم جميعاً.

ـ اسأل عن نفسك أيها المسكين قبل أن تسأل عن غيرك.

ـ ليس مهماً أن أموت. لكن جنوني وجنونه سيبقيان.



Twitter: @ketab_n

- لا. أنت حضرنا لك طريقة أنيقة. الأقراص ستنزع ذاكرتك. بعدها سنرميك في الشوارع، ونعوضك بأحد سكان المدينة الفقيرة ليحكى عن السيد علي ورأس الغول وأهوال القيامة، وحرب البسوس، وسيرة بني هلال، أحسن من تخريفك الأندلسي.

- حديثي يا سيدي صار في قلوب الناس. لقد وصلتم متأخرين.

- لن تسبقنا إلى الناس، سترى.

آه يا ماريوشا، مصممون على ابتذالنا حتى النهاية. بدأت أصدق أنهم اخترقوا ذاكرتي بالأقراص البرتقالية، وسيقتلون سيدي عبد الرحمن المجدوب بالتقسيط. الزمن يزحف باتجاهنا بقوة، رأيت غرناطة تشتعل وتفقد أعز أحبابها، وأريد أن أراها تعود وتخرج رأسها مرفوعاً من حرائق الصنوبر المقدس، معطرة بالياسمين الإشبيلي وقشور الرمان والليمون.

بدأت أصدق كلامه. لم يكن هذياناً، تقول ماريوشا. منذ اللحظة الأولى عندما دخلت عليه عانقني بكل قوة وحرارة، احتضنني كعشيق يفاجأ بمعشوقته تعود بعد الموت. غيبني بين تفاصيله قبل أن يغوص داخل إغفاءةٍ بدون حدود. قال لي، يجب أن تسمعي ما تبقى من الحكاية، لأنها ستمحي بعد زمن قصير. لقد هددوني باستعمال السطل الألماني المضخم للأصواتle caspue Allemand في الأيام أو الساعات المقبلة. مصرون على إبادة الذاكرة. جدي حين قاوم في جبل البشرات كان يعرف أن الزمن وصل متأخراً، ومع هذا قاوم الموت الرخيص، لأنه أصبح يدرك أن الموت صار صاحبه شاء أم أبى. ينام معه في نفس الفراش، يأكل في طاسة أكله. لقد قنط جدي من الانتصار، لأن القشتاليون كانوا يحتفلون بدخول المدافع الإيطالية، ويرفعون الأعلام على المدفع الدمشقي الذي كانوا يقودونه باتجاه متاحف غرناطة الضيقة، تحت تصفيقات القشتاليات المعجبات بذكاء إيزابيلا. وأريد أن أسمعكِ، فقلبي حزين يا



Twitter: @ketab_n

ماريوشا. احك لي عن سيدي عبد الرحمن المجدوب. عن القلب الكبير الذي حوى المدينة، وناس المدينة، والأسواق، بدون أن يشعر بأدنى تعب. ماذا يفعل الآن.

- حزين يا سيدي. قلبه صار ممتلئاً بالكلمات والشِفرات الغامضة.

قالت ماريوشا وهي تمسح دمعة تحققنت في الطرف الأيسر عن عينها اليمنى. يقول ما لا يفهم ويفهم ما لا يقال. سيدي عبد الرحمن المجدوب، لقد سحرته لغة الحنين التي تملأ قلبك. ومثلك حين يسأل عن حزنه وعن أسرار الكلمات يقول إن هذا كلام شيخي. لا يتحدث إلا قليلاً. يقف في الصفوف الأمامية في المتاريس التي أغلقنا بها مؤخرة الممر الأول المؤدي إلى المدينة الملكية والقصر. قال، سأموت هنا. واختبأ بين المتاريس. إني أشعر بالموت ينزل عليّ ابتداءً من العينين والرجلين. إني أموت. أتلاشى. ويدوخ. فيحمله سكان المدينة الشعبية (مدينة الفقراء). يقول أن دوره انتهى. منذ أن عدت لم يعد قوالاً إلا نادراً. صرتُ محارباً من أجل الدفاع عن الجمهورية الفتية التي تنسف كل الأشكال القبلية حتى الذين يصادفونه في الطريق ويسألونه بالمصادفة عن الساعة. يقول أعرفها وأعرف سرها. إنها تزحف باتجاه الرقم الذي يرفضه الحاكم. لقد آن أوان الجمهورية الفتية التي ترفض أن ينتعلها الملوك والسلاطين والجملكيون الجدد. آه يا عباد المعبود، سأكون ههنا بكاملي أو ببعضي، أول شهيد يسقط في الاندفاعة الأولى لاستعادة أشواق الجمهورية المسروقة، التي دفنت تحت الأوامر وبقايا العادات المنقرضة. إني أصرخ، يا عباد المعبود، يا عشاق السحر والمدن المسحورة. ارفعوا الأعلام، ارفعوها عالياً، عالياً!؟ انظروا إليها بشموخ ولا تستسلموا، شخصوا بعيونكم جيداً، حتى تتذكروا أن السماء التي فقدت زرقتها واستعادتها، وأن الدماء التي تملأ هذه الأعلام ليست لعبة. هي حياتنا التي سنصنعها بشقاوتنا


Twitter: @ketab_n

وأحزاننا ودموعنا... تنكروا جيداً أنه لولا الدم المقدس، دم الشهداء، وشعلان نيران الصنوبر التي أكلت أتقياءنا، لخاننا البحر، ولنستنا السموات والنجوم.

هل يعقل أن يأفل سيدي عبد الرحمن المجدوب مثل أي حلم جميل!؟ قالها البشير بحسرة بعد عودته من غفوته التي أصبحت تتكرر كثيراً.

- لقد أخرجوه من الحديقة يا سيدي. طردوه.

- أبناء الكلاب. بعدما فعلوها!؟

آه يا سيدي البشير؟ إنهم لا يريدونه أن يموت داخل الحديقة. بدأت الآن أفهم سر اللعبة. لقد رهجوه يا سيدي، لأنه عندما وقف عند الباب الواسع للحديقة الوطنية وقال لهم جئت لأرى أصدقائي فقط، لقد اشتقت إليهم، كان يتبعه كلبه الأمير قطمير. قالوا له، وظيفتك انتهت. لقد شخت يا المجذوب. اذهب لتموت بعيداً عن هذا المكان. لم يناقش كثيراً. ودّع الحديقة، ثم تدحرج في الطريق المؤدي إلى السوق الشعبية، على ظهره كيسه الذي يحوي الأعشاب الأخيرة والكيس المغلف بالسواد، والحنش بومريات أو بوسكة كما كان يسميه والذي يقول عنه دائماً بيننا يا صاحبي دين قديم، إما أن أنهيك أو تنهيني. لا اختيار ثالث بيننا يا صديقي اللدود. آخر مرة رأيته كان ذلك بجانب الحائط القديم الذي يصد أمواج البحر التي كانت تتكسر عند أقدامه لتعود في رحلة لا تنتهي. قال له العلماء، بأن يمكث هناك خوفاً من اختطافه، لأن أحاديث الاختطاف أصبحت تسري بشكل مخيف بين أزقة المدينة. رآني. لم يحدثني، ولكن ظل مندهشاً في موجة جاءت مسرعة من بعيد، وعندما وصلت عند حدود البحر تلاشت بهدوء. قال للعلماء الذين كانوا مصرين على إخفائه، اعذروني، فأنا لم أتعود على رؤية شيء آخر سوى حنين المدينة وشوارعها، اتركوني مثلما تركتم سيدي النينوي يعيش. فأنا



Twitter: @ketab_n

لا أطلب منكم سوى ذلك. حبكم في القلب. لكن أرجوكم لا تقتلوني قبل الأوان. ما يزال في قلبي متسع للمقاومة، للفرح والكآبة. لم يحدثني على حافة البحر، ولكني شعرت بتمزقاته وآلامه المفجعة التي ارتسمت على محياه، محولة حمرة وجهه إلى صفرة، ثم إلى خضرة تقارب خضرة الموت. قلتُ له: عمي عبد الرحمن، نحبك، ولست وحيداً أبداً. لست أدري هل سمعني أم لا، لأنه أجابني وهو ما يزال مأخوذاً بالبحر: لحظة وتمر يا ماريوشا. الشعلة التي في داخلي تعذبني. البشير ينتظرك يا ماريوشا. كوني نوره الذي لا يموت. شعرت بحزنه أكثر من أي زمن مضى. يا عمي عبد الرحمن. قاطعني: قولي المجدوب. إنهم يريدون أن يخسّروني هذه الصفة. وها أنذا أعود لها. قلت: يا عمي المجدوب، إننا نخاف عليك. قاطعني مرة أخرى، الخوف هو الذي يقتلنا، وهو الذي يفسد ملامح الجمهورية الفتية. عندما نؤسسها، سنطرد الخوف، والرعب إلى غير رجعة، ثم عاد من جديد لينكفئ على مياه الأمواج التي كانت تنكسر عند وجهه فتلفه بحبيبات رذاذها ورائحة بحرها.

ـ آه، يا ماريوشا. كانوا على حق. لقد قتلوه بالتقسيط. إنهم يفعلون نفس الشيء معي. يقودونني باتجاه الموت البطيء لي ولذاكرتي.

ـ لا. لا. ذاكرتك أكبر من أقراصهم.

قالتها ماريوشا، وهي تحاول أن تحتضنه من جديد، قبل أن يمسح الدمعة التي ارتسمت بشكل مستقيم على خدها. قال لها: هي السفن يا ماريوشا، نحلم كثيراً بالسفر على متنها، وحين نركبها نشعر بالخديعة القاسية. كم نصاب يا ماريوشا بالحزن عندما ينسانا الله، والموج، والسماء، والنجوم والسفن. حزن نعيشه وآخر يعيشنا، وثالث يعيش فينا. حزن نواجهه وحيدين، وحزن نحكيه للغير بحرقة لنخفف وطأة الزمن عليهم وعلينا. وإذا لم نحكه يرق



Twitter: @ketab_n

الخيط الرفيع ويزداد نحافة، وفي أول صدمة، أو حادثة مؤلمة، يتمزق، ويصبح رميه مستحيلاً. سيدي عبد الرحمن المجدوب، أراه الآن يجوب الدروب بآلامه. يبحث عن شيء مفقود يحسه ولا يعرف ملامحه. عن نجمة الرعاة والصيادين. عن قمر ما لم تكتمل دورته. عن غيمة كان يفترض أن تمطر ولكنها لم تمطر، ربما يبحث عنك يا ماريوشا. فقد تعود على وجهك النبوي. عظيم يا ماريوشا أن يتوسد المرء ساقي امرأة غجرية اخترقت كل طقوس الحياة المفتعلة وهو يودّع الحياة. حين صمت كان خائفاً عليك. في قلبه الحكاية الأخيرة التي لم يستطع روايتها. ساعديه يا ماريوشا. ربما هي نفس الحكاية التي كان يمكن أن أرويها للناس لو كنت خارج هذه الأسوار الفاسدة، ولولا روائح الأدوية والأقراص الكريهة. لولا هذا الدود الذي بدأ ينتهك قدسية الدماغ ويفتن ذاكرتي. هم يقصدون الذاكرة، ونحن نصر على رواية ما تبقى من الأسرار. حين سار إلى وجهة البحر، واستقبل رذاذ تكسر الموجات العملاقة، كان يبحث عن عينيك، عن شعرك، عن وردة الكاسي الضائعة في شعرك الذي يزداد زرقة، كلما انكسرت عليه أشعة الشمس العمودية، لكنه يخاف أن يكون السبب في المأساة والدم الذي أصبح يراه حقيقة، مثلما أراه الآن ولن نستطيع أن نفعل أي شيء لتغيير مجراه. هو الآن يحاول وحيداً أن يسيطر على الشعلة التي تأكل قلبه، لأنه في خلوته يشعر كأنه هو السبب في سجني. قولي له يا ماريوشا، أن ما حدث كان يجب أن يحدث. إنه فوق الرغبات يا ابنة أمي. الشهادة شرف يا ماريوشا من أجل هذه المدن المسروقة، وليست نجمة أو وساماً يعلق في الصدر وعلى الأكتاف. سيصعد النشيد الأندلسي من قلب ساحات نوميدا ـ أمدوكال. ولن تقتحمه إلّا أشعار سيدي عبد الرحمن المجدوب الذي لم يأخذ من الدنيا سوى حلمه الكبير، الذي يصعب أن يموت أو يقتل، لأنه ملّكه لناس المدينة. حين سئل يا سيدي عن الجمهورية الفتية أين وجدها، تقول ماريوشا، قال لهم



Twitter: @ketab_n

هي السحر الذي لا يلمس. تصعد من الأكف كالشعلة وتسيح في الشوارع الضيقة كالنور. قالوا له هذا مجرد حلم.

- اتركوه يحلم يا ماريوشا. الأشياء العظيمة تبدأ بالأحلام.

لا توقفوا حنينه للحلم، قال البشير وهو يتأمل عيون ماريوشا التي انكسرت على صدره العريض، وعلى قامته التي كانت تزداد امتشاقاً. إنه يعشقك كالآلاف من سكان هذه المدينة. عمك ويعشقك يا ماريوشا. أنت فوق كل شيء. حلمنا جميعاً. أن يعشق المرء بفرحة ليس هيناً. أحلامي ضيعتها، وجئت أبحث عن حنين وشوق غامضين، ولكني جئت بعدما وضعت قلبي تحت أقدامي وبدأت أضغط عليه وأستمع إلى تكسراته المتوالية. لو خيرت قلبي لبقي هناك. كان عمي حمود الإشبيلي، صديق جدي، يقول دائماً بكثير من الحزن والشوق.

*«يا من لي بقلبي اشتكي منه بالضنى*

*وقلبي أشكو منه بالخفقان...*

*لو كان لي قلبان لعشت بواحد،*

*وتركت قلباً في هواك يعذب...».*

لم يقدني شبح الخوف إلى هذه البلاد الواسعة، كما شرحت ذلك للعلماء (الحكماء) السبعة، ولم يقدني طمع البحار. قادتني لحظة واحدة. بحثت فيها عن زرقة البحر التي كاد أبو عبد الله، محمد الصغير، أن يضيعها مع الوجوه التي أتلفها. ماريانة، القلب المجروح، وشوق المجانين المنسيين. حين تركتها عند بوابات شاطئ المارية كانت تنظر إلي بعينين مقهورتين، غطتهما ظلمة المساء الذي أسود بسرعة، والدمعة الحارقة. رفعت ملايتها، أو على الأقل هكذا تخيلت، ثم غامت بسرعة وسط رمال الشط المهجور وتهديدات ساموويل اليهودي. قلت في أعماقي، في ذلك الزمن البعيد،



Twitter: @ketab_n

البعيد، أني لن أملأ الحارات، سأوقف نشيدي عند هذا الحد. قلبي ضاع وسط الفراغ. وفجأة شعرت بنفسي وحيداً داخل فراغ البحر، وتكسرات الأمواج الجبلية. تعرفين يا ماريوشا، يا حلم القوالين الوردي الذي لا يأتي إلا مرة واحدة في كل زمن. المحارب العظيم، قبل أن يغمض عينيه للمرة الأخيرة ويواجه مصيره بكبرياء، يتمنى شيئاً واحداً، يداً عاشقة، قد يتخيلها وهي تمسح دمه وعرقه البارد، والبارود الذي علق بصدره، تتلمس جرحه الذي فتحته حرارة الرصاصة الطائشة. ثم ينكفئ، مغمضاً عينيه، لينام حتى الموت، على ركبتي أجمل امرأة انكسر في عشقها. يتمنى أن يصير طفلاً ليغادر الحياة رضيعاً، وعاشقاً مثلما جاءها. صعب يا ماريوشا أن يشعر المرء بنفسه وحيداً وسط مدينة واسعة، أعطاها عمره وحنينه، حتى أنا يوم غادرت المارية، كانت أسواق غرناطة تنام في عيني ماريانة. اقتحمتني. هي. هي. بلباسها الفضفاض الذي يحمل ألف لون ولون وردي. ووردة الكاسي تختبئ بين شفتيها الممتلئتين. إنها الصورة الأخيرة التي ارتسمت في قلبي عن غرناطة عندما سمعت الأناشيد الأخيرة تنزل ممزوجة بآذان المغرب، شعرت كأنها المرة الأخيرة التي ألثم فيها المدينة المعشوقة. المارية كانت باردة وحزينة على غير عادتها، أو على الأقل رأيتها على تلك الصورة. حين تبعتها على الشاطئ كان الدمع قد بدأ يحرق عينيها. كلمتها لم تكلمني. ولكنها اندفنت في صدري وقال امش ولا تتكلم. إنها بلاغة الصمت والبياض. شعرت أنها ستحرقني لا محالة. في المرات السابقة كنت في كل مرة أعوّد نفسي على نسيانها، كانت وقتها المدن الضائعة تبحث عن حنينها وأشواقها، ووجهها المفجوع، وعن سر الكلمات التي لا تموت. م. هـ. ل. ف. غ. هي الكلمات يا ماريوشا تفتح جرحاً جديداً في القلب، وأفقاً لا يموت داخل الخراب.

قال القوالون الغرناطيون، إنها حروف التوهج. النون. القلم وما يسطرون. قالوا فسر!؟ قلت لا أعرف سوى أنها من شقوق



Twitter: @ketab_n

القلب، ومن نور النجم المتصدع في الأفق العالي. ونبدأ جميعاً في فك الرموز وتقليبها. وكانت ماريانة تملك سحراً كبيراً في الاستكانة داخل عمق الكلمات. ذات مرة عندما كنت أئنّ تحت حدوتي فرس أبي عبد الله، محمد الصغير، الذي أدمى ذاكرتي ودمي رأيتها بين الوجوه مرة أخرى. تستمع إلى الحكاية، وتدخل نفس الدخلة التي تعودتيها مع سيدي عبد الرحمن المجدوب. ثم تبدأ في نشيد الدمار الذي يقتلع القلب من أعماقه. كانت تلبس تنورة بألوان الجنة، واسعة مثل كتفيها وصدرها، عندما تصل الركبتين تنفتح كأجراس الكنائس، حيث يظهر سروال حريري رقيق، وحذاء جلدي أحمر، مربوط بأشرطة لونها كالنار. تنزع شالها الأسود من على ظهرها ثم ترمقني بعينيها المائلتين اللتين تسودان أكثر كلما حزنت. ووردة الكاسي التي تنام داخل شعرها بحنان وعنفوان. تمد يدها على رأسي. كانت الدهشة قد بدأت تشد قلبي. تبكشت، وتوقفت الحكاية تنظر إلي طويلاً، ثم تترك ابتسامة تنزلق من شفتيها الممتلئتين بإشراق كبير.

OH Laguna, ene Bihotsarena!!?? (يا رفيق قلبي!).

- كيفك يا ماريانة. مرحباً بك في أسواق غرناطة.

في قلبي وذاكرتي، كانت أشياء تشتعل. عرفت فيما بعد أنها دخلت إلى السوق الشعبية مع مجموعة من البوهيميين.

قالت: تستمتع بنشيد التراب والحنين.

قلت: لك القلب واسع كهذا السوق. لك عيون الناس يا ماريانة التي تعشقك. لك حنين الشوق المسروق ورغوة الولادة والصرخة الأولى، لك آلام جدي وهو ينكفئ ليموت جريحاً بين صخرتين في جبال البشرات. إبدئي. ثم رفعت عقيرتها بنشيدها الأندلسي الحزين.

في الطريق، أثناء العودة، حكت لي مطولاً عن أشياء كثيرة. عن زوجها الذي لم يعلمها إلا العادات السخيفة، قالت أهانني صاحب



Twitter: @ketab_n

الطربوش الأزرق، الخنزير البري، وكانت تقصد زوجها في الطابرنة (Taverna) البحرية. صرخت في وجهه بأعلى صوتها: أيها الدابة الله يلعن اليوم الذي التقيت بك فيه! أنت، أنت، لا تتغير. كان سكراناً، ولم يكن يملك حتى طاقة النهوض، تمتم بكلمات ثقيلة، الـ.. عـ..ا..هـ..رة!؟ ثم انكفأ على الطاولة وبدأ يشخر. أرادت أن تجرجره، ولكنها تركته هناك حتى يفيق لوحده. قالت لي، أحسن. قلت: سأقتله إذا مسّ شعرة من رأسك. قالت بنوع من اللا مبالاة: أتركه، فهو مجرم، ولا يعرف شيئاً آخر سوى السطو على البيوت اليهودية، والدم، والشرب. في البيت، عندما ارتشقت في صدري كالرمح عارية إلّا من لذة الأمومة المفقودة، داعبتها. أما زلت تأكلين خبزك بنفس الطريقة. ابتسمت. رأيت في عينيها إشراقة عجيبة. كل أشيائها المتوحشة صارت فرحة غير محدودة. كان البحر ينكفئ على نفسه، وكانت النجوم والأقمار تتصادم في الأنواء البعيدة. قالت، ورائحة المارمان تتصاعد من جسدها المعطر بالعرق، لا تخف يا عاشقي، الكلب الجوال لا يموت جوعاً.

وعندما رأت ظلال شجيرات الياسمين الإشبيلي تنسحب باتجاه الباب، نهضت بسرعة بكامل عريها، لم يكن يهمها مطلقاً نظرات الآخرين. كان جسدها مصقولاً كأنه نحاس شكلته يد ماهرة. لبست لباسها الفضفاض بسرعة عجيبة. قالت: الدابة الآن تكون على وشك الاستيقاظ. عندما خرجنا، واجهنا مطعم الكانديليخو (Candilijo) في أحد أزقة غرناطة الضيقة، يرتاده القوالون، وبعض الغجر الغرباء. عند باب الكانديليخو سألتها: هل يمكن أن نلتقي مرة أخرى؟ ابتسمت كعادتها. هل سقط عاشق غرناطة في حب غجرية لا تعرف من الوفاء شيئاً؟ دعك من هذا الحنين، إنه يؤذيك كثيراً. أحبك يا البشير، لكن الغد سيكون يوماً آخر. وافترقنا على هذا الأمل المعلّق. وعندما بدأ المطر يسقط، خرجت إلى الزقاق الضيق، هل مشيت يا ماريوشا في زقاق ضيق لحظة سقوط المطر، وأنت سكرانة حتى القلب؟ تمنيت أن



Twitter: @ketab_n

تكون معي، لكني مع تعب السير، تآلفت مع رائحة الأتربة التي كانت تتصاعد من الأزقة وهي تتلقى الأمطار، في ذلك المساء الغرناطي المتميز. لست أدري هل كانت تحترق بنفس النار المقدسة، لكن ماريانة كانت قد دخلت القلب بدون استئذان. وما زالت تحفر حتى الآن. وكلما تذكرتها أشعر بجرح عميق، وبلذة تتصاعد لدرجة الألم. حين تأتي تعود كل الأشياء الجميلة دفعة واحدة، وحين تغيب تملأ الرياح الساخنة قلبي. أتذكر كل عاداتها الجميلة والسيئة. حين تعشق لا تستأذن حتى زوجها. حفظت كل التقاليد الغجرية، وعندما أقول لها سننزل إلى أقرب مقهى، تمر بسرعة لتشتري بيضة. تكسرها على حائط المقهى ثم تجلس بجانبي. عادتها حتى تسحب الذباب من على الطاولة. وتقول وهي تفتش في عيوني عن فلائكها المكسورة. هل أترك الذباب يتسلّى بي مثل أية قطعة حلوى سخيفة؟ تعرفني يا البشير نحن الغجر عيوننا كالثعالب، نلبس الصوف ولكننا لسنا نعاجاً.

(Me Dicas Vriarda Dejorpoy, Bus Ne Sina Braco).

كانت تقتل زوجها بحركاتها غير المنضبطة. أكثر من عشر مرات وهي تخرج ناجية من سكينه الحاد، وبعدها تركها تحكي ما تريد، يئس من تسكيتها. حتى عندما تلطمه على وجهه في لحظات سكره، يمسح خده، ثم يواصل السكر ولعب الكارطة (Carta). آخر مرة كانت ترقص في طابرنة البحارة بالمارية، ترفع ساقيها عالياً، لدرجة لمس وجهها، يظهر تبانها الحريري واضحاً مبرزاً كل انثنائات جسدها الغض. شعر بالإهانة تمس دماغه المتعب. أوقفي هذه الرقصة الجاهلة. لا أريدها. قالت ليست لك. إنها للبحر الذي لا يغيب ولا يموت. كان الحضور يصرخون ويضربون على الطاولات ويصفقون. كانت تريد إثارة شبق البحر ذاته. صرخ مرة أخرى بأعلى صوته. قلت لك انزلي من على هذه الطاولة. لم تسمعه. أعاد الصراخ مرة أخرى وبشكل أكثر قوة، وهو ينهض من مكانه، ويفتح



Twitter: @ketab_n

بأسنانه سكينه (تذكرت ماريوشا قصة كارمينا، ولكنها لم تقاطع البشير). ظنت أنه يهددها فقط، فرفضت أن تنصاع لأمره. شتمته. أيها الخنزير، وجدت من يذبحك هذا المساء. اندمجت مع لحظة السكر، وأقسمت أن تجعل البحر يفيض وتركبه حالة غليان غير محدود. أنزلي أيتها العاهرة، قالها وهو يحاول أن يضع السكين على وجهها. سأقتلك وأبكي عليك. أرجوك انزلي. مصمصت شفتيها الممتلئتين.

التمتع بالملذات لا يزعج (Saraqia Sat Pespuital Ne Punzava). كانت يقظة مثل الثعلب. مص على السكين، ثم دار في مكانه دورة سريعة، عادة الغجر في لحظة المواجهة القاتلة. وقبل أن يمس السكين عنقها الممتلئ كانت قد سحبت رأسها، لكن جانباً من السكين، مس ذراعها العاري فختمه بجرح غائر. مصت دمها، ثم عانقته بقوة. وبعدها واصلت رقصتها، متأكدة أن الخنزير ما يزال يغار عليها. أكثر من شهر وهي تُظهر ذراعها للناس، فخورة بالندبة الغائرة التي ختمها بسكينه. هكذا النساء الأندلسيات. تثير غيرة العاشق حتى تؤكد أنها ما تزال معشوقة، ومرغوب فيها كثيراً. ماريانة لا يضبطها لا عقل ولا منطق، بقدر ما تحجزها تنفرك. مبتلية بحب الرقص حتى الغشوة. حين تبدأ، يصعدها جن أزرق. لقد كبرت سماؤها كثيراً في عيني، حتى قبل أن تأتي إلى غرناطة لتقيم معي نهائياً. ولولاها يا ماريوشا لانتهت عظامي في نيران محاكم التفتيش. حين تحزن تواجه مصيرها بأظافرها وعنفها. تتمزق، ترقص حتى الموت، حتى السقوط، وعندما تخفق في تحقيق الغيبوبة، تكسر وتكسر، الأواني وكل ما تصادفه في طريقها، ثم تبدأ بعدها في هدأة الأنبياء. تتعرى عن آخرها. ثم تنكسر على صدري كالغيمة البنفسجية النادرة وتبدأ في تخطيط أبجدية الانكسار بأناملها المرتعشة، وشفاهها التي كلما وضعتها على شفاهي، اتحسس وجهها والحرائق التي تنشأ في داخلي. أبحث داخل الدوخة



Twitter: @ketab_n

عن ملامحها الضائعة داخل رغبة حزينة أكلها السابقون. أريد أن أتكلم. أن أقول ما أروعك. أسمعها تقول في غمغمتها: أنا لك. لن أكون إلا لقلبك. سأقتلك لو تذهب مع امرأة أخرى. أريد أن أتكلم مرة أخرى. لكن الأسواق والأجساد الممزقة تنتابني بقوة، يتدافع جسدها باتجاهي أكثر. تبدو اللحظة أصفى من الكلام. أفضّل الصمت والتلاشي داخل الغيمة البنفسجية. آه يا ماريوشا، شيء واحد يظل في القلب قائماً حتى الموت. نندم أننا لم نفعله ونحن نواجه لحظاتنا الأخيرة. أسئلة كثيرة تتدافع الآن في أعماقي. أن تقتل المرأة من أجل الرجل، أن تغامر بحياتها، وهي دائماً قادرة على المغامرة، ليس الأمر هيناً أبداً. بل لا أملك له جواباً. ماريانة، حليب الأمومة المفقود، الذي تبقى حلاوته في الحلق حتى آخر العمر، غنّت معي كل الأناشيد الأندلسية الضائعة. صرخت معي بأعلى صوتها في لحظات الحزن والوحدة. لعنت حتى جف لعابها محمد الصغير الذي باعنا جميعاً بثمن تافه. تقول لو اختارني بدل القشتاليات كنت أريته ما معنى أن يشتهي امرأة. هؤلاء يشتهون ولا يحبون أبداً. كان في عروقها دم منّي، تحسه ولا تلمسه. أحبني ناس الأسواق لأني كنت أروي عن الجبال المنسية وعن الأبجدية التي احتكروها ووسّخوها وأحبوها لأنها لحظة النشيد، كانت تفتح الأرض بحنينها الذي لا يموت. يتأوه الناس. يصيحون:

أعزفي ماريانة. أعزفي! أعزفي القلب في عمق الآلام والأحزان. أعزفي يا ابنة أمي، إنها أولى قطرات الدم والمطر التي تفتح جفاف الأرض القاسية التي تعودت أن تخبّئ أحزاننا بين شقوقها ولم تنجب إلاّ الندوب والحسرة. أصرخي ماريانة. قلوبنا معك. لست أدري هل كانت تسمعهم، ولكنها كانت غارقة في نوبة رمل الماية التي لا حدود لشقائها.

*يصعد النشيد الأندلسي عالياً، عالياً،*

*وتعود ماريانة إلى أحزانها القديمة.*



Twitter: @ketab_n

*Yo Soy La Maryana Degrenada*
*Yo No La De me Mincharro*
*(أنا ماريانة ابنة غرناطة*
*لست ملكاً لعشيقي...).*

تصوري يا ماريوشا، هذا دم القلب، لكن أبناء بني كلبون، السفلة أصدقاء الحكيم الشماليون، سخروا مني كثيراً، عندما حكيت لهم عنها وعن أشواقي. فقهقهوا عالياً. قال كبيرهم، بعدما يئس من إقناعي بمخططه، كل الدلائل تدل أنك ابن هذا العصر يا صاحبي، هبلتك قراءة الكتب الأندلسية. حنينك للعشق الغرناطي ودّرك وضيّعك. المرأة التي تتحدث عنها لا توجد إلا في الكتب. أقرأ هذا وطلب من المترجم أن يترجم لي. كان الكتاب يحمل عنوان: Carmen «كارمن» لبروسبير ميريمي - P. Merimee - القراءة يا صاحبي، أعمتك عن الدنيا وعن الناس. أنت الابن البار للقرن العشرين. لم يكن لدي جواب خاص أواجهه به، لكن الشعلة التي كان تتسع في دمي لم يكن بإمكان أي واحد أن يلمسها. لن أدافع عن نفسي، لأني لست في حاجة إلى الدفاع، ولا أطلب من الناس أن يصدقوني. لأنهم لا يعرفون بأن كارمن سُرقت من قلبي ومن ذاكرتي. رويت آلامها قبل التدوين حتى طاب عمري وتلاشي. قالوا لي، عندما رأوني صامتاً وكأنهم قرأوا قلبي، عندك عقل يا صاحبي، يرمم من تلقاء نفسه فجوات التاريخ. إيه يا ماريانة لقد صرت في عيون القتلة مجرد حكاية مليئة بالفراغ والرياح الساخنة. أراكِ الآن بكامل طولك، ووجهك، وملامحك، ووردة الكاسي التي لا تغادر شعرك. أراكِ تمسحين دمعات انزلقت من عينيك وأنت تروين قصة أهلك الطيبين. أحسدك في صمتك القليل والعميق. أحسدك في أشواقك المفترسة. أحسد الجرح الذي يعيد إلى قلبك غيرة الرجال. وماذا بعد يا ماريانة!؟ لا شيء سوى ذلك اليوم الممطر، الذي يعود يجر وراءه أشياءه الدقيقة والغامضة التي لا تنتهي. قالت لي، وكنا قد وصلنا إلى أقصى درجات الإنزعاج:


Twitter: @ketab_n

ـ أنت لا تريد أن تعطيني يومك هذا.

ـ جميل يا ماريانة ولكنه ليس لي.

ـ الغجر عندما يحبون يشتهون بجنون. عليك أن تغار علي.

ـ لست صاحب القبعة الزرقاء (زوجها) ولا الخنزير البري.

حملت الكأس المليء بنبيذ الكروم الإشبيلية، ثم ضربته على الأرض حتى تشلأ إلى آلاف القطع الصغيرة. صرخت: أنت دائماً تسكرني. وصُور لي في ذلك اليوم أنها لن تعود إليّ أبداً. إنها المرة الأخيرة. امتقع لونها، اسودت شفتاها الممتلئتان. زادت عيونها ميلاناً. بكت ثم خرجت. حاولت أن أشرح لها وضعي في هذه المدينة ولكن رأسها ظل شامخاً.

ضربت الباب بقوة وقالت. أرجوك أتركني!؟ أتذكر أني في ذلك اليوم، تكوّمت على نفسي، وتمددت أمام الجمرات التي كانت تنفجر وتتفرقع بهدوء في المجمر. حاولت أن أستعيد وجهها، ولكنه صعب علي. بعد أسبوع رجعت. عند الباب وقفت لحظات طويلة وهي تتأملني، ثم ارتسمت بين شفتيها ابتسامة عذبة جعلتني أختل في وقفتي. قالت وهي تهز رأسها.

ـ الله يلعنك يا البشير ما أعذبك وما أقساك.

ـ الله! ما أروعك يلعن صاحب القبعة الزرقاء.

نزعت زهرة الكاسي، وضعتها بين شفتي وقبلتني. هذه زهرتي، وأنت حبي أوه!Mi Mincharro لم يكن ممكناً أن أسألها عن غيبتها، وعن الوحدة التي قضيتها بحزن. فهي كالعاصفة، كلما لمستها زادت تضخماً. في مطعم Candelijo (الكانديليخو) سألتها، هل مازلت تحبيني. نظرت إلي بعيون غائرة ومليئة بالغرابة، وجافة مثل النبات الصحراوي. أنت غبي. قالت بنوع من السخرية. ألا ترى أني أحبك ما دمت لا أطلب منك نقوداً!؟ انتابتني رغبة حارقة لخنقها ولكني تمالكت أعصابي. غادرت الطاولة، تبعتني. رفضتها، أصرت.



Twitter: @ketab_n

أهكذا تغار علي لماذا لم تفعلها من زمان. والتصقت بخصري. تناهت إلى أنفي رائحة شعرها، ورائحة وردة الكاسي التي تقارب البنفسج. مثل طفلة عمرها لم يعلمها إلاّ كيف تستعيد طفولتها في لحظات الشقاوة والفرح. آه يا ماريانة، يا حليب العذارى وشوق الغرباء. في انزعاجك تتكسر أشياء كثيرة يصعب رتقها في اللحظة نفسها، وتتكسر زرقة السماء وتفقد الأشياء ملامحها وألوانها. تلك هي الحياة يا ماريوشا، تبدأ من عيني المرأة وتنتهي عندها. لولاكم لا طعم لهذه الأشواق. لا طعم للألم والحنين. أيادينا ممدودة باتجاهك يا ماريوشا لا تضيعيها.

ـ أنا لك يا البشير.

ـ افتحي قلبك لسيدي عبد الرحمن المجدوب مأساته كبيرة.

إنه يبحث عنك في الأحلام. لا تتركي يده وحيدة موجهة لريح لا تأخذ منها إلاّ الأشواق وبرودة الفراغ. الزمن يمر وسيدي عبد الرحمن يموت، ويموت! لقد قتلوه مبكراً. لقد قتلوا الجنون بكل حقد. احزني معه يا ماريوشا، أقصى درجات الكآبة أن يمارس الإنسان حزنه وحيداً. ساعديه، في قلبه حكايات مليئة بالنور، على الناس أن يسمعوها جميعاً. ادفعيه باتجاه الأندلس الذي بدأ يخرج من قلبه بقساوة. ولنواجه بعدها الموت جميعاً بجرأة الإشبيليين. القبعة في اليد والسكين في الأخرى، نغطيه بالقبعة استعداداً لمعركة الموت القاسية أو العيش برجولة لا تضاهى.

ـ ما أعظمك يا البشير.

والتصقت أكثر كعصفورة مذعورة هاربة من ظلال البيوتات المظلمة. أغمضي عينيك الآن بقوة، يا نوار اللوز والتفاح والورود التي أختبأت في القلب، تجردي الآن من الحسرة ومن عذابات الماضي الحزين وتعالي. إننا نقف الآن عند عتبات البحر الذي لا ينسي حنينه. إن المجدوب يموت الآن في الشوارع الخلفية بالتقسيط. الزمن الحاضر نكس أعلامه. إنه ينام في الكف كعصفور



Twitter: @ketab_n

نزعت أجنحته. العصر لم يتغير إلا قليلاً. نفس المحارق، نفس المحاكم، نفس الوجوه المتددة لمحمد الصغير، السفن، الأرمادة، القراصنة. التعذيب، أكل اللحم البشري، الجنون... ما الذي تغير يا ماريوشا!؟ اغمضي عينيك يا تفاح المجانين وانسحبي باتجاه البحر الذي يبحث وسط هذا العنف عن زرقته وعن أصدقائه. تأمليه عن قرب، سيبدو لك رائعاً. عيشيه حتى الموت، من يدري ربما كان في الغد الكثير من الظلام، يقتلك فقط لأنك إمرأة، فقط لأنك تستثيرين الحياة الميتة في عمق الناس. عيشيه ببوهيمية وشجاعة فالريح الساخنة القادمة قد لا ترحم أحداً ممن يحبون البحر.

ـ يا البشير أنت حزين جداً.

ـ لدرجة الألم. حالات اصطلام بالمرأة.

ـ لماذا لم تتزوجها.

ـ ماريانة!

تخسر حياتها بكاملها ولا تركب رأسها بربط حياتها برجل واحد. لقد خلقت لتعيش حياتها للخلق جميعاً، لحظة لحظة، فرحاً فرحاً، وحزناً حزناً. قتلت زوجها من أجل أن تعيش حياتها كما تشتهي. أنبل غجرية. لا تؤمن بأنصاف الحلول. حادّة مثل الشفرة، إما أن تحب أو لا تحب. قالت، وهي تمسح دمعها في ذلك الشاطئ المهجور: لا أستطيع يا البشير. ستظل طويلاً حزني وألمي الأكبر. أحلم أن أستيقظ ذات فجر، ولا أجد أحداً أمامي سوى الوجوه الأليفة التي تستحق أن تعشق حتى الموت. قضينا نصف اليوم في البحر، ثم صعدنا إلى بيتها في زقاق مظلم. دقت على الباب بعنف شديد. أوووف... رأسي يطن. أشياء كثيرة تغيب داخل الأبجدية المروية. ماذا أقول لك يا ماريوشا؟! هي ذي تأتي. تعود بوجهها المليء بالفرح. فتحت لها الباب امرأة بدينة. عندما رأتها كأنها فوجئت بها على غير موعد مسبق. انزاحي من طريقي، قالتها ماريانة، أي وغد



Twitter: @ketab_n

تخبئينه في فراشك؟! ثم انسحبت باتجاه حجرة مليئة بالرطوبة. قالت، وهي تحاول أن تخفف من حيرتي: لا تخف هذه الدابة. متعودة، فهي تحفظ الأسرار. وظيفتها اصطياد الرجال. تقول إنها ملتَ من القتل وحياة الذعر. كادت محاكم التفتيش أن تنزع لسانها، فهي لا تتوقف عن شتم كل شيء يعيق طريقها. وضعتني ماريانة على سريرها. لم أعد أسمع إلا تكسر المياه وهي تستحم. عندما عادت، كانت ملفوفة في إزار أبيض. قالت، اغسل أتعابك من الرحلة. شيء واحد ظل عالقاً بذاكرتي زمناً طويلاً. طعم شفاهها وهي تنكسر على صدري كالموجة، ورائحة جسدها التي تلازمت مع الياسمين الإشبيلي واللوز المرّ. كانت عذوبتها لا تحد. تذوب في نفسها. قالت، أحببتك، لا لكونك تتقن اللغة القشتالية، ولا لكونك موريسكياً، ولا لكونك منشداً عظيماً. شيء أعظم من ذلك كله. فأنت آخر عاشق المدن المنسية. تعطي للحياة معنى دائماً. أنا لا أستطيع فعل ذلك يا البشير، لقد رُبيت على السكاكين الباردة. ويوم دخلت فلوكة العودة مجبراً بقيت في ذهني الصورة الأخيرة لهذه المرأة التي أودى بها عشقها للحياة إلى التهلكة، وهي تودعني وصرخة اليهودي تزداد حدة في أذني. كان الموج المظلم يدفعنا باتجاه الأرمادة التي كان يقبع داخلها القرصان الإيطالي. كانت عيونها مليئة بالدموع مثلما تفعل في لحظة النشوة والصمت. قالت وهي تصطنع ابتسامة منتشلة من لحظة صمتها.

- هل تريد أن أقرأ لك حظك؟!

ثم التفتت باتجاه البحر تمسح خفية عني دمعات انزلقت بالرغم منها، وأنفها الذي ألهبته رذاذات الموج المتكسر، والنسماء التي كانت تنسحب من البحر، رافعة شعرها خصلات. خصلات باتجاه الجهة اليمنى. لدرجة أنه كثيراً ما التصق بوجهها. فتحاول أن تسحبه وتخبئ حزنها الذي انكسر بين ملامحها. عانقتها. لم نتكلم. كنت أعرف أن حظي سيكون صعباً داخل بحر يملكني ولا أملك



Twitter: @ketab_n

موجه. قالت ماريوشا، وهي تتأمل البشير وقد غرق من جديد في غفوته التي تطول وتقصر، تكلم يا البشير. مالك ساكت! احك فقلبي يسمعك. التفت نحوها. مسد من جديد على شعرها. ماذا أقول. لا أعزف النشيد إلا بحضور الحنين. احملي البانجو والماندولينا، اعزفي. أنزلي السماء الصقيها بقشرة الأرض، واتركي العشق يزداد وتتسع مساحاته. العيون تتسع والألوان القزحية تملأ ذاكرة الأطفال. احملي يا ماريوشا آلاتك واختاري الخيط الأكثر حزناً وتذكري الشهداء الذين كانوا يعرفون قدرهم، ولكنهم مع ذلك وقفوا حتى آخر لحظة ينشدون النشيد الأندلسي الأخير، النشيد الذي لا يسمعه إلا المحبّ العاشق. حين يسألك الله يا ماريوشا عن جريمتك، قولي كنت عاشقة، عازفة النشيد الأندلسي المتلاشي. قولي كنت منشدة إلى أسواق نوميدا ـ أمدوكال. سيضع ذنوبك وحسناتك جانباً، ويجلس بقربك، بجانب دفئك، ليستمع إلى أجمل حنين داخل الباخية Labajia (الحياة ـ المغامرة) سيعرف الله أنك شعلة الشوق، وتفاح المنسيين، أكبر من الحسنات وأكبر من الذنوب.

ثم صمت البشير طويلاً، ليدخل في إغفاءة بدون حدود.

انتبهت له فجأة، تقول ماريوشا، كان عمي الطاووس ابن أمّه يقلب الكلمات، ويحاول أن يفهم سر الموريسكي القادم وحكايته التي بدأت تتعقد. وحياتك يا عمي الطاووس حاولت أن أوقظه لكني لم أستطع. صرخت بحزن شديد. ذاكرتك يا البشير لا تتركها تضيع. إنهم يقتحمون أسرارك بالقرص البرتقالي يا ابن أمي. احك. أنا معك. أنت لم تمت ولكنك شبهت لهم. كانت عيونه مرتشفة باتجاه الأبواب الكثيرة، التي كانت تفتح وتغلق برتابة مقلقة. مدّ يده، مددت يدي، تقول ماريوشا، كانت عيونه دافئة مثل الأنبياء، فيها الكثير من الدهشة والأمل والخجل. لم يقل شيئاً، ودعني بعينيه وأنا أُسحب من صدره بقوة. ربما كانت النهاية. رأيت الكلمات ترتسم على ملامحه، وبداية شيء آخر لا يعلم سره إلى القوالين الذين سيأتون. إنه السطل


Twitter: @ketab_n

الألماني يا ماريوشا! كانت وجوههم مظلمة. رموني عند الباب وأمروني يا عمي الطاووس بمغادرة المكان بسرعة. انكسرت ملامحه السوداء على صخور السرداب وتكسرت الأمواج التي كانت تصل أصداؤها مقطعة، وأنا أصعد برفقة أحد العسس الذين نزعت ألستنهم. تكلم بعينيه، لم يثرني صرير المصعد القديم، ولكن الذي أذاني كثيراً صوت ضربات المطرقة التي كانت تنزل على السطل الألماني الذي وضع على رأس البشير.

تمنيت لو لم أسمع شيئاً، ولكنّي سمعت كل شيء. تقلص قلبي حتى صار كتلة لحم ضيقة لا معنى لآلامها وأشواقها.



Twitter: @ketab_n

## 15

ما حدث في تلك الليلة كان مذهلاً. الشمس غربت قبل وقتها، والنهار قصُر على غير عادته والظلمة كانت قاتمة. حتى الأقدار توقفت تعدّ دقائقها. حمل كل الكتب وأعاد النظر فيها طوال الأيام التي تلت لقاءه المتلفز مع البشير. جلس على أكثر الكراسي راحة، وبدأ يعد أصابعه وأسنانه، والأضواء، وقطع الزليج الأرضي. كان يتمنى أن لا يتوقف. تململ في مكانه بإنزعاج لأن كل الأشياء التي كان يبدأها تنتهي إلى نهاياتها القاسية التي كان يريد أن يهرب منها. أيعقل أن ندخل الليلة السابعة بهذه البساطة، وبهذا الصمت المخيف. يجب أن نحوّل كل شيء باتجاههم. ابتلع الحكيم ريقه بصعوبة. حمل الكتب، كل الكتب المتعلقة بالنجوم، والرمل والغيب، والقرآن والسير، والتاريخ. أعاد النظر فيها طوال الأيام التي تلت لقاءه المتلفز مع البشير، الحمد لله، لم يبحث أي واحد من هذه الكتب عن النهايات المحتملة. تحدثت فقط عن الخروف الذي أكل ذئباً في لحظة خلوة، عن سيدنا الخضر الذي نزع رقبة طفل بريء، ولكنهم لم يقولوا شيئاً مذهلاً أو مخيفاً. العدّ يجب أن يبدأ من هذه الليلة ولكن بالشكل الذي لا يتوقعه أي واحد، حتى الأصدقاء. الكثير من الأمور يجب أن يظلوا بعيدين عنها، لأنّ أنوفهم تشم أي شيء. اقرأ الصيغة التاريخية أيها الوراق. اقرأ ما سجلته في كتاب الأمة. اقرأ بشكل جيد. ستكون كلمتك تاريخية لأنها ستذاع مباشرة في التلفزيون. بعد الانتهاء من الحكاية التي سترويها الليلة دنيازاد



Twitter: @ketab_n

(قطر الندى)، يجب أن نبدأ أنا وأنت أيها الوراق القريب إلى قلبي. اقرأ على مسمعي ماذا سجلت؟!

مسح الوراق على شفتيه بظاهر يده اليسرى، رشف رشفة عميقة من كأس الشاي المشحّر. وضع القلم بين يديه، محترماً كل طقوس الكتابة، ثم بدأ في تلاوة المكتوب، «في السنة العفجاء، حين سقطت ملامح الناس، وخاب ظن الحكام في الرعية، في الليلة السابعة بعد الألف حدث هذا. توفيت صاحبة المقام العالي والإيمان المطلق، دنيا زاد (قطر الندى) حرم الغالي، صاحب الشأن الذي لا يضاهى الحكيم الحاكم بأمره شهريار بن المقتدر مؤسس جملكية نوميدا، توفيت هي ونجلها قمر الزمان في حادث طائرة مروحية، أثناء طلعتهم اليومية على الرعية في ظل هذه الظروف العصيبة التي تمر بها الجملكية، سينكس علم نوميدا القزحي مدة سبعين يوماً، ويعوض بخرقة سوداء، رحم الله شهداء الأمة، وتغمدهم برحمته، وأسكنهم فسيح جنانه». ثم قدم له الورقة بشكل برتوكولي، وقعها يا سيدي. وضع يده بكاملها في غراف المداد الأحمر ثم حطها على الجزء الأبيض من الورقة. هذا توقيعي في حالات الحزن القصوى، والرغبة في الانتقام. لأني النعي يبين أن هناك يداً خفية هي التي أسقطت الطائرة. ويجب أن تجازى بقساوة. تأليب الرأي العام في مثل هذه الحالات ضروري جداً. والآن يا مؤرخي.

ـ أوامر سيدي، هل نغير الصيغة؟!

ـ لا! الصيغة رائعة. حضر نفسك للآتي!؟ حضر نفسك يا صاحبي للاستماع إلى الرواية التي ستسمعها بعد قليل.

ستحضر دنيازاد بين اللحظة والأخرى. ثم أمر الكفان بأن يحضر نفسه في الزاوية، من وراء الحجاب، أمّا هو فقد حاول أن يتأكد من حدة السكين، ثم أرجعه إلى مكانه الأول، تحت الوسادة



Twitter: @ketab_n

الموضوعة على سرير الليلة الأخيرة. سأستمع إليها كيف تروي خرافاتها عليّ، لن أُتيح لها فرصة البقاء حتى الصباح، لتتاح لها فرصة جديدة لخداعي لأني هذه المرة لن أكون شهريار. لعبوا به مثل الدمية. كان بغلاً تافهاً لم يتخذ كافة احتياطاته اللاّزمة. وعندما تنتهي من حديثها، سأشرّبها الكأس الثامنة وأضعها على الفراش، أسفدها بعنف، وعندما ترتخي بين يدي، أذبحها كالشاة وأخرج الكفان من وراء الستائر وأتركه يعمل عمله. أمّا ابن الزانية قمر الزمان فلن ينال منّي أكثر من ضربة سيف، كتلك التي حززت بها رقبة جده. ابن الكلبة، علّمتهُ كل حيلها. كاد أن يلعب برأسي. قال ذات مرة لهذا أنقذتك يا والدي العزيز بهذا السيف المرصع بالجوهر من محاولة انقلابية كانت تقوم بها إحدى القهرمانات في الحرملك. يذكرني دائماً أنه فعلها من أجلي. من يدري. ابن الحرامية قادر على كل شيء. لماذا لا يكون قد قتلها خوفاً من أن تبوح لي بأحد أسراره، لأنها كانت قريبة منه ومنّي؟ كنت وقتها بغلاً مثل شهريار. صدقته بكل سهولة، وسلّمت عليه بحضور أمه وعانقته، وبكيت أمامها مثل الغبي وقلت: هكذا الرجال يا ابني! عندما تغيب النمور تحضر الأسود والفهود. كدت أقول له أني تعبت. خذ الملك وحافظ عليه قدّ عينيك. الحمد لله لم أقلها وكنت محقاً. بصراحة خفت أن يدور عليّ. وها أنذا الآن يزيد يقيني أن أمه كانت وراء هذه اللعبة التافهة. لا شيء في هذا الولد منّي. لا يشبهني إلا في الرغبة القاتلة للحصول على مفاتيح المدينة والبلاد. أي حنان سينتابه وهو ينزع رأسي. قلتها لها، حتى أدخلها في سحر دهشتها الليلية، يا دينا زاد أكملي لي الليلة الواحدة بعد الألف من حكاية شهرزاد. ابتسمت ولم تمانع. قولي مالم تستطع أختك قوله في الواحدة بعد الألف. رممي التاريخ مثل المجنون الأندلسي. يقول ابن المجانين والمهابيل أني لن أتخطى عتبة الليلة السابعة بعد الألف. سأبين له أنهم هم الباقون داخل فراغات الليلة، وأقفز أنا وحاشيتي خارج هذا الفراغ.



Twitter: @ketab_n

سأتخطى إلى الليلة الثامنة ليبدأ عهد آخر. المغربي المجنون، وصلتني عنه تقارير متعددة من الأصدقاء الشماليين أن ذاكرته بدأت تتلاشى بفضل الأقراص البرتقالية والحقن الذي بدأنا نُكثفه في الأونة الأخيرة، والسطل الألماني. هؤلاء البشر إذا أردت أن تعزلهم عن الحياة لا تعطيهم فرصة الموت. يتحولون إلى شهداء يستفزونك في فراشك. لن يصير شهيد المدينة. سيموت كأي بهلول في شوراعها، ومع الزمان سينساه بكل بساطة ومع الزمن سيتحول إلى لعبة الأطفال المفضلة في الشوارع يضربونه بالحجارة ويطاردونه من زقاق لزقاق، مثلما بدأوا يفعلون الآن مع عبد الرحمن المجدوب الذي بدأت الأسواق تنسى خرافاته التي كان يقصها منذ زمن بعيد. يرفع الأطفال حناجرهم التي تنسد من كثرة الصراخ. عمي البشير المهبول! البشير المجنون! المهبول!؟ ها هو جا.. جا.. المهبول ها هو راح.. الناس لا يحفظون إلا الصورة الأخيرة للإنسان. محمد الصغير، أبو عبد الله قدم حياته لشعبه، المقتدر حارب الرومان والفرس والأتراك، وأسس استقرار البلاد، الحاكم الرابع (وفي رواية أقل دقة الحاكم الثالث)... وغيرهم، ماذا بقي منهم. اشتعلت الألسنة لتشويههم. قيل أن محمد الصغير باع البلاد والعباد. كان بإمكانه أن يدافع عن غرناطة. يملك المدافع، وأسلحة الدفاع، والقلاع، لكنهم لم يفهموه، لم يقدروا تضحيته، انسحب بعدما كانت القشتالية الوحيدة التي مست قلبه. المقتدر باع البلاد، لكنه قبل ذلك عمّرها. استعان بالعقول المشعة لأعدائه. لكن في الذاكرة لم يبق منه إلا الطفل الذي تضعه القهرمانة بين فخذيها وتفتح الشكاوي ورسائل الاحتجاج. والحاكم الرابع في الرواية المؤكدة، والثالث في الرواية الناقصة، لمّ شمل البلاد والدين الممزق في الصدور، لم يبق منه إلّا الأمر الذي أعطاه لمعاوية لنفي صاحب النبي صلى الله عليه وسلم وحبيبه أبو ذر الغفاري في صحراء الربدة. والبشير الذي ملأ الدنيا بتضحياته وعذاباته، هذه لا ينكرها عليه أحد، وأدخل تاريخ



Twitter: @ketab_n

سقوط غرناطة إلى كل البيوت، لن يتذكروا منه إلا حالاته الأخيرة وهو يمشي في الشوارع تائهاً بدون وجهة. لا يكلم الناس ولا يسمعهم، وإذا كلمهم يتحدث عن مواضيع عجيبة لا علاقة لها بهم وبحاضرهم. سيدخل في هذيان لهبال. مع الزمن سيكرهونه، ويتركونه لعبة بين أيدي الأطفال وهو يخبئ رأسه درءاً للحجارة التي تأتيه من كل مكان. سيتقلص مخه حتى يصير كتلة صلبة جامدة، لا حركة فيها. وهكذا لن تتاح له فرصة الشهادة، ولا أن يُبنى له نصب تذكاري في شوارع هذه المدينة المنهكة من الحروب الأهلية. وسنعيد كتابة تاريخه، حتى عندما يحرقه اللّاحقون في حالات الهستيريا، سيحوي على قليل من الحقيقة. سنقول أن البشير المجنون كان يريد حرق المدينة مثل نيرون يوم صمم على إشعال روما. ولهذا سجن. ولم يسجن بسبب أفكاره السياسية، ثم رأف قلب الحاكم على حاله، فقام بإطلاق سراحه. ويشهد على ذلك قوالو المدينة. لا يستطيعون أن ينكروا هذه الحقيقة التي سيعرفها القاصي والداني بواسطة الاستعمال المستمر والموضوعي للتلفزيون وبعدها ستُبتذل كل حكاياته، لتتحول إلى مجرد تخريف يقرأه في الكتب التي تباع على أطراف الأسواق المنسية. كان مولعاً منذ صغره بهذا المرض، مرض القراءة، وعندما شبَّ استفحل فيه، ليحوله إلى مرشد ضيع علاقته بالحياة. الزمن علمنا أن لا نرتكب حماقة الحاكم الرابع، ولا غلطة المقتدر ولا سهو الذين شووا لحم ابن المقفع، ولا الذين رموا بشار بن برد بالزندقة. سأترك دنيازاد تروي حكايتها الأخيرة، وعندما تبدأ تباشير الصباح أكون قد صفيت كل علاقتي وكل ما يربطني بالليلة السابعة. وفي الصباح، أذيعُ مباشرة نبأ الوفاة في حادث طائرة الهيلوكبتر بعد أن أضع قطرتين من ماء البصل في عيني، لتعميق درامية المشهد. وبالمناسبة أفند كذبة المنجمين. كذبوا ولو صدقوا. سأشحن الناس، وأطلق سراحه. وأعلن كذلك عن تكوين الميليشيات مثلما يحدث في الدول الاشتراكية


Twitter: @ketab_n

وأحوطهم بالقصر، ليل نهار، وبعد هذا كله أعيد ترتيب الجيش من جديد. وعندما انتهي من هذه المسائل الخطيرة التي يترتب عليها مستقبل البلاد، والاصلاحات، أُعلن الزحف المقدس على البحر ثم باتجاه القلعة. ولن يموت عسكري واحد، لأني سأرسل الميليشيا وأدفعها بعد شحنها بقاموس الدفاع الوطني. سأغير وجه الأرض، ليبدأ عصر جديد. سنغير أسماء الألوان. يصير الأصفر أحمر. والأخضر بنيّ، والأحمر أسود، والبنفسجي ترابي، وهكذا سأعطي الأوامر الصارمة لإعادة كتابة القواميس ونزع كل مالا يناسب حضارتنا وخصوصياتنا. سنعيد خلق الدنيا كما نشتهيها. شيء واحد يجب أن لا يتغير، قضية حكم الأجداد. يجب أن تظل عالقة بالذهن للاستفادة من أخطاء الماضي وتجاوزها. ونعلن عن عيوبنا بجرأة وهكذا نغلق الطريق في وجه القوالين. سأقولها علانية أن والدي خان، لأن الظروف لم تكن مناسبة. المخابرات الإنجليزية عقّدت لنا المسائل في الآونة الأخيرة، ولكني سجلت احتجاجي رسمياً من خلال الصديق الشمالي الذي يمثلهم. كان بإمكان جهاز المخابرات البريطانية استشارتنا قبل الإقدام على حماقة نشر الأسرار التي مر عليها أكثر من خمسين سنة (وقبل أن تمر الخمسون سنة). هؤلاء الإنجليز دمهم بارد، لا يقرأون سرّ العواقب. مما كشفته جرائدهم أن والدي كان السبب في انتصار العرب في حربي 1948 و1967، بواسطة المعلومات التي سلمها لهم، والمعلومات التي أشاعها، والبنادق المحشوة بالنخالة التي استوردها خصيصاً لهذه الحرب المقدسة. وأن القاعدة الأمريكية قبض ثمنها مسبقاً، وتعتبر أرضاً مباعة بالشهود والتوقيعات المتكررة. كان يرحمه الله، تقول الجريدة السرية، ضامناً للنصر دائماً ولكن لم يفسر ولا مرة واحدة ماذا يقصد بالنصر المؤكد؟! الانتصار على النفس الأمّارة بالسوء، قالها في خطابه الأخير الذي ألقاه في البلدية، وهو داخل قطعة زجاج مضادة للرصاص، وهذه طريقته الدائمة في



Twitter: @ketab_n

الخطب الجماهيرية، لأنه لم يكن يثق أبداً في الرعاع من الرعية الذين يتخبأون وراء جذوع الأشجار الميتة لقتله. يقول دائماً، حروبنا كنا نخسرها لأننا كنا ندخلها بقلوب فارغة من الإيمان. النفس أمّارة بالسوء يا ابن آدم. شُوفْ القدام فقط، شوف واش درت لذيك الدار. الآخرة تنتظرك تطلع والا تنزل. أوف ليكن، إنها نفس الكلمات التي كان يقولها أبو عبد الله محمد الصغير وهو يودّع غرناطة، ويشنشن في جيبه الدوقات الذهبية ويحاول أن يستعيد وهو على الهضبة زغب القشتاليات الذي تعود أن يقلبه برؤوس أصابعه في لحظات الارتخاء. كانت صنعته المفضلة. لا ينام إلاّ بها. حين وقف على هضبة El Ultimo Suspiro del Morro لم يندم على أي شيء، لا على الملك، ولا على المدينة التي كانت تدكها المدافع الإيطالية، ولا على المدفع الدمشقي النائم الذي لم يستعمل أبداً، ولكن الذي كان يؤرقه هو كيف سيأتيه النوم في غياب الزغب القشتالي. والدي دخل ضمن نفس الدائرة التي انغلقت عليه.

تقول الجريدة الإنجليزية السرية، التي سرّبت الكثير من المعلومات الحربية، كان يرحمه الله يخاف على رعيته. ولم يفعل ذلك إلّا لأن هاتفاً أتاه في آخر الليل في 1948 و1967 نفخ في أذنه. لا تدخل حرباً ليست لك. وحافظ على أمتك وعلى الذرية التي ستأتي فيما بعد وتحمل لواء الانتصارات. وكل الأعمال بالنيات. وكانت النية أننا حملنا السلاح حتى ولو كان محشواً بالنخالة، والنشارة. نوينا أن نقاوم، وكانت النية فوق الحيلة وسقط العدو في الموقعتين المشهودتين 1948 و1967. سجلها الوراق على إثر روايته، وعندما انتُقد بشدة من طرف المعارضة قال: ليكن قليل من الأرض للعدو مقابل الحفاظ على وحدة الشعب والأمة. وقتها صفقت بكل حرارة التشكيلات السياسية المعارضة والموافقة لبرنامج الحكومة. وكان هو داخل العلبة الزجاجية يرفع يديه ويستنشق نشوة الانتصار العظيم. إنها حكايات قديمة. لكن في الحقيقة كان بإمكان الإنجليز



Twitter: @ketab_n

أن يستروا هذا التاريخ ولو مؤقتاً. لم يكونوا مجبرين على إخراج هذه الفضائل التي سيحولها علماء المدينة إلى سلاح يوجه إلى صدورنا ونتهم بالخيانة الوطنية. خصوصاً وأن سنوات الكشف القانونية التي يسمح فيها بنشر الوثائق السرية لم تتم بعد. لماذا هذا التسرع؟ أعرف الحقيقة المخفية في قلب أي حاكم. في لحظة من اللحظات يرمي كل شيء إلى الخراب، لأنه يعرف أن الرعية سترمي لحمه ذات يوم إلى كلاب الحي. يقول الوراقون أن والدي لم يحكم طويلاً، رغم أنه عمَّر أكثر من ثمانين سنة. عندما رأيته في المرة الأخيرة عارياً بين محظياته، عرفت كيف أن العمر يأكل الجسد ويشعل الرغبة المدفونة إلى أقصى درجاتها، وهو السبب في ترسيخ النظام الملكي الذي قسم الرعية إلى حكام ومحكومين إلى أغنياء بشكل فاحش لدرجة تهد الملك، والجياع لدرجة التفكير في عمل انتحاري على عتبة القصر. أوف هذه السخيفة تأخرت كثيراً. قالت أنها ستقوم بطقوسها اليومية وتعود بسرعة...

شعر بالحرائق تنشأ في داخله، وبالزمن يمر بسرعة عجيبة. ليكن، هي تقلل من عمرها. تتجمّل من أجلي. دنيازاد. دابة الغواية الثانية. سأسفدها وبعدها أذبحها مثل الخروف. قالها الحكيم وهو غارق في تأملاته التي لا تنتهي. هاه! هي ذي. يسبقها خيط من العطور الهندي والمسك والعنبر والياسمين، وعود القماري. هي ذي تأتي بعدما استحمت سبع مرات في ماء قشور الرمان والبرتقال والليمون كعادة نساء نوميدا الثريات، للحفاظ على صلابة الجلد، ورشاقة الجسد. خيط من الياسمين الإشبيلي يصل حتى الأنف، ليسحبه تحت نشوة لا تقاوم إلى السرير المحضر على غير عادته، بالأردية اليونانية والأغلفة الهندية والرسومات الفارسية ووسائد بلاد السند. انزلقت دنيازاد (قطر الندى) أمام وجهه كنسمة الجنة. انكفأت على السرير بهدوء، بان نصف جسدها العاري. الله يلعنها ويلعن دينها ودين أمها. اليهودية! ما أجملها. يجب أن لا أسقط. إنها



Twitter: @ketab_n

المقاومة يا شهريار. مقاومة الغواية. مقاومة التفاحة التي تريد أن تسد بها حلقك. قالها وهو يتأوه في مكانه، ويتأملها من تحت عينيه النصف المغمضتين. تعمقت تفاصيل جسدها بلباسها الأخضر الذي كانت تشتهيه. تقول أن أختها شهرزاد كانت ترتديه كلما قابلت شهريار. ليكن! هي الليلة الأخيرة في حياتها، سنتركها تفعل ما تريد. مسكينة لو كانت تعلم. ستجن عندما تقرأ نعيها. تعال، قالتها وهي تمسح شفتيها بلسان رقيق، ازدادت حمرته أكثر تحت الانعكاسات الضوئية المختلفة، وتضع يدها بين فخديها وتعقف إصبعها الأوسط وتشد بقوة. وتتأوه في مكانها. تعال.. تعـا..ل.. تـ.. عـ..ـا..ل.. قالتها متقطعة على مقطوعة الدانوب الأزرق.. الدانوب الأزرق .. وللّا الشيخة الرميتي وخويا ابن عبد الله الوجدي، والله ماني قايم من مكاني. قالها وهو يغمغم ويحاول مقاومة سحر اللحظة التي لا تتكرر. تعال يا أجمل شهريار في الدنيا، تعال لتسمع نهاية القصة التي لا تروى إلا بين عاشقين لا يسمعان إلا لنبضهما.

ـ سأبدأها لك من اللحظة التي توقفنا عندها في المرة الماضية.

ـ أرجوك لا تحكي مرة أخرى عن هذا المغربي المجنون.

ـ المغربي في الأنفاق يا ملكي وحكيمي العظيم. فهل تخافه!

ـ لا أخاف حتّى... عفواً، إلا الله.

ـ سأسمعك نهاية الليلة الواحدة بعد الألف، التي تريد سماعها. لأن دابة الغواية كما تسميها خبأت الكثير.

هه... تريد كسب الوقت. مسكينة، نهايتها على يدي. صعبٌ على المرء أن يموت بعد لحظات أو ساعات، وهو لا يعرف مصيره، ويتعامل معه كأن شيئاً لم يكن. الله غالب. لست مخيراً وليست مخيرة كما يقول المغربي المجنون. حتى أصدقائي الشماليون أخبرتهم بتفاصيل هذه الليلة، لأن مساعدتهم في تجاوز معضلات الليلة السابعة بعد الألف ليست هينة أبداً. قالوا سنكون بجانبك في الوقت


Twitter: @ketab_n

المناسب، لإعادة كتابة التاريخ ورواية الحقيقة كما نراها للوراقين. عليهم أن يقفوا موقفهم التاريخي، فقد كنت سخياً معهم. سلمتهم آبار النفط بكاملها، وعندما أزعجوني، أغرقت الأسواق، وحولته إلى ماء. بل سأواصل باتجاه هذا الإصرار الثوري. نقلته من 30 دولار إلى 11 دولار إلى دولار واحد للبرميل. لقد صممت على الذهاب وراء القضية حتى التهلكة. عليهم أن لا يتمادوا في إزعاجي، لأني سأنتهي إلى تحويل برميل النفط بدون ثمن. هذا لم يحدث إلا في تاريخي. ميزتي وشرفي في مقاومة اليانكي، والمدّ السرطاني للغرب. مثلما يستغلوننا نستغلهم.

أبشري أيتها الأفعى. سأكون على صدرك بعد قليل. السكين ذو الحدين ينام تحت وسادتك. عندما أصفق سيدخل الكفان. أقطع رأسك ورأس فرخك قمر الزمان وأسد فرجك إلى الأبد بقطنة ثقيلة وتنتهي الحكاية. حكايتك. وتبدأ قصة أخرى. مثلما أضاف سابقي ليلة للألف، سأضيف ليلة أبدية لرقم سبعة المشؤوم. سأنقل البلاد عبر شعاع فضي إلى عصر آخر لا يستطيع أحد مقاومة إغراءاته. حتى البشير الذي سيزداد جنونه وهباله.

- احك يا نور العين. احك يا أجمل خلق في الدنيا. احك...

- الصباح يداهمنا.

- كلي آذان صاغية.

انفجرت سبع قذائف متتالية بجانب القصر. تحركت من مكانها. أرادت أن تقوم. طمأنها بهدوء.

- إنها فرقة المشاة تتدرب كيف تحمي القصر عند الضرورة.

- اقترب إذن يا حاكم جملكيتي. اقترب. الدنيا مثل الحلوى تذوب بسرعة خارقة. اقترب إلى مدينتك المفتوحة.

ها. ها. الكأس السابعة! بدأ الهذيان يعلو دماغها. مسكينة


Twitter: @ketab_n

كأنها تقرأ كتب الغيب. لو تعرف بأن المؤرخ سجل كل شيء. حتى كيف تُنكس الأعلام القزحية وتحل محلها الخرق السوداء.

احك يا قرة العين ويا صفاء عرق الجبين. احك آخر حكاية في عمرك. سجّلات حياتك ستتوقف الليلة. القصة يجب أن تبدأ من هنا. من القفزة النوعية التي نحققها على حساب خرافة الليلة السابعة بعد الألف. احك هي ذي الآن تعتدل فوق سريرها الواسع الذي احتضن ابن الكلب الذي لا أعرفه وَوَلّدَهَا قمر الزمان. تقول إنه سائح ضائع، ولكن ليست هي الحقيقة. وجهه البشع المعجون لن يكون صحراء الربع الخالي.

- ابدأ، يا سعادة الحاكم بأمره حكيم الجملكية الحالية.

- ابدئي. قلبي معك.

بلغني يا ملكي العظيم، تقول دنيازاد (قطر الندى)، أن شهرزاد توقفت عند جحيم الليلة الأولى بعد الألف. كنت معها ولهذا يا سيدي العظيم أقسمت أن أخرج ما أخفته لأني أعرف، مثلما كانت تعرف، الحقيقة المخفية. لم تكن تحب شهريار يا سيدي، ولكن كان عليها أن تلعب اللعبة التقليدية من الأول حتى الأخير، لتثبت غباءه في التفكير وفي الحكم وفي أسلوب المضاجعة. تصور يا سيدي امرأة تقاوم الموت لمدة ألف ليلة وليلة، ورجل مثل الجبل يتبجح بانتفاخه وقوته، فقط لأنه رجل؟! إنها مصلحة الحكم أيها الرجل السعيد، هو الذي كان يخاف من خديعة النساء. لماذا لم يسألها من أين جاء الأطفال الثلاثة الذين قدمتهم له في آخر الليلة الأخيرة، وهو يعرف أكثر من غيره، أن منيه بكامله ضاع في الفراش وبين حيطان التواليت وهو يحاول أن يستعيد جسدها الذي حُرم منه طوال الأزمنة الفائتة. هذه كلها حيثيثات كان يجب أن تعرفها أيها الحاكم السعيد، قبل أن ننتقل إلى قصة فاطمة العرة التي أوقفتها في منتصفها لأنها كانت تعرف مسبقاً أنها لو أتمتها سيفصل رأسها



Twitter: @ketab_n

عن رقبتها، كما كان شهريار يفعل بالأخريات. ليس مهماً ما جرى من حوادث خطيرة. لأنها كثيرة وقد لا تحد وهي مدونة كلها في كتاب الأمة. كل هذا ليس مهماً يا سيدي لأن ما سيحدث في الليلة الأخيرة يخبئ في عمقه سراً كبيراً.

كانت دنيازاد تعرف كل النهايات، ربما حتى نهايتها. فقد قرأت في عينيه الدم المحقن في عروق البياض. كل شيء انتفخ فيه حتى شكله وجثته. تعوّد مثل الطفل البليد أن يظهر كل انزعاجاته لإثارة الآخرين. في الحقيقة الكارثة، تاريخها القديم، تبدأ من اليوم الذي طلب منها ولي العهد وراحت لتفاجئه ذات فجر أنها حامل. كان يفرح، ولكنه حين يتذكر السائح الشمالي (كان في البداية يظن أن السائح هو صاحب الفعلة) ينكسر، ويحاول أن يعرف، أن يخرج لسانها لمزيد من معلومات المضاجعة. لأنه رأى في عينيها إشراقة عجيبة، ونوراً ساح على وجهها كالملائكة. خصوصاً بعد كل حمام تقليدي بقشور الرمان والبرتقال والياسمين. في الحقيقة أنا نفسي لست أدري هل هو ابن العبد الذي فاجأته يتأمل المشهد من وراء الحجاب، أم الرجل الطيب الذي عشقني أكثر من عشر سنوات في صمت مطبق. تقول دنيازاد: سأذكر له الاسم الذي ينتف بعده شعره. لكن قمر الزمان ابن أي واحد، ولكنه ليس ابنه. كان على شهرزاد أن تقول تلك الحقيقة، ولكنها خافت من جبنها. سأقولها أنا ولو كلفني ذلك رأسي، كنت أعرف حقيقته، كان مريضاً بداء اسمه المرأة. يقول دائماً هي التي وكلتني تفاحة لم أكن أرغب في أكلها. ويستحضر في وجهي كل الكتب الدينية والسير القديمة التي كان يرويها له الوراقون، وبعضها سمعها مني ولكنه نسيها. عندما يعود في ساعة متأخرة من الليل من الحرملك، لا أسمع إلا أصوات المياه وهي تتكسر في المغسل وهو يفرك يديه من دم المحظيات المذبوحات. أو من رائحة الجثث في الدار الباردة التي يظن أنها من بين أسراره الخاصة التي لا يعرفها أي واحد. وكنت أعرف أن الإهانة القاسية



Twitter: @ketab_n

التي تلقاها في المواجهة التلفزيونية ستسرع كثيراً من الوضع. كان بإمكان الحكيم لو كان ذكياً أن لا يورط نفسه، ولكن العملية كانت تتجاوز وضعه المنتهي. ما حدث كان يجب أن يحدث. إصراره على أساس أنه المثقف رقم واحد والمؤرّخ الأول، والحاكم النادر، والرزين الفريد، هو الذي قاده إلى هذه النهاية المفجعة. المهزلة سرقت ما تبقى من الفريد. هو الذي قاده إلى هذه النهاية المفجعة. المهزلة سرقت ما تبقى من ملامح وجهه. ما يحدث الآن كان يجب أن يحدث منذ زمن ولكنه تأخر كما يقول الموريسكي القادم من أغوار الخوف. لا أحد يملك وسيلة لإنقاذ الآخر. هي الكأس السابعة أم الكأس العاشرة، لأول مرة يضيع العدّ.

تململ الحاكم في مكانه، وهو يحاول أن يهز رأسه الذي بدأ يثقل شيئاً فشيئاً بعد الكاس السابعة، لأول مرة بدوره يتخطى هذا العدد. قال في أعماقه، ليكن. إنها الليلة الأخيرة. ستحمل معها أسرارها وخيرها.

ـ هه! احك؟! مالك ساهية؟ إنها القصة التي انتظرت نهايتها العمر كله.

ـ تعجبني فيك صراحتك أيها السعيد.

بلغني أيها الحكيم الرشيد، أن الملك معروف، صار لا يعتني بزوجته من ناحية النكاح وإنما كان يطعمها احتساباً لوجه الله تعالى. فلما رأته ممتنعاً عن وصالها ومنشغلاً بغيرها، بغضته وغلبت عليها الغيرة ووسوس في رأسها الموسوسون. أقنعوها، أن تأخذ خاتم الحكمة والحكم منه وتقتله وتعمل ملكة مكانه. ثم أنها خرجت ذات ليلة من الليالي، ومضت من قصرها متوجهة إلى القصر الذي كان فيه زوجها الملك معروف. واتفق بالأمر المقدر والقضاء المنتظر أن معروف كان راقداً مع محظية من محظياته ذات حسن وجمال.



Twitter: @ketab_n

ـ أوف. ما بك يا دنيازاد. أنت تقصين الليلة الواحدة بعد الألف، من ألف ليلة وليلة؟! أين الجديد.

ـ للحكاية سوابق وذيول يا سيدي عليك أن تعرفها.

وحدث يا أعظم حكام زمانه، أن كان للملك معروف ابناً آخر من زوجته الجديدة خرج ليلتها إلى ديوان والده متقلداً سيفه المرصع بالجواهر والأحجار الكريمة. كان يعتز بهذا السيف، ويقول عنه والده دائماً: سيفك عظيم يا ولدي ولكن ما نزلت به حرباً ولا قطعت به رأساً. فيرد عليه: سأقطع به عنقاً يكون مستحقاً للقطع. نفس الدورة تتكرر أيها الحكيم الفاضل. مشى وراء زوجة والده، فرآها تسرق الخاتم وتدفنه في باطن كفها، فأدرك قصدها. ضرب عنقها، فزعقت زعقة واحدة ثم وقعت مقتولة. انتبه الملك معروف ونهض مذعوراً، لكن الابن أفهمه القصة كلها. ثم مازحه: يا أبي كم مرة وأنت تقول لي سيفك عظيم ولكنك ما نزلت به حرباً ولا قطعت به رأساً وأنا أقول لك لابد أن أقطع به عنقاً مستحقاً للقطع. ها أنذا قد قطعت لك هذا العنق. ثم انسحب الولد بطقوس الخجل بعد ما سمع من والده الكلمة التقريضية التي يحفظها كل الملوك لإخراجها في مثل هذه الأوضاع: «أرحتني يا قرة العين منها، وأرحت أركان الحكم المكين من الرعاع والطامعين، أراحك الله ورسوله يوم اليوم المبين، وفي الآخرة أنت من الفائزين». لكن يا سيدي العظيم، ما لم تقله شهرزاد شيء آخر وأكثر خطورة. الابن طوال حياته لم يتخطَ ليلاً حدود قصره. لماذا فعلها في تلك الليلة بالذات؟ لقد اتفق معها لإنهائه. فاطمة العرة كانت حاقدة على زوجها الملك معروف، لأنه رماها، وهو كان خائفاً على المُلك، وكان يريده. التقت الرغبتان الجهنميتان. السلطة والجنس يا سيدي. قال لها اسرقي الخاتم ونزع الرقبة سأتولاه بسيفي. وحين سارت باتجاه القصر تبعها. حدث ما حدث يا سيدي العظيم. كان يريد أن يكسب ثقة والده بأية وسيلة، أقنعه بأنها كانت تستهدف قتله بعد الاستيلاء على خاتم الحكمة والحكم ولهذا حز رقبتها من منبتها. شهرزاد خافت. فقفزت



Twitter: @ketab_n

على سر الحكاية، وأقسمت وأنا أستمع إلى كذبها، أن أرويَ هذا السر عندما يعود الزمن الآخر، وها هو قد عاد يا سيدي. زعق الملك معروف على خدمه وحشمه وأتباعه، وطالب بدفن فاطمة العرة، بعد غسلها وتكفينها مثلما تمليه الشرائع والطقوس. فهي كانت طمّاعة، ولم تكن كافرة. هذا ما روته شهرزاد في كتاب الأمة القديم. لكن كتباً صفراء نشأت في الأزقة والحارات الشعبية لبعض القوالين، تقول أنه وضعها بين أربعة أحصنة، بعد أن ربط رجليها ويديها في أربعة أحصنة موجهة باتجاهات مختلفة، وضرب السوط، فاندفعت الدواب كل واحد بطرف من جسدها الممزق إلى أربعة كتل متفاوتة. ثم قدّمها للأسود التي كان مولعاً بتربيتها خصيصاً لهذه المسائل المتعلقة بالحكم. وزوّج ابنه من فتاة بديعة الجمال وأقام الجميع في أرغد عيش وطابت لهم المسرات، إلى أن أتاهم هازم اللذات ومفرق الجماعات، ومخرب الديار العامرات وميتم البنين والبنات. سبحان الحي الذي لا يفنى ولا ويموت، بيده مقاليد الحكم والملكوت. لكن يا سيدي الحكيم، وأنت خير من يعرف أسرار الحكم وإدارته، الذي حدث هنا، كذلك، كان شيئاً آخر، بلعته شهرزاد في قلبها وخبأته خوفاً على رأسها. فعيناها كانتا ترتجفان رعباً. عين على نهاية الحكاية وخاتمتها، وأخرى على السيف الذي كان ينام كل ليلة على حجر شهريار. الذي حدث كان مرعباً يا صاحب الفضائل وعالي الهمم. الملك معروف من يومها كان لا يطيب له المقام إلا إذا كان بجانبه ابنه قرة العين. يقول لضيوفه الذين وفدوا إليه على مدار سنة بكاملها بمناسبة نجاته من موت محقق، هذا حبيبي قرة عيني. من صلبي. في دمه سلالة الملوك والأخيار. أنقذني من موت كان محتماً. لكن الابن الذي لم تذكر الكتب اسمه، وتحتمل أن يكون «قرة العين» بسبب تكرر هذه اللفظة على لسان والده غير معرّفة ومعرّفة أحياناً، ومنسوبة وغير منسوبة في الكثير من الأحيان، كان يحمل في قلبه سواداً كبيراً وينتظر اللحظة المناسبة للفصل في اللعبة التي بدا له وكأنها تطول بدون معنى. كان يحسب لكل شيء بتفاصيله الدقيقة حتى المُغرق منها في الصغر، واختار أن يكون الليل الذي أنقذه فيه،



Twitter: @ketab_n

هو نفسه الليل الذي ينهي فيه قصته. في ذلك المساء سامرته زوجة والده الجديدة مطولاً . قالت له أنت مثل أخي، الوحيد الذي اثق فيه، والدك صار هرماً، وجسده مترهلاً. لماذا أيها الملك الصغير يا قرة العين، يتزوجون بنات الملوك وهم في نهايات العمر. لاطفها مطولاً، قبل أن يختبئ بها في زاوية ضيقة داخل القصر لا يؤمها أي واحد. قال لها انتظري، فأنت خلقت لي. وذات مرة عندما وقف بين يدي والده قال له: يا ملكي العظيم لقد تعبت كثيراً من الحكم، وشؤون الرعية تزداد. أستطيع أن أعوضك، ليس في الحكم، معاذ الله!؟ ولكن في شؤونك العامة. واستطاع في زمن قصير أن يفرض نفسه حتى على الوزراء والولاة. رئيس الوزراء نفسه احتج بقوة لدى الملك، فكاد الملك معروف أن يقتله. هذا ابني يا طائش. إنه من صلبي وكاد أن يقطع رأسه، لولا تدخل الابن وهو يقول: اغفر له أيها الملك العظيم. فأنا قد صفحت عنه. المؤمن من يصفح عند القوة. أقبّل الأرض بين رجليك. اغفر له. الملوك يا سيدي من سلالة واحدة يصدقون بسرعة الكذبة التي تُصنع على شرفهم. ومع الزمن جرده من كل شيء، وحوله إلى مجرد جثة تنام على كرسي، مصرة على الالتصاق فيه. تشخر هناك. تبول هناك. تخرا هناك. تستنمي هناك. تفعل كل شيء فيه، ولا تغير إلاّ القصعات التي وضعت خصيصاً لهذه المهام البيولوجية حتى صار في الكثير من الأحيان يأمر خدمه، فلا يسمع أحد لكلامه، إلا إذا أعطى قرة العين أوامره. علاقته كانت تزداد سوءاً بزوجته الجديدة التي كان يكبرها بأكثر من ستين سنة. وذات ليلة، عندما أهانته بضعفه في كل شيء، ومسته في رجولته الواهية، حمل سيفاً كان ينام بجانبه، وصرخ.

ـ ها. ها! أنت أردت ذلك. لن أوسخ يدي بك. سأنادي على قرة العين يبيدك يا فاجرة.

ضحكت. تمرغت طويلاً ثم قالت له.

ـ بربك!!؟ هل بقي فيك شيء تحكم به؟! هل أنت ملك؟! لقد صرت جثة نتنة.



Twitter: @ketab_n

صفق بيديه المرتجفتين، وهو لا يصدق ما يسمعه. دخل قرة العين. وقد بدا على وجهه انزعاج مفتعل. كانت زوجة الملك معروف ما تزال تتمرغ من كثرة الضحك يا سيدي. رفع إصبعه عالياً، آمراً ابنه.

- اقطع رأس هذه الفاجرة. افعل ما فعلته مع فاطمة العرة. وسيكون سيفك المرصع، هو سيف العدالة والأمان وقاطع رقاب الخائنات.

زاد ضحك الزوجة الشابة التي احتفظ المؤرخون باسمها. حتى شهرزاد لم تقله في روايتها المسالمة. ثم التفتت إلى قرة العين، وفتحت الرباط الذي كانت تشد به غلالتها الشفافة، فنزلت حتى وصلت عند صرتها. بان جسدها مصقولاً كالنور معكوساً على أجمل تحفة. ثم غمغمت في أذنيه.. آ.. ها.. ها.. فرصتك فرصتك يا حبيبي. اليوم لي ولك فقط. ثم التفتت باتجاه الملك معروف، وهي ما تزال تشد بيدها اليمنى على خصر قرة العين، وترفع يده اليسرى باتجاه نهديها النافرين...

- اقطع رقبته يا قرة العين. لقد ثقّل علينا كثيراً، وأكل من شبابنا زمناً طويلاً. كل ما فعلته لم يكن إلا من أجل هذه اللحظة إنه عشيقي يا ملك الزمان. وهل يقتل العشيق عشيقته حتى وإن كان الأمر من السلطان؟ قلتَ أنك تزوجتني على سنة الله ورسوله. قلتَ لي أني أول امرأة تدخل حزنك وتسري في دمك. ويوم فاجأتك بقصة فاطمة العرة، قلت مجرد حماقة قديمة. والآن تريد أن ينزل هذا السيف على رقبتي!؟ لتقضي بقية عمرك مع المحظيات. راك غالط يا السي موح!؟

كان الدم قد تلاشى من وجه الملك معروف، وعلته صفرة عجيبة، تشبه الصفرة التي تسبق اخضرار الموت.

- لا يا أفعى حماها الرسول من البرد وقساوة الشتاء. ابني لن يسقط تحت الإغراء. لقد ربيته في الدلال الملكي. أعطيته عمري وشعبي. اقطع رأسها يا قرة العين وبرّد خاطري.


Twitter: @ketab_n

تقدم منه قرة العين، حتى صار قريباً من وجهه.

- ألم تقل لي في ذلك الزمن البعيد، إن سيفك عظيم يا ابني، ولكن ما نزلت به حرباً ولا قطعت به رأساً. استعملته ضد فاطمة العرة، وها أنذا أقطع به رأساً صالحاً للقطع. ورفع يده عالياً في يده سيفه المرصع بالزمرد والأحجار الكريمة.

رفعت دنيازاد يدها عالياً، قبض عليها الحكيم شهريار بن المقتدر الذي كان غارقاً في هذه القصة العجيبة التي لم تروها شهرزاد لجده، وصرخ بأعلى صوته. أرجوك لا تقتلي الملك معروف إنه من سلالة النبي صلى الله عليه وسلم لا تقتليه بحق النبي محمد. لا تقطعي رأسه. أعطيه لحظة واحدة، واحدة فقط، ربما أعاد النظر في ماضيه. ربما شهد ليموت مسلماً على الأقل.

نزعت يده بهدوء. وضعتها على حجره. كان العرق قد بدأ يملأ وجهه، والشجاعة التي بدت عليه في بداية الحكاية انسحبت، مخلفة رجلاً يبحث عن جحر فأر يختبئ داخله. لا يا سيدي العظيم تقول دنيازاد، لست أنا التي صنعت هذه النهاية، لقد صنعها هو لنفسه.

- أرجوك توقفي يا دنيازاد. أشعر بالتعب والحرقة.

قالها ثم مدّ يده باتجاه نهديها النافرين من تحت لباس النوم الفضفاض، واليد الأخرى زحلقها باتجاه فخذيها، وحاول أن يقلبها على ظهرها، طاوعته في البداية، ثم فجأة امتقع لونه، وكأن خيطاً من الموت ملأ عينه. مدّ يده تحت الوسادة. دفعته بقوة. ونهضت من مكانها.

- أعرفك يا ملكي العزيز. لم تجد السكين الحادة من الجهتين لقطع رأسي. شفت. دائماً تأتي متأخراً، حتى في لحظات يقينك. لن تجده، هو عند غيرك يا سيدي!؟

- ؟؟؟ !!! ؟؟؟ !!! ؟؟؟



Twitter: @ketab_n

ثم صفقت بيديها، فخرج من وراء الستائر ابنها قمر الزمان.

- هل تريد أن تعرف بقية الحكاية، أم أنك قرأت النهاية في الحكاية!

خرج الولد ممتشقاً نصلاً حاداً. لمع بمختلف الألوان بتأثير من الضوء القزحي.

كان شهريار بن المقتدر، قد بدأ يلهث من الخوف، ولكن في أعماقه كان مقتنعاً دائماً بأن الكلمة الأخيرة ستكون له.

- هذا أنت يا ابن القحبة. صنعتما نهاية مشتركة للحكيم؟!

- حتى المقابلة التلفزيونية التي بهدلتك أمام الرعية، نحن الذين صنعناها.

- هذا أنت يا فرخ الأجانب.

- لا يا سيدي العزيز. هل ترى عيونه خضراء!؟ سائحك الذي بعثته لي كان مختوماً بفراغ. عبدك الذي اشتهاني من وراء الستائر، نمت فوقه ثم رميته. خفت أن يفضحني سواد جلدة ابني. إنه ابن المؤرخ يا طويل العمر. الوراق الذي دوّن كل أكاذيبك. أيها المؤرخ هل دبجت النهاية؟!

كان شهريار غارقاً في مقارنة ملامح المؤرخ وقمر الزمن. بينهما تقاطعات عجيبة في الجبهة البارزة، والأنف، والشعر. وحتى القامة الفارعة. ابن الكلب. وحق محمد هو. إذن هكذا! قضت معه كل لياليها. آه! آه! لو يعود الزمن سأضعها وأضعه بين أربعة أحصنة، كما فعلت شهرزاد في روايتها. أصدقائي الشماليون لم يقولوا كلمتهم الأخيرة.

- وأنت أيها المؤرخ. ماذا فعلت لك؟ غيرت نهاية الرواية؟

- لا يا سيدي أنا لم أغير شيئاً. الأسماء فقط هي التي تبدلت، هذا كل ما في الأمر.



Twitter: @ketab_n

- اسمعه يا وراق الجملكية طمئنه. لا تتركه في حيرة.

قالتها دنيازاد وهي تتأمل دهشة عينيه المنكسرتين، ثم بدأ وراق الأمة يحكي، بعد أن مسح بظاهر يده اليسرى، ورشف رشفة عميقة من كأس الشاي المشحر، واضعاً القلم بين يديه، محترماً كل طقوس الكتابة، ثم بدأ في تلاوة المكتوب. «في السنة العجفاء، حين سقطت ملامح الناس، وخاب الحكام في الرعية، في الليلة السابعة بعد الألف حدث هذا، توفي صاحب المقام العالي والإيمان المطلق، الحكيم، الحاكم بأمره. شهريار بن المقتدر حاكم جملكية نوميدا ومؤسسها (...) في حادث طائرة مروحية أثناء طلعته اليومية على الرعية (...) سيُنكس علم نوميدا القزحي، ويعوض بخرقة سوداء. رحم الله شهيد الأمة وتغمده برحمته، وأسكنه فسيح جنانه...».

كما ترى يا سيدي لم يتغير شيء مهم، سوى بعض الشكليات الخاصة باللغة لا أكثر. لقد احترمنا أمنيتك الطيبة، قالت دنيازاد، وهي تحاول أن تكسر الدهشة التي تمددت إلى كل ملامحه. لكن يقينه الذي بدأ يضعف، ظل قائماً، المعجزة تتلخص في التدخل السريع للأصدقاء الشماليين. شعرت برغبته الأخيرة. صفقت من جديد، فدخل الشماليون في خط مستقيم. مسلحين. أشرقت إشعاعة في عينيه. أراد أن يصرخ. كنت أعرف أنكم لا تخونوا حليب هذه البلاد ولا نفطها. كنت أعرف. لكن الأمر لم يطل به، إذ سرعان ما انكسر. فقد وقف الشماليون بين دنيازاد وابنها قمر الزمان.

وحين تيقن الحكيم من نهايته، طلب منهم أن يتركوه حتى الصباح. لم تبق إلا ساعات قلائل. قالوا له: لا يمكن يا حكيم عصره. كل شيء انتهى. التلفزيون سيفتح مع الفجر على غير عادته، وسيروي ابنك تأبينك، ويُنصبه الوراق ملكاً رسمياً على البلاد. هل يقرأ لك البيان.

- لا. لا. هذا كابوس مزعج. ربما الكأس لعبت برأسي؟!



Twitter: @ketab_n

- يا روحي أنت مخطئ. أنت في عزّ نباهتك. اسمع بيان التنصيب. لا شيء تُرك للصدفة.

نهض الوراق من جديد من مكانه، بعدما نزع ألبسته التقليدية مبرزاً ألبسته العسكرية، وعلامات الجنرال على كتفيه وصدره. فتح الورقة الطويلة وبدأ في تلاوة بيان التنصيب.

«تحت وطأة الظروف الأليمة التي حلّت بالبلاد، تضطر الجملكية إلى العودة إلى تاريخها القديم: النظام الملكي، حفاظاً على تراث الأمة والأجداد. وسينصب الابن الشرعي قمر الزمان ملكاً على البلاد وماريشالاً جليل القدر، كما جرت عادات الملوك والسلاطين والحكام».

كان الوراق يقرأ بحماس كبير كل ما خطه.

شعر الحكيم بأن كل الحيطان تتسابق لخنقه. كاد أن يسقط ولكنه صمم في أعماقه أن يبقى واقفاً مثل الموريسكي. نظر إلى وجه الوراق بحقد كبير.

- الله يلعن طيز أمك يا ابن الكلبة، تشوّه روايتي برواية غيري.

- لا يا سيدي، لم أقل إلا الحقيقة.

- أية حقيقة يا ابن التالفة. الأقوى هو الذي يحول الكذب إلى حقيقة والحقيقة كذباً. وأنتم الوراقون دائماً مع المنتصر. سأعطي الأوامر بقطع رأسك.

- عندما تستطيع يا سيدي.

كان الزمن يمر بسرعة، رأى وجوهاً مظلمة من كل الجهات. حين رأى الباب مفتوحاً، ركض باتجاهه مغمض العينين، وهو يتمنّى عندما يفتحهما أن يجد كل شيء قد انتهى. مجرد حلم. مجرد كابوس مزعج. وعندما وصل إلى الباب وقبل أن يفتح عينيه، وجد الكفّان يقف أمامه وجهاً لوجه. وقبل أن يدفعه، ليخلي له المكان،



Twitter: @ketab_n

كان الكفان قد أدخل نصله الطويل في صدره حتى تكسرت شفرة الرأس على الحائط المقابل، بعدما اخترقت الجسد، ثم سحبه بقوة وبسرعة. كانت عينا شهريار بن المقتدر ما تزالان مفتوحتين عن آخرهما. ومع ذلك ظل واقفاً في مكانه، ثم سقط على ركبتيه. رفع رأسه إلى السماء، كان يريد أن يرى الله للمرة الأخيرة، ولكن لم ير إلّا سقف القصر الذي بدأ ينزل شيئاً فشيئاً على رأسه. تقدم منه أصدقاؤه الشماليون، أخرجوا مسدساتهم، ضبطوها جيداً عند رأسه، ثم ضغطوا دافنين فيه رصاصات غير معدودة. امتلأ فمه بالدم. أحنى رأسه إلى الأرض. أراد أن يستغفر الله على ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ولكنه لم يرَ إلاّ الزليج الملون المليء بالدماء التي بدأت تكوّن بركة. تأمل ابنه بعيون حزينة وهو يتذكر آخر الكلمات التي قالها المغربي الوافد من البلاد البعيدة. وقبل أن يغمض عينيه للمرة الأخيرة على حمرة الدم وعلى قهقهات الوجوه المقابلة، وعلى ظلام الآخرة، كان قمر الزمان قد قطع رأسه ورماه بعيداً داخل القاعة العريضة الواسعة. عدّل الوراق من هندامه العسكري. انسحب الأصدقاء الشماليون إلى أماكنهم. ولبس قمر الزمان لباسه العسكري المرقط، ووضع على إليته اليمنى مسدساً، ورمى العقال الذي كان يضعه على رأسه. طلب من الوراق الجنرال (أبوه) بتعليق الأوسمة، وأن يضع على صدره وعلى كتفيه رتبة ماريشال وينمقه بميداليات الانتصارات في الحروب الوهمية التي اشترك فيها مع والده ضد أعداء الأمة. أعاد الوراق، الجنرال، قراءة الفرمان الذي يتم من خلاله تنصيب قمر الزمان جليل القدر، ماريشالاً، وحاكماً جديداً للمملكة.

في الليلة نفسها كفنت الجثة ظاهرياً، بعدما ضم إليها الرأس الذي ظل مدة من الزمن ينزف في الزاوية، ثم رمي الكلّ إلى الأسود الموجودة منذ الجد الأول في أحد الدهاليز الأرضية، ووضع داخل الصندوق جسد إحدى المحظيات، ضبطت وهي تتأمل مشهد القتل



Twitter: @ketab_n

من وراء الستائر، وكتب على التابوت بخط رقعي عربي جميل وداخل مستطيل مذهب:

«هنا ينام ملك زمانه، حاكم جملكية نوميدا - العظيم ومؤسسها، الحكيم، الحاكم بأمره شهريار بن المقتدر الذي استشهد في حادث طائرة. تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جنانه. إنا لله وإنا إليه راجعون».



Twitter: @ketab_n

# 16

«ماذا يحدث لو نعود إليك الآن. أيها البحر المنسي!؟»

يزداد صرير الرافعات العملاقة التي اسودّ صدأها، وهي ترفع السبائك الحديدية الثقيلة. أصوات الآليات الضخمة تملأ المكان وهي تحاول أن تخترق طريقاً أو ممراً داخل ركامات البنايات التي هُدّت تحت قصف الطائرات القادمة من القاعدة الأمريكية، ومدافع مشاة القصر. عادت مع الصباح الحركة بشكل خجول. سيارات الإسعاف بدأت تمر الآن، بعد تحرير بعض الطرقات، بشكل سريع كالبرق. ازدادت الحركة بشكل متسارع. الجنازات باتجاه المقبرة التي تقع في أحد مرتفعات المدينة أصبحت تتم بأقل عدد ممكن من الناس، خوفاً من القذائف المفاجئة، المظاهر العسكرية قلّت نسبياً، وعلى الوجوه بعض الابتسامات المكسورة التي لم تدرِ أين تستقر. يسمع المار بعض التمتمات، هنا وهناك بدون حدود. تترك أحياناً للرغبات الجامحة عنانها. يقولون أن الحكيم مات. الله لا يردّه ويرد والديه!؟ مسكين الروح عزيزة. يقولون أنه شوى نفسه حياً. إلى الجحيم. البارحة على غير العادة فقد صمّ الرصاص الآذان وجرحتها الانفجارات المتكررة، بحيث أن معظم الناس باتوا تحت الصخور المقاومة، أو داخل النفق الممتد بين القلعة والبحر الذي شيده عمال البحر وعلماء المدينة. البنك المركزي بدوره احترق، بعدما اشتعلت معظم فروعه. ذابت كل قطع الذهب. يقولون أن الذهب سال مثل الوديان. وسعدات إللي كان قريب من مكان الانفجار، الله



Twitter: @ketab_n

يعمل واش الخير اللي راح. تفو... تفو... اللي كان يكون، ولا هذه البلية التي نزلت علينا ذات شتاء لسنا ندري من أين. ابتذلوا سيدنا الخضر ورموه على أطراف المدينة. سرقوا منه اسمه وألصقوه بإنسان آخر لم يتعلم إلا الإبادات، بعدما سلموه مسدساً أوتوماتيكياً من نوع ماغنوم وأدوات التعذيب المتنوعة من أسلاك كهربائية وكلاليب وغيرها. الله لا يرد حتى واحد فيهم.

كان أحد البراحين يجوب الشوارع الخلفية المظلمة، تتساقط عليه القطع النقدية الصفراء والبيضاء من كل الأنواع، وبعض الأوراق من حين لآخر، وهو يصيح واضعاً يديه على أذنيه.

- يا السامعين ما تسمعوا إلا سمع الخير. عام الجوع راح، والزمان ولّى. والقصر اللي كان عالي طاح، والطير! المحبوس علي. يا السامعين، ما تسمعوا إلّا سمع الخير.

يشعر كأن صوته لا يصل إلى كل الأذان في المدينة الشعبية. يرفع المكبر الذي يشتغل بالبطاريات، ويصرخ. يصرخ حتى يشعر بكل الأعناق البعيدة تشرئب باتجاه سماع الخبر الجديد. يمشي. يتبعه سيل من الأطفال. يحمل على ظهره بندقية صيد قديمة وبعض الخراطيش. الانفجارات قلّت، والزغاريد المنبعثة من الأحياء البعيدة زادت، وشجعت الكثير من النساء على الخروج وراء أغنامهن، ودوابهن، أو الصراخ من على الشرفات القديمة المطلة على الشوارع، وألسنة اللهب متصاعدة هنا وهناك. الله ينصر الحق. الله ينصر الحق. كل شيء كسته الأدخنة، البحر، سماء نوميدا. القلعة، التلال المحيطة بالمدينة. كل الناس يحكّرون ولكن لا أحد يعرف الحقيقة بحذافيرها.

لكنه هو. كان هناك يقف أمام البحر. ماذا بقي من البحر يا سيدي، قالتها ماريوشا وهي تحاول أن تدفئ يد البشير التي زادت برودتها أكثر. البحر مغيم يا ابن أمّي، لكنه الآن بدأ يستعيد زرقته


Twitter: @ketab_n

التي لم يفقدها أبداً. ولكنها اختبأت وراء كثافة الأدخنة المتصاعدة. سواده جاء من جراء انكسار الغيوم الداكنة على صفحته. بدأ يستعيد صفاءه القديم. كانت المدينة الشعبية أو المدينة القديمة كما يسميها السياح الذين قل عددهم في السنوات الأخيرة تحاول أن تثقب السواد بصوامعها وكنائسها ومرتفعاتها وأروقتها الملتوية.

ماذا بقي منك أيها البحر. يا خرافة الأجيال المتعاقبة! هو أنت بكل أحزانك، ولكن بكل شموخك يا سيد العاشقين. بلونك الوهمي وصفحة وجهك التي تبدو هادئة وهي ليست كذلك، ماذا يحدث لو نعود إليك الآن؟ أيها البحر المنسي! هل تغير فيك شيء؟! هل تغيرت العيون الطيبة التي ظلت ترفرف باتجاه الأشواق البعيدة. هل تغيرت الألوان؟ هل تغير شكل الموت وطعمه؟ هل نزل الظلام على وجه البلاد واستولت الخرق السوداء على ألوان قوس قزح؟ هل فقد طعم الشهادة روحه يا سيد العاشقين. لا شيء تغير، الريح هي الريح، والموجة ما زالت تسحب الموجة، والمدينة تتكثف حتى تصير قطرة ماء ناصعة، صافية.

يحكي الناس الطيبون الذين أحبوا البشير، بعد زمن بعيد من خروجه أو الأصح إخراجه من السجن، أنه طلب أن يقاد إلى المغارة. تذكر أحلامه الأولى التي واجه بها المدينة، مقطعة، ممزقة مثل الخرقة البالية، وتأكد أنه منذ الزمن الأول الذي يمتد من الحاكم (الرابع الثالث في رواية أقل دقة) ما يزال متهماً بالخيانة والجوسسة ورواية الجنون. حين عاد إلى مكانه الأول عرفه برائحته الأولى. حاول أن يتذكر لكنه أخفق في التفاصيل والاستحضار. ترك الناس عند الباب، وتمدد بهدوء في مكانه الترابي الأول. قال لهم: أرجوكم لا تدخلوا إلا بعد سبع ساعات من الآن، أريد أن أرتاح قليلاً. مدّ رأسه على التربة القديمة المحروقة، التي شعر بألفة كبيرة تجاهها. هذه المرة لم تكن الأمور معقدة. فقد انتهى الجحيم في عينيه بمجرد أن أغمض عينيه في الاغفاءة الأولى. بدأ بسرعة يتحلل ويفقد ملامحه ويتحول إلى ذرات. قبل ذلك



Twitter: @ketab_n

بقليل رأى الحلاج وهو يتكئ على عصا قديمة، تنكسر العصا فجأة، يسقط الحلاج بدون حراك. وفجأة يصعد من قلبه شعاع أزرق بلون السماء، ثم بدأت تتعدد ألوانه مثل نور شمسي، ينكسر بين أغصان شجرة التين في فصل الربيع. تمنى أن يسعفه الزمن ليسأله، ولكنه تذكر الكلمة التي قالها للحكيم: لا أستطيع أن أفعل شيئاً من أجلك ولا تستطيع أن تفعل شيئاً من أجلي يا صاحبي. الأشياء كانت تتشقق وتتكسر الواحد تلو الآخر. كان يريد أن يتأكد منه، هل هناك زرقة من وراء هذا الظلام، ثم انكفأ على نفسه وهو يتآكل ويتبدّد. هل حقيقة هي مجرد قراءات فوضوية للكتب الأندلسية؟ لم يتذكر من قال له هذه الكلمات، لأن الزمن الذي يفصله عن أصدقاء الحاكم الشماليين صار بعيداً ويقاس بالأنجم. أم أن ما رآه وما عاشه كان هو الحقيقة! الحقيقة التي لا يلمسها إلا الذين انكسرت نار جهنم عند جباههم خوفاً من قداستهم. قبل أن يسأل الحلاج، يقول بعض رواة المدينة الذين عرفوا البشير الموريسكي وأحبوه، كان هذا الأخير قد انسحب أو غاب وسط شلالات النور، وضباب لا يُعرف هل نزل فجأة على الكهف أم أن غشاوة الموت بدأت تزحف إلى عينيه، وهي التي رأى من خلالها الوجوه التي فقدت ملامحها، لتتحول إلى مجرد أشكال هلامية. سمع حتى صوت ابن رشد الذي رمى قبعته وراء أسوار قرطبة، وبدأ يصيح فرحاناً، أورّيكا! أوريكا!؟ وجدتها وجدتها! لكن لم يسمع أحد أحزانه تتفتت داخل قلبه. تمنّى من أعماقه أن يلومه بدوره. لماذا تراجعت يا صاحبي عن المجتمع العلماني! سلمت عذاباتك لغيرك. وتركتنا ندور داخل الفراغ المطلق. قلت افصلوا! للدين طريق، وللفلسفة طريق آخر. افصلوا المقالين المتناقضين. الدين دين، والسياسة سياسة! والدولة دولة! تمنى البشير أن يؤنبه أكثر على حماقته، لكن الريح الساخنة، والفراغ المخيف، والانتفاء والتلاشي داخل ذرات التراب، كانت كلها قد ملأت محاجر عينيه ودماغه الذي فقد كل ملامحه ليتحول إلى جمجمة مدورة عليها خطوط عريضة تشبه الندوب والثقوب الواسعة. بدأ


Twitter: @ketab_n

ينتفي شيئاً فشيئاً، ومع هبوب الهواء البارد القادم من البحر، الذي تسرب داخل فراغات هيكله العظمي، كانت الظلمة قد ملأت محاجر عينيه، وغابت الألوان ووجوه عمال البحر، وألق علماء المدينة، ودفء ماريوشا التي لم تتركه لحظة واحدة. لازمته حتى اللحظات الأخيرة. الوحيدة التي كانت تعرف سر الحكاية. العمال والعلماء (الحكماء)، قبل أن تغيبهم النسمة الباردة المنزلقة من الشاطئ المهجور رآهم يقفون عند رأسه. ويتمتمون ويتناقشون حول إمكانية إقامة تمثال ضخم له. بجانب القلعة، أم القصر الذي كانت الغربان تملأ أسقفه، كرمز للحرية، أم على أطراف البحر؟! وتوحد الرأي أن يكون على أطراف البحر، مواجهاً له، بكل ضخامته، في عينيه رعشة الحلم، ورغبة العودة إلى البلاد البعيدة المعلقة في القلب والذاكرة، لا للبحث عن الكاندليخو وشوارع غرناطة، ولكن للاستماع إلى أناشيد ماريانة التي تركها على الساحل وهي تشد على قلبها بكل قواها خوفاً من أن ينفجر حزناً.

هذه حكاية رويت بعد زمن بعيد من سقوط القصر.

لكن الحقيقة كما روتها ماريوشا شيء يكاد يكون مخالفاً، فيه الكثير من حنين الكهف. قبل ذلك كله حدث مالم يُرْوَ حتى الآن، عندما انهار القصر، وبدأ القصف المكثف الآتي من البحر والقلعة. في نفس اللحظة التي كان فيها التلفزيون في بثه الصباحي المبكر يعلن عن وفاة الحكيم وينصب قمر الزمان. ظهر الماريشال الجديد، قمر الزمان جليل القدر وسط بخار الحمامات والحفلات الغريبة، وداخل ألوان أسطورية. من حين لآخر يأخذ التلفون الأحمر ويرد على المكالمات المتتالية التي كانت تأتيه من البلدان العربية وبلدان الشمال، تبارك له الكرسي وتترحم معه على فقيد الأمة العربية المبجّل، طالبة من الله تعالى أن تساعد الرعية قائدها الجديد في أداء مهامه الوطنية. وكان من بين الأخبار الأولى التي أعلنها جليل القدر إطلاق سراح كل المساجين السياسيين وعلى رأسهم البشير الموريسكي.


Twitter: @ketab_n

كان يعرف مسبقاً أن ذاكرة البشير قد ضاعت بفعل الحقن الجديد، والأقراص البرتقالية، وضربات السطل الألماني التي تضخم الأصوات. آخر مرة رأت البشير وقد بدأت الإغفاءة تأخذه، كان ذلك في الفترة التي أوصاها فيها بالاهتمام بسيدي عبد الرحمن المجدوب وإعادته إلى البحر، والقلعة والمدينة، وإلى قلوب الناس الذين أحبوه، والاستماع إلى كل حكاياته قبل أن يموت بفعل السموم المتراتبة التي كانت توضع له وهو في الحديقة. كانت ذاكرة البشير هي أهم مقاصدهم، تقول ماريوشا، يوضع السطل على رأسه، ثم يضرب عليه بكل قوة حتى يسيل الدم من أنفه ومن أذنيه. علمته الموجة المتكسرة على الشواطئ المهجورة كيف يكبر ويلتحم مع ذاته، وعلمه السطل الألماني كيف يتذكر الحنين ويعود إلى البعد البعيد، ولو تلاشى وانتهى هناك. علمه البحر والسفن الضخمة والأرمادات، وسفر الليالي كيف يشدو أناشيد الموجة الهاربة التي تكسرت عند حائط البحر القديم. علمه الحنين كيف يرمي بذراعه باتجاه المدن الحزينة ويقول ها أنذا مستعد أن أموت معكم، لأنكم الحق، ولأن مدينتكم حلمي الكبير. آه يا أمي أركضي نحوي بملايتك الملونة، إني مقروحة حتى أعماق القلب ووحيدة مثل الله. حليبك لم يعد موجوداً. لقد امتصه بني كلبون حتى وصلوا إلى الدم ولم يتوقفوا والحياة في غيابك لم تعد ممكنة. تأوهت وتألمت ماريوشا وهي تمسح الدمعات التي ملأت خديها، بينما كانت يدها ما تزال تحضن كف البشير الذي كان ما يزال غارقاً في سهوه الكبير على حافة البحر، عيونه مرتشقة كالسهم في السفن البعيدة التي أشعلت أنوارها مبكراً. هل يعلم الله الذي تخلى عنا، أن الحروب الكبرى عندما تبدأ من أعالي الجبال ناراً، تنتهي في السفوح جثثاً. هو ذا الكورس الجنائزي الواسع يلف المدينة بكاملها، يحتل أهم شوارعها الرئيسية، يزداد خوفاً وامتداداً، ينطلق من بيت إلى بيت ليتوقف بشكل جماعي عند الحدود المتاخمة للقصر الذي لم تغادر أسقفه وصوامعه الغربان. كان العلماء السبعة وعمال البحر والفرق



Twitter: @ketab_n

الشعبية الانتحارية على رأس الكورس. كانوا يدكّون البوابات المؤدية مباشرة إلى القصر الذي كان ما يزال غارقاً في الردّ على التهاني بالرغم من نصائح الأصدقاء الشماليين. حين طُلب منه مغادرة المكان كان هو يعطي الأوامر لتدمير كامل الأحياء الشعبية، لكن الزمن كان قد توقف منذ الساعات الأولى من ذلك الفجر الثامن بعد الليلة الألف، فالسحب مصحوبة بالقنابل الانفجارية كانت تغطي القصر من خلال أدخنتها الكثيفة والغربان ازداد عددها، واختلطت مع الكواسر القادمة من الصحاري المجاورة، وبدأت طيور السنونو الراحلة تبحث عن أعشاشها وسط ثقوب الحيطان التي كانت تخلفها القذائف المتواترة. حتى البث انقطع بشكل فجائي ليعوض بعدها بالأناشيد الوطنية والإذاعية التي ألفها شاعر عمال البحر المعروف وأناشيد البشير التي اختطفها من زرقة بحر المارية وأشواق الغربة وحزن الذاكرة المنسية. البشير عندما رآني في البداية وأنا أفاجئه في الدهاليز مع عمي الطاووس ابن أمه والفرقة الانتحارية فغر فاه طويلاً. عيناه فيهما دهشة الطفولة. بعدها مد ذراعيه وعانقني. بينما كنت أردد الحمد لله على السلامة. كنت أظن أنهم قتلوك. أنت حيّ. ما قتلوك. ما صلبوك. ولكن شبهت لهم يا سيدي العظيم. لم يتكلم. كان الأفق يتمطط في عينيه باتجاه الفراغ، على امتداد واسع لا ينتهي لينتهي بين تجاويف الذاكرة. ارتسمت على وجهه علامات حزن عميق. لم يقل شيئاً. لم يتكلم. فتح يديه بشكل صليبي واسع وحاول أن يستنشق بكل طاقاته أشياء خارج هذا العفن. تسربت إلى أنفه رائحة البارود والنار والحرائق وبقايا الياسمين الإشبيلي في المدينة، ورائحة قشور الرمان والبرتقال، والتربة عندما تتساقط عليها أمطار خفيفة وتبللها. أغمض عينيه، سمع صوت البحر والأمواج وهي تتكسر عند صخور الشاطئ الروماني المهجور، في حركتها الرتيبة والمقلقة. استحضر في تلك اللحظة أصوات السفن البعيدة التي كانت تريد أن تنزل حمولتها، وتنتظر إشاراتها المعهودة للدخول إلى المرفأ. وحين أخرجوه عبر المصعد الوحيد



Twitter: @ketab_n

الذي كان ما يزال يعمل، لم يفاجئه الضوء في الخارج كل شيء عاشه قبل قليل داخل عينيه وقلبه.

حاول أن يستنشق البحر والمدينة دفعة واحدة. هي ذي الآن جملكية الحكيم تنهار ومعها يسقط مشروع الحاكم الرابع (الثالث في رواية أقل دقة) تحت ألسنة اللهب التي أحرقت شعلتها المتصاعدة الستائر والأسرة المستوردة من بلاد السند والهند والسمرقند. الشيء الوحيد الذي ظل يحز في قلبي طوال الزمن الذي مضى، وحتى عندما وضعت يدي في يده وسرنا صوب الكهف، هو أني تمنيت من قلبي أن أنام على صدره مطولاً، وأترك نفسي أتلاشى مثل الغيمة البنفسجية التي كان يعشقها ويتحدث عنها دائماً، وأسمع إلى قلبه وهو يدق. بين الدقة والدقة يروي ألف حكاية. أن أندفن داخل غابات نبضه وأستحم بشلالات عرقه المقدس، داخل عنفوان الجسد وحرائقه. لم يكن يهمني كثيراً ما سمعته من عدد لا يُحصى من الناس، وقالوا أنهم يعرفون البشير جيداً. كان منعزلاً على أطراف المدينة ووحيداً. يحمل حزناً لا يحد على العقل الذي أباده الظلام وقُدم هدية للشماليين. كان يحمل هماً كبيراً وحنيناً لا يحد عن أحد أجداده الذي يقال أنه استشهد في جبال البشرات مع رجالات المقاومة اليائسة والأخيرة. وظل يقرأ التاريخ الأندلسي من أوله إلى آخره. قال للناس القريبين منه - تقول الرواية - يجب أن أعرف الكبيرة والصغيرة لأنها ملكي. وذات مرة، كان على الشاطئ الروماني المهجور الذي ظل يتذكره دائماً، يعيش تاريخه الحزين، فاجأته أمطار رعدية، أو تلقى ضربة شمس قاسية (غير متأكدين). هرب باتجاه الكهف. أخذته إغفاءة رأى فيها السواد، وحين استيقظ كان يعيش الحالة الأندلسية. وحدث الذي حدث. كل هذا لا يهمني مطلقاً. وأمامي الآن البشير الذي نزعوا ذاكرته، وأفرغوها بالقرص البرتقالي والحقن، والسطل الألماني. البشير بشروده وآلامي الكبيرة التي لا حدود لها. إنه الحسرة وما تبقى من الحقيقة المستعادة.

كان الناس ما يزالون يتدافعون. كان عمي الطاووس أول من



Twitter: @ketab_n

دخل السرداب، وأول من عثر على جثث النساء الممزقة في غرفة باردة مليئة برائحة الفورمول. كان الحكيم يسميها الدار الباردة، وهناك يمارس حقده ضد دنيازاد، مع أجساد نساء مخنوقات، وممدودات على الإسمنت البارد. لم أرَ العلماء السبعة (يقال أن السابع لم يمت أبداً) الذين اندفعوا إلى داخل القصر بصحبة الفرقة الانتحارية الأولى، بينما بقي عمال البحر يحوطون المكان في شكل دائري، سُمع الرصاص في الداخل، والانفجارات في الأبهية، بينما التلفزيون لم يتوقف عن بث الأناشيد الوطنية التي كتبها شاعر عمال البحر، والبشير الموريسكي. عمي عبد الرحمن المجدوب كان قد نسي نفسه ونسي الأوامر التي أعطيت له بضرورة الحفاظ على نفسه، لم حوائجه وختم الحلقة. قال للحضور انتظروني، ثم انزلق وراء عمال البحر داخل المخاطر. وصرخ في وجهي بكل عنف: يجب أن تستعيدي البشير. يا ويلهم إذا كانوا قد أذوه. سأحرق القصر وسكانه. أردت أن أقول له وهل بقي في القصر شيء لم يحرق، لكن المزحة بدت لي ثقيلة جداً، فبلعتها في أعماقي، وانزلقت مع عمي الطاووس باتجاه الانفاق. كنت أعرف مكانه تقريباً، وعمي الطاووس قضى نصف عمره داخلها. البشير كان ما يزال مندهشاً وهو يتأمل البحر الذي كان يغوص داخل المدينة شيئاً فشيئاً. الساعات الحائطية كانت قد بدأت تعود إلى حركتها الطبيعية رويداً رويداً. كان صامتاً بشكل أقلقني قليلاً. مددت يدي. كانت يده باردة جداً. وضعت على ظهره اللباس الصوفي الذي صنعته له خصيصاً في القلعة ولم أعطه له. سحبته بلطف فتبعني بهدوء لم أعهده فيه أبداً. آخ يايما الحنانة. تأملوا كيف تباد العبقرية في هذه البلاد، كيف تحول إلى بلادة لا معنى لها. كيف تفرغ الذاكرة ويصبح الرأس مجرد صندوق من العظام يضم بين تلافيفه مخاً صغيراً، محروقاً. لقد حولوا دماغ البشير إلى رماد. بدأ البشير يتمتم. كنت أشك حتى أنه يعرف أني معه. ماريانة! يا ماريانة؟ الرحلة شارفت على النهاية. إني عائد. لقد كان الشوق قاسياً. أدخلوني في عمق البحر يا ابنة


Twitter: @ketab_n

أمي، وبدأ الزلزال والأتربة والخوف تنهار على رأسي دفعة واحدة. هي ذي المدينة تفتح الآن يديها وقلبها. غرناطة تغيرت كثيراً، المارية أكثر، كل شيء صار رماداً. منذ متى حدثت هذه القيامة يا ماريانة! سأركض في الشوارع، سأتمطط في الكانديليخو، وأختبئ في حي البيازين حتى تأتين معطرة بالروائح الغجرية وعطر الياسمين الإشبيلي.

بدأنا نتدحرج باتجاه صفوف الناس الحاضرين، الكثير منهم يرى البشير للمرة الأولى، الكثير منهم ممن ادعوا أنهم عرفوه عندما كان منهمكاً في قراءة التاريخ الأندلسي. قبل الأمطار الرعدية، أو ضربة الشمس، لم أكن لاهتم مطلقاً. الذي أعرفه هو البشير الذي عشش صدره بالجراح والأحزان. البشير الآن هو ما تبقى من التاريخ الموريسكي. هو العذوبة عينها. هو الحنين الذي بدأ يُسرق منا بالتقسيط. هو الذاكرة المحرِّرة والمحرَّرة التي أجبروها على الانكسار تحت وطأة الأصداء التي كان يضخمها السطل الألماني الرنَّان. في عينيه رمشة الطفولة ودمعة اليتيم. شعرت بالوخز يملأ قلبي وشقائي وحزني. تذكرت دروس التاريخ. داهمني صوت أستاذي المتخصص في الاقتصاد الذي باع الدين والدنيا مقابل تحقيق مصالح تافهة وضيقة. كان يعشق النموذج الاقتصادي الأمريكي. لا تاريخ خارجنا. التاريخ هو الأهرامات، الفراعنة. التاريخ هو أنا وأنت. وهو ما يقوم به الفرد الخارق لتغيير العفونة. بالفرد السوبرمان تنشأ الحضارة العظيمة. أعتقد أنه سافر في الطائرات الضخمة هيركوليس التي غادرت مواقع القاعدة الأمريكية حاملة كل الأجهزة والرادارات ووسائل التنصت المنصوبة هنا وهناك. أتمنى من قلبي أن يكون داخل الطائرة التي أسقطتها هذا الصباح الفرقة الانتحارية الثانية التي حددت رقعة مقاومتها داخل دائرة القاعدة الأمريكية. تمنيت أن أحكي للبشير عن كل هذه التفاصيل، ولماذا طردوني من الجامعة وكل التهم التي لفقوها ضدي من شيوعية إلى امرأة متخصصة في تصوير الأفلام


Twitter: @ketab_n

البورنوغرافية وكراسات الجنس التي يسربها سرياً الوراقون الصغار في مكتبات الأحياء. لو كنت تسمعني يا البشير، يا نجمي العظيم، سأقول أنك تركت محاكم التفتيش هناك، وها هي ذي تتوسع داخل دمنا لتؤكسده، وتتمطط داخل أجسادنا لتشلها، وتنزلق داخل كأس القهوة المسائية فتشوهه. لو كنت هنا يا البشير لحكيت لك الكثير، ولكن الزمن توقف، ليَبدأ زمن آخر لا أحد يعرف ملامحه. أنت الآن مليء بالحنين، أمامك ماريانة وليس ماريوشا، والمدّ والموجة التي تكسرت عند الحائط الروماني القديم وبقايا الأرمادة التي أتلفتها الأملاح، ووجوه الناس الذين جاؤوا لاستقبالك ولكنك لا تعرفهم. حتى سيدي عبد الرحمن المجدوب، عندما سمع أصوات الناس وهي تتذابح: البشير! البشير حي! البشير حي! جاء يجري. وقف عند أقدامه. ألم تعرفني. حمود الإشبيلي يا البشير حمود في أسواق غرناطة والبيازين. فجأة ارتسمت إشراقة على وجهه، ما يزال نورها عالقاً بذاكرتي. تأملي يا ماريانة، حمود الإشبيلي. اصرخ يا ابن أمي مالك صامت. بدأ الدم يعود إلى وجه البشير، تحرك. البحر الذي دخلناه عذبناه كثيراً. إنها الجنة. إني أراك وألمسك. وبدأ يحرك أصابعه ويمررها بهدوء على كامل تفاصيل وجه عمي عبد الرحمن المجدوب. تمنيت أن أبكي في تلك اللحظة طويلاً. ولكني خفت أن أكسر الحالة بكاملها. مسد على شعره. كبرت أكثر يا حمود. الزمن سحقنا يا صاحبي. كان الناس قد كونوا دائرة متحلقة حولنا جميعاً. تقول ماريوشا: أعطاني عمي المجدوب البانجو وطلب مني بعينيه أن أعزف بدون توقف.

- بحضورك يا سيدي تصمت الشفاه ولا يتحدّث إلا القلب.

- احك، أرجوك يا خويا حمود الإشبيلي.

- اختاري الخيط الأكثر ألماً يا ماريوشا.

قالها المجدوب وعيونه مرتشقة في عيون البشير التي بالرغم من العذابات لم تفقد ألقها ونورها.



Twitter: @ketab_n

كانت الدائرة قد اكتملت عند باب القصر الواسع. لم يعد يُسمع شيئاً سوى خشخشة النيران المشتعلة في أماكن مختلفة وصراخات رجال الاطفاء وهم يحاولون السيطرة على النيران. بدأ الحنين يملأ القلوب، وشعر الناس كأن الحرب انتهت فجأة. اشرأبت الاعناق باتجاه البشير وماريوشا وسيدي عبد الرحمن المجدوب يستمعون إلى بقية الباخية. التلفزيون وقتها كان ما يزال مستمراً في بث الأناشيد وهذا ما زاد الناس اطمئناناً بأن الأمور تمشي مثلما كان مخططاً لها. أخرج سيدي عبد الرحمن المجدوب ثعبانه. بدأ يتحرك ويدور حول نفسه. ضرب المجدوب على البندير ثم قفز باتجاهه، حتى وقف أمامه وجهاً لوجه. هاه تكلم، إنه معي الباخية يا لحنش بوسكة يا بومريات. آه يا بوراس. ما ترحم لا كبير ولا صغير. ومعايا كيس الأعشاب المغلف بالسواد!!

*داروك في قلوبهم،*

*من أهوال البرد ونار القيامة.*

*لما حميت وزال البرد عليك،*

*درت فوق رأسك شاشية السلاطين. قلت*

*يا النصّ من لحمك، يا نعطيك سمي.*

كانت الحية التي ألبسها عبد الرحمن كالعادة لباساً عسكرياً تتحرك بسرعة من حين لآخر تفتح فمها، تحاول أن تعض إصبع المجدوب، لكنها لا تقبض إلا على الفراغ، فتعاود الكرّة بدون يأس. احك يا الحية. بيننا ثار قديم. في بطنك سمّ يعطيك البقاء، وفي دمي سموم تريد أن تنهيني قبل أن أنهيك. كان الكلب الأمير قطمير، يحاول من حين لآخر أن يمدّ مخالبه للثعبان، لكن المجدوب يصرخ في وجهه، فيعود إلى الزاوية بالقرب من البشير وماريوشا. واحد فينا يا بوراس يجب أن يترك الطريق خالياً لصاحبه. عاوده المغص في بطنه. إنها النار التي تشتعل يا خويا البشير. النار الفارسية التي تأكل الأخضر واليابس. انتبه البشير إلى حزنه، وهو يتلوى ألماً.



Twitter: @ketab_n

- لقد سمموك يا حمود الإشبيلي. وراس عودي، ليسوا إلا محاكم التفتيش. قاوم يا حمود يا حبيبي. إنهم وراءك، لكننا والبحر معك. معك حتى الموت. عذاباتك كبيرة يا شيخي لكن عليك أن تنهي النشيد.

رفع الثعبان رأسه. أخذ يتأمل كل الحركات ووجوه الناس، ثم عاد ليبحث عن المجدوب. يعرفه حتى ولو اختبأ. كأنه يتتبع ضحيّته. لم تكن هناك أعشاب من التي تعود الناس شراءها منذ أن طرد من الحديقة. لم يبق إلا هو وكلبه قطمير الذي تشمم البشير طويلاً، ثم عكف قوائمه وجلس بقربه. والثعبان الكبير الذي يستطيع أن يأكل إنساناً بكامله في لحظة الغفلة، كما كان يقول عنه دائماً المجدوب. هيا تحرك يا بوراس، واحد فينا يجب أن يترك الطريق للآخر. قل ماذا رأيت يا ابن العيساوي. احك ولا تخجل. الناس يعرفون أن خصالك لا تُحد. نحن في لحظة المكاشفة. تكلم! تحدث عن الذين قتلتهم غيلة. داعبتهم حتى اطمأنوا إليك، وبعدها جئتهم من الوراء ولدغتهم! كنت تحمل السم وكانوا يحملون الورود لغرض لم يكونوا يعرفون ملامحه ولكنهم كانوا يحسون به. في الصباح دفنوا مسمومين. احك، تحدث عن الذين لم يكن أمامهم إلا أن يموتوا أو يقتلوك يا بوراس. اختبأت داخل قصر محاط بالنار والكهرباء وكنت تظن أن لا شيء يلمسك. تأمل هاذي النار تحرق كل كنوزك الوهمية. قلت لي ارقص في مملكتي هاذي مملكتك تتحول إلى ذرات من الرماد الأسود. وها أنذا أرقص كالمجنون. حالة الجدبة تبدأني من أصابع رجلي حتى شعرات رأسي. أعرف أنك ستقتلني في أول فرصة، لكنّي لن أموت قبل أن أنهي القصة. ضرب على البندير ضربات جافة وقوية كأنها طام طام إفريقي يمهد للحرب، أو للهجمة الأولى. تحرك الثعبان، دار حول نفسه مطولاً يبحث عن أسلحته، يتهيأ للحرب الأخيرة. كانت قطعة الكتان العسكرية المطرزة تتلألأ. حرك القبعة التي غطت عينيه. سقطت على الأرض. تحرر من ثقلها.



Twitter: @ketab_n

وارتمى على إصبع البشير الذي يهدده ويتوعده. أعرفك. إنها لحظة الدفاع عن النفس والتشبث بالحياة. عندما أخطأ ضحيته، عاد بوسكة يتأمل وجوه الناس. نظر إليهم واحداً واحداً. كل الممرات مسدودة، وفي يد كل واحد سلاح ناري، إمّا بندقية صيد أو سلاح أوتوماتيكي أو مذراة أو سكين ذبح، مالك يا السي بوراس. هل قلّتْ همتك في الدفاع عن نفسك!؟ قصرك الآن يحترق. تلفزيونك في يد عمال البحر وعلماء القلعة. الشماليون خرجوا بطائراتهم الثقيلة والخفيفة، والفرق الانتحارية استولت على القاعدة الأمريكية. كلهم تركوك يا ابن أمك. ارقص يا العيساوي. ارفع رأسك جيداً، مالك تتأمل مهزوماً. الغربان هربت، وطيور النورس عادت إلى بحرها. والبحر استعاد زرقته من النار المقدسة التي نشبت داخل المياه. في اللحظة نفسها دخل الطاووس يلهث، وعلى رأسه شاشيته المعتادة التي كتب عليها لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. اخترق الجمع الدائر بسيدي عبد الرحمن ليخبر الجميع بأن الأخبار الجديدة تقول بأن الحاكم الجديد قمر الزمان جليل القدر قد رمى بنفسه في سرداب الأسود الجائعة بعد حالات اليأس التي انتابته قبل أن يفاجأ بالفرقة الانتحارية الأولى والعلماء وهم يقتحمون القصر. حوصر من كل الجهات. كانت النيران تشتعل عند أقدامه. لم يصدق ما كان يحدث. تصور أن المسألة لا تغدو مناوشة من مناوشات العلماء أو البحارة الاعتيادية. يقال أنه حين واجه الفرقة الانتحارية والعلماء، قال وهو يرتعد، وملتصق بالكرسي: لقد قتلت الطاغية وهو الآن في التابوت. إذا شئتم أن تحولوا المملكة إلى جمهورية أنا قابل بهذه الوظيفة. سأشيع العدالة في البلاد كلها، وأعيد إلى القصر الملكي، عفواً الجمهوري، نضارته. وضع يده على رتبة الماريشال خوفاً من أن ينزعوها منه، ووضع المسدس في رأسه وهددهم، إذا تقدموا سينتحر. انتبه أحد العلماء إلى النياشين التي كانت تلون صدره. من أي حرب عدت يا طويل العمر. ومن نصبك ماريشالاً داخل مملكة أصبح كل شيء فيها مضحك!؟ استسلم ولا تعقّد المسائل. صرخ قمر


Twitter: @ketab_n

الزمان: أي اقتراب. سأشتت دماغي. أنا الآن في عداد المنتهين. لن أسلم في ملكي بسهولة. البلاد بلادي. نزعت رقبة والدي من أجلها. نهض من مكانه، وبدأ يتقهقر إلى الوراء باتجاه الزر المتحكم في البوابة الأرضية المؤدية إلى الأسود. صرخ لا تقتربوا. لكن الزمن كان يمر بسرعة مذهلة، والتوقف لم يكن في صالحهم. صرخ على أمه لكي تدركه، لكن صوته غاب وسط الفراغ. كانت قد سافرت على متن طائرة خاصة وضعت تحت تصرفها هي والحاشية والأصدقاء الشماليين والمؤرخ الجنرال الذي أعلن علانية بعد موت الملك أنها زوجته على بركة الله ورسوله. دنيازاد أدركت بحاستها الأنثوية الحادة أن كل شيء قد انتهى. وعندما رأت أنهم استولوا على الإذاعة والبث قالت له: هيا يا جليل القدر، يا قمر الزمان، الحكم لم يكتب لك. يبدو أن الزمن توقف عند هذه النقطة. زمننا وزمن شهريار واحد يا ابني. كنا نظن أنه بإمكاننا تغيير مجرى الأشياء، لكن كل الأحداث تواكبت بشكل متواتر. قذائف المدافع تصل إلى القصر. وتحليلات الشماليين تقول أن المسألة مفاجئة وميئوس منها، لأن كل المعلومات المقدمة من طرف شهريار بن المقتدر لم تكن صحيحة. الحديث يطول، ولو فتحته قد لا ينتهي أبداً. هيا يا قمر الزمان. حزم نفسك نرحل. هناك طائرة مخصصة لنا ولأصدقائنا الشماليين. لكنه تعنت، لأن المعلومات التي كانت بين يديه تتيح إمكانية الأمل.

- المبادرة بين أيدينا Et celui qui veut peut.

- يا ابني كل ما يدور يقع خارج الحساب وخارج المنطق.

- البلاد ليست لهم ولن أسلمها لهم على طبق من ذهب.

- القذائف أصبحت تصل إلى حديقة القصر. والطرق الستة المؤدية إلى القصر أصبحت محتلة بالرغم من المقاومة. لم يبق أمامنا إلا طريق واحد.

- لا يا أمَّاه إنها فرصتي في الحكم، لن أفرط فيها أبداً.



Twitter: @ketab_n

ـ سأتركك يا روح أمك أنت وحلمك. لا وقت لدي.

وما كادت تخطو عند الباب حتى كانت إحدى القذائف الحارقة تلتهم الستائر السمرقندية والهندية وغيرها، وتفحّم بأدخنتها الأسقف العالية. وقبل أن تخرج سألته بارتباك، وكان هذا آخر كلامها، ظل يتذكره في كل الفترات التي تلت احتلال القصر من طرف العلماء والعمال والفرقة الانتحارية الأولى.

ـ هل ما زلت مصراً على موقفك.

ـ طريق السلامة يا دنيازاد.

لاحظت أنه لم يقل أمي للمرة الأولى. أرادت أن ترجع له وتواجهه من جديد ولكن الزمن كان قد تخطى منطقه الممكن، ولم ترد أن تكون ضحيته مطلقاً. فخرجت مسرعة، تحت هدير الأصوات التي كانت تقترب وإلحاحات أحد الشماليين بسرعة. بسرعة نرجوك، الطائرة ستقلع وتتركنا وحيدين. هيا. وكان الوراق الجنرال بدوره قد تنكر في ألبسة مدنية شعبية عادية، بينما ظل قمر الزمن، جليل القدر، جالساً في مكانه، ينتظر التقارير التي كانت تفده من كل الجبهات ولكنها كلها كانت بسوداوية عجيبة، جعلته يستعيد كلمات أمه الأخيرة.

لم ينتبه له أي واحد، لأن الحقائق كان معظم الناس يعرفها، أو يحسّها أو يعيشها بشكل خاص. فأعاد عمي الطاووس من جديد كلامه على مسمع البشير وعمي المجدوب.

ـ سيدي عبد الرحمن. قمر الزمان، جليل القدر، أكلته السباع.

ـ آه يا عمي الطاووس، لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. إني أقرأها على شاشيتك. الله لا يرده. لو أجده آكل لحمه حياً. لقد دمروا بلاداً بكاملها.

ـ كنت أظن أن خبراً مثل هذا سيسركم كثيراً؟



Twitter: @ketab_n

ـ يسرنا، يسرنا بكل تأكيد، لكننا الآن في مدخل القصر يا عمّي الطاووس.

ثم التفت إلى ثعبانه الذي كان قد بدأ معه حربه المقدسة، حرب الموت الفجائي. لن تسقط يا بومريات، يا بوراس، أعرف أنك ستقاوم حتى الموت. أخرج سيدي عبد الرحمن سكينه من غمده. أدخله في كيس الأعشاب الأسود، وأخرجه بسرعة ثم مدّه بيده، فعض الثعبان عليه بكل قوة.

ضرب المجدوب على البندير، لكن الثعبان هذه المرة رفض أن يرقص. التفت إلى الشمال إلى الجنوب، بانت له فوهات الأسلحة كثيرة. المنافذ زادت استحالتها. انتبه إلى المجدوب. كان سكينه يلمع تحت قطرات الأمطار التي بدأت تتساقط. نزلت من عين الثعبان اليمنى دمعة مدورة، كانت سوداء، سوداء مثل القطران. اندهش الناس. ثم تقيأ شيئاً أخضر. وظل يدخل قسمه السفلي في عنقه ويتقيأ، فتزداد الخضرة التي كانت تندفع من أعماقه غموقاً، حتى صارت بدورها سوداء مثل الدمعة التي نزلت من عينه اليمنى. وبعدها نظر إلى وجه المجدوب من جديد ، ولكن هذه المرة بتهدّلٍ كبير، وكبير جداً. انهارت كل ملامح التأهب التي ظهر بها في البداية. كانت الحرب خاسرة في كل تفاصيلها. حاول أن يتقيأ من جديد ولكنه لم يستطع. أدخل مرة أخرى أسفل جسمه، ثم فجأة بدأ يقضمه ويتأوه. فتح مرة أخرى فمه عن آخره وواصل قضم نفسه شيئاً فشيئاً تحت دهشة الناس وتعجبهم، حتى وصل إلى الرأس، وقليلاً من طوله، فتدحرج عند رجلي عمّي الطاووس مثل اللعبة المكسورة. علت همهمات وتمتمات بين الناس لكن سيدي عبد الرحمن المجدوب والبشير كانا الوحيدين اللذين حافظت ملامحهما على استقرارها ولم توحي بأي تعجب وكأن كل شيء كان منتظراً. وفجأة علا صوت البشير الموريسكي. سلمت يداك يا خويا الله يحفظك من العين يا حمود الإشبيلي. هكذا الحرب وإلا فلا. النار والمصلى الأحمر



Twitter: @ketab_n

ومحاكم التفتيش ولم تستسلم ولم تبع مدينتك. انتبه المجدوب إلى الحالة بدون أن يحرك ساكن الدهشة والمفاجأة. كأنه كان يعرف كل شيء. أرأيتم كيف ينتهي بوراس! مدّ المجدوب يده إلى بطنه، كانت الآلام قد ازدادت حدتها، ولكنه لم يأبه لها. نزع من أحد الرجال الواقفين عصّابة رأسه وأحاطها بجسمه عند حدود البطن ثم واصل تأمله للمشهد. أعرفتم لماذا أيها الناس، لقد نظر إليكم جميعاً ولكنه لم يجد مخرجاً أبداً، لأن الدنيا كانت قد انغلقت على وجهه، عندما فتح عينيه لم ير إلا أفواه البنادق. خياره الوحيد إمّا أن يأكل نفسه أو يموت. كان يريد أن يهرب، لكن الهرب كان مستحيلاً. كل الوجوه التي تأملها كانت مليئة بالآمال والبحر وحنين الأشواق إلى سماء تستعيد زرقتها ونوميدا ـ أمدوكال. رفع المجدوب صوته عالياً، كان الشدو قد بدأ يختلط بالأمطار التي ازدادت حدتها، يا أبناء المدن المسروقة، لقد انتهت الليلة السابعة والبقية يجب أن تصنعوها أنتم، إما أن تنقذوا المدينة، أو ترموها بدوركم للكلاب. عصر بني كلبون ما يزال قائماً. إنهم يتنفسون بصعوبة، ولكنهم يتنفسون في دمكم، في دمك. يسحبون الظلام والخوف وراءهم. المدينة بين أيديكم لا تفسدوها. السم الذي في قلبي وبطني ودمي بدأ يسري في كامل جسدي. لقد سرقوا الذاكرة من البشير، وهاهم يسرقون عمري. لم أختر ساعة موتي ولكني صرت أعرفها بالسليقة، بالعذاب الذي ينخرني منذ مدة ليست قصيرة. الليلة السابعة أكلت طغاتها، ولكنها بدأت كذلك تأكل أحبابها وأشواقها وحنينها. إني أشعر الآن بالموت يصعد من أخمص القدم، من رجلي. ماريوشا عندما عادت حزينة من عند البشير وعرفت أن ذاكرته بدأت تحترق، قالت عمي عبد الرحمن عليك أن تداوي هذه السموم. يمكن إزالتها. سآخذك لأعظم الأطباء في الدنيا ونحافظ على روحك لأنك قلبنا في هذه المدينة، ولأنك أجد ملامحها. في البداية لم أقل شيئاً ولكني نظرت إلى عينيها الغجريتين اللتين عرفتهما وهي ما تزال في طفولتها المكسورة مع والدها. يقول سيدي عبد الرحمن المجدوب كنت



Twitter: @ketab_n

أعرف أنهما لا تكذبان أبداً. قلت لها ماريوشا، الليلة السابعة عندما تأتي تأخذ الأخضر واليابس في طريقها، الكثير منا سينطفئ تلك الليلة، ولكن الكثير منا سيحاول أن يفرض حقه في الحياة على القادمين الجدد حتى ولو كانوا عمال البحر وعلماء القلعة. حاولت ماريوشا أن تقرأ الحزن الذي يملأ عيني. ربما ما عندك والو. هاذو يكذبون بزّاف. الكذبة عندهم مثل أكل الخبز اليومي. لا يا ماريوشا يا بنتي، عندما يتعلق الأمر بالموت والقتل فهم لا يكذبون أبداً، هذه هي الحقيقة يا بنت الناس الطيبين. والثعبان لا يلعب. لا يستسلم بسهولة. أكل نفسه لأنه فقد كل الخيارات الأخرى. إني أموت يا ماريوشا. إني أمو..ت.. بدأت كلماته تتقطع. اقتربت ماريوشا منه. اتكأ على ذراعها. تأمل عينيها السوداوين. إني أموت يا ابنتي. كانت الأمطار قد ضمختة، لكن صوته لم يصب بأية حشرجة، فقد ظل نقياً كشمعة. لقد فهمت لماذا فصلوني عن حيواناتي ما عدا كلبي الذي ظل وفياً إلي. هذياني لم يكن إلا آلامي التي لم استطع أن أوقفها أبداً. كان الموت يصلني يومياً في كأس النبيذ التي كان يرسلها أحد العساسين في الحديقة. وعندما كنت أسأل، كان يقال لي من صديق قديم لم أعرف وجهه أبداً، وحين وجدت نفسي في الشوارع، كان السؤال المحير يملأ قلبي. ولهذا تمنيت أن أموت في الاقتحام الأول على القصر، لكن الأمور كان قد حسمها علماء القلعة وعمال البحر ورجال الفرقة الانتحارية الأولى. كان يجب أن أشهد موت متعدد الأسماء بوسكة، بومريات، بوراس، والآن أيها الثعبان هي ذي الدنيا تتغير. هذا الفجر لنا بالرغم من أنفك، هذه الأمطار التي تسير في دمنا لنا ولن تكون لك. هو ذا البشير ضيّع الذاكرة، لكنه استعاد حمود الإشبيلي. لا يهم من أكون في عينيه الآن المجدوب أو حمود. نفس الشيء. كلانا قاوم الزيف المقنّن، وكلانا مات من أجل البحر والمدينة. هزّ روحك يا بوراس. هز روحك يا صاحبي مالك تغمض عينيك ولا تتحرك! مسد المجدوب على رأس ماريوشا، ثم أخذ البانجو من الأرض وأعاده إلى ماريوشا من جديد وطلب منها أن



Twitter: @ketab_n

تعزف النشيد الأندلسي على رمل الماية. ثم فرش زربية السيد علي. أراد بعض الناس أن ينهوه، خوفاً من البرد والأمواه والأنواء، لكنه بحركة يده رفض كل شيء. اعزفي. أريد أن أسمعك وأرتاح قليلاً. شد على بطنه من جديد بالعصّابة، ثم انكفأ على صدره وبدأ يستمع إلى شدو ماريوشا التي لم تتوقف في تلك الصبيحة غير الاعتيادية. شدوها كان حزيناً وباكياً.

*يا شدوي الحزين، يا قلبي،*

*مدني انكسرت،*

*سفني ذهبت،*

*والبحر غادر قلبي،*

*يا شدوي الحزين، المدينة اشتعلت*

*وأمواجي عادت...*

تململ في مكانه بصعوبه. طلب أن يفتحوا الطريق باتجاه القصر. انقلب على ظهره. ماريوشا كانت غارقة في النشيد، يعرف أنها عندما تبدأ لا تتوقف أبداً. قبل أن يغمض عينيه للمرة الأخيرة رأى الأشياء التي لا تحدث إلا مرة واحدة في الحياة. كانت النيران قد توقفت الكثير من شعلاتها. رأى قبة القصر وقد علاها علم يحمل صورة قوس النصر ونجمة البحارة، وكل ألوان قوس قزح. رأى الناس وعيونهم ترقص فرحاً، شاهد سيارات الإسعاف التي كانت تذهب وتجيء برتابة كبيرة والكثير من الأناشيد الوطنية التي طُمست تحت الأتربة. سمع صرير الأبواب الثقيلة التي كانت تفتح هنا وهناك فيعقبها هدير الناس الخارجين وفرحاتهم المتعالية. اعزفي يا ماريوشا، قالها بصوت أعاد له إشراقه فجأة. اعزفي يا ابنة أمّي، للبشير، للناس، لك، لليلة السابعة التي أنهت كل المأساة، لقطمير الذي سيصير يتيماً، صديقي في فراغات هذا الخراب المخيف. هي ذي النهاية تزحف مع خاتمة النشيد الأندلسي. اعزفي لا تتوقفي.



Twitter: @ketab_n

عندما نواجه الله ممتلئين بالأشواق والأناشيد، سنجبره أن يستمع إلينا مثلما استمع إلى الصحابة. صر المجدوب أسنانه من جديد. وضع يديه على بطنه ثم قلبه ثم على وجهه، ولكنه قاوم ألم العينين، إذ ظل البؤبؤان مرتشقان على أعلى النخلة الكبيرة التي كانت تقف بامتشاق وبشكل شاذ أمام القصر. إنها أقدم حتى من القصر ذاته، يقول الأولون. حتى القصر سيجها وحولها إلى تحفة وطنية. شيد بجانبها مقبرة لعظماء الأسرة الحاكمة التي استلمت البلاد منذ الحاكم الرابع والثالث في رواية أقل دقة. كانت الألوان قد بدأت تتداخل في عينيه، وبدأ ينشب أظافره في التربة، ويصر على أسنانه بقوة، ولكن بجلَدٍ كبير. غني يا ماريوشا، البشير حبيبي. آخر الأناشيد الحزينة. آخر البحار التي حافظت على عنفوانها ولم تخن أملاحها. سموه العاشق الأندلسي، وسمته ماريانة التي تملأ قلبه الآن عاشقها الأوحد. هو الآن لا يسمعني لكنه في قلبي. لا يرى أمامه إلا محاكم التفتيش وعذابات حمود الإشبيلي، وصفائح النار. انشدي معي يا ماريوشا. انشدي معي. وارتفع صوته صافياً من جديد، متجاوزاً حالة الألم. قال: هذا النشيد الأخير يغنيه المرء واقفاً. مد يده. مدت ماريوشا يدها. قام. انكفأ على ذراعيها من جديد وبدأ يغني.

*جئنا من بعيد. جئنا من بعيد.*

*الدم في الطريق والليل والعبيد،*

*جئنا. الورود في أيدينا أذبلوها.*

*والأحصنة قتلوها.*

*جئنا من بعيد. جئنا من بعيد.*

*قوّالون في قلوبنا الحقيقة.*

*هللويا! هللويا! هللويا!.*

وقبل أن يغمض عينيه مرة أخرى رأى وريقات كتاب الأمة



Twitter: @ketab_n

تتبعثر في السماء مليئة بالبيانات المتناقضة التي أعدها الحكام السابقون واللاّحقون والفرمانات وأوراق الصحف القديمة والجديدة، التي رآها قبل أن يدخل القصر ولم يقرأها لم يبذل حتى أدنى مجهود. كان يعرفها من أختامها وأشكالها.

كان يدرك مسبقاً أن كل الهزائم في المدينة قد حُولت إلى انتصارات وكل الانتصارات كانت مغتصبة، وكل اغتصاب حول إلى بركة، وكل بركة في المدينة هي الموت عينه، وكل موت من أجل الحياة هو إجرام وتعدي على راحة المدينة وخيانة، وكل خيانة هي بطولة. هو يعرف جيداً أنه لو بدأ يتسلى لن يتوقف أبداً. السلسلة لا تنتهي أبداً، والبحر سيظل قاعاً فارغاً، وكومة أملاح لا معنى لها، وستظل الألوان قاتمة. لو تسلّى، لكن الزمن قصير، وبدأ يصغر أكثر مما كان يتصور. نزع البشير لباسه الصوفي وفرشه فوق زربية السيد علي. جلست ماريوشا التي بانت على وجهها رعدة البرد. تمدد المجدوب بكامل طوله واضعاً رأسه على إحدى ركبيتها. وضع يده في يدها. اكتشف البشير فجأة أن ماريانة (ماريوشا) كانت تلبس بياضاً، وهي ذي الآن تشهد موت حمود الإشبيلي. جلس بقربه. الناس كانوا مندهشين. كل ما كان يحدث لم يكونوا يعرفون له لا بداية ولا نهاية. مسد على رأس المجدوب. تأمل تقاطيع وجهه وملامحه، ثم بدأ ينشد أحزانه، راجعاً إلى أعماق ماريانة الصافية. ليس نشيد الموت يا صاحبي، إنها الفرحة الأبدية. كان بياض ماريانة (ماريوشا) قد أدخله في أشواقها الأندلسية.

*«السلام عليك يا مائدة حية حوت خبز الحياة.*

*السلام عليك أيتها السيدة ينبوع الماء الحي الذي لا ينضب.*

*البرايا بأسرها قد ذهلت من مجدك الإلهي.*

*حبلت بالإله السائد على الجميع،*

*وولدت ابنا لا يحده زمن يمنح الخلاص لجميع محبيك».*



Twitter: @ketab_n

‹Exeti to simbada epi ti thiadhox isou.
Si ghar. Apiroghame parthene, eskhes
Enmitra ton epi pandon theon, ke
Tetokas akhronon Iyon, passitis imnoucice
Sotiriann vraveronda.

هي ذي الأودية الخامسة أنشدها على شرفك. بيني وبين النشيد زمن يا ابن أمي. علمتني وانكسرت في هذي المدينة قبلي. مسد على رأسه. لم يفتح المجذوب عينيه، ولكنه شعر بيد ماريوشا ساخنة في كفه. تمتم في أعماقه، ثم بصوت مسموع: آه لو تعرفي يا ماريوشا كم تساوي الحياة حين يموت الإنسان في حجر امرأة يعبدها ويعرف أنها ليست له. أنت خلقت للبشير. للمدينة كلها. كان يمكن أن أموت قبل أن أراك. أعطي الحياة كلها مقابل أن أتوسد قلبك. وفي المساءات الباردة، في ذلك الزمن السعيد، عندما تعودين إلى بيتك، تتدثرين، تبسيطن رجليك. يجيئك ابنك الذي قد يأتيك بعد سنوات أو بعد جيل من الزمن القادم ويقول، ماما أريد أن أنام بجانبك، يضع رأسه على ركبتك هذه. فجأة تبرق في عينيه قصة المجذوب الذي أحب المدينة حتى كاد أن يفعلها مثل نيرون. قولي له الفارق الوحيد بينهما: نيرون كان طاغية، والمجذوب لم يكن يملك إلا قلبه ونشيد البشير الموريسكي. احك له عن كل شيء، حتى عن لحظات الحزن التي تمر ثقيلة مثل برد الشتاءات القارصة، فالدنيا يا ماريوشا لا قيمة لها بدون ابتسامتك، وابتسامتك ليست هينة، وسط مدينة لا تورث إلا المزيد من الكآبة. احك لابنك عن المجنون وهو يروي قصص الأولين، وكيف ترتشق عيناه في التربة أو في السماء ويبدأ يتمرغ كالذبيح عندما تغيب عنه التفاصيل لأنه لا يعرف الكذب. قولي له أن البشير كان حقيقة ولم يكن مجرد قوال قادته الأنواء أو ضربة شمس إلى الكهف. ولا تخبئي عنه خراب المدينة. عليه أن يعرف فجيعتها الكبرى حتى يعذرنا على موتنا. تهلّاي في البشير. إنه حزين، ولا يعرف أني المجذوب. فقد سرقوا منه ذاكرته، وحين


Twitter: @ketab_n

يتذكرني يكون الزمن قد مضى، لأن الساعه تكون قد قفزت إلى توقيت آخر لا أنا أعرف ملامحه ولا هو يستطيع أن يسيّره.

إنها الحقيقة... إنها الحقيقة... إنها الحقيقة يا ماريوشا. شد على يدها من جديد وبقوة أكبر. شدته إلى صدرها كالطفل الصغير. شخر بحزن. هدهدته قليلاً. آه يا عمي المجدوب ما أروعك! ما أروع موتك. ما أروع التربة التي احتضنت حنينك. البشير لا يرى الآن إلا الأندلس، لا يراني ولا يراك ولكنه يرى حمود الإشبيلي، وماريانة. أنا ماريوشا يا عمي عبد الرحمن المجدوب، التي عشقتكم، وعشقت مدائن الموت التي تلد الحياة. أنا ماريوشا التي تحفظ كل شيء ولا تنسى صورة النينوي وهو يبتسم وسط حرائق الصنوبر المقدس. ولا تنسى الحزن الشنيع الذي كان يملأ عينيك وأنت تعرف سر تسممك. أنا ماريوشا التي ما تزال أصوات السطل الألماني، ومطارق الموت التي كانت تنزل على رأس البشير تملأ دماغها. لكن الشهقة الأخيرة أوقفتها. فجأة شعرت بيده الساخنة تبرد شيئاً فشيئاً، وتنزلق بهدوء من كفها.

تلمسته. كان قد صار يابساً مثل قطعة ثلج باردة. لم تقل شيئاً، ولكنها دفنت رأسها في صدره وتركت دمعاتها تسقط بغزارة. ضمها البشير وبدأ الناس يضيقون الدائرة ويتمتمون. لقد مات. كان نبياً الله يرحمه. كان قوالاً. كان ابن المدينة. كان شارعها وامتدادها الذي لا ينتهي. في المساء، كان المطر ما يزال يتساقط، وضع البشير يده في يدي ـ تقول ماريوشا ـ وسرنا باتجاه المقبرة. رائحة الأدخنة التي كانت تلاحظ هنا وهناك لم تُزل أبداً وتحرق أعماق الأنوف. كانت مقبرة الشهداء كبيرة وواسعة. صُليت الصلوات في المساجد وحُركت نواقيس الكاتدرائيات الثقيلة في المدينة، وكُنست الشوارع من القصاصات والجرائد اليومية والصحف القديمة. حتى الشيخ الزبال الذي كان ينظف الطريق المنحدر والمؤدي إلى البحر ضرب إحدى الصحف برأس حذائه. انفتحت على الصفحة الأولى مبرزة صورة الماريشال الجديد قمر الزمان،


Twitter: @ketab_n

جليل القدر، وهو يبتسم للأمة، وفي إطار آخر مجلل بالسواد صورة التابوت الذي وضع فيه والده وصورة المستطيل الذي كتب فيه الاسم ويوم الاستشهاد والسبب. الله يلعنها سلعة. ذئاب. رفسها برجله ثم واصل تنظيفه ولم يأخذها. هكذا أنتم دائماً. تتأكلون في السر والعلن وبعدها تلبسون الأقنعة وكأن شيئاً لم يكن. ماذا يبقى منكم ومن صحفكم. لا شيء أبداً والدليل الآن تحت أقدامي. كان قبل زمن قصير كل من يخطط في جريدة على وجه الحكيم بقلمه، حتى في لحظة سهو، يتهم بالقذف، وبعدها بالمساس بأمن الدولة، وبعدها تنظيم عصابة من الأشرار لاغتيال الملك. وفجأة يغيب ذلك الإنسان وسط الظلمة، وبعد زمن لا نسمع به، وبعدها نُدفع إلى نسيانه. ضغط الشيخ أكثر على وجه الماريشال، ببوطه، حتى ترك علاماته مرسومة على وجهه، ثم واصل تدحرجة بكروسة التنظيفات الصغيرة، نازلاً باتجاه البحر الذي كانت أمواجه تتكسر بقوة وعنف على صخور الشاطئ الروماني القديم وعلى الحائط المتآكل.

سرنا بعد الجنازة في جمع غفير، كنت ما أزال أحتفظ بيد البشير، يتبعنا الكلب قطمير صديق المجدوب، والوحيد الذي كان يفهم أحزانه. كان الجميع يتجه باتجاه البحر، لأن مكان التجمع كان معيناً هناك. لست أدري ما الذي كان يفرحني، كنت حزينة لأني كنت ماريانة في عين البشير، بعيوني ولباسي، وحركاتي، وكلماتي وأناشيدي، وكنت فرحة جداً، لأني أقف الآن أما تاريخ الأحزان بكاملها. من حين لآخر أتأمل تقاطيعه وهو ساهٍ في تأمل أفقٍ غير محدد، فيبدو لي إنساناً عادياً كجميع الخلق. قسماته رائعة، خصلات الشعر البيضاء زادته وقاراً وروعة. خصوصاً بعدما هذب لحيته أحد عمال البحر بعد الجنازة الكبيرة، وهو يقول له ها. ها. شفت يا عمي البشير لقد استعدنا كل شيء، كل شيء، حتى قلوب الناس اليائسة. ضحك. كان لا يعرف قصة البشير جيداً. لم يكن يعرف أن أية حركة كان يقوم بها العامل كان لها ما يوازيها في غرناطة في أعماق البشير، آخر الموريسكيين الذين قاوموا الابتذال. التاريخ



Twitter: @ketab_n

الذي أعطى إلى محمد الصغير مهلة كان يجب أن يتوقف في هذا اليوم.

الألوان كانت تُقرأ في عينيه بالرغم من تداخلها. لكن صفاء الحزن الذي كان يملأ وجهه كان مدهشاً وغريباً. لم يطلق يدي سوى في الفترات التي كنت أساعد فيها عمي عبد الرحمن المجدوب وهو يئن من تعب السم والموت، أو في اللحظة التي شدوت فيها حنينه الأليف جداً. سأظل مع البشير الموريسكي حتى يموت أو أموت، أو نموت، ونستيقظ يوماً لنروي للناس ما سمعوا به ولم يروه. من يدري، ربما كان في القصة شيء آخر وسر لا نعرفه إلا عندما نعود ثانية إلى هذه المدينة المستعادة.

الذي حدث في البحر، في التجمع العام، كانت دهشته تتجاوز سحر البحر ذاته. فقد كشف العمال والعلماء الستار عن أضخم تمثال في المدينة، سبحان الله، تقاطيع البشير كانت واضحة، لا فرق بينها وبين الحقيقة، في حركة مذهلة وهو يحاول أن يجمع البحر بكامله ويستنشقه دفعة واحدة، نظرة موزعة بين موج البحر والمدينة التي تزحف عشقاً وراءه بطيورها ونوارسها، وأعشاشها، وأشواقها، وشوارعها الضيقة والواسعة. قال لي: ماريانة يا جرح القلب وحنين المارية، وشعلة القوالين! ماريانة متعب حتى القلب. أريد أن أنام. الغفوة بدأت تأخذني والألوان تتداخل في عيني. ابحثي لي عن مكان قريب في البحر. أريد أن أتأمله قليلاً قبل أن أنام. أن أقرأ التفاصيل بين حنين أمواجه الهاربة من مجهول لا تلمسه. حنين الخوف من التكسر والتبعثر على صخور هذه الشطوط المنسية. ماريانة! ومتعب. متعب، والقلب صار منتفخاً كالحزن.

ـ يا سيدي. الدنيا كلها تحت قدميك.

امتقع لونه فجأة، كأني وخزته بسكين في قلبه.

ـ أبعد كل هذا العمر مازلت تقولين سيدي!؟

حمل حفنة من الرمل، تأملها طويلاً، ثم وضعها في جيبه. إنها



Twitter: @ketab_n

ما تبقى عن الحنين الذي مضى. حنين البلدان والقرى والمدن والنساء التي عشقناها بحب طفولي عجيب. إنها بقايا الزمن الذي تسرب بين الفجوات، مثل نسيم فجري مليء بالياسمين الإشبيلي. ليس مهماً أن محمد الصغير غاب عن هذه المدينة لأنه كان يجب أن يغيب، لأن عصره أغلق كتابه وكسر أقلام التدوين وحرفة الوراقة. المهم أن النيران التي اشتعلت في قلوبنا كانت كبيرة. نحن كذلك سنغيب ونتبدد، لكننا نتبدّد بمعنى. ليست بلادنا يا ماريانة ولكننا أحببناها وبنيناها. سنروي الرواية بكل صدق حتى لو قيل عنا أننا كفرة وملحدون. دخلناها بالسيف والسفن ثم نسينا الدم وبدأنا ننشد الأناشيد التي أنشأناها معهم. لو خيرت، ربما لو خيرت لوقفت على الساحل وشدوت حتى يجف حلقي وأقول اعذروني تلك البلاد لم تكن لي. كنت عصيت طارق بن زياد. من قال لهم أدخلوا تلك البلاد، فهي عاجزة عن الدفاع عن نفسها؟! من قال لهم عندما تصلون، ستجدون الأبواب مشرعة عن آخرها؟ من قال أن البحر لم يكن قوطياً؟ ومن قال لهم أرمونا داخل البحر وعودوا إلى قصوركم؟ كان يمكن أن أقف على الهضبة وأتأمل طارق وهو يُحرَق في سفنه، طارق فتحها وبعدها رموه كقشرة ليمون. كان المسكين جسراً، لو يعود ثانية ويعلم الذي حدث سينتف ما تبقى من شعره ويصرخ صرخته المليئة بالألم. يا عباد الله! رائحة الخيانة أمامكم والقبور وراءكم... سيتكلم كثيراً قبل أن يتحول إلى خيط من نور ويعود إلى القيامة مليئاً بالاحتجاجات، في يده سيفه وحصانه ومشاعل من الزيت والنار، ويقسم أمام الله أنه لن يدخل الجنة. لن يدخل في حضرتها إلا إذا بينّ الله موقفه مما يقع. نريد بالله أن نعرف مع من تقف؟! مع الذين كانوا يركضون ويموتون ويجرون وراء خيط من النور، أم مع الذين حاولوا شرب البحر وتحويل الدنيا إلى قعر مظلم لا نور فيه. علينا أن نختار ولا يمكن أن نرضي كل الوجوه. فالحديد سيعلوه الصدأ والنور يولد النور والموت برجولة يتطلب إخراج البحة التي تملأ الصدر والصراخ بأعلى صوت ممكن: لقد



Twitter: @ketab_n

نسيتنا يا الله! أين كنت عندما كانت القشتالية تطفئ العيون وتبقر البطون! والمدينة الطيبة يحاصرها سيل من الظلام. أين كنت حين كانت الأنجم تتسابق للسقوط من السماء باتجاه البحيرات الراكدة والبحور التي جف ماؤها؟ في قلبي الآن ينشأ نور سيدي الذي صبر لداء الحجارة وتمزقاتها وآذته وردة الشبلي. تمنى الحلاج أن يغمض عينيه للمرة الأخيرة، لكن الوردة فتحت جرحه من جديد. لم يعد يعرف ما إذا كان الشبلي معه أو ضده. لقد اختلط كل شيء يا ماريانة في هذا الزمن الذي لم يعد يواكب شوقه، ونسي بداوته الأولى. لقد تأوّه حتى خرج الدم من قلبه يا ماريانة.

آه يا ماريانة، ما أضعف رهافة هذه الدنيا، وما أقل الفرح. في القلعة ارتاح قليلاً. حاول أن ينام، لكن النوم استعصى عليه بالرغم من الاغفاءات المتكررة التي تضاعفت بشكل مدهش.

كان العلماء السبعة منهمكين بحيث أن اهتماماتهم تجاوزت قدراتهم والزمن الموجود بين أيديهم. يكتبون، يرسمون المخططات، وينظمون الرماد الموجود في جلود الماعز في زجاجات مغلقة ويسجلون عليها أسماء الشهداء، ويكتبون آخر السطور في قصة هذه المدينة في كتاب العلماء «كتاب المدينة». عندما غسل وجهه وحاول أن يطرد الإغفاءة المستحيلة، طلب منه العلماء أن يكتب كلمته الخالدة في «كتاب المدينة» عن «أيام الشدة العظمى» المتعلقة بوضع الناس في فترة حكم شهريار بن المقتدر، وكيف يتصور المستقبل. حمل القلم بين أنامله. تأمله جيداً. حاول أن يتذكر الشعلة، وقصص الناس، والأسواق الشعبية لكن «أيام الشدة العظمى» لم تأت. شعر برأسه فارغاً، مليئاً بالرياح الساخنة وأصداء محاكم التفتيش التي لا ترحم. ماذا أكتب يا الله؟! تأمل المدينة من أعلى القلعة. تأمل البحر الذي كان ينحت الصخور في رتابة دائمة. رأى العمال وهم منهمكون في إفراغ وشحن السفن الراسية، التي أعطيت لها الإشارة بالاقتراب. كانت موسيقى الفونفار قد هدأت، وبعض الأدخنة



Twitter: @ketab_n

تتصاعد هنا وهناك في اعوجاج. ماذا أكتب يا الله!؟ الدنيا أكبر من الحروف. رأسي مملوء بالرياح العاصفة والأشكال الهلامية التي لا ملامح لها. ماذا أقول؟! لا شيء، ماذا أرى في الأفق. أشياء كثيرة، ألوانها أحياناً قزحية وفي أحيان أخرى تنسحب هذه الألوان مخلفة وراءها حيطاً أسود مليئاً بالأدخنة، وندوب في السماء تتقاطر دماً. أعوذ بالله من هذا الخراب. هل هناك «شدة عظمى» أكثر من شدة محمد الصغير؟!

تساءل كثيراً لكن الفراغ ظل يحتل ذاكرته. وضع القلم على «كتاب المدينة» وهزّ رأسه، ثم قال: متعب. لا أعلم ماذا أكتب. أعذروني فألوان قوس قزح غير واضحة. ثم عاد ليقف من جديد ليتأمل سحر البحر. وفجأة رأى مريرة صغيرة، تذكر أنه قطعها ذات زمن. هللويا... هللويا...

*«السلام عليك يا عروس الله...*

*السلام عليك يا مسكن الله،*

*السلام عليك يا مظلة الله».*

ـ هذا هو الطريق الذي أبحث عنه، طريق راحتي.

وبدأ يقفز في مكانه كالمجنون. أريد أن أسافر. أن أقطع فراغ هذا الجحيم. ثم مد يده إليّ وقال تعالي يا ماريانة، لقد عرفت الطريق. رأيته من هنا. لم تسجل أية علامة دهشة بالنسبة للعلماء، وكأنهم كانوا يعرفون كل شيء. خرجنا. كان يجرجرني من يدي وكنت متعبة. عيونه مرتشقة في فراغ بعيد. رآه الكثير من الناس وهو يقطع الصخور والممرات الضيقة. بعضهم بكى حزناً وتألم. يا الله كيف تُقتل العبقرية في هذه البلاد. كيف تشل الهمجية عيون النور. في الطريق سألت عن الراعي، لأني شعرت من خلال حركات البشير كأنه يبحث عنه. حكى لي بعضهم، تقول ماريوشا، أنه لا وجود لراعي، فهو العالم السابع نفسه الذي فتح رأس الشرطي في



Twitter: @ketab_n

الحلقة في سوق المدينة، ولكنه كان متنكراً، ويقال أنه تبعثر في أول هجوم على القصر. ابتعدنا عن المدينة، وكان يقطع الطرقات بالرغم من الوحل والأمطار الخفيفة، كأنه كان يعرف تفاصيل الطريق. بدأت أعرف كلامه السابق. أريد أن أرتاح. متعب. عندما وصل إلى الكهف نزع برنوسه الذي وضعه على ظهره العلماء ولفني فيه مثل الدمية. بدا لي شامخاً كنخلة القصر الشاذة. فتح يديه في شكل صليب ثم طوقني. بدوت بين ذراعيه كالدمية الصغيرة. لست أدري هل هو الذي انحنى أم أنا التي صعدت إلى وجهه. غرقنا في قبلة طويلة حتى أيقظتنا طيور النورس القادمة من البحر. تمنيت أن أظل طويلاً مرتشقة في صدره، أن أدخل معه إلى الكهف، أن أتعرى مثلما خلقتني أمي وأنام معه حتى الذوبان. أن أقبله في كامل جسده بدون حدود، وأضع حلمة النهد في فمه، وأرضعه كالطفل الصغير، وأترك مذاق العسل الأبدي في أعماق حلقه، وأن أكون ماريوشا أو ماريانة لا يهمّ. لكنه ردّني بهدوء، مسد على رأسي، أعطاني عصاه. مسد على رأس الكلب الأمير قطمير الذي ظل يرافقني طوال الفترات التي أعقبت موت عمي عبد الرحمن المجدوب. قال لي، انتظري هنا. سأنام قليلاً فأنا متعب حتى القلب يا ماريانة.

الذين رووا في الكتب القديمة عن عودته إلى الكهف لم يكونوا مخطئين أبداً. فبالرغم من إلحاحات علماء المدينة وعمال البحر بضرورة الاستراحة عندهم إلا أنه أصر على مكان لم يتذكره إلا عندما وقف في النافذة المطلة على بحر المدينة. عندما جاؤوا وجدوني هناك عند المدخل جالسة. تسللوا إلى الداخل، فلم أسمع إلا أصوات العلماء والعمال وهي تتقاطع في نقاش كثيراً ما ازدادت حدتُه. أخذوا تربة بيضاء ووضعوها في بوقال زجاجي كبير وكتبوا عليه هنا ينام الشهيد، شهيد المدينة التي استعادت وجهها. البشير الموريسكي، قوال الأسواق الغرناطية وعشيق الغجرية ماريانة. عندما خرجوا سألتهم عنه. قالوا أنه غير موجود. لم يكن


Twitter: @ketab_n

الأمر مهماً، لأنني كنت الوحيدة المتأكدة من رؤيته وهو يدخل وحدثني بأنه متعب ويريد أن يرتاح. كانت النوارس البيضاء تسرق من فمه الأناشيد الموريسكية.

*أرقصي. أرقصي ماريانة.*

*أرقصي على رمل الماية.*

*أرمي يدي في البحر.*

*في البحر مرايا.*

*أعزفي وأغرقي في الرمل،*

*أرقصي ماريانة. أرقصي.*

*هو ذا قلبي. أفتحه ليدخل الموج والبحر.*

قلت للعمال والعلماء: هو ذا ينشد. إني أسمع صوته الآتي من بعيد بكل أشواقه وأحزانه. هزوا رؤوسهم وأكدوا لي أنهم لم يسمعوا شيئاً. قالوا لي: اتبعينا ماريوشا. أكدت لهم بأني سأبقى في مكاني حتى الصباح. كان الأمير قطمير كما سماه سيدي عبد الرحمن المجدوب والبشير، على رواية حسن البصري عن كلب أهل الكهف، يرفرف بعيون حزينة. يبدو أنه كان أكثرنا معرفة بالحقيقة.

طوال الليل لم أتذكر إلا كلمته بعدها انغلق مخه وصعب عليه فك الألوان وتذكر أحداث «أيام الشدة الكبرى». قال «متعب لا أعلم ماذا أكتب، فألوان قوس قزح غير واضحة!؟».



Twitter: @ketab_n

# 17

كان الدق خفيفاً، لكن البرد الخريفي بأتربته وأوراقه الميتة، كان مزعجاً. عندما فتح الباب أشرقت بابتسامتها المعتادة التي تحمل دهشة الطفولة. النوم كان ما يزال يتدحرج في عينيها. عندما رأتني فتحت يديها بشكل صليب، ثم قالت: تعال! واسيني. يا واسيني.

ضحكتْ. لها ضحكتها، حتى في أصعب اللحظات وأقساها.

- واسيني! لماذا خرجت اليوم. حالة الحصار أُعلنت ابتداءً من هذ الصباح!؟

- عندي دعوة من الأمن. أنا ذاهب إلى محاكم التفتيش المقدسة يا ماريوشا. لقد طالبوا بحرق رواية «فاجعة الليلة السابعة بعد الألف» ومصادرتها. ها هي ذي نسخة موجودة عندي وضعتها داخل كيس بلاستيكي وأغلقتها بإحكام. خذيها وارميها في البحر واتركيها هناك. ربما وجدها شخص طيب سيعرف كم كنا غرباء في هذه المدينة، وسيعرف كيف كنا نعيش في عصر الانحطاط الثاني الذي بدأ يزحف نحو التعميم وتسطيح الملامح الرائعة.

- إذن قرأت كل الشتائم التي كتبت في الصحافة. سبحان الله! أنت لم ترو إلّا الحقيقة.

- يريدونِ كتّاباً للدواوين والوراقين. في قلبي يا ماريوشا عذابات البشير ونشيده، وجنون سيدي عبد الرحمن المجدوب، وصدقك الذي لا يضاهى.



Twitter: @ketab_n

ـ أدخل اشرب قهوة.

ـ لا! ما نقدرش. جبت لك نسخة من دعوة الأمن احتفظي بها. من يدري؟! ربما رموني في سراديب الحكيم شهريار أو سيد الدنيا.

ـ ما نخرجش من البيت. سأنتظر عودتك. قلبي يعذبني وصمت العائدين يحزنني. البشير والمجدوب، نجوم المدن المسرقة.

ـ سأمر عليك، إذا عدت؟!

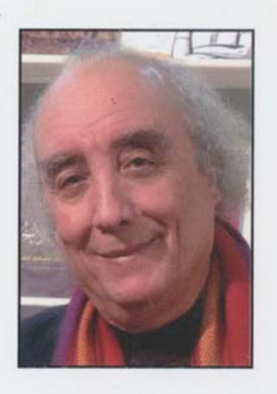
عندما أرادت أن تغلق الباب للمرة الأخيرة سألتني إذا كنت أريد أن أقول شيئاً. لا يا ماريوشا ليس لي ما أقوله. الظلام هذا الصباح نزل باكراً. اندفنت داخل شوارع العاصمة التي فقدت الكثير من أنوثتها ونورها. كانت مدينتنا وكانت لنا. مدينة تسحب بحراً. وبحر ينام حزيناً عند أقدام المدينة. من كان في ذلك الزمن يتجرأ أن يسأل الله عن الجمال، حين تصير المدينة امرأة، وتصير المرأة خمراً، والخمر إيماناً.

لقد خسرت روحها وتحولت إلى خراب ملفوف في بياض حليبي معكر بألوان الرصاص الذي يشبه الموت. كانت الشاحنات العسكرية تحتل كل الزوايا المظلمة. من حين لآخر تُسمع بعض الصراخات المكتومة، ورشقات متكررة من الرصاص، أو هدير البحر الذي لم يكن يأتي من البحر ولكنه كان يأتي من منحدرات وأزقة المدينة الشعبية.



Twitter: @ketab_n

*Twitter: @ketab_n*






«كانت بعض الانفجارات تُسمع هنا وهناك، قريبة من حيطان القصر الخارجية. إنهم يطاردون كلّ الفلول التي تسرّبت باتجاه المدينة الملكية التي تنتهي كلُّ طرقاتها السبعة باتجاهِ بواباتِ القصر، مُشكلةً نجمةً سباعية. الأمور محسوبة بدقة متناهية. أبناء الكلاب طمعهم كبير ويكبر مع الأيام. قضى والدي أكثر من عشرِ سنوات وهو يعلمني تقاليدَ المُلك والحكم، قال لي : ستفرض احترام شعبكَ لكَ، ولكنه لمْ يقلْ لي أبداً أن ذلك كلّه يمكن أن ينتهي في لحظةٍ من اللحظات. يمكن أن يُخرجكَ شعبكَ إلى الساحات ويُلبسكَ جِلدَ حمار عجوز، ويقولُ لكَ: أركضْ في الشوارع يادابةَ الموت».

واسيني الأعرج. مواليد 1954، بتلمسان. جامعي وروائي. يشغل اليوم منصب أستاذ كرسي بجامعتي الجزائر المركزية والسوربون بباريس. ويعتبر أحد أهم الأصوات الروائية في الوطن العربي.

على خلاف الجيل التأسيسي الذي سبقه، تنتمي أعمال واسيني، الذي يكتب باللغتين العربية والفرنسية، إلى المدرسة الجديدة التي لاتستقر على شكل واحد بل تبحث دائماً عن سبلها التعبيرية بالعمل الجاد على اللغة وهز يقينياتها. فاللغة ليست معطى جاهزاً ولكنها بحث دائم ومستمر.

* في العام 1997 اختيرت روايته حارسة الظلال (دون كيشوت في الجزائر) ضمن أفضل خمس روايات جزائرية صدرت بفرنسا.

* تحصل في العام 2001 على جائزة الرواية الجزائرية.

* اختير في العام 2005 كواحد من ستة روائيين عالميين لكتابة التاريخ العربي الحديث، في إطار جائزة قطر العالمية للرواية.

* تُرجمت أعماله إلى العديد من اللغات الأجنبية من بينها: الفرنسية، الألمانية، الإيطالية، السويدية، الإنجليزية والإسبانية.


9 789933 484040